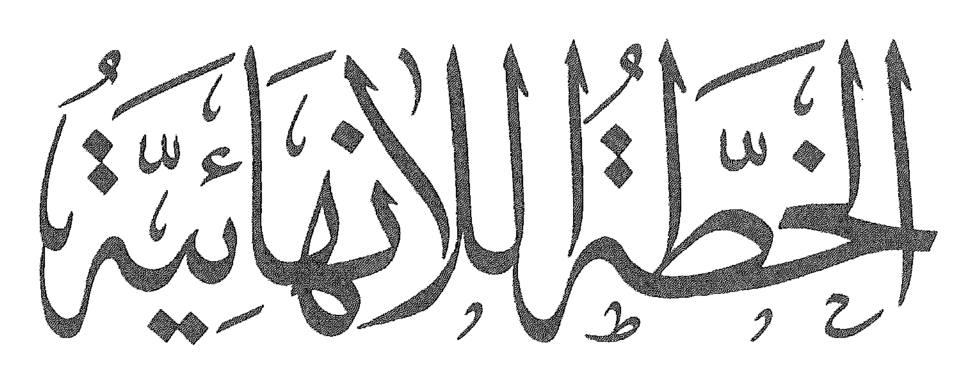
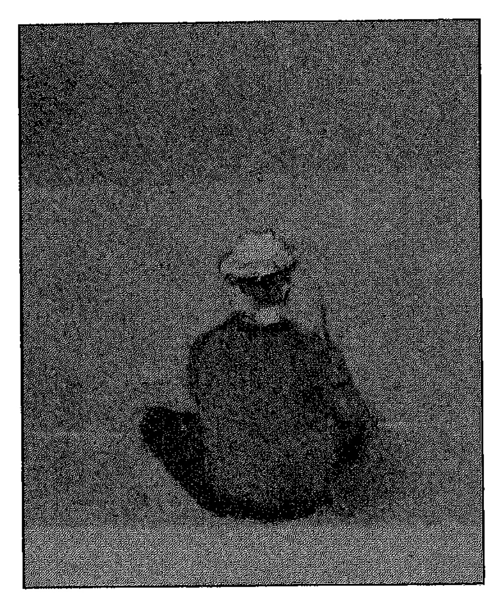
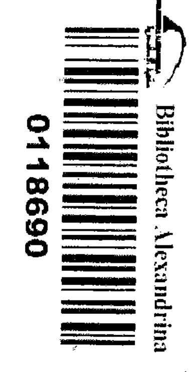
إيزابيل ألليندي




رواية

ترجمة: رفعت عطفة










# الخطّة اللانهائيّة

* إيزابيل ألليندي
* الخطة اللانهائية
* ترجمة رفعت عطفة

* الطبعة الأولى 1997
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053 ـ ص. ب : 9436
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ـ ص. ب : 9436
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

إيزابيل ألليندي

# الخطة اللانهائية

رواية

ترجمة رفعت عطفه

*إلى رفيقي وليم ث. غوردون والآخرين الذين باحوا لي بأسرار حياتهم. وإلى والدتي أيضاً، لحنانها اللامشروط والقلم الأحمر الذي ساعدتني به على تنقيح هذه القصّة.*

*إيزابيل ألليندي*

*شكراً للحياة، التي منحتني الكثير، منحتني البسمة والنحيب.*

*بيولِتا بارّا، تسشيلي.*

إنني وحيد على القمّة في الفجر. في الضباب الحليبيّ أرى أجسادَ أصدقائي عندَ قدميّ، بعضهم تدحرج في المنحدرات، مثل دمى حمراء مفكّكة الأطراف، وآخرون ليسوا أكثر من تماثيل فاجاتها أبديَّة الموت. أطياف حذرة تتسلّق باتجاهي. صمت. أنتظرُ. إنّهم يقتربون. فأطلق النارَ على هذه الظلال الداكنة في المنامات السوداء، أشباح بلا وجوه، أشعر بالرشّاش يرتدّ، التوتّر يحرق يديّ، تعبر الهواء خطوط من نارٍ متوهّجة، لكن لا صوت. شُقّ المهاجمون، تخترقهم الطلقات دون أن توقفهم، يتابعون تقدّمهم لا ينثنون، يحاصرونني... صمت...

يوقظني صوتي وأستمرّ بالصراخ، أستمرّ بالصراخ.

غريغوري ريفز

# القسم الأوَّل

كانوا يسيرون في طُرُقِ الغرب على مهل، دونما اتجاهٍ إجباريّ، يبدِّلونها بحسب مزاجِ اللحظة، وبحسب ما يُنْذِرُ به سربٌ من الطيور، أو إغراءاتُ اسمٍ ما مجهول. كان آلُ ريفزْ يقطعون ترحالَهُم الهائم حيث يباغتهم التعبُ أو يجدون من هو على استعدادٍ لشراء بضاعتهم غير الملموسة. كانوا يبيعونَ الأملَ. هكذا جابوا الصحراء بهذا الاتجاه وذاك، اجتازوا الجبالَ حتى رأوا النهارَ يبزغ يوماً على شاطئ المحيط الهادي. بعدَ أربعين عاماً وصفَ لي غريغوري ريفز، خلالَ اعتراف طويلٍ استعرضَ فيه حياته واستخلص منها ما أخطأ فيها وأصاب، أقْدَمَ ذكرياته: طفلٌ في الرابعة من عمره، هو نفسه، يبولُ فوق تل عندَ الغروب، والأفق يصبغه أحمرُ وكهرمانُ خيوطِ الشمس الأخيرة، خلفه قمم الهضاب، تحته يمتدُّ سهلٌ فسيح يضيعُ فيه بصرُهُ. يتقطَّرُ السائل الحارّ كشيءٍ جوهريٍّ من روحه وجسده، كلُّ قطرةٍ تغوصُ في التراب تدمغُ الأرض بتوقيعها. تطولُ المتعةُ، يلعبُ بالدفقِ، راسماً دائرةَ ياقوتٍ أصفرَ على التراب، يحسُّ بسلام المساء الخالص، تثيره فساحةُ العالم شعورٌ بالحيويَّة، لأنَّه كان جزءاً من هذا المشهدِ النقيِّ والكامل من العجائب، عالم لا محدود ينتظرُ السبر. كل شيءٍ على ما يرام، فهذه هي المرَّة الأولى التي يعي فيها السعادة: اللحظة التي لن ينساها أبداً. مرَّاتٍ عدَّة شعر غريغوري ريفز بهذا الانبهار أمامَ مفاجآت العالم، هذا الإحساس بالانتماء إلى مكانٍ مفتوحٍ على الاحتمالات، كلُّ الأشياء فيه، بدءاً من أسماها وانتهاءً بأفظعها، يملكُ أسبابَ وجوده، حيثُ لا شيء يحدثُ عبثاً، لا شيء غير ذي جدوى، كما كان يعلن والدُه وهو يتَّقِدُ حماساً تبشيريَّاً وأفعى تلتفُّ حول قدميه. في كلِّ مرَّةٍ كانت تأتيه هذه الومضةُ من الفهم يتذكَّرُ غروبَ تلكَ الشمس على ذلك التلِّ. شكَّلت طفولته مرحلة طويلة من الاختلاطات وأشباه

الظلال، اللهم إلاَّ إذا استثنينا تلك السنوات التي سافر فيها مع أسرته. كان والده تشارلز ريفز يقودُ القبيلةَ الصغيرة بصرامة وقواعد بيِّنة، الجميع معاً، كلّ واحدٍ يؤدّي واجباته، الثواب وعقابه، أسبابه ونتائجه، عقيدة ترتكز إلى سلّمٍ من القيم لا تتبدّل. كان الأبُ يراقب كعين الله. والأسفار تحدُدُ بختَ آل ريفز، دون أن تؤثّرَ على استقرارهم، لأنَّ الروتين والقواعد كانت دقيقة. تلك كانت المرحلة الوحيدة التي شعر فيها غريغوري بالأمان. فالحنق بدأ فيما بعد عندما اختفى الأب وشرعَ الواقع يتآكل بطريقة لا مجالَ لإصلاحها.

شرع الجنديّ في مسيره صباحاً والبندقيّة على ظهره وعند العصر ندم لأنّه لم يأخذ الباص. انطلق سعيداً يصفر، لكن ومع مرور الساعات بدأت خاصرته تؤلمه وراحت الأغنية تتشابك مع الكلمات البذيئة. كانت تلك إجازته الأولى بعد سنة من الخدمة في المحيط الهادي وهو يعود إلى بيته بندبة في بطنه وطعم سيّئ لهجمة ملاريا، فقيراً كما كان دائماً. يحمل القميص معلّقاً إلى غصنٍ يرتجل به الظلّ، يتعرّقُ فتكتسبُ قدماه بريقَ مرآة داكنة. يفكّر باستغلال كلِّ لحظة خلال هذين الأسبوعين من الحريّة، بقضاء الليل باللعب بالبلياردو مع أصدقائه، الرقص مع الفتيات اللواتي ردَدْنَ على رسائله، النوم ببالٍ مرتاح والاستيقاظ على رائحة القهوة المصفّاة توّاً وفطيرةِ بانكيك أمّه، الصحن الوحيد الشهيّ في مطبخها، فما عداه له رائحة المطّاط المحروق، لكن من كان يهمه مهارة الطبخ عند أجمل امرأة في دائرةٍ قطرها مئة ميل، أسطورة حيّة لها عظامٌ منحوتةٌ طويلة وعينا فهدٍ صفراوان. مضى وقت طويل دون أن يمرَّ مخلوقٌ في تلك الوحشة حين شعر خلفه بحشرجات محرِّكٍ، ولمح في البعيد طيفَ شاحنة هلاميّ وهي تترجرج مثل سراب حيٍّ في النور المنعكس. انتظر اقترابها كي يطلب نقله، لكن ما إن صارت بجانبه حتى غيَّرَ رأيَهُ، خائفاً من ذلك الظهور غير المعهود، خردة بالية مدهونة بألوانٍ صادمة، محمَّلة حتى القمّة بجبلٍ من العفش، يتوِّجُهُ قفصٌ فيه فراريج، وكلب ربط بحبل وعلى السطحِ مكبِّرُ صوتٍ ولافتة يُقرأُ فيها بخطٍّ كبير *الخطّة اللانهائيّة*. تنحّى كي يسمح لها بالمرور، فرآها تتوقَّف على بعد أمتار عنه لتطلَّ من نافذتها امرأة حمراء الشعر كثمرة البندورة تشير إليه بأنّها ستقلّه معها. لم يدرِ ما إذا كان عليه أن يُسَرَّ، اقترب بحذرٍ، متوجِّساً أنَّ قمرة السائق التي ينحشر فيها ثلاثة مسافرين مع طفلين قد لا تتّسع له، ويتطلّبُ تسلّقُ القسم الخلفيّ

براعةَ بهلوان. فُتحَ البابُ ونزل السائق قافزاً إلى الطريق.

ـ تشارلز ريفز ـ قدَّمَ نفسه بتهذيب وثقة بنفسه جليَّة.

ـ بنيديكت... يا سيِّد... كينغ بنيديكت ـ أجاب الشاب وهو يجفِّفُ جبينه.

ـ نمضي محشورين قليلاً، كما ترى، إلاَّ أنَّ ما يتَّسع لخمسة يتسع لستة.

كذلك نزل بقيَّة الركَّاب، ابتعدت امرأة الشعر الأشعث والأحمر باتجاه بعض الشجيرات تتبعها طفلة تقاربُ السادسةَ من عمرها، راحت تنزل سروالها الداخلي تداركاً للوقت ، بينما الطفلُ الصغيرُ يدلعُ لسانه للرجل الغريب، لائذاً خلف المسافرة الأخرى. فكَّ تشارلز ريفز سلّماً من جانب الشاحنة بخفَّةٍ، أطلق الكلبَ الذي هبطَ بقفزةِ الخائفِ وراح يحوم حول الشجيرات القزمة ويشمشمها.

ـ الطفلان يحبَّان السفر في الصندوق ، لكنَّه خطرٌ عليهما ولا يمكن أن يُتركا وحدهما. ستهتمُّ بهما أنت وأولغا . سنضع *أوليفر* في الأمام كيلا يزعجك، فهو ما زال جرواً، إلاَّ أنَّ له شطارة كلبٍ عجوز ـ قرَّرَ تشارلز ريفز مشيراً إليه بالصعود.

قذفَ الجنديُّ ببندقيَّته فوق أكداس العفش وتسلّق ليمدَّ ذراعيه ويتلقّى الطفل الأصغر الذي رفعه له ريفز فوق رأسه، كان طفلاً هزيلاً، بارزَ الأذنين، له ضحكة أخاذة تملأ وجهه بالأسنان. وحين عادت المرأةُ والطفلة صعدا إلى الخلف أيضاً بينما دخل الآخران القمرة لتنطلق الشاحنة بعد قليل.

ـ أنا أدعى أُولغا وهذان جودي وغريغوري ـ قدَّمت ذات الشعر المحال نفسَها، وهي تفرد تنورتها وتوزِّع التفاح والبسكويت ثمَّ أضافت: لا تجلسْ فوق هذا الصندوق، ففيه أفعى البوا؛ يجب ألاّ نغلق فتحات التهوية.

ما إن عرف غريغوري أنَّ المسافرَ قادم من الحرب حتى أحجم عن دلع لسانه، مستبدلاً إيماءاته الساخرة بسمات الاحترام وراح يسأله عن الطائرات المقاتلة إلى أن غلبه الوسنُ. حاول الجنديُّ الكلامَ مع حمراء الشعر، لكنَّها كانت تردُّ عليه بكلمات أحاديّة مما جعله لا يتجرّأ على الإلحاح؛ فراح يدندنُ أغانٍ من بلدته ناظراً شزراً إلى الصندوق الغامض، إلى أن سرق النوم البقيَّة فوق كومة الأمتعة فاستطاع مراقبتهم على هواه.

كان للطفلين شعرٌ يكادُ يكون أبيض وعيون هي من الشفافيَّة بحيث يبدوان جانبيَّاً أعميين، بينما لون بشرة المرأة زيتونيّ كلون بعض أعراق البحر الأبيض المتوسِّط. كانت الأزرار الأولى للقميص مفكوكة وقطرات من العرق تبلِّلُ النحر وتهبطُ خيطاً بطيئاً في تقويرة ما بين النهدين. رفعت ذراعاً لتسند رأسها فوق أحد الدروج، كاشفةً عن زغب داكن تحت الإبطين وبقعة رطبة على القماش. أشاحَ بعينيه خشيةَ أن تُفَاجِئه فتفسِّرُ فضوله تفسيراً سيِّئاً، وقد كانوا حتى تلك اللحظة لطفاءَ، بل لطفاء جدَّاً معه، فكَّرَ، لكن لا يمكن الثقة أبداً بالبيض. استنتج أنَّ الطفلين ابنا السيِّدين ريفز، على الرغم من أنَّه يستطيع أن يعتقد ببساطة أنَّهما حفيدان لهما ، إذا ما حكم على الأمر من خلال السن. استعرض الحمولةَ واستنتج أنَّ هؤلاء الناس لا يبدلون بيتهم، كما كان قد افترضَ في البداية، بل يسافرون مع مسكنهم الدائم. لاحظ أنَّهم يحملون معهم طبلاً وعدداً من غالونات الماء وغالون وقود، فتساءل كيف يحصلون على البنزين المقنَّنِ بسبب الحرب منذُ زمنٍ طويل. كلُّ شيء كان مرتَّباً بدقَّة، فقد علَّقوا إلى الكلاَّبات والخطَّافات الأواني والمعدَّات المعدنيّة، والحقائب توزَّعت فيها الأشياء بالتساوي، لا شيء متناثر، فكلّ رزمة معلَّمة إضافة إلى عددٍ من صناديق الكتب. سرعان ما استنفده الحرُّ وخضخضة السفر فغفا متكئاً على قفص الفراريج. استيقظ عند الغروب، حين أحسَّ بهم يتوقَّفون. لم يكن لجسد الطفل على ساقيه أيُّ ثقلٍ تقريباً، لكنَّ طول المكوث شنَّجَ عضلاته وشعر بجفافٍ في حنجرته. مرَّت لحظة لم يعرف أين هو، مدَّ يده إلى جيب البنطلون بحثاً عن مطرة الوسكي، شرب جرعة طويلة ليجلو دماغه. كان الغبارُ يُغطِّي المرأةَ والطفلين والعرقُ يحفر خطوطاً على خدودهم وأعناقهم.انحرف تشارلز ريفز عن الطريق فوجدوا أنفسهم تحت مجموعة من الأشجار، الظل الوحيد في هذا القفر. خيَّموا هناك ريثما يبردُ المحرِّك، لكن باستطاعتهم حمله إلى بيته في اليوم التالي، كما وضَّح للجندي الذي صارَ أكثر اطمئناناً وراحت تلك الأسرة الغريبة تقع من نفسه موقعاً حسناً. أنزل ريفز وأولغا بعض الأحمالِ، نصبا خيمتي معسكرٍ باليتين، على حين أنَّ المرأةَ الأخرى التي قدَّمت نفسها على أنَّها نورا ريفز راحت تحضِّرُ الطعامَ على بابور كيروسين بمساعدةِ ابنتها جودي، بينما الطفلُ يبحث عن أغصانٍ للصِّلاء والكلب خلفه يلامس كعبيه.

ـ هل نذهب لصيد الأرنب، يا أبي؟ تضرَّع شادَّاً أباه من بنطلونه.

ـ لا وقت لذلك اليوم، ياغريغ ـ أجابه تشارلز ريفز وهو يخرجُ فرُّوجاً من القفص محطِّماً عنقه بشدَّةٍ واحدة وقويَّة.

ـ الحصول على اللحم صعبٌ، ونحن نحتفظ بالفراريج للمناسبات الخاصّة. ـ وضّحت له نورا وكأنَّها تعتذرُ.

ـ وهل اليوم خاصّ، يا أُمّاه؟ ـ سألت جودي.

ـ بلى، يا بُنَيَّتي، فالسيِّد كينغ بنيديكت ضيفنا.

في المساء كان المعسكرُ جاهزاً والطير يغلي في قدرٍ وكلٌّ واحدٍ يقومُ بواجبه على ضوء مصباح الكربيد وحرارة النار: نورا والطفلان يقومون بالمهمّات المدرسيّة، وتشارلز ريفز يتصفَّحُ نسخةً مستهلكةً من *مجلة الجغرافية الوطنيّة* وأولغا تصنع أطواقاً من حبَّاتٍ ملوَّنة. ـ إنَّها للحظ السعيد ـ أعلمت الضيفَ.

ـ وللاختفاء أيضاً ـ قالت الطفلة.

ـ ماذا؟

ـ إذا اختفيتَ عن النظر تضع واحداً من هذه الأطواق فيستطيع الجميعُ رؤيتَكَ ـ وضّحت جودي.

ـ لا تأخذ بكلامها، إنَّها تصوُّرات أطفال ـ ضحكت نورا ريفز.

ـ هذا صحيح، يا أُمّاه!

ـ لا تعارضي أمّكِ ـ قاطعها تشارلز ريفز بجفاف.

حضّرت المرأتان الطاولة، وهي عبارة عن لوحٍ مغطّى بمفرش، عليه صحون خزفيّة وكؤوس زجاجيّة ومناديل على أحسن ما يرام. بدا ذلك للجنديّ غيرَ عمليٍّ في مخيَّم، ففي بيته ذاته يأكلون في صحونٍ من النحاس الأصفر، لكنَّه أحجم عن التعليق. أخرجَ من كيسه علبةَ لحم وناولها لضيفه باستحياءٍ، فهو لا يريد أن يظهر بمظهر من يدفع ثمنَ عشائه، لكنَّه أيضاً لا يستطيع أن يستغلَّ كرمهم دون أن يساهم بشيء. وضعها تشارلز ريفز وسطَ المائدة، بجانب الفاصولياء والرزّ وصحن الفرّوج. أمسكَ كلٌّ بيد الآخر وباركَ الأبُ الأرضَ التي تلمُّهم ومنَّةَ الغذاء. لم يرَ الضيفُ مشروباتٍ كحوليَّة فلم يجرؤ على إخراج زجاجة الوسكي مفكِّراً بأنَّه ربَّما كان آل ريفز من الممتنعين عن تناولها لأسبابٍ دينيَّة. لفت انتباهَه أنَّ الأبَ لم يذكر في صلاته القصيرة الربَّ. ولاحظ أنَّهم يأكلون بتهذيب، ممسكين الملاعق والشوَك بأطراف أصابعهم دون أن يكون في آدابهم أي صَلَفٍ. نقلوا بعد العشاء الأواني إلى صينيَّة كبيرة فيها ماء ليتمَّ غسلها في اليوم التالي، غطّوا المطبخَ وقدَّموا فضلات الصحون *لأوليفر*. كان الليل قد أطبق والظلمة الدهماء هزمت ضوء المصابيح والأسرةُ التمّت

حول النار، التي تضيءُ وسطَ المخيَّم. تناولت نورا ريفز كتاباً وقرأت بصوتٍ عالٍ قصَّة مصريين متشابكة، بدا أن الطفلين يعرفانها، فقد قاطعها غريغوري:

- لا أُريدُ أن تموتَ عائدة محبوسةً في القبر، يا أمّاه!

- هذه مجرَّد أوبِّرا، يا بُنَيّ.

- لا أُريدُها أن تموت!

- لن تموتَ هذه المرَّة، يا غريغ - قرَّرت أُولغا.

- وكيف تعرفين؟

- رأيتها في الكرة.

- هل أنت واثقة؟

- تمامَ الثقة.

بقيت نورا ريفز تنظر إلى الكتاب بفجائعيَّةٍ، كما لو أنَّ تغييرَ النهاية كان عيباً لا يحتمل.

- وما هذه الكرة؟ - سألَ الجنديّ.

- الكرة الزجاجيَّة التي ترى فيها أُولغا كلَّ ما لا يستطيعُ أحدٌ أن يراه. - وضَّحت جودي بنبرة من يكلِّمُ إنساناً متخلِّفاً.

- ليس كلّ شيء، فقط بعض الأشياء - وضَّحت أُولغا.

- هل تستطيعين رؤيةَ مستقبلي؟ - طلبَ بنيديكت بلهفةٍ جعلت تشارلز ريفز نفسه يرفعُ نظرَهُ عن مجلَّته.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- هل سأعيش حتى نهاية الحرب؟ هل سأعودُ سليماً معافى؟

مضت أُولغا باتجاه الشاحنة لتعودَ بعد قليلٍ بكرةٍ زجاجيَّةٍ وقطعة قماشٍ مخمليّ، مطرَّزة، حائلة اللون وضعتها فوقَ الطاولة. شعر الرجلُ بقشعريرةٍ خرافيَّة، تساءل عما إذا كان قد وقع على طائفة ملعونة، كتلك التي تختطف الأطفالَ، خاصَّة أطفال الزنوج كي تنتزعَ قلوبَهم في صلواتها الشيطانيَّةِ، كما كانت تؤكِّدُ القابلات في بلدته. اقتربت جودي وغريغوري بفضول، بينما عادت نورا وتشارلز ريفز إلى قراءتِهما. أشارت أولغا إلى الجنديِّ أن يجلسَ أمامها، أحاطت الكرة بأصابعها ذات الأظافر سيِّئة الطلاء، أمعنت النظر في الكرة برهةً طويلة، ثمَّ أخذت يدي الزبون وتفحَّصت راحتيهما الصافيتين، اللتين تقطعهما الخطوط الداكنة،

بإمعانٍ شديد.

ـ ستعيش مرَّتين. قالت أخيراً.

ـ كيف مرَّتين؟

ـ لا أدري. فقط أستطيع أن أقولَ إنَّكَ ستعيشُ مرَّتين أو حياتين.

ـ يعني أنَّني لن أموتَ في الحرب.

ـ وإذا متَّ فإنَّك بالتأكيد ستنبعث. ـ قالت جودي.

ـ هل سأموتُ أم لا؟

ـ لا أظنُّ. ـ قالت أُولغا.

ـ شكراً، يا سيِّدة، شكراً جزيلاً... ـ أشرق وجهُه وكأنَّه استلم تعهُّداً قطعيّاً باستمراره في الحياة.

ـ حسناً، حانت ساعةُ النوم، فغداً سنخرج باكراً ـ قطع تشارلز ريفز الحديث.

ساعدت أُولغا الطفلين على ارتداء المنامتين وانسحبت معهما فوراً إلى الخيمة الصغرى، يتبعهم *أُوليفر*. ولم تمضِ إلاّ لحظات حتى أطلَّت نورا ريفز من العتبة حابيةً كي تلقي النظرةَ الأخيرة على ولديها قبل ذهابهما إلى الفراش. سمعَ كينغ بنيديكت، المستلقي بجانب النار أصواتهم:

ـ أُمَّاه، هذا الرجل يخيفني ـ همست جودي.

ـ ولماذا، يا بُنَيَّتي؟

ـ لأنَّه أسود مثلَ حذاء.

ـ ليس أوَّل من رأيتِ، يا جودي، تعرفين أنَّ هناك أناساً من مختلف الألوان وهذا أمرٌ حسن. نحنُ البيض أقلِّيَّةٌ.

ـ أنا أرى بيضاً أكثر من السود، يا أُمَّاه.

ـ هذه ليست سوى قطعة صغيرة من العالم، يا جودي. في أفريقيا يوجد سود أكثر من البيض. في الصين جلدهم أصفر. ولو أنَّنا عشنا إلى الجنوب من الحدود لكنَّا حشرات غريبة، ولذهل الناس في الشارع من شعرك الأبيض.

ـ على كلِّ الأحوال هذا الرجل يخيفني.

ـ لا يهمُّ لون الجلد إطلاقاً. انظري إلى عينيه، يبدو رجلاً طيِّباً.
ـ له عينا *أوليفر* ذاتهما ـ علَّق غريغ متثائباً.

كانت الحياة في نهاية الحرب العالميّة الثانية قاسية. فالرجال مايزالون ينطلقون إلى الجبهات بشيء من الحماس المغامر، أمّا النساء فلم تكن الدعاية الوطنيَّة لتجعل الوحشة عندهنَّ أكثرَ احتمالاً، وأوروبا بالنسبة إليهنَّ ليست أكثر من كابوسٍ بعيد. سئمن من العمل للإنفاق على البيت ومن تربية الأطفال وحيدات، ومن التقنين. لم يكن هناك أي ملمح للرفاهية وكان ما يزال بعضُ الفلاّحين يهيم في الطرقات الخارجيَّة بحثاً عن أراضٍ جديدةٍ، وهم القاذورة البيضاء، كما كانوا يسمّونهم لتمييزهم عن آخرينِ فقراء مثلهم لكنَّهم أكثر ذلاًّ منهم: الزنوج، الهنود الحمر والأجراء المكسيكيون. ومع أنَّ الأرضَ الوحيدة التي يملكها آلُ ريفز هي الشاحنة ومحتوياتها فإنَّهم كانوا يتمتَّعون بحالة أفضل، يبدون أقلَّ بدائيَّةً وقنوطاً وأيديهم خالية من الكنب، جلدهم على الرغم من أنَّ عوامل الطبيعة كوته لم يكن نعلاً جافّاً كما هو جلد العمَّال الزراعيين، والشرطة تعاملهم عند عبور حدد الولايات بلا غطرسة، فهم يعرفون كيف يميِّزون بين مستويات الفقرِ الدقيقة ولم يكتشفوا في هؤلاء المسافرين أدنى ضعة؛ فلا يجبرونهم على تفريغ الشاحنة وفتح الرزم، كما يفعلون مع الفلاّحين المطرودين من ممتلكاتهم بفعلِ عواصف الغبار، والجفاف أو آلات التقدُّم، ولا يثيرونهم بالشتائم بحثاً عن ذريعة لتعنيفهم، كما يفعلون مع اللاتينيين[1]، الزنوج والقلّة القليلة من الهنود الحمر الناجية من المجازر والكحول، فيقتصرون على سؤالهم عن وجهتهم. وكان تشارلز ريفز يجيبُ، بوجهه النسكيّ ونظرته الملتهبة، يفرض نفسه بحضوره، فنّاناً يحمل لوحاته لبيعها في مدينة قريبة؛ دون أن يذكر تجارته الأخرى كي لا يخلق إرباكاً ويجدَ نفسه مجبراً على تقديم إيضاحات طويلة. وُلِدَ في أستراليا ونزل ذات ليلة، بعد أن جاب نصف العالم بحثاً عن مهرِّبين وتجّار، في سان فرانسيسكو. فقرَّر قائلاً: لن أتحرَّك من هنا، لكنَّ طبيعته الجوّالة منعته من الاستقرار في مكان محدَّدٍ، إذ ما إن نفدت المفاجآتُ حتى شرع في التجوال في بقيّة البلد. وكان والده، وهو لصُّ خيول قضى حكماً بالنفي في سيدني، قد غرس فيه الشغف بهذه الحيوانات والفضاءات

(1) اللاتينيون هنا هم سكّان أمريكا اللاتينيَّة.

المفتوحة، فالهواء الطلق يجري في دمه كما كان يقول. كان يرسم، كعاشقٍ للمناظر الفسيحة وأسطورة احتلال الغرب البطوليَّة، أراضٍ فسيحةً وهنوداً حمراً ورعاةَ بقر. كانت الأسرة تعيشُ من صناعةِ اللوحاتِ وعرافةِ أولغا.

كان تشارلز ريفز، الدكتور في العلوم الإلهيَّة، كما كان يقدِّمُ نفسه، قد اكتشف معنى الحياة في إحدى حالات الوحي الصوفيَّة. يحكي أنّه كان وحيداً في الصحراء، مثل يسوع الناصري، حين تجسَّدَ له معلمٌ بهيئة أفعى وعضّه في كعبه، انظروا الندبة. احْتُضِرَ يومين وحين شعر بخيط الموت يصعد من بطنه إلى قلبه، توسَّع ذكاؤه فجأةً وظهرت أمام عينيه المحمومتين خارطةٌ تامّة للعالم بقوانينه السرِّيَّة. وحين استيقظ كان قد شُفيَ من السمِّ وعقله قد دخل مقاماً عليّاً لم يكن مستعداً للهبوط منه. خلال ذلك الهذيان المشعّ أمره المعلِّمُ بنشر الحقيقة الوحيدة عن *الخطّة اللانهائية* فقام بذلك بتهذيبٍ ومثابرة، على الرغم من العوائق التي تنطوي عليها هذه المهمّة، كما كانَ يقولُ لمستمعيه. وكرَّر القصَّة حتى انتهى إلى تصديقها وما عادَ يذكر أنَّ الندبة كانت نتيجة سقطة عن الدرَّاجة. لم تكن خطبه وكتبه تعودُ عليه إلاّ بالقليل من المال، الذي يكادُ لا يكفي لتغطية أجرة المكان المستأجر للاجتماعات ولنشر كتاباته في طبعات صغيرة وعاديَّة. لم يكن الواعظ ينقل عدوى عمله الروحانيِّ لأغراض تجاريَّةٍ فظة، كما هي الحال بالنسبةِ للكثيرين من الثرثارين الذين كانوا يجوبون البلد في تلك الأيام يزرعون الرعبَ في قلوب الناس من غضب الله، كي يحرموهم من وفوراتهم القليلة؛ كما لم يكن يستخدم الأساليب الخسيسة لتخويف مستمعيه وخلق جوّ من الهيستيريا حاثّاً المشاركين على طرد الشرّ بالإرغاء والتمرُّغ، خاصَّة وأنَّه كان ينفي وجودَ الشيطان ولأنَّ هذه الفضائح تثير اشمئزازه. كان يتقاضى دولاراً عن الدخول ودولارين عن الخروج، لأنَّه يضعُ على حراسة الباب كلاً من نورا وأولغا مع كدسة من الكتب فلا يجرؤ أحدٌ على المرور دون الحصول على نسخة. لم تكن الدولارات الثلاثة مبلغاً مبالغاً فيه، إذا ما أخذنا بعين الأعتبار المنافع التي يحصلُ عليها المستمعون، الذين يغادرون مقتنعين بأنَّ مصائبهم جزء من مشيئة إلهيّة، تماماً كما أنَّ أرواحهم جزيئات من الطاقة الكونيّة، وأنَّهم لم يكونوا دون حماية، والكون ليس فضاءاً أسود تسود فيه الفوضى، فهناك روح عظيمة موحِّدة تعطي الوجودَ معنىً. وكان ريفز يلجأ في إعداد خطبه إلى نتفِ المعلومات المتوافرة لديه وإلى تجربته وحدسه الصحيح، الناتج عن قراءات زوجته وبحثه في الكتاب المقدَّس

وفي مجلّة *الرايدرز دايجست*[1].

كسب عيشه خلال مرحلة الاكتئاب العظمى برسم الجداريّات في مكاتب البريد، وبهذا عرف كلَّ البلد تقريباً بدءاً من الأراضي الرطبة وانتهاءً بالحارَّة حيث كان ما يزال يُسْمَعُ صدى نحيب العبيد، وحتى جبال الثلج والغابات العالية، لكنّه لا يلبثُ أن يعود إلى الغرب. وقد وعد زوجته بأنَّ ترحاله سينتهي في سان فرانسيسكو، يصلونها ذات مساء وضّاء من مساءات الصيف في مستقبل افتراضيٍّ فيفرغون الشاحنة هناك للمرَّة الأخيرةِ ويستقرّون للأبد. وعلى الرغم من أنَّ العمل في رسم الجداريَّات للبريد انتهى منذ زمن طويل، كان ما يزال يحصل من حين لآخرَ على لافتة تجاريّة يرسمها لهذه الدكّان أو تلك أو يرسم لوحة رمزيّة لإحدى الأبرشيّات، الحالة التي تجعلُ الرحّالةَ يتوقّفُ لبعض الوقت في مكان واحد والطفلان يجدان فرصة ليقيما صداقات، ويتبجّحان أمام الأطفال الآخرين واقعين في مبالغات وأكاذيب كثيرة إلى أن ينتهيا بالارتعاش ذعراً أمام مشاهد الدببة والثعالب الأمريكيَّة التي تهاجمهم ليلاً والهنود الحمر الذين يلاحقونهم كي يسلخوا جلدة رؤوسهم، وأمام اللصوص الذين يقاتلهم أبوهما ببندقيَّته. من فراشي تشارلز ريفز ومراقمه كانت تطلع بسهولة مذهلة شقراء ثريّة تحمل في يدها زجاجة بيرة وموسى مريعة ممسّكة بألواحه، لكنَّ هذه الأعمال الهامّة لم تكن كثيرة، فهو لم يتمكّن من بيع إلا بعض قطع متواضعة من القماش يشتغلها مناصفة مع أولغا. كان يفضّلُ رسم الطبيعة التي تستحوذ عليه، كاتدرائيَّات حمراء من الحجر الحي، سهوب من الصحراء جافَّة، شواطئ شديدة الانحدار، لكن لا أحد كان يشتري ما يستطيعُ أن يراه بأمِّ عينه ويذكّره بوعورة حظّه. فلماذا يعلّق إلى الجدار مايراه من النافذة؟ كان الزبون يختار من *مجلة الجغرافية الوطنية*[2] أقرب المشاهد لخياله أو ما كانت ألوانه تنسجم مع أثاثه المستهلك في الصالة. أربعة دولارات أخرى تعطيه الحقَّ بهنديٍّ أحمر أو راعي بقر والنتيجة جلدٌ أحمر مريَّش، قمم تيبت جليديّة أو زوجٌ من رعاةِ بقرٍ يضعان قبَّعات مجنّحة وينتعلان جزمات عالية الكعب يتبارزان فوق الرمال الصدفيَّة لشاطئ بولينيزي. لم تكن أولغا تتأخّرُ كثيراً في نسخ المنظر من المجلّة ليرسم ريفز عليها الصورة الإنسانية عن ظهر قلبٍ خلال

---

(1) الرايدرز دايجست: مجلة عالمية شهيرة وهي المختار (المترجم).
(2) الجغرافية الوطنية: مجلة عالمية شهيرة تهتم بجغرافية العالم (المترجم)

دقائق قليلة، فيدفع الزبائن نقداً وينطلقون حاملين معهم اللوحة الزيتيّة طريّةً.

كان باستطاعة غريغوري ريفز أن يقسم إنَّ أُولغا كانت دائماً معهم. بعد زمن طويل تساءل ما الدور الذي كانت تلعبه في الأسرة، لكنَّ أحداً لم يستطع أن يعطيه جواباً، لأنَّ والده مات وما عاد أحد يتحدَّث بالموضوع. تعرفت نورا على أولغا في باخرة اللاجئين التي أقلَّتهم من أوديسا عبر الأطلسي إلى أمريكا الشماليَّة، وقد ضاعت الواحدة منهما عن نظر الأخرى لسنواتٍ طويلة لتجمعهما المصادفة بعد أن تزوَّجت نورا بينما الأخرى مكَّنت هوايتها كطبيبة شعبيّة. كانتا مختلفتين تماماً ، تتكلّمان فيما بينهما بالروسيَّة، الأولى انطوائيّة وخجول بقدر ما الأخرى منفتحة. نورا طويلة العظام، بطيئة الحركة ، لها وجه قطّة، تسرّحُ شعرها الباهت، الطويل وتجمعه في كعكة، لا تستخدم المساحيق والزينة، وتبدو دائماً كأنَّها خرجت من الحمَّام توَّاً. وكانت تتدبَّرُ أمرها في تلك الأسفار المغبرّة حيث يندرُ الماء للاغتسال ويستحيل كوي الملابس لتتقدّم بنظافة مفرش طاولتها الأبيض المنشّى. ازدادت حدّة طبيعتها الانطوائيّة مع مرور السنين، وراحت تنفصل شيئاً فشيئاً عن الأرض ارتقت إلى بعدٍ ليس بمقدور أحدٍ بلوغه. كانت أُولغا التي تصغرها بعددٍ من السنوات سمراء، راسخة، قصيرة القامة، ذات كتل دائريَّة، وخصر مشدود وساقين قصيرتين، إلاّ أنَّهما حسنتا التشكيل، جريئتان، دغلة من الشعر الوحشي مصبوغة بالحنَّاء تنسدلُ على كتفيها، وكأنَّها شعر مستعار متحشِّف ومتدرِّج في قرمزيَّته. تعلّق إلى صدرها من الخرز ما يجعلها تبدو صنماً مُغطّى بالخردوات، هذا المظهر الذي ساعدها على مهمَّاتها في العرافة، كرة الزجاج وورق التاروت يخرج من يديها المليئة أصابعهما بالخواتم وكأنَّه امتداد طبيعيٌّ لهما. لم يكن عندها أيُّ فضول فكريٍّ، لا تقرأ إلا جرائم الصحافة الصفراء، وهذه أو تلك الرواية الرومانسيّة، كما أنَّها لم تمارس التبصير عبر دراسة منهجيَّة، لأنَّها كانت تعتبره قريحة داخليّة. كانت تقول: إمَّا أن يملكها المرء أو لا يملكها، ومن العبث محاولة اكتسابها من الكتب. لم تكن تعرف شيئاً عن السحر والفلك والقابَال[1] والموضوعات الأخرى الخاصّة بمهنتها، فهي لا تكادُ تعرف أسماء

(1) القابال: مذهب ديني سرّي متصّوف يعتمد أساليب السحر (المترجم)

الأبراج، لكنّها حين تستخدم الكرةَ الزجاجيّة وورق اللعب المُعَلَّم تصير أعجوبة. ما عندها لم يكن علماً خفيّاً، بل فنّ خيال مكوَّن في معظمه من معرفة حدسيّة ودهاء. كانت مقتنعة بسذاجة بقدراتها فوق الطبيعيّة وقادرة على المراهنة على رأسها لصالح تنبُؤاتها وإذا ما خانتها وجدت العذر المنطقي على رأس شفتيها، وعموماً ما يتعلّق الأمر بتفسير خاطئ لكلماتها. وكانت تتقاضى دولاراً مقدّماً للتنبؤ بجنس الأطفال في بطون أمّهاتهم. تُمدِّدُ المرأة على الأرض ورأسها إلى الشمال، تضع قطعة نقود معدنيّة على سرّتها وتنوس قطعةً من الرصاص مربوطة إلى خيط سنّارة فوق البطن. فإذا ما تحرَّك هذا النوّاس المُرتَجَلُ باتجاه عقارب الساعة ولد صبيّ وإلا فبنت. طبّقت النظامَ ذاته على الأبقار والخيول الحبلى مصوِّبة باتجاه ردْفَيّ الحيوان. تعطي قرارها وتكتبه على ورقة تحتفظ بها كبرهان قاطع. عادوا ذات مرّة إلى كفرٍ حلّوا فيه قبل شهور فجاءتهم امرأة يرافقها موكب من الفضوليين والشرُّ يتطاير من عيونهم يطالبون بالدولار.

- أنتِ أكّدتِ لي أنّني سأنجب طفلاً، انظري ماذا جاءني، طفلة أخرى، صار عندي ثلاثة!

- هذا غير ممكن! هل أنتِ متأكّدة من أنّني تنبّأت لك بذكر؟

- طبعاً، كيف يمكن ألا أعرف ما قلته لي، إذا كنتُ دفعتُ لك لهذا السبب!

- فهمتني خطأً - ردّت أُولغا حاسمةً.

اعتلتْ الشاحنةَ، بحثتْ برهةً في صندوقها وأنجزت قطعة ورق أرتها للحاضرين، ليس فيها سوى كلمة واحدة مكتوبة: طفلة. فسَرَتْ تنهيدةُ إعجابٍ عميقة في الزائرين، بمن فيهم الأمّ، التي حكّت رأسها مرتبكة. لم تضطرّ أولغا إلى إعادة الدولار بل عزّزت شهرتها كعرافة حتى أنّ المساء وقسماً من الليل لم يكفياها للإجابة على طلبات صفّ الزبائن المستعدين لرؤية حظّهم. كان «الماء الممغنط» من أكثر التمائم والعقاقير التي تقدّمها رواجاً، هذا السائل العجيبُ المعبّأ في قوارير بدائيّة خضراء. كانت تبيّنُ أنّ الأمر يتعلّق بمجرّد ماء عاديّ لكنه ذو قوّة علاجيّةٍ لأنّه مشبَعٌ بسائلٍ نفسيّ. كانت تقوم بهذه العملية ليلةَ يكون القمرُ بدراً وهي بحسب ما ثبتَ لجودي وغريغوري لا تتعدّى ملء القوارير وإغلاقها بالفلّين ووضعِ البطاقةِ عليها،، إلاّ أنّها كانت تؤكّدُ أنّها بهذه العمليّة تشحنُ الماء بقوى إيجابيّةٍ، ولا بدّ أنّه كذلك، لأنّ القوارير كانت تُباعُ كالخبز الساخن دون أن

يشكو المنتفعون من النتائج. وهو بحسب استخدامه يقدِّمُ منافع مختلفة: إذا شُرِبَ غسل الكلى، وإذا دُلِّكَ به يخفِّفُ أَلَمَ المفاصل وباستخدامه مع التسريح يحسِّنُ التركيزَ العقليَّ، لكنَّه غير فعَّالٍ في المآسي العاطفيَّة، كالغيرة والزنى أو العزوبيَّة غير الإراديّة، فالسحر في هذه الحالات كان جليَّاً. بهذه الطريقة كانت تلفت انتباه المشترين. كانت في غاية الحذر في وصفاتها كما في مسألة المال، فهي تؤكِّد أنَّه لا يوجدُ علاجٌ جيِّدٌ مجَّاني، ومع ذلك لم تكن تتقاضى أجراً عن المساعدات التي تقدِّمُها في الولادة، فهي تحبُّ المجيء بالأطفال إلى هذا العالم، وما من شيء يمكن أن يقارن باللحظة التي يطل فيها رأسُ المولود من فتحة الأمِّ الدامية. كانت تقدِّمُ خدماتها كقابلة في المزارع المعزولة والقطَّاعات الأشدّ فقراً في القرى، خاصَّة في أحياء الزنوج، حيث فكرة الولادة في مشفى شيءٌ جديد. وكانت أثناء الانتظار بجانب الأمّ المستقبليّة تخيطُ أقمطةً وتنسجُ أخفافاً للطفل، ولا يحلو وجهها، وجه الساحرة المطلي طلاءً غير متقن، إلاَّ في هذه اللحظات النادرة، فتبدِّلُ نبرة صوتها كي تُشجِّع مريضتها في أصعبِ ساعاتها وتغنّي أُغنية المهد الأولى للطفل الذي جاءت به إلى العالم. وبعد أيَّام قليلة حين تكون الأمُّ والابن قد ألف الواحدُ منهما الآخر تعود وتجتمع مع آل ريفز المخيِّمين قريباً من المكان. وحين تودِّعهم تسجِّلُ في دفتر اسمَ الطفل في اللائحة الطويلة وتسمي الجميع فلايين لها. الولادات تأتي بالحظ السعيد، ذلك كان تفسيرها الفظ كي لا تتقاضى أجرها. علاقتها بنورا كانت علاقة أخت بأختها وبجودي وغريغوري علاقة الخالة المؤنِّبة، تعتبرهما ابني أخت. بينما تعاملُ تشارلز ريفز كشريك وبشيء من الغطرسة المختلطة بالظرافة، لا يتلامسان، يبدو عليهما وكأنّهما لا يتناظران، لكنّهما يعملان فريقاً واحداً، ليس في تجارة اللوحات وحسب بل في كلِّ ما كانا يعملانه سويَّةً. كلاهما كان يتصرَّف بمال وموارد الأسرة، يراجع الخرائط ويقرِّرُ طرقاً، يخرجان للصيدِ ويتيهان لساعات في عمق الغابة. يحترم الواحدُ منهما الآخر، يضحكان من ذاتِ الأشياء، هي مستقلَّة، مُغامِرة، وكالواعظ ذات عريكة لا تعرفُ التردّدَ، مجبولة من فولاذٍ هو فولاذها، ولم تكن تدهشها كرامات هذا الرجل ولا نبوغه الفنيّ، وحدَه جلدُ تشارلز ريفز الذكوريُّ، الذي سيميِّز فيما بعد ابنه غريغوري، يستعبدها.

كانت نورا، زوجة تشارلز ريفز، واحدة من تلك الكائنات المنذورة

للصمت. منحها والداها، اليهوديّان الروسيّان أفضلَ تربية استطاعا إليها سبيلاً. تخرّجت معلّمةً، ومع أنّها تركت المهنة بعد الزواج، إلاّ أنّها حافظت على مستواها بدراسةِ التاريخ والجغرافيا والرياضيّات لتعلّمها لابنيها، اللذين كان من المحال إرسالهما إلى المدرسة نتيجةَ الحياة البوهيميّة التي يعيشونها. كانت تقرأ في ترحالها المجلاّتِ والكتبَ السرّيّةَ، لكن دونما نيّةٍ بتحليلها، فتقتصر على تقديم المعلومة للدكتور في العلوم الإلهيّة ليستخدمها. لم يكن يراودها أدنى شكٍّ بأنَّ زوجها يتمتّعُ بطاقات نفسيّةٍ تسمح له برؤية الخفيِّ واكتشاف الحقيقة حيث لا يجدُ بقيّة الأشخاص إلاّ الظلال. تعارفا حين لم يعد أيٌّ منهما شابّاً. تميّزت علاقتهما دائماً بالأدب والنضج. لم تكن نورا قادرة على الحياة العمليّة فعقلها يهيم في أحلام عالم آخر، مشغولة باحتمالات الروح أكثر مما بصروف الحياة اليوميّة. كانت تحبُّ الموسيقى وأزهى لحظات حياتها التافهة كانت بعض الأوبرات التي حضرتها في شبابها، فهي تكتنزُ كل تفصيل من تلك المشاهد، وتستطيعُ أن تغمضَ عينيها وتسمعَ الأصوات الجليلة، تنفعلَ مع عواطف الشخصيات التراجيديّة وتقدّرَ ألوان وبناء الديكور واللباس. تقرأ النوتات متخيّلةً كلَّ مشهدٍ كجزءٍ من حياتها، وأول الحكايات التي سمعها ولداها منها كانت قصص الحبّ الرجيم والميتات المحتمة في الشعر الغنائي الكوني. في هذا الجوِّ الرومانسي والمبالغ فيه كانت تلوذ حين تحاصرها دهمائيّات الواقع. من جهته كان تشارلز ريفز قد جاب كلَّ البحار وكسب أوده بالقيام بأعمالٍ مختلفة، عنده الكثير من المغامرات مما يستطيع روايته، وخلفه عدد من قصص الحب الفاشلة وعدد من الأولاد المزروعين هنا وهناك، لا يعرف عنهم شيئاً. حين رأته نورا يخطب في مجموعة من أتباعه الذاهلين تعلّقت به. كانت مستسلمة لمصيرها كعانس، مثل الكثيرات من بنات جيلها اللواتي لم يقدّم القدرُ لهن خطيباً، ولم يملكن جرأةً للخروج والبحث عنه، لكنَّ هذا العشق المفاجئ في عمرها المتأخِر منحها الشجاعة للانتصار على تواضعها الطبيعي. كان الخطيبُ قد استأجر صالة قرب المدرسة التي تعلّمُ فيها ويوزّع الدعاية لحديثِهِ حين ألقت عليه النظرةَ الأولى. أدهشها وجهه النبيل وموقفه الحاسم فذهبت يدفعها فضولها للاستماع إليه حاكمة عليه سلفاً بأنّه ثرثارٌ كبقيّة الثرثارين الذين كانوا يمرّون من هناك دون أن يخلفوا أيَّ أثرٍ غير بعض الأوراق حائلة اللون ملصقة على الجدران،لكنّها فوجئت: ريفز يشرح واقفاً أمام جمهوره وأمامه برتقالة معلّقة إلى خيط في السقف موقعَ الإنسان في الكون وفي *الخطّة اللانهائية*، لا يها

بالعقاب ولا يقدّم خلاصاً أبديّاً، بل يقتصر على تقديم حلول عمليّة لتحسين التعايش، وتخفيف القلق والحفاظ على موارد الكوكب. جميعُ المخلوقات تستطيعُ ويجبُ أن تعيش بانسجام، كان يؤكدُ، وللبرهان على ذلك يرفعُ غطاء درج الأفعى، يلفُّها على جسده، كخرطوم رجال الإطفاء، أمام دهشة مستمعيه الذين لم يروا قط أفعى بهذا الطول وهذه الثخانة..
في تلك الليلة عبّر تشارلز ريفز عن المشاعر المضطربة التي كانت تضايقُ نورا ولا تعرف كيف تعبر عنها. كانت قد اكتشفت تعاليم بهاء الله وتبنّت الدين البهائيّ. تلك المفاهيم الشرقيّة للتسامح الوديّ، للوحدة بين البشر، للبحث عن الحقيقة ورفض الأحكام المسبقة التي تصطدم بتربيتها اليهوديّة المتصلّبة وبضيق وسطها الريفي، لكن ما إن سمعت ريفز حتى بدا لها كلُّ شيء سهلاً، وبما أنَّ الرجلَ يعرف الأجوبة ويمكن أن يكون دليلها لم ترَ حاجة لتحمية دماغها بتلك التناقضات الرئيسيّة . أخِذَت ببلاغة الخطاب فلم تولِ انتباهاً لفراغ المضمون. بلغ بها التأثر حدَّ أنَّها انتصرت على خجلها واقتربت منه حين رأت أنّه أصبح بمفرده بهدف أن تسأله عما إذا سمع بالعقيدة البهائيّة ، لتُقدِّمَ إليه إن لم يسمع بها أعمالَ شوقي أفندي. كان الدكتور في العلوم الإلهيَّة يعرف التأثير التحريضي لخطاباته عند بعضِ النساء فلا يتوانى عن استخدام هذه الميزة، ومع ذلك فقد شدَّته تلك المعلّمة بطريقة مختلفة، ففيها شيء نقيّ،خَلَّة شفَّافة، ليست مجرَّد براءة، بل استقامة حقيقيَّة، خاصّة وضّاءة، باردة وغير ملوَّثة، كالجليد. لم يرغب فقط بأخذها بين ذراعيه، مع أنَّه كان دافعه الأوّل حين رأى وجهها، مثلثَ الشكل والغريب، جلدها المغطّى بالنمش، بل الغوص في المادّة البلوريّة لهذه المجهولة وإشعال جمرات روحها النائمة. اقترح عليها أن تتابع معه سفره فقبلت على الفور وكأنّها أُخِذَت من يدها مرَّةً وإلى الأبد. في تلك اللحظة، عندما تصوَّرت احتمال أن تسلِّمَهُ روحها، بدأت سيرورة اللاإكتراث التي ستطبع مصيرها.غادرت دون أن تودِّع أحداً ومعها كيس كتبها، متاعها الوحيد، وحين اكتشفت بعد شهور أنها حامل تزوَّجا. وإذا كان هناك فعلاً نارٌ كامنة تحت مظهرها البارد، فما من أحد عرفه غير زوجها. غريغوري عاش يأكله الفضول ذاته الذي شدّ تشارلز ريفز في تلك الصالة المستأجَرة من القرية الفقيرة في الجنوب الأوسط، حاول ألفَ مرَّة أن يهوي بالجدران التي كانت تفصله عن أمِّه ليلامس مشاعرها، وبما أنَّه لم يحقِّق ذلك قط قرَّرَ أنّه لا يوجد في داخلها أيّ شيء، كانت فارغة وغير قادرة على أن تحبَّ بشكلٍ أكيد أحداً، وأقصى ما يُسْتَشَفُّ منها كان تعاطفاً مبهماً مع الإنسانيّة بشكل عام.

اعتادت نورا على التبعيَّةِ لزوجها، متحوِّلةً إلى مخلوق سلبيٍّ ينفِّذُ وظائفه انعكاسيًّا، بينما روحها تهرب من المسائل المادِّيّة. وشخصيَّةُ ذلك الرجل من القوَّة بحيث أنَّها راحت تمِّحي من العالم وتتحوَّل إلى ظلٍّ لتمنحه فضاءً، تشارك في رتابات التعايش، لكنّها لا تساهم إلاّ بالقليل في طاقة المجموعة الصغيرة، لا تتدخَّلُ إلاّ في دراسة الطفلين وأمور النظافة والصحَّة الجيِّدة. وصلت إلى البلد على متن باخرة من المهاجرين، تأكل قليلاً وبشكلٍ سيئ في السنوات الأولى، إلى أن أستطاعت الأسرة أن تهزم الحظَّ السيّئ، فخلفت هذه المرحلة من الفاقة شوكةَ جوعٍ دائمةً ، صارت مهووسة بالطعام المغذّي وحبوب الفيتامينات في ذاكرتها. كانت تحكي لولديها بعضَ مظاهر عقيدتها البهائيّة بالنبرة ذاتها التي تعلّمهما بها القراءةَ أو تذكر لهما النجوم، دونما أيّ حماسة لإقناعهما، لا تنفعل إلا حين تتحدَّثُ عن الموسيقى، المناسبة الوحيدة التي تشدِّد فيها على نبرة صوتها ويحمرّ خداها خجلاً. قبلت فيما بعد أن تربّي الطفلين في الكنيسة الكاثوليكيّة، كما كانت العادة في الحيّ الإسباني الذي شاءت المصادفة أن يعيشوا فيه، لأنّها وعت ضرورة أن يندمج الطفلان في وسطهما. كان يكفيهم أن يتحمَّلوا الفروقات العرقيَّة والعادات الكثيرة ليأتوا بعد كلّ ذلك ويضيفوا إليها معتقدات مجهولة، كعقيدتها البهائيّة. ثمّ إنّها كانت تعتبر الديانات متساويةً في الأساس، لم يكن يشغلها إلاّ القيم الأخلاقيَّة، ومهما يكن فالله كان فوق الفهم الإنسانيّ، ويكفي أن يعرف الإنسان أنَّ السماء والجحيمَ رمزان لعلاقة الروح بالله: القربُ من الخالق يقودُ إلى الطيبة والمتعة المعتدلة، والبعدُ يوَلِّدُ الشرّ والمعاناة. وبعكس تسامحها الديني لم تكن تتنازل قيد أنملة عن مبادئ الحشمة والأدب، فكانت تغسل فم الطفلين بالصابون حين ينطقون بكلمة سيِّئة وتتركهما دون طعامٍ إذا ما أساءا استخدام الشوكة، أمّا بقيّة العقوبات فكانت من اختصاصِ الأب، وتكتفي باتهامهما. باغتت ذات يوم غريغوري وهو يسرق قلماً من أحد الدكاكين فشكته لزوجها الذي أجبر الطفل على إعادته والاعتذار، ليحرق له بعدَ ذلك راحة يده بلهب عود كبريت أمام بصر نورا التي لم تعتورها الشفقة. بقي غريغوري أسبوعاً ويده متقرِّحة، لكنَّه سرعان ما نسي سببَ العبرة ومن أوقعها به، الشيء الوحيد الذي احتفظ به في عقله هو حنقه من أمِّه. بعدَ عقودٍ كثيرة وحينما تصالح مع صورتها استطاع أن يشكرها على ثلاثة خصالٍ صالحة رئيسيّة تركتها له: حبّ الموسيقى، التسامح، ومعنى الشرف.

الحرُّ لا يطاقُ، والمشهد جافّ، فهي لم تمطر منذ بداية الزمان والعالم يبدو مغطّى بمسحوق ناعم ضارب للحمرة. نور قاسٍ يشوّه كفاف الأشياء، الأفق يضيع في العجاج. إنّها واحدة من تلك القرى التي لا اسم لها، المتشابهة فيما بينها، الشارع الطويل، المقهى، مضخّة البنزين الوحيدة، نقطة الشرطة، المتاجر البائسة وأشياء الخشب ذاتها، المدرسة يخفق فوق سطحها علمٌ ذهبت الشمسُ بألوانه... غبارٌ ولا شيء غير الغبار. والداي ذهبا إلى المتجر لشراء مؤونة الأسبوع. بقينا أنا وجودي في عهدة أولغا. لا أحدَ يسيرُ في الشارع، الستائر مسدلة والناس ينتظرون أن يترطّب الجوُّ كي يعودوا إلى الحياة. أختي وأولغا تغفوان على مقعدٍ في مدخل الخيمة، دائختين من الحر، يضايقهما الذباب، لكنّهما ماعادتا تدافعانِ عن نفسيهما وتركتاه يسير على وجهيهما. تطفو في الجوِّ رائحةُ سكّر محروق غير منتظرة، ضُبَّان زرقاء وخضراء تتشمّسُ دون حراك، ما إن أحاول الإمساكَ بها حتى تهرب وتلوذ تحت البيوت. أنا حافٍ وأشعرُ بالأرضِ ساخنةً في باطن قدميّ. ألعب مع *أوليفر*، أقذف له بكرة من الخرق مستهلكة، فيأتيني بها، أرمي بها من جديد وهكذا أبتعدُ عن المكان، أنعطف عند الزاوية لأجد نفسي في زقاقٍ ضيّقٍ تظلّلُ قسماً منه طنف البيوت الخشنة. أرى رجلين، إحداهما مكتنز، بشرته ورديّة ضاربة للحمرة، والآخر أصفر الشعر، يرتديانِ أفرولي عمل، يتصبّبان عرقاً، قميصاهما وشعرهما مبلّلان. البدينُ يمسكُ بفتاةٍ زنجيّة صغيرة، لا تتجاوز العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها، يغلق فمها بيد ويثبّتها بالذراع الأخرى في الهواء، تتخبّط قليلاً، ثم تستكين، عيناها محمرّتان من جهد التنفس عبر اليد التي تخنقها. الآخرُ يدير لي ظهره، يُعاركُ بنطلونه. كلاهما جدّيٌّ، مركّز، متوتّر، يلهث. صمت، لا أسمع غير التنفس المجهد الغريب وخفق قلبي. اختفى *أوليفر* والبيوتُ أيضاً، لم يبق غيرهم عالقين في الغبار، يتحركون كما في كاميرا بطيئة. يبصقُ ذو الشعر الأصفر في يده، يقتربُ، يبعدُ ما بين ساقي الطفلة، يتدلّى عودان نحيلان، داكنان وساكنان، ما عاد باستطاعتي رؤيتها الآن وقد تفلطحت بين جسدي المغتصبين الملتحمين. أُريدُ الهرب، فأنا مذعور، لكنّني أيضاً أرغب بالنظر. أعرف أنّ شيئاً جوهريّاً وممنوعاً يحدث، وأنا شريك في سرٍّ عنيف. ضاعت منّي نفسي، أحاول أن أنادي والدي، أفتحُ فمي فلا يخرجُ صوتي، صراخٌ يملأ داخلي ويخنقني. عليَّ أن أفعلَ شيئاً، كل شيءٍ بين يديَّ، القرارُ الصحيح سينقذنا نحن الإثنين، الطفلة الزنجيّة وأنا، أموت ولا يحضرني شيءٌ، لا أستطيع أن أقوم بأيّة حركة، صرتُ حجراً. في هذه

اللحظة أسمعُ اسمي من بعيد، غريغ، غريغ وتظهر أولغا في الزقاق. وقفة طويلة، لحظة أبديّة لا يحدثُ فيها أيُّ شيء. كلُّ شيءٍ ساكن. وعندئذٍ يهتزُّ الهواء بصرخة طويلة، صرخة أولغا الطويلة الجشّاء والرهيبة، يتبعها في الحال نباح *أوليفر* وصوت أختي كزعيق جرذ، أخيراً أستطيعُ أن أستعيد نفسي وأبدأ أصرخُ يائساً. الرجلان اللذان بوغتا يفلتان الصغيرةَ التي تلامسُ الأرض وتسلم ساقيها للريح مثل أرنبٍ مذعور. يراقباننا، في يد ذي الشعر الأصفر شيءٌ بنفسجيّ، شيء لا يبدو أنّه جزء من جسده ويحاول أن يدخله في البنطلون، أخيراً يدوران نصفَ دورة ويبتعدان. ليسا مرتبكين، يضحكان ويقومان بإيماءات بذيئة، ألا تريدين أنت قليلاً منه، يا عاهرة، يا عاهرة مجنونة، يصرخان بأولغا، تعالي ندخله فيكِ. في الشارع بقي سروال الفتاة. تُمسكنا أولغا من أيدينا أنا وجودي، تنادي الكلب ونمضي مسرعين، نجري باتجاه الشاحنة. استيقظت البلدة والناس ينظرون إلينا.

كان الدكتور في العلوم الإلهيَّة مذعناً لنشرِ أفكاره بين الفلاّحين غير المثقّفين والعمال الفقراء غير القادرين دائماً على متابعة خيط خطابه المعقّد، ومع ذلك لم ينقصه أتباع. قليلون هم الذين كانوا يحضرون عظاته عن إيمان، فالغالبيّة كانت تذهب فضولاً فالتسليات كانت قليلة في تلك المناطق و *الخطّة اللانهائية* حين تصلٍ لا تذهب دون تترك أثرها. بعد نصب الخيام كان يخرج للبحث عن محل. يحصلُ عليه مجّانا حين يكون له بعض المعارف، وإلاّ فعليه أن يستأجر صالةً، أو يعدَّ قبواً، أو مخزناً للحبوب. وبما أنّه لا يملك مال، يسلِّم طوق لؤلؤ نورا مع مشبكٍ ماسها، إرثها الوحيد عن والدتها، ضماناً مع الالتزام بالدفع في نهاية كلِّ حفل. خلال ذلك تقوم زوجته بتنشية صدر وقبّة القميص، تكوي له الطقم الأسودَ، اللامع من كثرة الاستعمال، تلمّع له حذاءه، تفرشي له قبّعة الطاسة العالية وتجهِّزُ الكتبَ، بينما تخرج أولغا والطفلان ليوزّعوا على البيوت بيتاً، بيتاً بعضَ الأوراق المطبوعة التي تدعو إلى «*الدورة التي ستغيّر مجرى حياتك، تشارلز ريفز، الدكتور في العلوم الإلهيّة سيساعدك على بلوغ السعادة وتحقيق الازدهار*». كانت أولغا تغسلُ الطفلين وتلبسهما لباس الأحد ونورا ترتدي ثوبها الأزرق الجهم بقبّته المطرّزة الذي مضت تقليعته لكنّه ما يزال لائقاً. غيَّرت الحرب مظهرَ النساء، فصرن يستعملن التنورات الضيّقة التي تصل الركبتين، والسترات محشوّةَ الكتفين، والأحذية

المسطّحة، وكعكة الشعر المشغولة والقبّعات المزيّنة بالريش والشرائط. وكانت نورا بثوبها الرهباني تشبه جدّة نظيفة من بداية القرن. كذلك أولغا لم تكن تتبع الموضة، لكن لا أحد استطاع في حالتها أن يتهمها بالنفاق، فهي أقرب ما تكون إلى الببغاء، ثُمَّ إنَّ الناسَ في هذه القرى يجهلون مثل هذه الكياسات. الحياةُ تمضي في العمل من الشمس إلى الشمس، والمتع قوامها بعض جرعات الكحول، التي كانت ما تزال سرِّيَّةً في بعض الحالات، والجولات الليليّة والسينما والرقص من حين إلى آخر ومتابعة تفاصيل الحرب والبيسبول، لذلك فإنَّ أي شيءٍ جديد يشدُّ الفضوليين. ويبدو أنَّ تشارلز ريفز كان ينافس *الريفيفاليين* الذين يدعون إلى يقظة المسيحيَّة الجديدة: العودة إلى المبادئ الأساسيَّة للحواريين الإثني عشر وإلى الحرفيّة الدقيقة للكتاب المقدَّس، الإنجيليين الذين يجوبون البلد بخيامهم وفرقهم الموسيقيَّة وأسهمهم الناريَّة وصلبانهم العملاقة والمضاءة، جوقات الأخوة والأخوات المزيَّنين كالملائكة بأبواقهم التي يحمّلون بها الرياحَ الأربعة اسمَ الناصريِّ، حاضِّين الخُطاة على التوبة لأنَّ المسيحَ قادمٌ والسوط بيده ليسوطَ فريسيِّي الهيكل، يدعون لمحاربة مذاهب الشيطان، مثل: نظريَّة التطوُّر، بدعة داروين الشرِّيرة. انتهاك الحرمات! خلق الإنسان على صورة تشبه الرّب، وليس القرود! هليلويا، هليلويا! هكذا كانت تعوي مكبِّرات الصوت. وفي الخيام يجتمع أتباعهم بحثاً عن الخلاص والسيرك، الجميع يغنُّون، الكثيرون يرقصون ومن حين لآخر أحدٌ يتلوّى في حشرجات الهذيان بينما دلاء الصدقات تُتْرَعُ بهبات الحاصلين على تذاكر السماء. لم يُقَدِّمْ تشارلز ريفز أي بلاغة، لكنَّ كراماته وقدرته على الإقناع وحرارة خطابه كانت كثيرة. ومن المحال تجاهله، يتقدَّمُ أحياناً أحدٌ ما من المنصَّة يرجوه أن يحرِّرَه من الآلام أو الندم الذي لا يحتمل، فيضعُ ريفز يديه حولَ رأسِ المريض، دون أيَّة حركات نفاق، ببساطة لكن بثقة كبيرة، يركِّز على التخفيفِ عنه. كثيرون اعتقدوا أنَّهم يرون شراراتٍ في راحتيه والمنتفعون من العلاج يؤكِّدون بأنَّ تيَّاراً هزَّهم في دماغهم.كان يكفي غالبيَّة الجمهور أن يصغي إليه كي تقع في الشبك، تحصلَ على الكتب وتصبحَ من أتباعه.

ـ الخلقُ تُديره *الخُطّة اللانهائية*. لا شيء يحدثُ بالمصادفة. ونحن البشرِ جزء أساسيّ من هذه الخطّة، لأنَّنا وُضِعنا في سلّم التطوُّرِ بين المُعلّمين وبقيَّة المخلوقات، نحن وسطاء... علينا أن نعرفَ موقعنا في الكون. ـ هكذا كان يبدأ تشارلز ريفز فيُغشي على عقول مستمعيه بصوته العميق، رافلاً بالسواد من قدميه وحتى رأسه، وقوراً أمام البرتقالة

المتدلّية من السقف والأفعى عند قدميه، مثل لفّة حبلٍ بحريٍّ غليظ. كان الحيوان في خمودٍ مطلق ، وفيما عدا حالات الاستفزاز المباشر يمكث بلا حراك: اصغوا جيّداً كي تفهموا مبادئ *الخطّة اللانهائية*، لكن لا همَّ إن لم تفهموها، يكفي أن تمتثلوا لوصاياي. فالكونُ بكامله ينتمي للعقل الأعلى، الذي خلقه وهو من السعة والكمال بحيث أنَّ الكائن البشريَّ لا يستطيعُ أن يعرفه أبداً. تحته يوجد اللوجيّون[1]، مندوبو النور، المكلفون بنقل جزئيّاتٍ من العقل الأعلى إلى جميع المجرّات. يتواصل اللوجيون مع المعلمين الموظّفين الذين يوصلون من خلالهم رسائل وقواعد *الخطّة اللانهائية* إلى البشر . والكائن البشري يتكوّنُ من جسدٍ ماديٍّ وجسد عقليٍّ وروح. الأهم هي الروح، التي لا تنتمي إلى المجال الأرضيّ، بل تعمل عن بعدٍ، ليست في داخلنا، لكنّها تهيمن على حياتنا.

في هذه اللحظة، وحين يبدأ المستمعون، الذين أرعبتهم البلاغة بتبادل نظرات الخوف أو السخرية كان ريفز يغشى على عقول الحضور من جديد مشيراً إلى البرتقالة المتدلّية من السقف، ليشرح لهم مظهر الروح الطافية في الأثير، مثل بلازما خارجيّة وحدهم بعض علماء الغيب يستطيعون أن يروها. وللبرهان على ذلك كان يدعو عدداً من الأشخاص من بين الجمهور لينظر بثباتٍ إلى البرتقالة ويكتشفَ مظهرها. ولم يكن أمامهم مناص من وصف كرة صفراء، أي برتقالة عاديّة جدّاً، بينما كان هو يرى الروح. ويقدّمُ في الحال اللوجيين الموجودين في الصالة بحالة أثيريّة، وبالتالي غير مرئيين، ويوضّح أنّهم هم الذين يحافظون على سير آليّة الكون. في كلّ عصر وكلّ مكان كان اللوجيّون يختارون المعلّمين الموظفين للاتصال مع البشر ونشر غايات العقل الأعلى. وهو، تشارلز ريفز الدكتور في العلوم الإلهيّة، كان واحداً منهم. مهمّته تقوم على تعليم قواعدها للعاديين من بني البشر الفانين، وما أن يتمّ هذه المرحلة حتى ينتقل ليصيرَ جزءاً من فريق اللوجيين المخصوصين بالعناية الإلهيّة. كان يقول إنَّ كلّ عملٍ أو تفكير من أعمال وتفكير الإنسان مهمّ، لأنَّ له وزنه في توازن الكون التام، وبالتالي فإنَّ كلّ إنسان مسؤولٌ عن تنفيذ وصايا *الخطّة اللانهائية* حرفيّاً. ثم يُعَدِّدُ بعدها قواعد الحكمة الدنيا، والتي كانوا من خلالها يتفادون ارتكاب الأخطاء الفادحة، القادرة على الإخلال بتوازن مشروع العقل الأعلى. والذين لم يكونوا قادرين على استيعاب هذا في

---

(1) اللوجيون: مفردها لوجي، وهو من أسماء الجن عند بعض الشعوب (المترجم)

حديثٍ واحدٍ يستطيعون أن يأخذوا دورة الفصول الستة، حيث يتعلّمون قواعد الحياة الصالحة، بما في ذلك حميات، وتمارين رياضيّة وعقليّة، والأحلام الموَجَّهة ونظماً أخرى متنوّعة لشحنِ بطاريّة الجسد المادي والجسد العقلي بالطاقة، وبذلك يضمنون مصيراً لائقاً وسلاماً للروح بعد الموت.

كان تشارلز ريفز متقدِّماً بالنسبة لعصره. فبعد عشرين عاما سينشر عدد من العقليين أفكارَه على طول وعرضِ كاليفورنيا، الحدّ الأخير الذي كان يصلُ إليه المغامرون، اليائسون، اللامقتنعون، الهاربون من العدالة، العباقرة المجهولون، الخُطّاة المتمادون في ضلالهم، والمجانين الذين لاعلاج لهم وحيث ما تزال تتكاثر جميع الصيغ الممكنة لتفادي ضيقَ العيش. ومع ذلك لا يمكن أن نُجَرِّمَ تشارلز ريفز لأنّه بدأ مثل هذه الحركات الغريبة. ففي هذه البلاد يوجدُ شيءٌ يهيِّج الأرواح. أو ربَّما كان الذين توصّلوا إلى سكنى هذه المنطقة، كانوا من العجلة في البحث عن الثروة أو النسيان السهل، بحيثُ تأخّرت روحهم وما زالوا يبحثون عنها. ثرثارون لا يحصى عددهم استفادوا بتقديم صيغ سحريّة لملءِ هذا الفراغ المؤلم الذي يجعل الروحَ غائبة. حين راح ريفز يبشّرُ بخطّته كان قد اهتدى الكثيرون إلى طريقة الثراء ببيع فوائدَ غيرِ محسوسة لسلامةِ الجسد وعزاء الروح؛ لكنّه لم يكن واحداً منهم، فقد حافظ على شرف الرصانة والأدب فكسب بذلك احترام أتباعه. بالمقابل لمحت أولغا إلى إمكانيَّة استخدام اللوجيين المعلّمين الموظّفين في شيء أكثر مردوداً، كاستئجار صالة، تأسيسِ كنيسة خاصّة، لكنَّ تشارلز ونورا لم يشاطراها الفكرة الطمَّاعة إطلاقاً، لأنَّ نشرَ حقيقتهما كانت عبئاً أخلاقيّاً لا مناصَ منه، ولم يكن بأيِّ حالٍ من الأحوالِ تجارة لباعةٍ صغار.

كان باستطاعة نورا ريفز أنْ تحدِّدَ بدقّةٍ اليومَ الذي فقدت فيه الإيمانَ بطيبةِ الإنسان وبدأت شكوكُها الصامتة بمعنى الوجود.كانت من أوْلئك الأشخاص القادرين على تذكرِ التواريخ التافهة، هكذا انحفرت في ذاكرتها القنبلتان هائلتي التدمير اللتّان وضعتا نهايةً للحربِ مع اليابان. فارتدت في الأيّام اللاحقة ثيابَ الحداد في الذكرى السنويَّة في الوقت الذي كان بقيَّةُ الناسِ في البلدِ يغرقون في الاحتفالات. نفدَ اهتمامُها حتى بأقرب الأشخاص إليها، صحيح أنَّ غريزةَ الأمومةِ لم تكن يوماً ميِّزتها الرئيسيَّة. بدا أنَّها ومنذ تلك اللحظة انفصلت كلِّيّاً عن ولديها. كذلك ابتعدت

عن زوجها دونما أدنى ضجّة وبتكّتم كان من الشدَّةِ حتى أنّه لم يستطع أن يلومَها أبداً. انعزلت في حجرتها السرِّيّةِ حيث تدبَّرت أمرها ولم يؤثّر عليها الواقعُ حتى نهاية أيّامِها، فماتت بعد نيِّفٍ وأربعين عاماً كأميرةٍ من أميرات الأورال دون أن تكون قد شاركت قط في الحياة. كان يُحْتَفَلُ في ذلك اليوم بالهزيمة النهائيَّة للعدوِّ ذي العيون الزائغةِ والجلدِ الأصفر. تماماً كما احْتُفِلَ بعد أشهرٍ بهزيمة الألمان.كانت تلك نهاية معركة طويلةٍ، فاليابانيون هُزِموا بأكثر الأسلحة حسماً في التاريخ، الذي قتل في دقائق قليلة مئة وثلاثين ألف إنسان وحكم بالاحتضار البطيء على عددٍ مماثل. أحدثَ خبرُ ما حدثَ ذعراً صامتاً في العالم، لكنَّ المنتصرين أعموا على مشاهدة الجثث المحترقة والمدن المذرّاتِ في صخب الأعلام والاستعراضات والفرق الموسيقيّة، مستبقةً عودةَ المقاتلين.

ـ هل تتذكّرين الجنديَّ الذي أخذناه معنا في الطريق؟ هل ما زال حيّاً؟ هل سيعود هو أيضاً إلى بيته؟ ـ سألَ غريغوري أمَّهُ قبل أن يذهب ليرى الألعاب الناريَّة.

لم تُجِبْهُ نورا. كان وجودهم في المدينة عابراً وبينما عائلتها ترقصُ بقيت وحيدةً في قمرة الشاحنة. الأخبارُ القادمة من أوروبا في الأشهر الأخيرة لغمت جهازها العصبيَّ والتدميرُ النووي الشامل غمرها بالشك. في الإذاعة لا يتكلّمون عن شيءٍ آخر والصحافة والسينما تنشرُ صوراً جهنميَّة عن مراكز الاعتقال. كانت تتابع خطوةً خطوةً الفظائعَ المرتكبة والمعاناة المتراكمة، تفكّرُ أنَّ القطارات في أوروبا لاتتوقّف، تحمل شحناتها إلى أفران الحرق بلا رحمة، كذلك كان يظهر آلاف اليابانيين متفحّمين باسم عقيدةٍ أخرى... كانت تهمس مذعورةً:كان عليَّ ألاّ آتي بأولادٍ إلى هذا العالم أبداً. حين وصل تشارلز ريفز يغمره الحماسُ بخبرِ القنبلة، اعتبرت أنَّ من العار الفرح بمثل هذه المجزرة، وأنَّ زوجها فقد عقله مثل الآخرين.

ـ ما من شيءٍ سيعودُ كما كان، ياتشارلز. لقد ارتكبت البشريَّة عملاً أخطرَ من الخطيئة الأصليَّة بقليل. هذه هي نهاية العالم. ـ علّقت بوقاحة، لكن دون أن تبدِّلَ من آدابها القديمة وسلوكها الحسن.

ـ لاتقولي ترّهات. علينا أن نشجِّعَ تقدّم العلوم. لحسن الحظ أن القنابل في أيدينا وليست في أيدي الأعداء. لن يستطيع الآنَ أحدٌ أن يواجهنا.

ـ سيعودون لاستخدامها وسيقضون على الحياة على الأرض!

ـ انتهت الحرب وتمَّ تجنُّبُ شرور أسوأ. لو لم نطلق القنبلتين لكان عددُ القتلى أكبر بكثير.

ـ لكن قُتِلَ مئاتُ الآلاف، يا تشارلز.

ـ هؤلاء لا يُحْسَبون، فجميعهم يابانيون ـ ضحك زوجها.

للمرّة الأولى تشكُّ نورا بنوعيَّةِ روحه وتتساءل عمَّا إذا كان فعلاً معلِّماً، كما يدّعي. في ساعة متأخِّرة عادت العائلة، غريغوري يغفو بين ذراعي والده وجودي تحمل بالوناً ملوَّناً عليه نجوم وخطوط.

ـ انتهت الحربُ أخيراً. سيكون عندنا الآن زبدة ولحم وبنزين ـ أعلنت أُولغا، مشرقة الوجه، ملوِّحةً ببقايا علمٍ ورقيّ.

غريغوري، وعلى الرغم من العام الذي يفصل بين غرقِ أُمِّه في الاكتئاب واحتضارِ والده تقريباً فإنّه يتذكّرهما كحادثٍ واحد، وسيبقى الحادثان في ذاكرته دائماً مترابطين، إنّه بداية الانكسارِ الذي سيضعُ نهايةً للمرحلة السعيدة من طفولته. بعد فترة قصيرة وحين بدا أنَّ نورا تعافت وما عادت تتكلَّمُ عن معسكرات الاعتقال والقنابل، مَرِضَ تشارلز ريفز. كانت الأعراض منذُ البداية مقلقة، لكنّه اعتمد على مناعته، ولم يبغ تَقَبُّلَ خيانة جسده له. كان يشعر بنفسه شابّاً، ما زال قادراً على تبديل عجلة الشاحنة خلال دقائق، أو قضاء عدّة ساعاتٍ على السلّم يدهن الجداريّات دون أن يشعر بتشنُّجٍ في ظهره.حين امتلأ فمُه دماً عزاه إلى حسكة سمكٍ قد تكون انغرزت في حنجرته وفي المرَّة الثانية التي حدث معه ذلك لم يبح به لأحد، اشترى زجاجة حليب ماغنيسيا وشرع بتناوله كلَّما شعر بمعدته تلتهب. لكنّه سرعان ما تخلّى عن الطعام وراح يقيم أودَه على الخبز المبلّل بالحليب، والحساء المشعشع وطعام الأطفال اللينِّ، فهبط وزنه وامتلأت عيناه بالغبش وما عاد يستطيع رؤيةَ طريقه بوضوح. صارت أولغا تمسك بالمقود، وتتكهَّن متى لا يعود باستطاعة المريض أن يتحمَّل مفاجآت السفر.فيتوقّفون ويُخَيِّمون. صارت الساعات أطول والطفلان يتسلّيان بالركض حول المكان، لأنَّ أمّهما خبّأت الدفاتر وما عادت تعطيهما دروساً.لم تضع نورا نفسها في حالة أنَّ تشارلز ريفز ميتاً، لم تكن قادرة على أن تفهم لماذا تنطفئ طاقته، التي هي طاقتها أيضاً. بقي زوجها لسنواتٍ طويلة يتحكَّم بكلِّ مظاهر حياتها وحياة ابنيها والقواعد الناظمة *للخطّة اللانهائية* الدقيقة التي كان يديرها على هواه، لم تترك مجالاً لشكوكها.حقيقةٌ أنَّهم لم يتمتَّعوا بالحرية إلى جانبه، لكنهم

أيضاً لم يحاصروا بالقلق والمخاوف. لم يكن هناك داعٍ للهلع، كانت تقول، لأنَّ تشارلز ريفز لم يكن قط كثيف الشعر وهذه التجاعيد العميقة ليست جديدة، فقد خطّتها الشمس منذ زمن، إنَّه أنحل، هذا صحيح، لكن ما إن يبدأ يأكلُ،كما في السابق، حتى يتعافى خلال أيَّام قليلة، حالته ليست أكثر من عسر هضم، أليس صحيحاً أنَّه اليومَ أفضل؟ كانت تسأل دون أن تقصدَ أحداً بسؤالها. كانت أولغا تراقب دون تعليق. لم تحاول أن تعالجَ ريفز بشراباتها وكمَّاداتها، وتكتفي بوضع قطع قماشٍ مبلَّلة على جبينه لتخفيض الحرارة. وحين راحت تسوء حالة المريض اقتحم الخوف الأسرة بلا رحمة، شعروا للمرَّة الأولى أنَّهم في مهبِّ الريح ووعوا حجمَ فقرهم وهشاشتهم.انكمشت نورا مثلَ حيوانٍ ضُرِبَ بعنف، غير قادرة على التفكير في حلٍّ، فبحثت عن عزاء لها في دينها البهائي ملقيةً بالمشاكل على كاهلِ أولغا بما في ذلك العناية بزوجها. فهي لم تجرؤ على لمس ذلك العجوز المُعَذَّب، كان شخصاً مجهولاً، من المحال التعرف على الرجل الذي أغواها بحيويَّته. انهارت الإدارة والتبعيَّة، وقواعد الحبِّ، وبما أنَّها لم تعرف كيف تضع أخرى بديلة تحوَّل الاحترام عندها إلى قرفٍ. ما كادت تقعُ على ذريعة مقبولة حتى أقامت في خيمةِ الطفلين لتذهبَ أولغا وتنامَ مع تشارلز ريفز لرعايته ليلاً حسبما قالت. اعتاد غريغوري وجودي على رؤيتها شبهَ عاريةٍ في فراش أبيهما، لكنَّ نورا تجاهلت الحالة، وكانت مستعدَّة للتظاهر إلى ما لانهاية بأنَّ شيئاً لم يتبدَّل.

توقَّف نشرُ *الخطَّة اللانهائية* لفترةٍ من الزمن، لأنَّ الدكتور في العلوم الإلهيّة فقد الهمَّة في منح الأمل للآخرين، إذ بدأ هو نفسه يفقده ويتساءل سرَّاً عمَّا إذا كانت الروح تسري أم يكفيها ألمٌ في البطن حتى تتشظّى! كذلك لم يكن باستطاعته أن ينغمس في الرسم. استمرَّت الأسفار مع الفقر الشديد دونما هدف محدَّدٍ، وكأنَّهم يبحثون عن شيء هو دائماً في مكان آخر. شغلت أولغا مكانَ الأب بشكلٍ طبيعيٍّ دون أن يتساءل الآخرون عمَّا إذا كان ذلك هو الحل الأفضل، فهي تقرِّرُ وجهة السفر. تستخدمُ الشاحنة، تحمل على كتفها أثقلَ الأحمال، تصلحُ المحرِّكَ حين يثيرُ المتاعب، تصيد الأرانبَ والعصافيرَ، وبالمرجعيَّة نفسها كانت تصدرُ أوامرها لنورا أو تصفعُ الطفلين صفعتين على إليتيهما حين يتمرَّدان. كانت تتحاشى المدنَ الكبرى خوفاً من المنافسات الوحشيّة والشرطة، إلاّ إذا استطاعت أن تُخَيِّمَ في المناطق الصناعيّة، أو بالقربِ من الموانئ، حيثُ تجدُ دائماً زبائنَ لها. تترك آل ريفز في الخيمتين، تأخذ عُدَّةَ سحرها الأسود وتنطلق لتبيعَ فنَّها. تستخدم في السفر بنطلونَ عاملٍ خشناً، قميصاً داخليَّاً وقبَّعة، لكنَّها تنتشلُ

لعملها كعرّافة من الصندوق تنّورةً صارخةَ الألوان مزهّرة، ودُرّاعة مقوّرة، وأطواقاً ضاجّةً وجزمة صفراء. تتزيّنُ بضربات ريشة دونما أدنى عناية: الخدّان لبهلوان، الفم أحمر، الأهداب زرقاء، وكان تأثير هذا الطلاء وتلك الملابس واشتعال شعرها مفزعاً والكثيرون لا يجرؤون على رفضها خوفاً من أن تُحَوِّلهم بمكيدة واحدة إلى تماثيلَ من ملح. يفتحون الباب فيجدون أنفسهم أمام ذلك الشكل القبيح والكرة الزجاجيّة في يدها، فتفغر أفواههم دهشةً، وتستغلُّ هذا التردّد للدخول إلى البيت. كانت في غاية الظرافة حين يتطلّبُ الأمر ذلك، وكثيراً ما كانت تعود إلى المخيَّم بقطعةِ حلوى أو لحم، هديّةً من زبائن راضين ليس عن مستقبلهم الموعود في ورقها السحريّ وحسب بل خصوصاً عن شرارة المزاج الحسن التي تشعلها في سأم حياتهم الدائم. في هذه المرحلة من التردّد صقلت الساحرةُ فطنتها، وطوّرت، وقد حاصرتها الظروف، قواها المجهولةَ. ونمت إلى أن تحوّلت إلى تلك المرأة المريعة التي سيكون لها بالغ الأثر في شباب غريغوري. كان يكفيها عند الدخول إلى أحد البيوت أن تشتمّ هواءه لثوان كي تتشرّب جوّه، تشعرَ بالحضورات اللامرئيّة، تلتقط آثار الفجيعة، تحزر الأحلام، تسمعَ همس الأموات وتفهمَ حاجات الأحياء. تعلّمت بسرعةٍ أن الأحداث تتكرّر مع بعض التبدُّلات الطفيفة، والأشخاص يتشابهون كثيراً، فالجميع يشعرون بالحبّ، الكراهيةِ، الجشعِ، المعاناة، الفرح والخوف بالطريقة ذاتها. الجميعُ، بيضاً وسوداً وصفراً، متساوون تحت الجلدِ، فالكرةُ الزجاجيّةُ، كما كانت تقول نورا ريفز، لا تميّز بين الأعراق، بل بين الآلام فقط. الجميع يريدون أن يسمعوا الحظَّ السعيدَ نفسه، ليس لأنّهم يصدّقون احتماله، وإنّما لأنّ تخيُّلَه يواسيهم. كما أنّ أولغا اكتشفت أنّه لا يوجدُ إلاّ نوعان من الأمراض: القاتلة وتلك التي تشفى وحدها وفي أوانها. تستعين بحبوب سكّر قواريرها متعدِّدةِ الألوان، وحقيبةِ أعشابها، وعلبة تمائمها لتبيع الصحة للقابلين للمعافاة، واثقة من أنّ المريضَ إذا ما أعملَ عقلَه لصالح الشفاء فالاحتمالُ الأكبر هو أن يحدث ذلك. كان الناس يثقون بها أكثر ممّا بجرّاحي المشافي الباردين. مداخلاتها الجراحيّة الوحيدة المهمّة كانت غير شرعيّة: إجهاضات، قلع أضراس، خياطة جراح، لكنّها كانت تتمتّع بعين ثاقبة ويدٍ ماهرة، حتّى أنّها لم تحشر نفسها يوماً في ورطة جدِّيّةٍ. كانت تكفيها نظرة واحدة كي تلتقط علائم الموت، فلا تصفُ للمريض أيَّ شيءٍ أولاً حياءً وثانياً كيلا تضرَّ بسمعتها كطبيبة شعبيّة. وممارساتها في مسائل الصحّة لم تفد في مساعدة تشارلز ريفز، لأنّه كان قريباً منها أكثر من اللازم وكان إذا رأى

أعراضاً منذرة لا يقبلها.

رفض الخطيبُ خيلاءً أو خوفاً أن يرى طبيباً، وكان على استعدادٍ لأن يهزم المعاناة بقوّة عناده، لكنّه داخ ذات يوم فانتقل ما تبقى له من قيادة بالكامل إلى أولغا. كانوا في شرق لوس انجلوس، حيث السكّان اللاتينيون، فاتخذت قراراً بنقله إلى المشفى. كانت قد سادَت جوَّ المدينة في تلك المرحلة صبغةٌ مكسيكيّة، على الرغم من الهوس الأمريكي الخالص بالعيش بصحّةٍ جيّدة وجمال وسعادة. مئات الآلاف من المهاجرين يحدّدون الجو باحتقارهم وألمهم وموتهم، بفقرهم، قدريّتهم واحترازهم، وكذلك بموسيقاهم، وطعامهم الحارّ وألوانهم الجريئة. كان الهيسبانيون[1] محشورين في غيتو، لكن تأثيراتهم تطفو في كلّ مكان، لا ينتمون إلى هذا البلد، كما لا يريدون ظاهرياً أن ينتموا، إلاّ أنّهم يتطلعون في السرّ إلى أن يندمجَ أبناؤهم فيه. يتعلّمون الإنكليزيّة وسطاً ويحوّلونها إلى إسبانيّة ـ انكليزيّة ذات جذور راسخة انتهت مع الزمن إلى أن أضحت لغة مقبولة كلغة تشيكانيّة[2] ، وبتمسُّكِهم بتقاليدهم الكاثوليكيّة وعبادة أرواح الموتى، وبشعور صديٍّ بالوطنيّة والفحوليّة لم يذوبوا في المجتمع، وبقوا محشورين لجيلٍ أو جيلين في أكثر المهن تواضعاً. كان الأمريكيُّون يعتبرونهم أناساً أشراراً، رجيمين، خطرين والكثيرون يصرخون أيّ شيطان يجعل من المحال حصرهم في الحدود، إذ لماذا وُجِدَت الشرطة اللعينة؟ ويحهم، لكنّهم كانوا يستخدمونهم كيدٍ عاملة رخيصة، وإن كانوا دائماً تحت المراقبة. كان المهاجرون يلعبون دورهم كمهمّشين بشيء من الكبرياء: منحنون نعم، لكنّهم لن يكونوا أبداً مقصومي الظهر، يا أخي. كانت أولغا قد تردّدت عدّة مرّاتٍ على هذا الحي وتشعر بأنّها على هواها هناك، تبربط بالإسبانيّة دون فخفخة ويكادُ لا يلاحَظُ أنّ نصفَ قاموسها يتألّف من كلمات ابتدعتها. اعتقدت أنّها ستستطيع كسب عيشها من فنّها هناك.

وصلوا إلى باب المشفى في الشاحنة، وبينما راحت نورا وأُولغا يساعدان المريض على الهبوط راح الطفلان المذعوران يواجهان النظرات

---

(1) الهيسبانيون: هم سكان أمريكا الشمالية من أصل أمريكي جنوبي ولغتهم الأم الإسبانية.

(2) تشيكانو: اسم يطلق على الجالية المكسيكيّة في الولايات المتحدة الأمريكيّة وقد تعرّضت وما تزال للتفرقة العنصريّة هناك والتشيكانية لغتهم. (المترجم)

الفضوليَّة للذين يُطلّون ليراقبوا تلك العربة الثقيلة برموزها السرِّيّة المرسومة بكلِّ الألوان على الهيكل.

ـ ما هذا؟ ـ استفهمَ أحدهم.

ـ الخطّة اللانهائيّة، ألا ترى ـ أجابت جودي مشيرة إلى اللافتة في أعلى المسّاحتين. وما من أحدٍ سأل بعد ذلك.

بقي تشارلز ريفز في المشفى، حيث انتزعوا بعد أيَّام قليلة نصف معدته وخاطوا له الثقوبَ الموجودة في النصف الآخر. فيٌ هذه الأثناء كانت نورا وأولغا والطفلان والكلب والأفعى وعفشهم قد رتبوا أمرهم في صحن دار آل مورالِس، المكسيكي الكريم الذي كان قد درس قبل أعوام مضت الدورة الكاملة لعقائد تشارلز ريفز، وعلق على جدار بيته الوثيقة التي تثبت أنَّه روح متفوّقة.كان مصمتاً مثل قرميدة، له ملامح الرجل الخلاسي الثابتة وقناع من الخيلاء يتحوَّل إلى ملمح ساذج حين يكون رائق المزاج. يتوهّجُ في ابتسامته عددٌ من الأسنان الذهبيّة، التي وضعها كنوع من الأناقة بعد أن اقتلع السليمة. لم يقبل أن تبقى عائلةُ معلّمه في العراء ـ قال إنّ النساء لا يمكن أن يبقين بلا حماية، هناك قطّاع طرق كثيرون في هذه الأنحاء ـ لكن لم يكن في البيت مكان لكل هؤلاء الضيوف، فعنده ستة أولاد وحماة مضعضعة وبعض الأقارب اللائذين بسقفه. ساعدَ على نصب الخيمتين ووضع موقد كيروسين آل ريفز في صحن الدار واستعدَّ لنجدتهم دون أن يهين كرامتهم. كان ينادي نورا بلقب *دونيا* وباحترام كبير لكن أولغا التي شعر بأنّها أقرب إلى حالته فكان يناديها *بالآنسة*. بقيت زوجته إنماكولادا مورالس منيعةً أمام العادات الأجنبيّة ومخلصةً لعاداتها الأصليَّة، على العكس من الكثيرات من بنات بلدها في هذه الأرض الغريبة، اللواتي يتزيينّ، ويتوازنّ فوق أكعاب رفيعة كالمجسّات وجعداتِ شعرٍ حرقها المثبّت وماءُ الأوكسجين . كانت صغيرة الحجم ، ناحلة وقويَّة ولها وجهٌ مريح خالٍ من التجاعيد وشعر له ضفيرة تتدلّى على ظهرها وتصل أسفل الخصر وتستخدم مآزر بسيطة وخفاً، إلاّ في الأعياد الدينيَّة حين كانت تزدهي في ثوبٍ أسودَ وأطواق ذهبيَّة. كانت إنماكولادا تمثّلُ عماد وروحَ بيت آل مورالِس. لم يتبدَّل فيها شيء حين امتلأ صحن بيتها بالزائرين، فقط زادت كميَّةَ الطعام بحيلٍ كريمة، بزيادة الماء للفاصولياء، كما كانت تقول، وتدعو في كل مساء آلَ ريفز للعشاء، صلٌ لأجله، يا صديقتي، وتعالي مع الولدين لتجرِّبوا مُحَمَّصَ الذرة، تعرضُ

عليهم بخجلٍ، أو لكي لا يفسد محشيُّ الفلفلِ، انظروا إنَّه كثير، مُبارَكٌ الربُّ. وهكذا كان الضيوف يجلسون إلى مائدة آلِ مورالِس الكريمة بشيءٍ من الخجل.

تأخَّرت جودي وغريغوري عدَّة أشهر حتى فهما حياة الاستقرار. وجدا نفسيهما محاطَين بقبيلة من الصبية السمر الذين يتكلمون إنكليزيَّةً مرَقَّعةً ولم يتأخروا في تعليمهما لغتهم، بادئين *بتشينغادا*[1]، أكثر مفرداتهم رنيناً وفائدة، على الرغم من أنَّه لم يكن من الحكمة ذكرها أمام إنماكولادا. تعلَّما من أولاد آل مورالِس التواجدَ في متاهة الشوارع، والمساومة، وتمييز الأعداء من نظرةٍ واحدة، والاختباء والهرب.كانا يذهبان معهم للَّعبِ في المقبرة ومراقبة العاهرات عن بعدٍ وضحايا الحوادث المشؤومة عن قرب. كان لخوان خوسِه، وهو من عمر غريغوري حاسَّة شمٍّ لا تُخْطِئ في الفجائع، فهو يعرف دائماً أين كانت تقع اصطدامات السيَّارات، والدعسِ، والمعارك حتى الموت بالسكاكين. أخذَ على عاتقه معرفة المكان الذي انتحر فيه زوجٌ هجرته زوجته وتبعت بائعاً جوَّالاً، بالوقوف أمام القطار، بدقَّة، فهو لم يستطع أن يقاوِمَ عارَ أن ينادوه بالمقرون. رآهُ شخصٌ يدخِّنُ بهدوءٍ سيجارة بين خطَّي القطار وصرخ به ليبتعد فالقاطرة قادمة، لكنَّه لم يتحرَّك. وصل الخبرُ إلى سمع خوان خوسِه قبل أن تقعَ المأساةُ. وكان أولاد مورالِس وريفز أوَّل من ظهر في مكان الموت، وما إن تجاوزوا الرعب الأوَّلي حتى ساعدوا في جمع أعضائه، إلى أن أبعدتهم الشرطة عن المكان.احتفظ خوان خوسِه بإصبعٍ للذكرى، لكنَّه ما إن راحَ يرى الميتَ في كلِّ مكان حتى فهم أنَّ عليه التخلُّصَ من هذا التذكار. ومع ذلك كان قد تأخَّرَ الوقت لإعادتها إلى أقرباء الميت لأنَّ أجزاءه ووريَت التراب منذ أيَّام.

لم يعرف الفتى، الذي أرعبته الروح المتألِّمة كيف يتصرف بالإصبع، فرميها في القمامة أو إعطاؤها لأفعى آل ريفز ليس طريقة محترمة لإصلاح الشر. استشار ريفز أولغا سرّاً فاقترحت عليه الحل الأمثل: أن يتركها بحذرٍ فوق مذبح الكنيسة، المكان المقدَّس الذي ما من روح بحسب عقلها السليم ستشعر بالإهانة. هناك وجدها الأب لارَّاغيبلْ، الذي كان الجميع ينادونه ببساطة الأب نظراً لصعوبة كنيته، الراهب الباسكي ذو الروح المعذَّبة، والشعور العملي الكبير، الذي طرد المتهم دون تعليق.

---

(1) بتشينغادا: كلمة تحمل عدداً من المعاني بحسب موقعها: فشل، هراء، خراء، ... الخ.

تكفيه مشاكله مع أبناء أبرشيته، حتى يضيع وقته في الاستقصاء عن أصل إصبع مبتورة.

ذهب الأخوان ريفز إلى المدرسة لأوّلِ مرَّةٍ في حياتهما. كانا الأشقرين الوحيدين، زرقاوي العيون في تجمّع من المهاجرين اللاتينيّين، حيث قاعدة النجاة هي تكلم الإسبانيّة وسرعة الجري. كان ممنوعاً على الأطفال استخدام لغتهم الأصليَّة، فالأمر يتعلّق بتعلم الإنكليزيّة لتسهيل الاندماجِ السريع. وحين كانت تفلت من أحدهم كلمة خلاسيَّة على مسمع من المعلّمة يتلقّى صفعتين على قفاه. فإذا كانت الإنكليزيَّةُ قد كفت المسيح لكتابة الكتاب المقدَّس، فلا حاجة للغة أخرى في العالم، تلك كانت ذريعة الإجراءات الصارمة. كتحدٍّ كان الأطفال يتكلّمون القشتاليَّةَ في كلِّ مناسبةٍ ممكنة، ومن لا يفعل يصنَّف على أنّه *بوّاس الطيظ* وهو أسوأ نعت في المفردات المدرسيَّة. لم تتأخَّر جودي وغريغوري في الإحساس بالكراهية العنصريَّة وخافا أن يصيرا عصيدة عند أوَّل غفلة. وكان غريغوري من الخوف في الدرس الأوَّل بحيثُ أنَّ صوته لم يخرج حتى ليقولَ اسمه.

ـ عندنا تلميذان جديدان ـ ابتسمت المعلّمة، سعيدة بوجود صبيين بيضاوين بين تلك الكثرة من السمر ـ . أريدكم أن تُحسنوا معاملتهما، وتساعدوهما على الدراسة ومعرفة قواعد هذه المدرسة. ما اسماكما، يا عزيزيَّ؟

خرسَ غريغوري، وقد أمسك بثوب أخته. أخيراً انتزعته جودي من ضيقه.

ـ أنا جودي، وهذا أخي الغبي ـ أعلنت. وانفجر الصفُّ كلّه بمن فيهم المعلّمة بالضحك. أحسَّ غريغوري بشيءٍ ساخن ولزجٍ في بنطلونه.

ـ حسناً، هيَّا نجلس ـ أمرتهم.

بعد دقيقتين بدأت جودي تشدُّ على أنفها وتنظرُ إلى أخيها نظرة ليست لطيفة. أمَّا غريغوري فبقي نظره في الأرض، حاول أن يتصوَّرَ أنّه ليس هناك بل في الشاحنة عبر الطرقات، في الهواء الطلق وأنَّ أباه لم يمرض، وهذه المدرسة اللعينة لم توجد قط، ليست أكثر من كابوس. في الحال شعر الأطفال بالرائحة ودبَّت الفوضى.

ـ هيَّا نرى من هو؟ ـ سألت المعلّمة بابتسامةٍ مزيَّفة تبدو ملتصقةً بأسنانها ـ . ليس هناك ما يُخجلُ، إنَّه حادثٌ يمكن أن يقع مع أيٍّ كان...

من هو؟

ـ أنا لم أخرَ وكذلك أخي، أُقسِمُ لكِ! ـ صاحت جودي مُتَحَدِّيةً. استُقْبِلَ تصريحها بجوقة من السخرية والقهقهة.

اقتربت المعلِّمةُ من غريغوري وهمست في أذنه كي يخرج من الصف، لكنَّه تعلَّق بيديه الإثنتين بالمقعد وقد حشر رأسه بين كتفيه وضغط على أجفانه واحمرَّ خجلاً. حاولت المرأة أن تخرجه من يده، دون عنف في البدايةِ، ثمَّ شدّاً، لكنَّ الطفلَ كان مُلْتَحِماً بالمقعد بقوَّة القنوط.

ـ إلى الخراء! ـ عوت جودي في وجه المعلِّمة بإسبانيَّتها حديثة العهد
ـ هذه المدرسة خراء! ـ أضافت بالإنكليزيّة.

صُعِقَت المعلِّمةُ من المُفاجأة والصفُّ خرس.

ـ خراء، خراء بخراء! ـ هيَّا بنا يا غريغ. ـ وخرج الأخوان من الصفّ ممسكاً الواحدُ بيد الآخر، هي بذقنها إلى الأعلى وهو بذقنه الملتصقة بصدره.

أخذت جودي غريغوري إلى محطَّة وقود، خبَّأته بين بعض براميل الزيت وتدبَّرت أمر غسل بنطلونه بخرطوم دون أن يراهما أحد. عادا إلى البيت بصمت.

ـ كيف كان الحال؟ ـ سألت نورا ريفز مستغربة عودتَهما الباكرة.

ـ المعلِّمة قالت إنَّه لا يتوجَّبُ علينا العودة. فنحنُ أذكى من بقيَّة التلاميذ بكثير، فهؤلاء المخاطون لا يعرفون حتى التكلُّمَ مثل الناس، ياماما. لا يعرفون الإنكليزيَّة.

ـ ما هذا الذي تقولينه؟ ـ قاطعتها أُولغا ـ. ولماذا ثيابُ غريغوري مُبَلَّلة؟

وبذلك اضطرّا في اليوم التالي إلى العودة إلى المدرسة، تجرُّهما يدُ أُولغا، التي قادتهما حتى قاعة الدرس لتعتذر من المعلِّمة عن الشتائم المنطوقة وعبوراً حذَّرت بقيَّة الأطفال من أنَّه حذار أن يزعجوا الطفلين ريفز. وقبل الخروج واجهت الحشدَ الكتيم من الصبية السمر مومئة باللعنة: قبضتاها مغلقتان والسبَّابة والخنصر موجَّهان مثل قرنين. كان لمظهرها الغريب، ولنبرتها الروسيَّة وتلك الإيماءة من القوَّة بحيثُ هدَّأت تلك الضواري على الأقل لفترة من الزمن.

بعد أسبوع أتمَّ غريغوري السابعةَ من عمره. لم يحتفلوا به، الحقيقة لم يتذكَّروه، لأنَّ اهتمام الأسرة كان منصبَّاً على الأب. أولغا، الوحيدة التي

كانت تذهب يومياً إلى المشفى، جاءت بخبر أنَّ تشارلز ريفز خرج من تحت الخطر، ونُقِلَ إلى قاعة عامّة حيث يستطيعون زيارته.غسلَتْ نورا وإنماكولادا مورالِس الأطفالَ حتى صاروا يلمعون، ألبستاهم أفضلَ ما عندهم من ثياب وسرَّحتا شعرَ الذكور بمثبِّت الشعر وشعر الإناث بالشرائط. انطلقوا في موكب إلى المشفى مع باقات متواضعة من أقحوان حديقة البيت وفسقيّةٍ من عجَّة الدجاج والفاصولياء المقليّة مع الجبن أعدَّتها إنماكولادا. كانت القاعة كبيرة كهنغار بأسرَّة متشابهة على الجانبين وممرٌ سرمديٌ لا ينتهي في الوسط، قطعوه على رؤوس أقدامهم حتى وصلوا مكان المريض. اسم تشارلز ريفز المكتوب عند قدمي السرير هو الذي سمح لهم بالتعرُّف عليه، ولولا ذلك لما عرفوه. صارَ شخصاً غريباً، شاخَ ألفَ عام، صار لون جلده شمعيّاً، عيناه غارتا في محجريهما و رائحة لوز تصدر عنه. بقي الأطفال، الواقفون الكتف إلى الكتف وباقات الأزهار في أيديهم، لا يعرفون أين يضعونها، غطّت إنماكولادا المستحية فسقيّة العجَّة بمنديلها ونورا ريفز بدأت ترتعد. شعر غريغوري بأنَّ شيئاً لا يُصْلَحُ قد حدث في حياته.

ـ حاله الآنَ أفضلُ بكثير، قريباً سيستطيع أن يأكلَ ـ قالت أُولغا وهي تصلح وضعيَّةَ إبرةِ المصل في وريد المريض.

تراجعَ غريغوري إلى الممرّ، نزل الدرجَ قفزاً ثمَّ راح يجري باتجاه الشارع. جلس القرفصاء عند باب المشفى ورأسه بين ساقيه وقد أحاطهما بذراعيه، مثل كبَّة خيطان، يكرِّرُ خراء وكأنَّه يبتهل.

حين كان المهاجرون المكسيكيّون يصلون كانوا يقعون في بيوت الأصدقاء أو الأقارب التي تتكدَّس فيها عدَّة عائلات.كانت قوانين الضيافة حرمة لا تُخترق، فلا أحد يُنكرُ سقفاً أوطعاماً على أحدٍ في الأيّام الأولى، لكن على كلٍّ واحدٍ أن يعتمد على نفسه. كانوا يأتون من كلّ قرى جنوب الحدود بحثاً عن عمل، لا يملكون غير الثياب التي يرتدونها وصرَّة على ظهورهم وأفضل النوايا لتحسين أوضاعهم في الأرض الموعودة، التي قالوا لهم بأنَّ المال ينمو فيها كالأشجار، وأيَّ إنسان فطن يستطيع أن يصبح رجلَ أعمال، يملك «كاديلاك» وشقراء يتأبَّط ذراعها. ومع ذلك لم يحكوا لهم أنَّه مقابل كل ذي حظ هناك خمسون يبقون على قارعة الطرقات وخمسون آخرون يعودون مهزومين، وأنَّهم لن يكونوا المحظوظين، قدرهم أن يشقوا الطريق لأولادهم وأحفادهم المولودين

في الأرض المعادية. لم يتوقّعوا فاقة الصحراء، وكيف سيعسف بهم أرباب العمل وتلاحقهم السلطات، ولا كم يكلّفُ لمُّ شمل العائلة، المجيءُ بالأطفال والشيوخ، ألَمُ أن يقولوا وداعاً للأصدقاء ويتركوا خلفهم أمواتهم. كذلك لم يُنَبِّهوهم إلى أنَّهم سرعان ما سيُضيِّعون تقاليدهم ويتركهم تآكلُ الذاكرة بلا ذكريات وأنّهم لن يكونوا المتواضعين الأكثر تواضعاً بين المتواضعين. لكن ربَّما حتى لو عرفوا كلَّ ذلك، لكانوا شرعوا بالسفر نحو الشمال. كانت إنماكولادا وبيدرو مورالِس يطلقان على نفسيهما اسم « *عاملَي الأسلاكِ المُبَلَّلين*» المركَّبَة من « *سلك*» و « *متن مُبَلَّل*»، كما كان يُشَارُ إلى المهاجرين غير الشرعيين ويروون وهم يموتون من الضحك كيف عبروا الحدود مرَّاتٍ عديدة، بعضهم يعبر نهرَ ريّو غراندي سباحةً وآخرون بقصِّ أسلاك الحظار. كيف ذهبوا إلى بلادهم لزيارة أهاليهم في مناسباتٍ عدَّة ، داخلين وخارجين مع أولادهم من كلّ الأعمار بل ومع الجدَّةِ، التي جاؤوا بها من الضيعة حين ترمَّلت وتفكَّكَ دماغُها. بعد سنوات تمكّنوا من شرعنة الأوراق وصار أولادهم مواطنين أمريكيّين. لم تكن مائدتُهم تخلو من مكان لقادم جديد والأطفال ترعرعوا وهم يسمعون قصص شياطين بائسين عبروا الحدود متخفِّين مثل البالات في صندوق الشاحنة المضاعف، يقفزون من القطارات وهي سائرة، أو يتجرجرون في المجارير القديمة وهم في ذعر من أن تباغتهم الشرطة، شرطة الهجرة المخيفة، ويعادوا إلى بلادهم كالصراصير، بعد أن يُفَيِّشوهم كمجرمين.كثيرون كانوا يموتون تحت ضربات الشرطة وجوعاً وعطشاً، وبعضهم يختنق في مقصورات سيَّارات «الذئاب» السرِّيّة، الذين يقومُ عملُهم على نقلِ اليائسين من المكسيك إلى إحدى القرى على الجانب الآخر.في المرحلة التي قام فيها بيدرو مورالِس بالرحلة الأولى كان الشعور باستعادة الأرض التي كانت دائماً لهم مايزال سائداً، واختراق الحدود بالنسبة إليهم لا يشكِّل جرماً بل واحدة من مغامرات العدالة.كان بيدور مورالِس في العشرين من عمره، انتهى توّاً من الخدمة العسكريَّة، وبما أنَّه لم يكن يبغي متابعة خطى والده وجدِّهِ، الفلاحين المعدومين في أملاكِ ثاكاتِكاس فضل الشروع بالرحيل إلى الشمال. وهكذا وصل إلى تيخوانا حيث كان يأمل الحصول على عقد «أجير» ليعمل في الحقل، لأنَّ المزارعين الأمريكيين يحتاجون إلى اليدِ العاملة الرخيصة، لكنَّه وجدَ نفسَه بلا مال، فلم يستطع الانتظار حتى تنتهي الإجراءات الرسميَّةُ أو رشوةَ الموظَّفين والشرطة، كما لم تعجبه هذه البلدة المؤقَّتة، حيث كان الرجال، برأيه، بلا شرفٍ والنساء بلا احترام.وكان قد تعب من الذهاب من

هنا إلى هناك بحثاً عن عمل، كما لم يبغ الاقتراض أو قبول الصدقة. قرَّرَ أخيراً أن يجتاز حظارَ الماشية الذي يرسم الحدود، قاصّاً الأسلاكَ الشائكة بالكلابة. وراح يسير في خطٍّ مستقيم باتجاه الشمس، متَّبِعاً بذلك تعليمات صديقٍ خبرته أكبر. وهكذا وصل إلى جنوب كاليفورنيا. قضى الأشهرَ الأولى بشكلٍ سيِّئ ولم يلق سهولة في تأمين العيش كما قالوا له. مضى من مزرعةٍ إلى أخرى، قاطفاً الفاكهة والفاصولياء أو القطن، نائماً في الطرقات، محطّاتِ القطارات، في قرّافاتِ السيّارات القديمة، متغذّياً على الخبز والبيرة، متقاسماً الفاقة مع آلاف الرجال ممّن لهم حالته. كان أرباب العمل يدفعون أقلَّ ممّا يعرضون وعند أوَّل مطالبة يلجؤون إلى الشرطة، المستنفرة دائماً في ملاحقة اللاشرعيين. لم يكن باستطاعة بيدرو الاستقرار في أيِّ مكانٍ لزمنٍ طويل، فشرطة المهاجرين وراءه تتعقَّبُ خطاه، لكنَّه خلع أخيراً القبّعةَ والصندل واتخذ مكانهما البلوين والكاتشوتشا[1] وتعلَّم النطقَ ببعض الجملِ بالإنكليزيّة. وما أن استقرَّ في الأرض الجديدة حتى عاد إلى قريته بحثاً عن خطيبة الطفولة، إنماكولادا فوجدها بانتظاره في ثوب العرس المُنَشّى.

- «الغرينغيّون» كلُّهم مجاذيب، يضعون الدرّاقَ على اللحم والمُربّى على البيض المقلي، يرسلون كلابهم إلى صالونات الحلاقة، لا يؤمنون بمريم العذراء، الرجال يجلون الصحون في البيوت والنساء يغسلن السيّارات في الشارع وهن في الحمّالات والسراويل القصيرة، يُرى كل شيء، لكن إن لم يحشر المرء نفسه معهم يستطيع أن يعيش على أحسن ما يرام - خبَّر بيدرو خطيبته.

تزوَّجا بحسب الطقوس والاحتفالات المعتادة، ناما الليلة الأولى كزوجين في سرير أبويِّ الفتاة، المستعار للمناسبة، وفي اليوم التالي أخذا الباص باتجاه الشمال. كان بيدرو يحملُ بعض النقود وقد صار خبيراً في اجتياز الحدود، وظروفه أفضل من المرَّة الأولى، لكنَّه خائفٌ الخوف نفسه، لا يرغبُ بتعريض زوجته لأيِّ خطر. كانت تُرْوَى حكايات يقشعرُّ لها البدن عن سرقات ومجازر قطاع الطرق، فساد الشرطة المكسيكيّة وسوء المعاملة الأمريكيّة، حكايات يقشعر لها الفحول من الرجال. بالمقابل كانت إنماكولادا تسير سعيدةً وراء زوجها بخطوةٍ وصرَّة ممتلكاتها متوازنة على رأسها يحميها من الحظ السيّئ وشاحُ

---

(1) البلوين والكاتشوتشا: قبعة وحذاء السكان الأصليين.

عذراء غوادلوب، الصلاة على شفتيها وعيناها مفتوحتان على مداهما لترى العالم الممتدّ أمامها مثل صندوق رائع مليء بالمفاجآت. لم تكن قد خرجت قط من ضيعتها أو ظنَّت بأن الطرق يمكن أن تكون لانهائيّة، لكنَّ شيئاً لم يستطع أن يثبط عزيمتها أو يذلّها، لا التعب ولا مكائد الحنين، وحين وجدت نفسها مستقرَّةً مع زوجها في غرفةٍ بائسةٍ في فندق على الجانب الآخر من الحدود ظنَّت أنَّها تخطَّت عتبة السماء. بعد عام جاء الطفلُ الأوَّل. حصل بيدرو على عمل في معمل للمطَّاط في لوس أنجلوس واتبع دورة ميكانيك ليليّة. وفي الحال عملت إنماكولادا، كي تساعد زوجها، في معمل للملابس، ثمَّ في الخدمات المنزليَّة، إلى أن أجبرها الحمل المتتالي والأولاد على ملازمة البيت. كان آل مورالِس مُنظَّمين لا رذائل عندهم، يقتصدون في المال وتعلَّموا الاستفادة من منافع ذلك البلد الذي سيبقون فيه غرباء، وسيكون لأبنائهم فيه مكان. كانوا دائماً مستعدِّين لأن يفتحوا بابهم لإيواء الآخرين، تحوَّلَ بيتهم إلى معبر للناس. اليوم لكَ، وغداً لي، أحياناً يكون عليك أن تعطي وأخرى أن تتلقَّى، هكذا كانت تقولُ إنماكولادا، هذا هو قانون الطبيعة. تبيَّنَ لهم أن للكَرَمِ أثراً مُضاعفاً، لم تنقصهم الثروة ولا العمل، والأبناء كانوا بالنتيجة سليمي البنية والصداقات طيّبة، ومع الزمن تخطّوا فقر وعوز البداية. بعد خمس سنوات من وصولهم إلى المدينة أقام بيدرو ورشته الخاصَّة للسيَّارات. وفي المرحلة التي جاءهم فيها آل ريفز للعيش معهم كانوا من أكرم عائلات الحي، وإنماكولادا تحوَّلت إلى أمٍّ كونيَّةٍ وبيدور إلى رجل عادلٍ يستشيره أهل الحي. في هذا الجو، الذي لم يكن يخطرُ لأحد فيه اللجوء إلى الشرطة أو العدالة لحلِّ الصراعات، كان يعملُ هو كحكمٍ في حالات سوء الفهم وكقاضٍ في النزاعات.

كانت أُولغا على حقّ، ولو جزئيّاً. فبعد شهرٍ من العمليَّة خرج تشارلز ريفز من المشفى على قدميه، لكنَّ فكرة العودة للتشرّد في الطرقات غير معقولة، لأنّه كان واضحاً أنَّ نقاهتَه ستطول كثيراً. الطبيبُ أمره بالراحة والحميةِ والمراقبة الدائمة، وألاّ تخطر ببالهم حياة الترحال لزمن طويل، ربَّما لسنوات. كانت الوفورات قد انتهت منذ زمن طويل والأسرة مدينة لآل مورالِس بمبلغ محترم. لم يكن يرضى بيدرو سماع هذه المسألة لأنّه كان مديناً لمعلّمه ديناً روحيّاً من المحال تسديده. لكنَّ تشارلز ريفز لم يكن رجلاً قادراً على قبول الصدقة ولا حتى من صديقٍ وتلميذ، كما لم يكن

باستطاعتهم الاستمرار بالتخييم في صحنِ بيتٍ غريب، وعلى الرغم من توسُّلات الطفلين، اللذين رأيا إمكانيَّة التخلّص من قمع المدرسة تتلاشى للأبد، فقد بيعت الشاحنة بعد أن انتزعتِ منها اللافتة ومُكبِّر الصوت؛ واستطاع آل ريفز أن يشتروا بالمال المُحصَّلِ والمستدان كوخاً خرباً على حدود الحيِّ المكسيكيِّ.

استنفر آلُ مورالِس أقرباءهم للمساعدة في إعادة بناء الكوخ. كانت تلك نهاية أسبوع لا تنسى بالنسبة إلى غريغوري ريفز، فالموسيقى والطعام اللاتينيُّ سيبقيان مرتبطين في عقله بفكرة الصداقة. ظهرت فجرَ يومِ السبت في المكان قافلة من مختلف الآليّات، بدءاً من شاحنة صغيرة يقودُها رجلٌ ضخم ذو ابتسامة مُعدية، أخو إنماكولادا، وانتهاءً بصفٍّ من الدرّاجات التي نقلوا عليها أبناء عمومةٍ وأخوالاً وأحفاداً وأصدقاء، كلّهم مجهَّزون بالأدوات والمواد اللازمة للبناء. أقامت النسوة المشمِّرات عن أيديهنَّ المواقد في المكان وطبخن لذلك الحشد. كانت رؤوس الفراريج المقطوعة تتطاير وقطع الخنزير والبقر تسلخ، يسلقن عرانيس الذرة والفاصولياء والبطاطا. تُشْوَى العجَّةُ، وتتراقص السكاكين الفارمةُ، القاطعةُ والقاشرة، وتلمع تحت الشمس فسقيات الفاكهة وتنتظرُ في الظلِّ البندورة الحمراء مع البصل، الصلصة الحارّة وسلطة الأفوكاتو، وكانت تتسرّب من القدور روائح الطبيخ اللذيذ ومن الدوارق والقناني تُشربُ التكيلا والبيرة، ومن القيثارات تنبثق أغاني الأرض الكريمة على الطرف الآخر من الحدود. والأطفال يتراكضون مع الكلاب بين الطاولات. الطفلات الوديعات جدّاً يساعدن في الخدمة، ابن عمٍّ متخلِّف عقليّاً، له وجه آسيويٌّ حسن، يغسل الصحونَ. الجدَّةُ الخرفة، الجالسةُ تحت شجرة، تساهم بصوتها الذي يشبه صوت الحسّون مع الطبَّاخات. أُولغا توزِّع عجَّةَ الذرة بين الرجالِ، وتبقي الأطفال على الحدّ. عملوا طوال نهاية الأسبوع وحتى ساعة متأخِّرة من الليل بفرح تحت أوامر تشارلز ريفز وبيدرو مورالِس، ينشرون، يسمّرون ويلحمون . كانت حفلة من عرق وغناء ويوم السبت أصبح البيتُ على جدرانٍ راسخة ونوافذ في مفاصلها وألواح زنك على السطح وأرضٍ من ألواحِ خشب جديد. فكّ المكسيكيُّون طاولات الطعام، جمعوا معدّاتهم وقيثاراتهم وأولادهم صعدوا إلى آليَّاتهم واختفوا من حيث جاؤوا، بحشمة كيلا يشكرهم أحد.

سأل غريغوري عندما دخلَ أهله البيت الجديد عما إذا كان هذا البيت لن يتفكَّكَ، غير مصدِّقٍ أمام ثبات جدرانه. بدت الغرفتان المتواضعتان للطفلين قصراً، لم ينعما من قبل بسقف صلب فوق رأسيهما، ليس غير

قماش الخيمة أو السماء. أعدَّت نورا موقد الكيروسين ووضعت الآلة الكاتبة القديمة في غرفتها وفي الصالة في زاوية محترمة وضعت حاكي الحبلة كي تسمع الأوبرا والموسيقى الكلاسيكيّة، واستعدَّت في الحال للبدء بمرحلةٍ جديدة.

قرَّرت أولغا دون توضيحات كثيرة الانفصال عنهم. في البداية بقيت في صحن دار آل مورالِس بحجَّة أنَّ بيت آل ريفز بعيد جدّاً وأن أحداً من زبائنها لن يذهب إلى هناك، واستطاعت بعد فترة قصيرة أن تستأجر غرفة فوق مرآب، في الطرف الآخر من الحيّ، حيث علَّقت لافتة تعرضُ فيها خدماتها كعرَّافة وقابلة وطبيبة شعبيَّة. انتشرت إشاعةُ فطنتها بسرعة وترسَّخَ صداها حين أزالت للأبد شعرِ ذقنٍ وشاربِ صاحبة المخزن. في هذا المكان حيث الشعرُ في وجوه الرجالِ أنفسهم قليل، بقيت صاحبةُ المخزنِ هدفاً لأقسى السخريات، إلى أن تدخَّلت أولغا وخلَّصتها منها بمغليٍّ من ابتكارها، هو ذاته الذي تصفه لعلاج الجرب. وعندما صار باستطاعتها أن تتمختر بوجنتيها في وضح النهار قالت ألسنة السوء بأنَّ الشعر كان يضفي عليها على الأقل ملمحاً جذّاباً، بالمقابل صارت دونه مجرَّد سيِّدَةٍ لها وجه قرصان. ودبَّ الصوت القائل بأنَّه إذا كان باستطاعة الطبيبة الشعبيَّة أن تشفي برقيَّاتها ومراهمها فإنَّ باستطاعتها أيضاً أن تضرَّ بسحرها، فخافها الناسُ. كانت جودي وغريغوري يذهبان باستمرارٍ لرؤيتها وتظهرُ هي في بيت آل ريفز أيَّام الآحاد، ومن حينٍ لآخر لتتناول الغداء معهم. لكنَّ زياراتها راحت تتباعد إلى أن اختفت كليّاً. وشيئاً فشيئاً صاروا لا يذكرون اسمها، لأنَّ ذكره يشحن الجوَّ بالتوتُّر. جودي المتلهية بالأشياء الجديدة الكثيرة لم تشتقْ إليها، لكنَّ غريغوري لم يقطع الاتصال معها.

عاد تشارلز ريفز ليكسب العيش بالرسم. فهو يستطيع ومن خلال صورة ضوئيَّة أن ينتج صورة مطابقة في حالة الرجال ومحسَّنة في حالة السيِّدات اللواتي كان يزيل عنهنّ آثار السنين، يخفِّف من ملامح الموروث الأصلي أو الأفريقي، يفتح لون الجلد والشعر ويلبسهنّ ثياباً احتفاليّة. وما إن شعر بنفسه قويّاً بما يكفي حتى عاد أيضاً إلى مواعظه وكتابة كتبه التي كان يطبعها بنفسه. وعلى الرغم من العوائق الاقتصاديّة لمؤسَّسة *الخطة اللانهائية* تابع طريقه متخبِّطاً، لكن بعناد. كان الجمهور يتكوَّن بشكلٍ أساسيّ من العمال وعائلاتهم، الذين لايكاد الكثيرون منهم يفهمون الإنكليزيَّة، لكن الواعظَ تعلَّم بعضَ الكلمات الأساسيّة في اللغة الإسبانيَّة، وحين كانت تخونه المفردات يلجأ إلى لوح

كبير يرسم عليه فكرته. لم يكن يأتي في البداية غير أصدقاء وأقرباء آل مورالِس، تشدّهم رؤية الأفعى عن قرب أكثر من أفكار المحاضرة الفلسفيّة؛ لكن سرعان ما عرفوا أن الدكتور في العلوم الإلهيّة كان بليغاً ويستطيع بجرّة قلم أن يرسم «كاريكاتيرات من أظرف ما يمكن، تمعَّنْ، لو تعرف كيف يرسمها، هكذا فقط، حتى دون أن ينظر» ولم يضطرّ آل مورالِس لأن يضغطوا على أحدٍ لملء القاعة. وحين علم بالقلق الذي كان يعيش فيه جيرانه ، قضى ريفز أسابيع في المكتبة يدرس القوانين، فاستطاع أن يُقدِّمَ إلى مستمعيه نصائح للإبحار في مياه النظام المجهولة، إضافةً للمساعدة الروحيّة. واستطاع المهاجرون بفضله أن يعرفوا أنَّهم يتمتَّعون على الرغم من لا شرعيَّتهم ببعض حقوق المواطنة، يستطيعون أن يلجؤوا إلى المشافي، ويدخلوا موتاهم إلى مقبرة الولاية ـ على الرغم من أنَّهم فضّلوا دائماً إرسالهم إلى قراهم الأصليّة ـ وبعددٍ لا يحصى من الميِّزات الأخرى التي كانوا يجهلونها حتى ذلك الوقت .كانت *الخطة اللانهائية* تنافس بهرجَ الطقس الكاثوليكي وطبولَ وصنج جيش الخلاص، وتعدُّد الزوجات الجديد للمرموتيين وطقوس كنائس البروتستانية السبع في الجوار، بمن فيهم المعمدانيين الذين كانوا يغطسون بثيابهم في النهر والعرّافين الذين يقدِّمون حلوى تارت الليمون أيَّامَ الآحاد، والخميسيين الذين يسيرون وأيديهم إلى الأعلى لتلقّي الروح القدس. وبما أنَّه لم يكن من الضروري التخلي عن الديانة الأصليّة، ففي خطاب تشارلز ريفز تتوافق كلُّ العقائد، فإن الأب لارّاغيبل ورعاة المعتقدات الأخرى لم يستطعوا أن يمانعوه، على الرغم من أنَّهم اتفقوا جميعاً ولمرّة واحدة وراح كلٌّ منهم يَتَّهِمُ المُبَشِّرَ من على منبره بأنَّه ثرثار بلاأساس.

منذ اللقاء الأول حين أفرغت شاحنةُ آلِ ريفز حمولتَها في صحن دار آل مورالِس، قامت صداقة حميمة بين غريغوري وكارمن، ابنة آل مورالِس الصغرى. كفتهما نظرة واحدة لإقامة تواطؤٍ سيدوم الحياة بكاملها. كانت أصغر منه بسنة، لكنَّها برهنت في الأمور العمليَّة أنَّها أكثر منه فطنة، وكان من نصيبها أن تكشف له عن مفاتيح وحيل البقاء على قيد الحياة في الحي. كان غريغوري طويلاً، نحيلاً، شديدَ الشقرة وهي صغيرة الحجم، رَبِعَة، لونها سكّري محروق. كان الصبي قد أحرز معارف غير مألوفة، فيستطيع أن يتباهى برواية موضوع أوبرا من الأوبرات، أو وصف مشاهد من *الجغرافية الوطنيّة* أو إنشاد أبياتٍ لبايرون؛ يعرفُ كيف يصيدُ

بطّة، ينزعُ أحشاءَ سمكة، ويحسب كم تقطعُ شاحنة في خمسٍ وأربعين دقيقة إذا ما سارت بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة، ولم يكن كلّ ذلك ليفيده كثيراً في حالته الجديدة.كان يعرف كيف يُدْخِلُ أفعى في كيسٍ، لكنَّه لا يستطيع أن يذهبَ إلى الزاوية لشراء الخبز، فهو لم يتعايش مع مخلوقات أخرى أو يدخل قاعةَ درسٍ، ولم يخطر بباله شيء من خبث الأطفال ولا من العوائق العنصريَّة الرهيبة، لأنَّ نورا لقَّمته أنَّ الناس طيِّبون ـ والعكس عيبُ في الطبيعة ـ وأنَّ الجميع متساوون. وقد صدَّق غريغوري ذلك إلى أن ذهبَ إلى المدرسة. كان لونُ بشرته وخلوُّه التام من الخبث يثيرانِ حفيظةَ الآخرين، الذين كانوا ينقضُّون عليه كلَّما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وغالباً ما يكونُ في الحمَّامات ويتركونه شبه فاقد للحس من الضرب. لكنَّه لم يكن دائماً بريئاً، فكثيراً ما كان يثيرُ المواجهات. ويبتدعُ مع خوان خوسِه وكارمن مورالِس مزاحاتٍ ثقيلةً، كاستخلاص حشوة النعناع من سكاكر الشوكولا بالمحقنِ واستبدالها بأكثر الصالصات حرّاً في مطبخ إنماكولادا وتقديمها إلى ثلّة مارتينث كمن يدخنُ غليونَ السلام، ونضيعَ أصدقاءً، اتفقنا؟ بعدها اضطرّوا لأن يتخفّوا اسبوعاً.

كان غريغوري كلّ يوم وما إن يُقرع جرسُ الانصراف حتى يجري مثل البشير إلى بيته، يلحق بهُ قطيع من الفتية المستعدِّين لتصفيته. وكان له ساقان هما من السرعة حتى أنه يتوقّفُ وسط الطريق ليشتمَ أعداءه. لم يكن يخاف حين كانت تخيِّمُ عائلته في صحن دار آلِ مورالِس، فالبيت قريب وخوان خوسِه يرافقه وما من أحد يستطيع اللحاق به في مسافة قصيرة، لكن ما إن انتقلوا إلى ملكيَّتِهم الجديدة حتى صارت المسافة عشرة أضعاف وإمكانيّات الوصول إلى النهاية في الوقت المناسب تتقلّصُ بطريقة مخيفة. كان يبدِّلُ مساره، يأخذُ عدَّة طرقٍ مختصَرَة، يعرف مخابئ يقبع فيها عادةً إلى أن يملُّوا البحثَ عنه. انسلَّ ذات مرَّةٍ في كنيسة الحي لأنَّ الأب حكى لهم في الدرس عن أن اللوذ بالكنائس عادة تعودُ إلى العصور الوسطى، لكنّ ثلّةَ مارتينث لاحقته إلى داخل البناء وبعد وملاحقة فاضحة وقفز فوق المقاعد أمسكوا به قربَ المذبح وراحوا يرفسونه أمام نظرة القديسين الجريئة تحت هالات الشبهان الذهبيّة. وجاء على صوت الصراخ الراهب القوي، الذي أخذ على عاتقه إبعادَ الأعداء من فوق غريغوري شدّاً من شعرهم.

ـ الله لم يخلِّصني! ـ صرخ الطفلُ حانقاً أكثر مما هو موجوع ومشيراً إلى يسوع الدامي الذي يترأس المذبح.

ـ كيف لا؟ ألم أصل أنا لمساعدتك، يا ناكرَ المعروف؟ ـ زمجر الخوري.

ـ تأخَّرت كثيراً! انظر كيف تركوني! ـ كان يعوي ويشيرُ إلى كدماته.

ـ الله ليس عنده الوقتُ للمشاجرات الفاجرة. انهض ونظِّف أنفكَ ـ أمره الأبُ.

ـ أنت قلتَ إنَّ الإنسانَ هنا في أمان...

ـ طبعاً، طالما أنَّ العدوَّ يعرف أنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بمكانٍ مقدَّس، لكن هؤلاء الصعاليك لا يُقدِّرون مدى التدنيس الذي ارتكبوه.

ـ كنيستُك التافهة ليس لها أيَّةُ فائدة!

ـ حذار ممَّا تقول، وإلاّ أطرتُ لك أسنانكَ، أيُّها الصبيُّ الناكر للجميل!ـ هدَّده الأبُ رافعاً عليه يده.

ـ هذا انتهاك للحرمات! انتهاك للحرمات! ـ تمكَّنَ ريفز من تذكيره وكان له فضل تخميد غليان الدم الباسكيِّ في عروق الكاهن، الذي تنفَّسَ بعمق كي يقشع الغضب وحاول أن يتكلَّمَ بنبرةٍ أكثر مناسبة لملابسه الكهنوتيّة.

ـ اسمع، يا بُني، عليك أن تتعلَّم الدفاعَ عن نفسك. ساعد نفسك وسيساعدُك الله، كما يقولُ المثل.

منذُ ذلك اليوم راح الرجلُ الطيِّبُ، الذي كان في شبابه فلاَّحاً عربيداً، يغلق على نفسه مع غريغوري في صحن غرفة المقدَّسات ليعلِّمه الملاكمة دونما مراعاة كبيرة لقواعد الفروسيّة. ارتكز الدرسُ الأوَّلُ على ثلاثة مبادئ حتميّة: الشيء الوحيد المهم هو الانتصار، من يضرب أوّلاً يضرب ثانياً، ناوِلْهُ مباشرة على الخصيتين، يا بني، وليغفر الله لنا. على كل الأحوال قرَّرَ الصبيُّ أن المعبدَ أقلُّ أماناً من حضن إنماكولادا موراليس، عزَّزَ ثقته بقبضتيه في الوقت الذي تزعزع إيمانه بتدخُّل العناية الإلهيّة. منذ تلك اللحظة صار إذا وجد نفسه في مأزق يجري إلى بيت أصدقائه، يقفز من فوق سياج صحن الدار ويدخل إلى المطبخ، بانتظار أن تأتي جودي لنجدته.كان يستطيع أن يسير في الطرقات مع أخته بأمان لأنَّها أجمل فتاة في المدرسة، والجميعُ يعشقونها وما من أحدٍ سيرتكبُ حماقةَ أن يتعفرتَ مع غريغوري في حضرتها. حاولت كارمن وخوان خوسيه أن يلعبا دور الوسيط بين صديقهما الجديد وبقيَّة الصبيَّة، لكنَّهما لم يتمكَّنا دائماً من ذلك، لأنَّ غريغوري كان بالنتيجة غريباً، ليس من ناحية اللون

فقط، وإنَّما من ناحية أنَّه كان متكبِّراً، عنيداً وداهية. كان رأسه مليئاً بحكايات الهنود الحمر والحيوانات الوحشيَّة، أبطال الأوبرات ونظريّات الروح على هيئةٍ برتقالة طافية و«لوجي» والمعلِّمين الموظفين، التي لم يكن الأب أو المعلِّمون يرغبون بسماع تفاصيلها. ثم إنَّه كان يفقد التحكُّمَ بنفسه عند أقلِّ إثارة فيتقدَّم على الفور مغمض العينين، قبضتاه جاهزتان، يقاتل على عماها ويكاد يخرج دائماً خاسراً. كان الأكثر تعرُّضاً للضرب في المدرسة.يضحكون منه ومن كلبه - الهجين ذي السيقان القصيرة والهيئة البشعة - بل ومن مظهر أمِّه، التي ترتدي ملابساً على الطريقة القديمة وتوزِّعُ نشرات عن الديانة البهائيّة أو *الخطة اللانهائية*. لكن أسوأ السخريات كانت تتركَّزُ على مزاجه العاطفي. كان بقيَّة الصبية قد تعلَّموا دروسَ وسطهم الفحولية: على الرجال أن يكونوا بلا رحمة، منفردين، سريعين في استخدام السلاح ومتفوِّقين على النساء بكلِّ ما في الكلمة من معنى.القاعدتان الأساسيتان اللتان يتعلَّمهما الأطفال في المهد هما: إنَّ الرجال لا يثقون أبداً بأحدٍ ولا يبكون مهما كان السبب. لكنَّ غريغوري كان يسمع المعلِّمةَ تتكلَّمُ عن فقمات كندا بعيونها السائلة التي قضت عليها سياطُ صيَّادي الجلود، أو الأبَ يتحدَّثُ عن بُرْصِ كلكوتا، فيقرِّرُ في الحال الذهاب إلى الشمال للدفاع عن الحيوانات المسكينة أو إلى الشرق الأقصى كمبشِّر. ومع ذلك كانوا يدوِّخونها ضرباً دون أن ينتزعوا منها دمعة واحدة، وكان يفضِّل بفعل العنفوان أن يهرسوه قبل أن يطلبَ الرحمةَ، لهذا السبب وحده كان الصبية الآخرون لا يعتبرونه لوطيّاً. وعلى الرغم من كلِّ شيء كان صبيّاً فرحاً، قادراً على أن يخرجَ موسيقى من أيَّة آلة، وله ذاكرة لا تخطئ بالنسبة للنكات، والمفضَّل عند البنات في الاستراحة.

على الرغم من دروس الملاكمة فقد طلب الأبُ منه مساعدته في قدَّاسات الأحد. وعندما حكى غريغوري الأمرَ في بيت آل مورالِس اضطرَّ أن يتحمَّلَ فيضاً من المزاحات من خوان خوسِه وأخوته، إلى أن قاطعتهم إنماكولادا لتعلن أنَّ ابنها خوان خوسِه بسبب سخريته سيصيرُ خادماً في القدَّاس وبكل شرف، مباركُ الربُّ. كان الصديقان يقضيان إكراهاً ساعاتٍ بطولها في الكنيسة ينثرون البخّور، يقرعون أجراساً صغيرة، ينشدون التراتيل اللاتينيّة، تحت بصر الراهب اليقظ، الذي حتى في اللحظات العاديَّة كان يراقبهما بعينه الثالثة الشهيرة، تلك التي كان الناس يقولون بأنَّها في قفا العنق لرؤية أخطاء الآخرين. كان الرجل يحبّ أن يكون له مساعدٌ أسمر وآخر أشقر، ويعتبر أنَّ هذا التركيب العرقي يرضي، دون شكٍّ، الله.

كان الطفلان يُعِدّان المذبحَ قبل القدّاس ثُمَّ يرتبان غرفة المقدَّسات وعند الذهاب يتلقَّيان هديَّةً: خبزاً باليانسون ، لكن المكافأة الحقيقيّة كانت رشفات سرّيّة من النبيذ الاحتفالي، المشروب المعتَّق، الحلوّ والقويّ كالشيري. بلغت بهما النشوةُ ذات صباحٍ حدَّ أنَّهما شربا القنينة دون أن ينتبها وبقيا بلا نبيذ للقدّاس الأخير. فخَطر لغريغوري أن يعتصرَ بعضَ السنتيمات من الصدقات ويخرج مثل السهم ليشتري «كوكاكولا». خضَّاها لتخليصها من الغاز وملأا وعاء النبيذ منها. تحوَّلا خلال الصلاة إلى بهلوانين.لم تستطع حتى نظرات الراهب القاتلة أن تمنع الهمس والقهقهات والتعثرات وقرع الأجراس الصغيرة في غير أوانها.وعندما رفعَ الأبُ الغطاء ليبارك «الكوكاكولا» جلس الفتيان على درجات المذبح لأنَّهما ما عادا يستطيعان الوقوف من الضحك.بعدَ دقائق شرب الراهب السائلَ بوقار، فاستحوذته الكلمات الطقسيَّة وانتبه من أوَّلِ رشفة إلى أن الشيطانَ قد حشر يده في الكأس، إلاّ إذا كانت المباركة قد أحدثت تغييراً قابلاً للبرهان في جُزَيِّئات النبيذ، الفكرة التي استبعدها إحساسه العملي، فقد خبر خطوب الحياة كثيراً. تابع القدّاس ثابت الجنان، دونما أيّة حركة توحي بما حدثَ. أنهى الطقس دون استعجالٍ وخرج بكبرياء يتبعه خادما القدّاس وهما يتعثّران، وما إن وصلوا غرفة المقدَّسات حتى خلع فردةً من صندليه الثقيلين النعليين وانهال عليهما بها بقسوة.

تلك كانت واحدة من أوائل السنوات الصعبة بالنسبة لغريغوري ريفز. كانت أيّام قلقٍ وخوف تبدَّلت فيها أشياءُ كثيرة، لكنّها كانت أيضاً أيّام جرأة وصداقة ومفاجآت واكتشافات.

ما إن نظَّمت أسرتي أمورها في الرتابات الجديدة وشعر والدي بنفسه أقوى، حتى بدأت إصلاحات الكوخ. لم يعد يبدو خربةً بفضل مساعدة آل مورالِس وأصدقائهم، لكن ينقصه بعض وسائل الراحة الأساسيّة. أقام والدي نظام إضاءته الكهربائي البدائي، وبنى غُرَيِّفَة بائسة لقضاء الحاجة، نظّفنا أنا وهو الأرضَ من الحجارة والأعشاب لتزرع أُمي خضراواتها وأزهارها التي طالما تاقت إليها. كما بنى كهفاً صغيراً على حافّة الوهدة ذاتها حيث تنتهي مُلكيَّتنا، ليخبئ فيه معدّاته وأدوات سفره، لأنَّه لم يفقد حلمَ أن يعودَ يوماً ما إلى تنقُّلاته في شاحنة أخرى. أمرني بعد ذلك أن أحفر حفرةً، فقد كان يؤكّد أنّه على كل إنسانٍ قبلَ أن يموتَ، وبحسب أحد الفلاسفة اليونان، أن ينجبَ ولداً، يكتبَ كتاباً،

يبني بيتاً، ويزرعَ شجرةً وهو قد وفى بالواجبات الثلاثة الأولى. حفرتُ حيثُ أشار إليَّ دون أدنى حماس، لم أرغب أن أساهم في موته، لكنَّني لم أجرؤ على مخالفته أو ترك العمل من منتصفه. «*في إحدى المناسبات وكنت مسافراً في الخطّة النجميّة، اقتادوني إلى غرفة كبيرة كمعمل، كان تشارلز ريفز يحكي لمستمعيه، رأيت هناك آلات كثيرة هامّة، بعضها لم ينجز بعد وبعضها الآخر كان غير معقول. كانت مبادئ الميكانيك خاطئة ولن تعمل أبداً بشكل جيّد. سألت أحد اللوجيين لمن هذه؟ فقال لي هذه هي أعمالك غير المنتهية. تذكّرت أنني في شبابي طمحتُ لأن أصير مخترعاً. كانت تلك الآلات الفجّة نتاج ذلك الزمن ومنذ ذلك الوقت وهي تنتظر مُخزَّنة هناك لتكون تحت تصرّفي. تأخذ الأفكار أشكالاً، وكلّما كانت الفكرة أكثر دقّة صار الشكلُ أكثر تحديداً. يجب ألا تترك الأفكار أو المشاريع دون إكمال، يجب أن تهدم وإلاّ لهدَرَت طاقةً لو استخدمت في مسألة أخرى لكان أفضل. يجب التفكير بطريقة عمليّة، لكنَّها متقنة.*» سمعت هذه الحكاية كثيراً، وكان يزعجني هذا الهوس بإتمام كلِّ شيء وإعطاء كلّ غرضٍ وكلِّ فكرةٍ مكاناً دقيقاً، لأنَّ العالمَ، وبالحكم من خلال ما كنتُ أرى حولي، كان فوضى خالصة.

خرج والدي باكراً وعاد مع بيدرو مورالِس في الشاحنة الصغيرة المحمَّلة بصفصافة ذات حجم جيِّدٍ. جرَّاها معاً بصعوبة فائقة وزرعاها في الحفرة. راقبت الشجرةَ ووالدي خلال عدَّةٍ أيَّام، منتظراً أن تجفَّ الأولى ويسقطَ الثاني مصعوقاً، لكن وبما أنَّ شيئاً من هذا لم يحدث، افترضتُ أنَّ الفلاسفة القدماء حقراء. وكانت تحضرني تكراراً فكرة أنَّني سأبقى يتيماً. كنتُ أرى تشارلز ريفز في المنام هيكلاً عظمياً مطَقْطِقاً بلباسٍ داكن تلتفّ حول قدميه أفعى وعندما أستيقظ أتذكَّره وقد صار مجرَّدَ قطعة لحم بجلدها، تماماً كما رأيته في المشفى. كانت فكرةُ الموتِ تُرعِبُني. ومنذُ أن استقرينا في المدينة صار يلاحقني شعورٌ بالخطر، والقواعد المعروفة تُشنِّجني، حتى الكلمات فقدت معانيها المُعْتادة، فاضطررتُ أن أتعلَّمَ نُظُماً جديدةً وحركاتٍ جديدة ولغة غريبة براءاتها وخاءاتها الرنَّانة. استُبْدِلَت الطرقُ التي لا نهاية لها والمشاهدُ الفسيحة بازدحام الشوارع الضيِّقةِ الصاخبة، الوسخة، سيِّئةِ الروائح المذهلة في الوقت ذاته، حيث تواجهك المغامرات في كلِّ خطوةٍ. من المحال مقاومة جاذبيَّة الشوارع، فيها تجري الحياة، كانت مسرحاً للمشاجرات والحبِّ والتجارة. سحرتني الموسيقى اللاتينيَّة وعادة قصِّ الحكايات. كان الناس يتحدَّثون عن حياتهم بنبرة أسطوريَّةٍ. أعتقد أنَّني تعلَّمتُ الإسبانية فقط

كيلا أضيِّعَ كلمةً واحدةً من تلك الحكايات. كان مطبخُ إنماكولاد مورالِس مكانيَ المفضّل، بين روائح القدور الطيِّبة وأعمال الأسرة. لم أتعب من تلك الدائرة السرمديّة، لكنَّني كنتُ أشعرُ أيضا بالحاجة لاستعادة صمت الطبيعة التي نشأتُ فيها، أبحثُ عن الأشجار، أسير ساعات لأصلَ إلى تلٍّ صغيرٍ حيث أعودُ لأشعر للحظاتٍ بمتعة أنَّني في جلدي. في بقيَّة الوقت كان جسدي عثرةً بالنسبة إليّ، عليَّ أن أحميه من تهديدات متواصلة، شعري الفاتح ولون جلدي وعينيَّ، هيكلي الذي لعصفورٍ كان يثقلُ عليَّ مثل صابورة. تقول إنماكولادا مورالِس بأنَّني كنت طفلاً فرحاً، مليئاً بالقوّة والطاقة، وإعجابي هائل بالحياة، لكنَّني لا أتذكَّرُ نفسي بهذا الشكل، فقد خبرتُ في *الغيتو* قلقَ الاختلاف، لم أندمج، كنتُ أودُّ أن أكونَ كالآخرين، أن أذوب في الحشود، أصبح غيرَ مرئيٍّ ، لأتحرّك بهدوء في الشوارع أو ألعب في ساحة المدرسة، متحرِّراً من عصابات الصبية السمر الذين يفرغون فيّ الاعتداءات التي كانوا يتلقّونها بدورهم من البيض ما إن يطلّوا بأنوفهم خارج الحي.

بدأنا حين خرج والدي من المشفى الحياة العاديّة ظاهريّاً، لكنَّ توازن العائلة كان قد انكسر. أيضاً يثقلُ الجوَّ غيابُ أولغا، أشتاق لصندوق كنوزها، أدوات سحرها الأسود، لباسها الفاضح، وضحكتها الوقحة، حكاياتها، نشاطها الذي لا يكلّ. كان البيت دونها مثل طاولة عرجاء. غطّى والدايَ الموضوعَ بالصمت ولم أجرؤ على طلب التوضيحات. أمي أحيانا تصير أكثر صمتاً وانعزالاً بينما والدي، الذي سيطر دائما على مزاجه، صار كالكلب المسعور، عنيفاً لا يُحتمل. الذنب ذنب العمليَّة الجراحيَّة، فكيمياء جسده الفيزيائي مضطربة، لذلك فهالةُ نوره اسودَّت، لكنَّه سيتعافى قريباً، تبرِّرُ والدتي بلغة *الخطّة اللانهائية*. لم أشعر بالراحة قط معها، فهذه المخلوقة حائلة اللون واللطيفة كانت مختلفة جدّاً عن أُمَّهات الأطفال الآخرين. فالقراراتِ والأذونات والعقوبات تصدرُ دائماً عن والدي، المواساة والضحكة عن أولغا، والتسارُ كان مع جودي. لم يكن يربطني بأمّي إلا الكتب والدفاتر المدرسيّة، الموسيقى وهواية مراقبة مجرّات السماء.لم تلمسني قط، اعتدت على الابتعاد الماديّ عنها وعلى طبعها المتحفّظ.

ضيَّعتُ يوماً جودي، وعندئد مررتُ بتجربة رعب الوحدة المطلقة، الذي لم أتمكّن من تجاوزه إلا بعد عدَّة عقود، عندما أبطلَ حبٌّ غير منتظر هذا النوع من اللعنة. كانت جودي فتاة منفتحةً، لطيفةً تحميني وتحملني ممسكاً بتنّورتها. أنزلقُ ليلاً في فراشها فتحكي لي حكايات وتبتدع

أحلاماً مع تعليمات صارمة لكيفيَّة الحلم بها. رافقت طرق أختي في النوم، حرارتها، وإيقاع تنفُّسِها طفولتي الأولى، فبانكماشي بجانبها أنسى الخوف، وبجانبها لا أحد يستطيعُ أن يؤْذيني. وذات ليلة من ليالي نيسان كنتُ في السابعة وجودي على أبواب التاسعة، انتظرت حتى ساد الصمتُ كلَّ شيءٍ وخرجتُ من كيسِ نومي لأدخل في كيسها، كما هي العادةُ دائماً، لكنَّني وجدتُ نفسي أمام مقاومة ضارية. ضربتني وغطَّت نفسها حتى ذقنها ممسكة بحافة الكيس بقوَّةٍ قائلة إنَّها لا تحبُّني، ولن تتركني أنام معها بعد الآن والحكايات انتهت وكذلك الأحلام المبتدعة وكلّ شيء وإنَّني أصبحت كبيراً لمثل هذه التفاهات.

- ما بكِ، يا جودي؟ - توسَّلتُها مذعوراً، ليس من كلماتها بقدر ما من ضغينةِ صوتها.

- إلى الجحيم! إيَّاك أن تعود لتلمسني في حياتك! وانفجرت بالبكاء ووجهها إلى الجدار.

جلستُ بجانبها على الأرض دون أن أعرف ما أقول، حزيناً لبكائها أكثر مما لرفضها. بعد برهة طويلة نهضتُ على رؤوس أصابعي وفتحتُ البابَ *لأوليفر*، منذ ذلك اليوم نمت محتضناً كلبي. في الشهور اللاحقة انتابني إحساسٌ بوجود شيءٍ غامض في بيتي أنا مستثنى منه، سرٌّ بين أبي وأختي، أو ربَّما بينهما وبين أمّي، أو بين الجميع وأولغا. انتابني إحساس بأنَّه من الأفضلِ أن أتجاهل الحقيقةَ ولم أحاول استقصاءها.كان الجوُّ مشحوناً دائماً بحيثُ كنت أفضِّلُ الغياب عن البيت ما أمكنني ذلك، أزورُ أولغا وآل مورالِس، أسيرُ لمسافات طويلة في الحقول المجاورة، أختبئُ في الكهف الصغير، بين المعدَّات المعدنية والأكداس وأبكي ساعات طويلة دون أن أدري لماذا. لا أحد سألني شيئاً.

راحت صورة والدي تتلاشى لتحلَّ محلّها صورة رجلٍ مجهولٍ، ظالم ومسعور، يداعب جودي ويضربُني لأقلّ ذريعة، يدفعني من جانبه، ويدمدمُ قائلاً اذهبْ والعبْ في الخارج، على الصبية أن يقووا في الشارع. ما من شبهٍ بين الواعظ النظيف، صاحب الكرامات السابق وذلك العجوز المقرف، الذي يقضي اليومِ في الكرسيّ يستمعُ إلى المذياع نصف عارٍ ودون حلاقة.كان قد توقَّف عن الرسم في تلك المرحلة كما لم يكن بمقدوره أن يكرِّس نفسه *للخطة اللانهائية*، ساءت الحالة في البيت على مرأى من الجميع فعادت إنماكولادا للحضور بخبيص طعامها الحار وابتسامتها الكريمة وعينها الثاقبة في التقاط حاجات الآخرين. كانت أولغا تعطيني

نقوداً لأضعها بحذرٍ في محفظةِ أمّي.استمرَّت هذه الطريقةُ غير المعهودة في الدخل لسنواتٍ طويلة، دون أن تبدي أمي أيّ تعليق قط، وكأنَّها لا تتلقّى تلك الأوراق النقديَّة الغامضة والمتضاعفة.

كانت أُولغا تملك فطنة أن تطبعَ محيطها بطابعها الغريب. كانت طائراً مهاجراً ومغامراً، لكنَّها تتمكّن حيث تتوقَّفُ ولو لساعاتٍ من خلق وهم العشِّ الدائم. قليلٌ متاعها لكنَّها تعرف كيف توزِّعه حولها فإذا كان المكان صغيراً اتَّسعه صندوق وإذا كان كبيراً انتفش حتى ملأه. تحت خيمةٍ في أيٍّ من منعطفات الطرق، في كوخ أو سجن، إلى حيث انتهت أخيراً كانت ملكة في قصرها. عندما انفصلتْ عن آلِ ريفز استأجرت غرفةً بسعرٍ متواضع، كانت زريبة وسخة إلى حدٍّ ما، لها قِدم بقيَّة الحي الحزينة، لكنَّها استطاعت في وقت قصير أن ترتقي بها بألوانها الخاصّة، وتحوّلها إلى نقطة علاَّمة لمن يبحث عن مكان: ثلاثة فراسخ إلى الأمام، انعطف على اليمين وحيث تجد بيتاً ملوّناً على يسارك تكونٍ قد وصلت. كان درج المدخل والنافذتان التي زيَّنتها بأسلوبها، ومعلَّقات المحار والبلور تسترعي انتباهَ المارَّة بخشخشة أجراسها وأضوائها متعدِّدَةِ الألوان، التي توحي بأجواء عيد ميلادٍ لا ينتهي، واسمها ذي الأحرف المائلة يتوِّجُ ذلك المعبدَ الغريب. تعبَ الملاَّك من مطالبتها بقليلٍ من الحشمة وأذعنوا أخيراً للترهات في البناء. لم يبق بعد فترة وجيزة أحد في دائرة قطرها عدَّة أميال لا يعرفُ أين تعيش أولغا. إلى الداخل من الباب كان البيتُ يقدِّم مظهراً مماثلاً من الغرابة، قسمت الغرفة بستارة قسمين، قسم لخدمة الزبائن وآخر وضعت فيه سريرها وثيابها المعلَّقة إلى مسامير على الجدار. غطَّت الجدران مستفيدةً من مواهبها الفنيّة وصندوق الطلاء الزيتي من أيّام شركتها مع تشارلز ريفز بعلائم الأبراج وكلمات الأبجديَّة السيريليّة التي كانت تترك انطباعات هائلة في الزائرين. اشترت أثاثاً مستعملاً وبلمسة من خيالها حوَّلته إلى دواوين شرقيَّة، على الرفوف كانت تصطفُّ تماثيل صغيرة لقديسين وسحرة، وقوارير مع مغليَّاتها، شموع وتمائم، ومن السطح تتدلّى حزم من الأعشاب الجافَّة، في النتيجة كان من الصعب التنقل بين الطاولات القزمة حيث تكتز مباخر وبخوراً يُشكّ بنوعيَّتِه، اشترته من دكاكين الباكستانيِّين. كانت تلك الرائحة الطيِّبة تتعارك مع روائح النباتات والمغليَّات الطبيَّة والخلاصات المعدَّة للحبِّ وشمع الصلوات. غطَّت المصابيح بشالات مهدَّبة ونشرت على الأرض جلدَ

حمار زرد أكله العثُّ، وعند النافذة يسودُ بوذا مكوَّر كبير من الجص المُذهَّب. في ذلك الكهف كانت تتفتَّقُ عبقريَّتها في الطبخ والعيش وممارسة مهنتها، كلُّ ذلك في مساحة دنيا تتكيَّف مع حاجاتها ونزواتها بفضل فن الخيال عندها. وما إن أنهت أعمال الديكور في بيتها حتى دبَّت الصوت بأن هناك نساء قادرات على حرف مسار الفجائع والرؤية في ظلمة الروح، وأنَّها واحدة منهنَّ. ثم جلست تنتظر، لكن ليس طويلاً، فالناس سمعت بشفاء صاحبة المخزن اللحياء، والزبائن يتزاحمون للحصول على خدماتها.

كان غريغوري يزور أُولغا في كلِّ لحظة. يخرج بعد انتهاء الدروس هارباً، تلاحقه عصابة مارتينث، وهو صبيٌّ أكبر منه بقليل، ما زال في الصف الثاني، لم يتعلَّم القراءة كما لم تدخل اللغة الإنكليزيَّة في دماغه، لكن صار له جسم وموقف القبضاي. كان *أوليفر* ينتظر نابحاً عند كشك الصحافة بحرصٍ شجاع على لجم الأعداء وتفوُّقِ صاحبه، ليلحق به بعد ذلك كالسهم إلى هدفه الأخير. كان الصبيُّ ينعطف إلى بيت أولغا ليضلِّلَ مارتينث، وزياراته لها كانت عيداً. انسلَّ ذات مرَّة تحت سريرها دون أن تراه وحضر من مخبئه إحدى استشاراتها الرائعة. فقد حضر إلى بيت الساحرة بحثاً عن راحة من سرٍّ سيئ، صاحبُ بارٍ «الأصدقاء الثلاثة»، وهو رجل مغرور يحبُّ النساء، له شارب رقيق كممثِّلي السينما ومشدّ لدن لكبح كرشه، عكر المزاج. استقبلته ملفَّعة بدثار عالمة فلك في الغرفة التي لا تكاد تضيئها بعض المصابيح الكهربائيَّة الحمراء ويعطِّرها البخّور. جلس الرجلُ أمام الطاولة المستديرة حيث كانت تلقى زبائنها وحكى لها بعد مقدّمات متلجلجة رجاها فيها التحفظ الشديد، بأنّه يعاني من التهاب دائم في أعضائه التناسليّة.

ـ هاتِ، أرني ـ أمرته أُولغا وراحت تفحصه طويلاً بواسطة مصباح جيب وعدسة مكبِّرة، بينما غريغوري يعضُّ على يديه كي لا ينفجر ضاحكاً تحت السرير.

ـ تابعتُ العلاج الذي وصفوه لي في المشفى، دون جدوى. منذُ أربعة أشهر وأنا أموت، يا سيّدة.

ـ هناك أمراض جسديَّة وأمراض روحيّة ـ شخَّصت الساحرةُ الحالةَ ملتفتة إلى عرشها عند رأس الطاولة ـ . هذا مرض روحيّ، لذلك فهو لا يشفى بالأدوية العاديَّة. فحيث تخطئ تدفع.

ـ ماذا؟

ـ أنت أسأتَ استخدام عضوك. أحيانا تُدفَعُ الأخطاءُ بالأوبئة وأخرى بحكّةٍ أخلاقيَّة ـ شرحت أولغا، التي كانت على اطلاع تام بكلِّ القيل والقال في الحي، تعرف سمعة الزبون السيِّئة إذ باعت مسحوقاً للوفاء لزوجة صاحب الحانة المكروبة. ـ أستطيع مساعدتك، لكنَّني أحيطُكَ علماً بأنَّ كلَّ استشارة ستكلِّفُكَ خمسة دولارات ولن يكون هذا لطيفاً.بالعين المجرّدة أستطيع أن أقدِّرَ أنَّك بحاجة إلى خمس جلسات على الأقل.

ـ إذا كنت بهذا الشكل سأتحسّن...

ـ عليك أن تدفع لي خمسة دولارات عند البدء. هكذا أضمن أنَّك لن تندم في الطريق، واعلم أنَّك إذا بدأت بالرقية عليك أن تنهيها وإلاَّ جفَّ عضوك وصار مثل خوخة مجفَّفة، هل فهمت؟

ـ كيف لا، يا سيِّدة، أنت تأمرين ـ استجاب الفتى مرعوباً.

ـ انزع كلَّ شيء من الوسط وإلى الأسفل، تستطيع أن تبقى في القميص ـ أمرته قبل أن تختفي خلف الستار لتحضِّر العناصر الضروريَّة للعلاج.

أوقفت الرجل في وسط الغرفة، وأحاطته بدائرة من الشموع المشتعلة، رشَّت رأسه ببعض المسحوق الأبيض، في الوقت الذي راحت تنشد سلسلةً من الابتهالات بلغةٍ مجهولة، ودهنت في الحال المنطقة المصابةَ، التي لم يستطع غريغوري رؤيتها، لكنَّها كانت دون شك ذات تأثير كبير لأنه لم تمضِ ثوانٍ حتى راح المسكينُ ينطُّ مثل قرد ويصرخ من أعماقه.

ـ لا تخرج من الدائرة ـ أشارت أُولغا بينما راحت تنتظرُ أن تزولَ عنه الحرقة.

ـ يا أُميمتاه كيف يحرق! هذا أسوأ من صلصة فلفل تشيلي الكاوي ـ أنَّ المريضُ حين استعادَ تنفُّسَهُ.

ـ لا يشفي ما لا يؤلِم ـ جزمت، عارفةً فوائد العقاب في رفع الخطيئة، وغسلِ الضمير وتخفيف الآلام العصبيَّة ـ سأضعُ لك الآن شيئاً رطباً ـ وطلته بضربات فرشاة بصباغ الميثيلين الأزرق، ثمَّ ربطته بشريطة وأمرته أن يعودَ في الأسبوع التالي دون أن ينزع الشريطة مهما كان السبب وأن يضع الصباغ كل صباح.

ـ لكن كيف سَ... حسنٌ، أنت تفهمينني، وهذا الرباط هناك...

ـ عليك أن تتصرَّف مثلَ قدِّيس، لا أكثر. حدث هذا لك لأنَّكَ كنت مثل

طائر الرنان، لماذا لا تكتفي بزوجتك؟ هذه المرأة المسكينة ربحت السماء، أنتَ لا تستحقُّها - ودَّعته بهذه النصيحة من السلوك الحميد.

راهن غريغوري خوان خوسيه وكارمن مورالِس على أنَّ حمامةَ صاحب البار زرقاء ومزيَّنة بشريطةٍ عيد ميلاد. أمضى الصبيةُ صباحاً بكامله على سطح «الأصدقاء الثلاثة» يتجسَّسون على دورة المياه من خلال ثقب إلى أن تبيَّنوا الظاهرةَ بأمِّ أعينهم. بعد وقتٍ قصير صار الحيُّ بكامله على علمٍ بالحكاية، ومنذ ذلك الحين صارَ على صاحب الحانةِ أن يتحمَّلَ لقبَ *نقَّارُ الزنبق* الذي سيرافقه حتى القبر.

بما أنَّ أُولغا لم تكن تفتحُ لغريغوري دائماً البابَ لأنَّه عادةً ما يكونُ عندها زبون ما،كان يجلس على الدرجِ ليقوم بعمليَّة إحصاء للتزيينات الجديدة في الواجهة، مندهشاً من ذكاء المرأة في التجديد كلَّ يوم. كانت تطلُّ في بعضِ المناسبات لا يكادُ يغطيها دثارها، شعثاء الشعرِ مثل كتلة من الطحالب الملوَّنة، تعطيه بسكويتاً أو قطعةً نقديَّةً وتقول له لا أستطيعُ أن أراكَ اليومَ، يا غريغ، عندي عمل، عدْ غداًوتقبِّله قبلة سريعة على خدِّهِ. كان الصبيُّ يمضي خائباً، لكنه يتفهَّم أنَّ عندها واجبات لا تؤجَّل. كان زبائنها متنوِّعين: القانطون الباحثون عن تحسين حظِّهم، نساء حبالى مستعدَّات لاستخدام أيَّة وسيلة لهزيمة الطبيعة، مرضى يئسوا من الطب التقليدي، عشَّاق مكروبون متلهفونٍ للانتقام، وحيدون يضنيهم الصمتُ وناس عاديُّون لا يريدون إلا مسَّاداً،تميمةً، قراءةٍ كفِّ اليد أو شاي أزهار شرقيَّة لوجعِ الرأس. ولكلٍّ واحد كانت تملك أُولغا جرعة سحريَّة أو وهماً، دون أن تتوقَّفَ عند شرعيّة وسائلها، لأنَّه لا أحد في ذلك الحي كان يفهم أو يعطي أهميَّة لقوانين الغرينغويين.

لم يكن عند العرَّافة أولاد وتبنَّت في قلبها ابني تشارلز ريفز. لم تزعل من صدود جودي، لأنَّها تعرف أنَّه ما إن تحتاجها الطفلةُ حتى تسارع للوقوف بجانبها من جديد وشكرت بصمت وفاء غريغوري، الذي كانت تكافئه بتدليله والهدايا. من خلاله كانت تعرف مصير آل ريفز. وكثيراً ما سألها الطفل لماذا لاتزور البيت لكنَّه لم يلق إلاّ الأجوبة الغامضة. اعتقد في إحدى المناسبات التي لم تستطع استقباله فيها أنَّه سمع صوت والده من خلال الباب وكاد قلبه ينفجر في صدره: رأى نفسه واقفاً على حافَّة هوّةٍ بلا قاع، يكادُ يفتح صندوقاً مليئاً بالأهوال. انطلق راكضاً، لا يرغب بالتأكُّد مما كان يخافه، لكنَّ الفضولَ كان أقوى فعاد عند منتصف الطريق ليختبئَ في الشارع ينتظر خروج زبون أولغا. ساد

الليلُ دون أن يفتح البابُ. أخيراً اضطرَّ أن يعودَ إلى بيته. وعند وصوله وجد تشارلز ريفز يقرأ الصحيفة في كرسيِّ الخيزران.

كم عاش والدي في الحقيقة؟ متى بدأ يموت؟ في الأشهر الأخيرة لم يعد هو، تغيَّرَ جسمه إلى حدٍّ أنه صار من المحال التعرُّف عليه، روحه أيضا لم تكن هناك. نفحة سحر كانت تنعش ذلك العجوز الذي ما زال يدعى تشارلز ريفز، لكنّه لم يعد والدي. لذلك ليس عندي ذكريات سيِّئة. بالمقابل كانت جودي مفعمة بالكراهية. تكلّمنا عن هذا، ولم نتفق على الأحداث أو على الأشخاص، كما لو أنّ كلَّ واحدٍ منّا كان بطل قصّة مختلفة.كنّا نعيشُ معاً في بيت واحدٍ ووقت واحد، ومع ذلك فذاكرتها لم تسجِّل ما سجَّلته ذاكرتي. لم تكن أختي تفهم لماذا ما زلتُ أتمسَّكُ بصورةِ أبٍ عالم ومرحلةٍ سعيدة بالتخييم في الهواء الطلق تحت قبَّة سماء عميقة مليئة بالنجوم أو وأنا أصطاد البط قابعاً بين بعض الخيزران في الفجر. تقسم أنَّ الأمور لم تكن كذلك وأنَّ العنف ساد دائماً في عائلتنا، وتشارلز ريفز كان ثرثاراً، مفعماً بالشرور، بائع أكاذيب، معتوهاً فاسداً مات بفسقه ولم يخلِّف لنا أيَّ شيء حسن. تتَّهمُني بأنَّني أُحاصر الماضي وتقولُ بأنَّني أفَضِّل تجاهل مفاسده، ولا بدَّ أنَّ هذا صحيح لأنَّني لم أكن أعرف أنَّه كان كحوليَّاً ومليئاً بالشرور، كما تؤكِّدُ هي. ألا تذكر أنَّه كان يسوطُكَ لأيِّ سبب تافه بزنَّار جلديٍّ؟ تكرِّرُ جودي. نعم، لكنَّني لا أحنقُ عليه لهذا السبب، ففي تلك المرحلة الجميعُ كانوا يضربون الأطفال، كان ذلك جزءاً من التربية. كان يعامل جودي بشكلٍ أفضل منِّي، يبدو أنّه لم يعتد ضرب الطفلات كثيراً. ثمَّ إنَّني كنتُ شقيَّاً وعنيداً. لم تستطع أمِّي قط أن تلوي ذراعي، لذلك حاولت أن تتخلَّصَ منِّي في أكثر من مناسبة. قبل أن تموت بوقت قصير وفي واحد من لقاءاتنا النادرة، التي استطعنا أن نتكلَّمَ فيها دون أن يجرحَ الواحدُ منا الآخر، أكَّدت لي أنَّها لم تفعل ذلك لنقص في الحنان، فقد أحبَّتني دائماً، لكنَّها لم تكن تستطيع إعالة طفلين وفضَّلت طبعاً الاحتفاظ بأختي، التي كانت أكثر وداعةً، بينما لم تكن قادرة على التحكُّم بي. أحلم أحياناً بصحن دار الأيتام .كانت جودي أفضلَ منِّي بكثيرٍ، لا شكَّ في هذا، بنت وديعةٌ ولطيفة، مستعدَّة دائما للطاعة وفيها غنج الصغيرات الجميلات الطبيعي. وهكذا استمرَّت حتى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، بعدها تبدَّلت.

أوَّلاً كانت رائحة اللوز. مواربة في البداية، غير محسوسة، نسمة

خفيفة تمرُّ دون أن تترك أثراً، هفهافة إلى حدٍّ أنَّه كان من المحال عليَّ أن أحدِّدَ ما إذا شعرتُ بها واقعاً أم أنَّها كانت مجرَّد ذكرى زيارة المشفى حين أجرينا العمليّة لوالدي. بعدها جاء الضجيج. التبدُّل الأكثر وضوحاً كان الضجيج. قبل ذلك في أيّام السفر في الشاحنة، كان الصمت جزءاً من الحياة، لكل صوت فضاؤه الدقيق. في الطريق لا يُسمعُ إلاَّ صوت مُحرِّك السيَّارة، وأحياناً صوتُ أمّي تقرأ. عند التخييم كنَّا نلتقطُ طقطقة الحطب في النار، المِغْرفة في القدر، الدروس المدرسيّة، بعض الحوارات القصيرة، ضحكة أُختي وهي تلعبُ مع أولغا، نباح *أوليفر*. وفي الليل كان الصمتُ من الكثافة بحيث أن زعيقِ البوم أو عواء الذئبِ الأمريكي يبدو فضَّاحاً. وبحسب والدي كان لكلِّ صوتٍ لحظته تماماً كما لكل شيء مكانه. كان يشعرُ بالإهانة حين يقطع أحدٌ الحديث، ففي عظاته يجب أن يتوقَّفَ الهواء، لأنَّه حتى السعال اللاإرادي يثير نظرته الثلجيّة. في النهاية عمَّت الفوضى كلَّ شيءٍ في عقل تشارلز ريفز. في رحلاته الفلكيَّة لا بدَّ أنّه لم يجد فقط تلك الحظيرة المليئة بالآلات الفاشلة، والاختراعات الجنونيّة، بل أيضاً غرفاً مكتظَّة بالروائح والمذاقات والحركات والكلمات الفارغة وأخرى مليئة حتى التخمة بالنوايا الحمقاء، وغرفة ضجيجُ التخريب فيها يدوِّي مثل قرع ناقوس حديديٍّ فظيع. لا أقصد ضجّة الحيّ: حركة المرور في الشارع، صياح الناس، آلات العمّال وهم يبنون محطة المحروقات، وإنَّما الاختلاطات التي طبعت شهوره الأخيرة بطابعها. المذياع الذي لم يكن يُفتح في الماضي إلاَّ لسماع أخبار الحربِ والموسيقى الكلاسيكيَّة يصمُّنا الآن ليلاً ونهاراً، لحسن الحظ أنَّ رسائله غير ذات فائدة، ألعاب الكرة وأغاني دهمائيّة. كان والدي إضافة إلى هذه الضوضاء يطالب بأعلى صوته بالتوافه، يعطي أوامر متناقضة، ينادينا في كلِّ لحظةٍ، يقرأ بصوته بعض المشاهد من خطبه أو من الكتاب المقدَّس، يسعل، يبصق دون توقُّفٍ، ويصوِّتُ بأنفه بصخبٍ غير مبرَّرٍ، يدقُّ مساميراً في الجدران ويلعبُ بأدواته المعدنيّة وكأنَّه يصلح شيئاً معطوباً، في الحقيقة لم يكن لهذه الأعمال الجنونيّة أي هدفٍ بعينه. حتى في نومه كان صاخباً. هذا الرجل الذي كان في غاية التهذيب في سلوكه وعاداته، صار ينام على الطاولة فجأةً، وفمه مليء بالطعام، يهزُّه شخير عميق، يلهث ويتمتم ضائعاً في متاهة من يدري أيَّ هذيان غلماني. يكفي، يا تشارلز، كانت توقظه أمّي مضطربةً حين تفاجئه يتحسَّسُ عضوه في أحلامه، إنَّها الحمى، يا وَلَدَيَّ، كانت تُضيفُ لتهدئنا. ما من شكٍّ أنَّ والدي كان يهذي، والحمى تهاجمه بكل بساطة في أيّة لحظة من لحظات النهار، لكنَّه لا

يرتاح في الليل. كان يصبح مبلَّلاً بالعرق، وأمي تغسل الملاحف كل صباح، ليس بسببِ تعرقِ الاحتضار وحسب بل أيضا بسبب بقع دم وصديد الدمامل. كانت تخرج له في ساقيه كتل متقيِّحة، يعالجها بزهرة العطّاس وضمادات الماء الحار. لم تنم أمي معه في فراشه منذ أن بدأ مرضه، وتقضي الليلَ مضطجعة في كرسيٍّ مغطاة بشالها.

في النهاية، حين لم يعد بمقدور والدي أن ينهضَ، رفضت جودي الدخولَ إلى غرفته، فهي لا تريد رؤيته، وما استطاع تهديد أو ترغيب أن يقرِّبها من المريض، وقتذاك استطعتُ أن أقترب شيئاً فشيئاً. في البداية لأراقبه من العتبة، ثم لأجلس على حافَّة السرير.كان هزيلاً، جلده المخضر ملتصق بعظامه، عيناه غائرتان في محجريهما. وحده الشهيق الربوي كان يدلُّ على أنَّه حي. ألمسُ يده، فيفتح أجفانه ولا تتعرَّفني نظرته. تهبط الحرارة أحياناً فيبدو وكأنَّه بُعثَ من موتٍ طويل، يشربُ قليلاً من الشاي، يطلب أن يشعلوا له المذياع، ينهض، يخطو خطواتٍ متردِّدة. خرج في أحد الصباحات نصفَ عارٍ إلى صحن الدار ليرى الصفصافة، أراني الأغصان الغضَّةَ، قال: إنَّها تنمو وستعيش لتبكيني.

عند عودتنا في ذلك اليوم، أنا وجودي من المدرسة، رأينا سيَّارة الإسعاف في زقاقِ بيتنا. ركضتُ وأختي جلست على الرصيف، محتضنةً كيسَ كتبها. اجتمع بعضُ الفضوليِّين في صحن الدار. وإنماكولادا في الرواق تساعد ممرِّضَين لإدخال نقَّالة عبر العتبة الضيِّقة جدّاً.دخلتُ إلى البيت، تعلَّقت بثوبِ أمِّي، لكنَّها رفضتني منهارةً، وكأنَّها مصابة بالغثيان. شعرتُ في تلك اللحظة بدفقة من رائحة اللوز كثيفة وعجوزٍ هزيل يظهر منتصباً على قدميه تماماً في باب الغرفة، حافياً لا يرتدي إلاَّ قميصاً داخليّاً ، وقد تخرَّبَ القليل من الشعر الباقي على رأسه، وعيناه برَّاقتان من جنون الحمَّى وخيط من لعابٍ سال على لحمتي فمه، يستند بيده اليسرى إلى الجدار ويستمني باليمنى.

ـ كفى، يا تشارلز، دعكَ من هذا! ـ أمرتهُ أُمّي ـ كفى، أرجوكَ، كفى! ـ توسَّلت إليه وقد أخفت عينيها بين يديها.

عانقت إنماكولادا أُمّي بينما أخذ المُمرِّضان والدي، أخرجاه إلى الرواق، وضعاه على النقَّالة، غطّياه بملحفة وربطاه بنطاقين. كان يطلق اللعنات والكلمات المريعة، لغةً لم أسمعها منه من قبل. رافقته حتى سيَّارة الإسعاف، لكنَّ أمّي منعتني من الذهاب معهم، ابتعدت السيَّارة عاويةً تلفُّها غيمة من الغبار. أغلقت إنماكولادا مورالِس بابَ البيت، أخذتني من يدي،

نادت *أوليفر* بصفرةٍ منها وراحت تمشي. التقينا في الطريق بجودي، كانت ما تزال في المكانِ ذاتهِ بلا حراكٍ ، تبتسمُ ابتسامةً غريبة.

ـ هيّا بنا، يا طفليَّ، سأشتري لكما غزل البنات ـ قالت إنماكولادا، كابحةً دموعها.

تلك كانت المرَّةُ الأخيرة التي رأيتُ فيها والدي حيّاً، فبعد ساعات تُوُفِّيَ في المشفى، وقد هزمه نزيفٌ داخليٌّ مستعصٍ. نمتُ في تلك الليلة مع جودي في بيتِ الأصدقاء المكسيكيّين. كان بيدرو مورالِس غائباً يرافق أمّي في اجراءات الموت. حملتنا إنماكولادا جانباً قبل ان نجلسَ إلى العشاء وشرحت لنا بأفضلِ ما استطاعت أنّه لم يعد علينا أن ننشغل، فجسدُ والدنا الماديّ ما عاد يعاني وجسده الروحي طار إلى فضاء النجوم، حيث لا بدَّ أنّه اجتمع مع اللوجيين والمعلمين الموظّفين الذين ينتمي إليهم.

ـ يعني أنّه ذهب إلى السماء مع الملائكة ـ أضافت بنعومة، مرتاحةً لمفردات إيمانها الكاثوليكيّ أكثر من مفردات *الخطّة اللانهائية*.

بقينا أنا وجودي مع أولاد مورالِس الذين كانوا ينامون كلّ اثنين أو ثلاثة في سريرٍ واحد، والجميعُ في غرفةٍ واحدة. سمحت إنماكولادا *لأوليفر* بالدخول فقد كان معتاداً عليَّ ولو ترك في الخارج لأثار فضيحة بأنينه. كنتُ أبكي، وقد أنهكتني العواطف المتناقضة، حين سمعت في الظلمة صوت كارمن تهمسُ لي أن أترك لها فجوة، شعرت بجسدها الصغير والحار ينزلقُ بجانبي. افتح فمك وأغمضْ عينيكَ، قالت لي، فشعرت بها تضعُ إصبعاً على شفتيَّ، إصبعاً طُليَ بشيءٍ لزجٍ وحلوٍ مصصته وكأنّه سكاكر. كان ذلك حليباً مكثّفاً. انتصبتُ قليلاً ودفعتُ بإصبعي في المرطبان كي أعطيه لها، وهكذا بقينا يلحس الواحد منّا ويمتصّ إصبعَ الآخر إلىأن انتهت الحلوى. نمتُ بعدها مطمئنّاً، بشماً من السكّر، دبقَ الوجهِ واليدين، محيطاً بها بذراعيَّ و*أوليفر* عند قدميَّ يرافقني تنفّسُ الأطفال الآخرين وحرارتهم وشخيرُ الجدَّة الخرفة المربوطة بحبلٍ طويلٍ إلى خصر إنماكولادا مورالِس في الغرفة المجاورة.

ضعضعَ موتُ والدي الأسرةَ فأضاعت في وقتٍ قصير اتجاهَها، صارَ على كل واحدٍ أن يُبْحِرَ وحيداً. كان الترمُّلُ بالنسبة لنورا خيانةً،

شعرت بنفسها مهجورةً في وسط وحشيٍّ مع ولدين ودون أيّة موارد، لكنَّها شعرت في الوقت ذاته براحة لا يمكن البوحُ بها، لأنَّ رفيقها في المرحلةِ الأخيرة لم يكن الرجل الذي أحبَّته فمعاشرته تحوَّلت إلى عذاب. ومع ذلك بدأت بعد التعزية بقليل تنسى عجزه الأخير، صارت تُداعب الذكريات السابقة، تتصوَّرُ بأنّهما مرتبطان بخيطٍ خفيٍّ، كالخيط الذي كان يعلِّقُ به برتقالة *الخطّة اللانهائية* ، هذه الصورة التي أعادت إليها أمان الماضي البعيد، حين كانٍ زوجها يسيطر على قدرِ الأسرة بثباته كمُعَلّم. استسلمت نورا لوهن جِبِلّتها، وزادت حدَّةُ فتورها، الذي بدأ مع هول الحربِ، تآكلَ الإرادة الذي نما بشكلٍ موارِبٍ وبرز بكلِّ حجمه حين ترمَّلتْ. لم تتكلَّم قط عن المرحوم بصيغةِ الماضي، وكانت تشيرُ إلى غيابه بمفردات غامضة، كما لو أنَّه شرعَ برحلة فلكيّة مطوَّلة، ثمَّ راحت، حين بدأت تتواصلُ معه في الأحلام، تشيرُ إلى الموضوع كمن يعلّق على مكالمة هاتفيَّة.لم يبغِ ولداها الخجلان أن يَسْمَعاها تتكلم عن هذه الهذيانات، خائفَيْنِ أن تقودها إلى الجنون. بقيتْ وحيدةً. كانت غريبة في ذلك الوسط، لا تكادُ تُبربر ، قليلاً، بالإسبانية وتجدُ نفسها مختلفة عن بقيَّةِ النسوة. كانت قد انتهت صداقتُها مع أولغا، وتكادُ لا تتواصل مع ولديها، لم تدخل في ألفةٍ مع إنماكولادا مورالِس أو أيِّ شخصٍ آخر في الحيِّ، كانت لطيفة لكنَّ الناس يتجنَّبونها لأنَّها تبدو غريبةَ الأطوار ولا أحد يريدُ أن يسمع هذيانها عن الأوبرات أو *الخطّة اللانهائية*. فعادة التبعيّة كانت متجذِّرة فيها إلى حدٍّ أنَّها بقيت مصعوقة حين فقدت تشارلز. قامت ببعض المحاولات لكسب العيش من خلال الكتابة على الآلة الكاتبة أو الخياطة، دون نتيجة، كما لم تستطع الترجمة عن العبريّة أو الروسيّة كما حاولت، لأنَّ أحداً لم يكن بحاجةٍ إلى تلك الخدمات في الحيّ وفكرة المغامرة بالذهابِ إلى مركز المدينة للبحث عن عملٍ ترعبها. لم تقلق كثيراً من أجل إعالة ولديها ، لأنَّها لم تعتبرهما ملكها تماماً، كانت تؤمن بنظريّة أن الأطفالَ ينتمونَ إلى النوع عموماً وليس إلى أحد خاصّة. جلست لساعاتٍ في رواق البيت تنظرُ إلى الصفصافة تنمو، دون حراك ، يعلو وجهها السلافي الجميل، الذي بدأ يبهتُ، الشرود والوداعة. راح النمشُ يختفي في السنوات التالية، امَّحت ملامحُها وبدت كأنّها تتلاشى بكاملها إلا قليلاً. صارت في شيخوختها من الهفافة بحيث يصعب تذكّرها، وبما أنّه لم يخطر لأحد أن يأخذ لها صورةً وصل الحالُ بغريغوري بعد موتها إلى درجة فكَّر بأنّها ربما لم توجد قط. حاولَ بيدرو مورالِس أن يقنعها بالانشغال بأيِّ شيءٍ، قصَّ لها إعلاناتٍ عن وظائف مختلفة ورافقها في

مقابلاتها الأولى ، إلى أن اقتنع بعدم قدرتها على مواجهة المشاكل الواقعيّة. بعد ثلاثة أشهر، حين لم يعد الوضعُ محتملاً، حملها إلى مكتب الرعاية الاجتماعيّة ليحصل لها على مساعدة كمعوزة، حامداً الله أنّ مُعلّمه تشارلز ريفز ليس حيّاً حتى لا يرى مثل ذلك الذلّ. بقي شكّ الصدقة العامّة، الذي لم يكد يكفي لتغطية نفقات الحدود الدنيا، الدخلَ الوحيدَ المضمون للعائلة لسنواتٍ طويلة، البقيّة جاءت من عمل ولديها ومن أوراق أولغا الماليّة التي كانت تأمر بأن توضعَ في محفظة نورا ومن مساعدات آل مورالِس المحتشمة . ظهرَ مُشترٍ لأفعى البوا وانتهى الحيوان بأن أصبح معروضاً لنظرات الفضوليين في مسرحٍ سيِّئ السمعة بجانب بعض المغنيات خفيفات الثياب، ومتكلّم من بطنه عَنيد وبعض العناصر الفنّية قليلة القيمة، الذين يُسلّون المشاهدين المتوحّشين. بقيت هناك على قيد الحياة سنوات عدّة، تتغذّى على الفئران والسناجب الحيّة والفضلات التي كانوا يلقونها لها في القفص لمجرّد أنّهم يريدون أن يروها تفتح حلقومها، حلقوم البهيمة الضجرة، كبرت وسمنت حتى اكتسبت مظهراً مرعباً، على الرغم من أنّ وداعةَ جبلّتها لم تتبدّل.

عاش الطفلان ريفزِ وحيدين، كلّ واحد بأسلوبه. جودي استُخدمت في دكان لبيع الخبز، تعملُ أربع ساعات يوميّاً بعد الانصراف من المدرسة وفي الليلِ كانت تعتني عادةً بالأطفال أو تنظفُ المكاتب. كانت طالبة جيّدة، تعلّمت تقليد كلّ أنواع الخطوط، كتبت فروض طلاّب آخرين مقابل مبالغ معقولة، وقد أبقت على هذه التجارة السرّيّة دون أن تُبَاغَتَ، بينما استمرّت تتصرّف كفتاةٍ نموذجيَّةٍ، دائمة الابتسام والوداعة، لا تكشف أبداً عن شياطين الروح، إلى أن بدّلت أعراضُ سنِّ البلوغ مزاجَها. حين طلعت لها حبّتا كرزٍ في ثدييها وبرز خصرها ورقّت ملامحُ الوليدةِ الحديثة عندها. كلُّ شيءٍ تبدّلَ بالنسبةِ إليها. كانَ لونُها وأبعادُها الولكيريّة[1]، في ذلك الحي من الناس السمر والقصيرين، تلفتُ النظر ممّا يجعل من المحال عليها أن تمرَّ دون أثر. دائماً كانت حلوة، لكنها حين عبرت عتبةَ الطفولةِ وراح الرجال من كلِّ الأعمارِ والظروف يحاصرونها، تحوّلت هذه الطفلة الحلوةُ إلى حيوانٍ ضارٍ. كانت تشعر بنظرات الرغبةِ كأنّها اغتصاب، فتصلُ عادةً إلى البيتِ لاعنةً، صافقةً البابَ، وأحياناً باكيةً

---

(1) الولكيرية: آلهة اسكندينافيّة كانت تحدِّد في المعارك الأبطال الذين يجب أن يموتوا.

عجزاً، لأنّهم صفروا لها في الشارع وقاموا ببعض الحركات الفاحشة. ابتدعت لغة خاصّة للردّ عليهم وإذا ما حاولَ أحدٌ لمسها دافعت عن نفسها بمشبك قبَّعة طويلٍ تضعه دائماً في متناول يدها كما لو كان خنجراً، دون أنْ تتردَّدَ في غرزه في أكثر الأماكن حساسيّة عند المعْجَب. كانت تهجمُ في المدرسة على الذكور لنظراتهم الخبيثة وعلى رفيقاتها لضغينة العرق والغيرة التي لامحال تثير حفيظتها. رأى غريغوري أُختَه مرَّاتٍ عدَّة في مشاجرات الفتيات الغريبة ـ مُغالبات، خدوش، شدّ من الشعر، شتائم ـ المختلفة تماماً عن التي تقوم بين الرجال، القصيرة، الصامتة والحاسمة بشكلٍ عام. كانت النساء يبحثن عن إهانة عدوَّتهن، بينما الرجال يبدون مستعدِّين للقتل أو الموت. لم تكن جودي تحتاجُ إلى مساعدة للدفاع عن نفسها، فقد تحوَّلت بالممارسة إلى مصارع حقيقيٍّ. وبينما كانت الشابات الأخريات من عمرها يجرِّبن مكياجاتهنَّ الأولى، يمارسن القبل الفرنسيّة ويحسبن الزمن المتبقّي لهنّ كي يحتذين الكعبَ العالي، قصّت هي شعرها كالسجين، ارتدت ثياب الرجل والتهمت بشهيَّة فضلات المائدة وحلوى دكّان بيع الخبز. امتلأ وجهها بالحبّ وحين دخلت الثانويّة كان قد زاد وزنها بحيثُ لم يبق شيءٌ من دميةِ الخزف التي كانتها في الطفولة، وبدت كأسدٍ بحريّ، كما كانت تقول هي بحثاً عن إهانة لنفسها.

في السابعة من عمره نزلَ غريغوري إلى الشارع. لم يكن مرتبطاً بأمّه عاطفيّاً، بل ببعض الرتابات المشتركة وتقليد الشرف المستخلص من القصص البنّاءة لأطفالٍ ناكرين للذات، يلقون جزاءهم ثواباً وللناكرين للجميل الذين ينتهون إلى فرن الساحرات. كان يأسف لوضع نورا ويعرف تماماً أنّها دونه ودون جودي ستموت خواءً، جالسةً في كرسيٍّ الخيزران، تتأمَّلُ الفراغ. ما من واحدٍ من الطفلين كان يعتبرُ تراخي أمِّه رذيلةً بل مرضاً روحيَّاً، فربَّما راح جسدها العقلي يبحثُ عن والدهما وضاع في متاهة بعض الطبقات الكونيّة، أو بقي متأخِّراً في واحدٍ من تلك الفضاءات الفسيحة المليئة بالآلات الغريبة والأرواح الهائمة. انتهى الودُّ بين غريغوري وجودي وحين تعب من البحث عن طرقٍ للالتقاء بها، استبدلها بكارمن مورالِس، التي كان يتبادلُ معها الحنان الفج، العراكات ووفاء الرفاق الطيِّبين. كان عفريتاً، قلقاً، وسلوكه في المدرسة رديئاً جدَّاً، يضيِّعُ نصف وقته بتنفيذ العقوبات المختلفة، بدءاً من الوقوف بوجهه إلى الزاوية بأذني حمارٍ وحتى تحمُّل صفعات المديرة على قفاه؛ يتصرَّفُ في بيته كنزيل، يصلُ للنوم في ساعة متأخِّرة قدر استطاعته، ويفضِّل الذهاب إلى

بيت آل مورالِس أو زيارة أولغا. وما تبقَّى من حياته يقضيه في دغلة الحيّ، التي توصَّلَ إلى معرفة آخر أسرارها. كانوا ينادونه *الغرينغو*[1] والكثيرون يحبُّونه على الرغم من الضغينة العرقيَّة، لأنَّه كان فرحاً وخدوماً، يعتمد على عددٍ من الأصدقاء: طبَّاخ مطعم الوجبات الخفيفة، الذي دائما كان عنده صحن طيِّب يقدِّمه له. صاحبة المخزن، حيث كان يقرأ المجلاّت القصصية دون أن يدفع. حاجب السينما، الذي كان يُدخله من حينٍ إلى آخر من الباب الخلفي ويسمح له بمشاهدة الفيلم.بل وحتى *نَقّار الزنبق* الذي لم يشكّ قط بضلوعِهِ في اللقب، عادةً ما كان يقدِّمُ له بين الفينة والأخرى قنينة مياه غازية في بار «الأصدقاء الثلاثة». أضاع في محاولته لتعلّم الإسبانيّة قسماً جيّداً من الإنكليزيّة وانتهى إلى أنَّه صار يتكلَّم اللغتين بشكلٍ سيّئ. بقي لفترة يتلعثم فاستدعت المديرةُ نورا كي تنصحها بوضع ابنها في مدرسة المتخلِّفين التابعة لرهبان الحي، لكنَّ معلِّمته مس جون تدخَّلت ووعدت بمساعدته في وظائفه. لم تكن تهمّه الدراسةُ كثيراً، فعالمه الشوارعُ التي يتعلّم فيها أكثر بكثير. كان الحيُّ حصناً ضمن المدينة، غيتو بدائيّاً وفقيراً، نشأ بدوافع عفويَّة حول المنطقة الصناعيّة، حيث كان باستطاعة المهاجرين غير الشرعيين العملَ دون أن يوجِّه لهم أحدٌ أيّة أسئلة. كان الهواءُ ملوّثاً برائحة معمل المطّاط،وينضمّ إليها خلال أيّام الأسبوع دخان السيّارات والمطابخ ليشكّل غيمةً كثيفةً تطفو فوق البيوت مثل دثار مرئيّ. وكانت المغامرة عندما يخيّم الليل أيّام الجمعة والسبت خطيرة، حين يتكاثر السكارى ومدخنو المخدرات لينفجروا في معارك قاتلة. كانت تُسْمَعُ في الليل شجارات أزواج، صراخ نساء، بكاء أطفالٍ، شجاراتُ رجالٍ وأحياناً دويّ طلقات وصفّارات سيّارات شرطة؛ وفي النهار تغلي الشوارع بالنشاطات، بينما يضمر في الزوايا رجالٌ بلا عمل، كسالى، يشربون ويزعجون النساء، يلعبون بالزهر بانتظار أن تنقضي الساعاتُ بقدريَّة خمسة قرون على كاهلهم. الدكاكين تعرض الأشياءَ الرخيصة الموجودة في أيَّةِ بلدة مكسيكيَّة، والمطاعم تقدِّم الصحون التقليديَّةَ والباراتُ تكيلا وبيرة وفي الصالونات الرقص، تعزفُ الموسيقى اللاتينيّةَ والاحتفالات لا تخلو من فرق الموسيقى الشعبيّة المكسيكيّة بقبّعاتهم الهائلة، وثيابهم البرّاقة يغنون للشرفَ

---

(1) الغرينغو اسم يطلق تقبيحاً في أمريكا اللاتينيَّة على الأمريكي الشمالي وأحياناً على الإنكليزي.

والغضب. كان غريغوري، الذي يعرفُ الجميعَ ولا تفوته حفلة، يدخل وراء الموسيقيين كتميمة للمجموعة، يرافقهم في الغناء ويطلقُ أي، يَيْ،يَيْ الأغنيةِ الشعبيَّة التي لاغنى عنها كما لو كان خبيراً، يثيرُ الحماسَ في الجمهور الذي لم يرَ غرينغو بكفاءته. يحيي نصف الموجودين بأسمائهم فكسب بفضل مظهره اللطيف ثقةَ الكثير من الناس. كان يشعر بنفسه في متاهة الأزقَّة، والممرّات، في الأماكن البور والأبنية المهجورة، أفضل ممَّا في بيته، حيثُ يلعبُ مع الأخوة مورالِس وبضعة عشرة طفلاً آخرين من عمره، يتجنَّبُ دائماً لقاء عصابات الكبار. كان الحيُّ بالنسبة للهيسبانيين أهمَّ من العائلة، كما كان يحدثُ بالنسبة إلى مجموعات الشبابِ الزنوج، الشرقيين، أو البيض الفقراء في مناطق أخرى من المدينة. كلُّ عصابة تتحدَّدُ بلغة رمزها، ألوانها، شعاراتها على الجدران. كان الجميع من بعيد متشابهين، فتيةٌ رثّي الثياب، غير قادرينَ على صياغة أفكارهم، أمَّا عن قرب فمختلفين، لكل مجموعة طقسها، لغتها الإيمائيّة الرمزيّة المُعَقَّدة. كان تعلُّمُ الرموز بالنسبة إلى غريغوري مسألة في الدرجة الأولى من الأهميَّة، يستطيعُ أن يميِّزَ أعضاءَ مختلف العصابات من نوع السترة أو القبُّعَةِ، من إشارات اليد التي كانوا يرسلون من خلالها رسائلهم أو يثيرون بها بعضهم بعضاً للحرب، فيكفيهم أن يروا لونَ حرفٍ وحيدٍ على الجدار كي يعرفوا من خطِّه وماذا يعني. كانت الإشارة على الجدران تحدِّدُ الحدود وأيّ واحد يغامر في مجال الآخر جهلاً أو جرأةً يدفع الثمن غالياً، لذلك كان عليه أن يلفّ ويدور دوراتٍ طويلة في كلِّ مرَّةٍ يخرجُ فيها. العصابة الوحيدة في المرحلة المدرسيّة كانت عصابة مارتينث، التي كانت تتدرَّبُ لتنتمي ذات يوم إلى عصابة *«الجزّارين»*،أكثر عصابات الحيِّ رهبةً. كان أعضاؤها يتميَّزون باللون البنفسجي وحرف الـ C، مشروبهم هو التكيلا مع مرطِّب العنب، ولونهم وتحيَّتهم باليد اليمنى التي تغطِّي الفم والأنف كمغرفة.كان للحرب الأبديَّة ضدَّ المجموعات الأخرى والشرطة غاية وحيدة هي إضفاء معنى الهويّة على الشباب، الذين هجرت غالبيَّتهم المدرسة، وليس لديهم عمل، يعيشون في الشارع في غرفٍ مشتركة. كانت العصابات مفيَّشة لدخولها المتكرِّرِ إلى السجن بسبب عمليّات النشل، تجارة الماريغوانا، السكر، السطو وسرقة السيَّارات. قليلون منهم يحملون مسدَّسات مصنوعة يدويّاً من قطعة ماسورة معدنية، ومقبض خشبيٍّ ومفجِّر، لكنَّهم يستخدمون في العادة السكاكين، السلاسلَ، المُدي والهراوات، الشيء الذي لم يمنع سيَّارات الإسعاف أن تنقلَ بعد كلِّ

معركة في الشوارع اثنين أو ثلاثة في حالة خطيرة. كانت العصابات تشكّلُ بالنسبةِ إلى غريغوري أكبر تهديدٍ، فهو لم يستطع قط الانتماء إلى أيٍّ منها، فهذا الأمر مسألة عرق، ومواجهته ضرب من الجنون. فالمسألة لم تكن في إحراز شهرة بالشجاعة، بل بالبقاء على قيد الحياة، لكنّه أيضاً لا يقبلُ أن يعتبر جباناً لأنّهم سينكّلون به. كفته بعض الصفعات كي يفهم بأنَّ الأبطال الفرديين لا ينتصرون إلا في الأفلام، وأنَّ عليه أن يتعلّم كيفَ يفاوِض بمكرٍ فلا يلفت الانتباه ويعرف العدوَّ كي يخرج من نقاط ضعفه بفائدة ويتجنّب العراك معه، لأنّه وكما كان يقول الأبُ لارّاغيبِل: إنَّ الله لا يساعدُ الطيّبين إلاّ إذا كانوا أكثرَ من السيّئين.

تحوّلَ بيتُ آل مورالس إلى ملاذ لغريغوري، حيث يصلُ في كلِّ لحظة كابن لهم. فهو واحد بين كومة الصبية، حتى أن إنماكولادا كانت تتساءل في لحظات الشرود كيف حدث وأنجبت ولداً أشقر. ما من أحدٍ في تلك القبيلة كان يشكو العزلةَ أو الضجرَ، كلّ شيءٍ يتم تقاسمه، بدءاً من القلق الوجودي وانتهاءً بالحمّامِ الوحيد، والأمور الخطيرة تناقش بصوت عالٍ، لكنَّ الأمور المهمّة يحافظ عليها بسرّيّةٍ صارمةٍ عملاً بقانون الشرف الألفي. وسلطة الأب لا تقبل النقاش، فأنا من يرتدي البنطلون، هكذا كان يزمجر بيدرو مورالِس في كلِّ مرّةٍ يحرّكُ فيها أحدٌ الأرضَ تحت قدميه. لكن في الأعماق كانت إنماكولادا هي الزعيمة الحقيقيّة للعائلة. ما من أحد يتوجّه مباشرةً إلى الأب، ويفضلون روتين الأم، التي لم تكن تناقض زوجها أمام شهودٍ، لكنها تتدبّرُ أمرها للخروج بما تريد. في المرّة الأولى التي ظهر فيها الابن الأكبرُ مرتدياً *زيّ الإمّعة* ضربه ضرباً مبرّحاً بالنطاق وطرده من البيت. كان الفتى قد ملَّ من العمل ضعف أيِّ أمريكيٍّ بنصف الأجر وكان يهيم نصف اليوم مع رفاق السوء في ملاعب الكرات والبارات الرديئة دونما نقود غير التي كسبها في المراهنات، وما كانت تمرّرُه له أمُّهُ خلسةً. وكان بيدرو مورالِس يغضّ الطرف قدرَ استطاعته ليتجنّب السجال مع زوجته، لكنّه حين مثُلَ أمامه متزيّناً مثل قوّاد ودمعة موشومة على خدّه هرسه من الضرب. في تلك الليلة وبينما الجميع في فراشهم سَمِعَ همسُ إنماكولادا لساعات تطرّي عناد زوجها. خرج بيدرو في اليوم التالي يبحث عن ابنه، فوجده واقفاً عند إحدى الزوايا يغازل النساء اللواتي كنّ يعبرن ، أخذه من عنقه وحمله معه إلى مرآبه، فأخلعه شدّاً *زيّ الإمّعة* وأعطاه بنطلوناً كلّه شحم وأجبره على العمل من

طلوع الشمس وحتى مغيبها، إلى أن حوّله إلى أفضل ميكانيكي في محيطه وصار عنده ورشته الخاصّة به. عندما أتمّ بيدرو مورالِس نصف قرن وتزوّج ابنه وصار له ثلاثة أولاد وبيت خاصّ في الضواحي جعلهم ينزعون له الدمعة عن خدّه هديّةً لوالده في عيدِ ميلاده، وبقيت الندبة العلامة الوحيدة من عهد التمرُّد.كانت إنماكولادا تقضي حياتها في خدمة رجال أسرتها، ويبدو أنّها قامت بذلك في طفولتها مع أبيها وأخوتها وفيما بعد مع زوجها وأولادهما. كانت تستيقظ مع الفجر لتطبخ طعام إفطار هائلٍ لبيدرو الذي يجب أن يفتحَ المحلّ باكراً، لم تقدّم على مائدتها عجّةً بائتة، ولو فعلت لأساءت لكرامتها. تمضي بقيّةَ النهار في أعمالٍ غير محبّبة بما في ذلك تحضير الوجبات الثلاث الكاملة والمختلفة مقتنعةً بأنّ على الرجال أن يتناولوا صحوناً هائلة ومتنوّعة. لم يخطر لها قط أن تطلب مساعدةَ أولادها، أربعة رجال أقوياء، ضخام الجثّة، لكشط الأرض ونفض الفرش أو غسل ثياب الورشة الخشنة، القاسية من زيوت المحرّكات، والتي كانت تدعكها بيديها. بالمقابل كانت تجبر الطفلتين على خدمة الذكور، لأنّها تعتبر ذلك واجباً. أراد الله أن نولد نساءً، حظ سيّئٌ، قدرنا العمل والألم، كانت تقول بنبرة ذرائعيّةٍ دونما أيّ مظهر من مظاهر الشفقة على الذات.

كانت كارمن مورالِس خلال تلك السنوات بلسماً لفظاظات حياة غريغوري ريفز ونوراً في لحظات رعونته، تماماً كما ستكون في المستقبل. كانت الطفلة تبدو ابنةَ عرسٍ قلقة، ماهرةً لا تتعب، بإحساس عمليٍّ هائلٍ يجعلها تتفادى تقاليد العائلة الصارمة دون أن تصطدم مع أبيها، التي كانت أفكاره عن النساء واضحة جدّاً: صامتات، مكانهنّ البيت. ولا يتردّدُ في أن يصفع أيَّ متمرّدٍ بمن فيهم ابنتاه. كانت كارمن المفضّلة عنده، لكنّه لم يطمح لها بمصيرٍ مختلفٍ عن مصير بنات ضيعته الخانعات في ثاكاتِكاس، بينما يعملُ هو دونما راحة من أجل تربية أولاده الذكور الأربعة، الذين وضع فيهم آمالاً لا حدودَ لها، يرغبُ بأن يراهم وقد تجاوزوا كثيراً أجدادهم المتواضعين بل وحتى نفسه. حافظ على أسرته موحّدةً بعناد لا ينضب، بالعظة والعقاب والمثل الصالح . وتمكّن من إنقاذ فتيانه من الكحول والجريمة وإجبارهم على إنهاء الدراسة الثانويّة وتوجيههم إلى مهنٍ مختلفة. وقد حقّقَ الجميع، باستثناء خوان خوسِه الذي مات في ڤييتنام، بعضَ النجاح. وفي نهاية أيامه كان بيدرو مورالِس الذي يحيط به أحفادٌ لا يتكلّمون كلمةً واحدة بالقشتاليّة، يهنّئُ نفسه على ذرّيّته، فخوراً بأنّه جِذع تلك القبيلة، على الرغم من أنّه

كان يمزح قائلاً ما من أحدٍ صار مليونيراً أو مشهوراً.كانت كارمن على وشك أن تحقّق ذلك، لكن لم يَعترف بجدارتها علناً، ولو حدث لاعتُبِرَ تنازلاً عن مبادئه الذكوريّة. أرسل الفتاتين إلى المدرسة لأنّ التعليم كان إلزاميّاً ولا يريد أن يتركهما غارقتين في الجهل، لكنّه لم يأمل منهما أن تأخذا الدراسة مأخذَ الجدّ، بل أن تتعلّما الأعمالَ البيتيّة وأن تساعدا أمّهما وتحافظا على بكارتيهما إلى يوم الزواج، الطموح الوحيد بالنسبة إلى أيّة شابّة محتشمة.

ـ أنا لا أفكّر بأن أتزوّج، أُريدُ أن أعملَ في سيرك مع الحيوانات المروّضة وأرجوحة عالية جدّاً كي أتأرجح على رأسي وأُري للعالم سروالي الداخلي ـ كانت كارمن تهمس بسرّية لغريغوري.

ـ ستكون ابنتاي إمّا أُمّيْن وزوجتين صالحتين أو أنّهما ستذهبان إلى الدير ـ كان يتبجّحُ بيدور مورالِس في كلّ مرّةٍ يأتي فيها أحدٌ بحكاية فتاة عازبة حبلت قبل أن تنهي الثانويّة.

ـ لترزقهما زوجاً صالحاً، يا سان أنطونيو المبارك! ـ كانت تهتف إنماكولادا مورالِس مدلّيةً تمثال القدّيسِ وساقاه إلى الأعلى، لتجبره على سماع توسُّلاتها المتواضعة. كان واضحاً بالنسبةِ إليها أنّه ما من واحدة من ابنتيها تميل لأن تكون راهبة، كما لا ترغب بتصوّر مأساة أن تراهما تتصرّفان مثل تلك الضائعات اللواتي يعِشْن دون زواجٍ ويتركن كومة من واقيات الحمل في المقبرة.

لكنَّ هذا حدث بعد زمن طويل. ففي المرحلة الابتدائيّة، لم تكن قد طُرِحَت هذه القضايا عندما وقّعت كارمن وغريغوري عهدَ الأخوّة، ولا أحد تذرَّع بحجج الفضيلة لمنعهم من اللعب دون مراقبة. فقد اعتادوا على رؤيتهما معاً إلى حدٍّ أن الزوجين مورالِس وثقا فيما بعد، عندما صار الصديقان في أوج بلوغهما، برفقة غريغوري لكارمن أكثر من أولادهما بالذات. وعندما كانت تطلبُ الفتاة إذناً بالذهابِ إلى حفلة ما كان السؤال الأوّل الذي يتبادر إليهما هو ما إذا كان ذاهباً أيضاً، فيشعران في هذه الحالة بالأمان. تلقوه منذ اليوم الأوّلِ دون تحفُّظ، صمّا آذانهما في السنوات اللاحقة عن شائعات الجيران الحتميّة، مقتنعين بعكس كلّ المنطق والتجربة بنقاء عواطف الفتيين. بعد ثلاث سنوات هجر غريغوري تلك المدينة للأبد، والحنين الذي لم يفارقه قط كان لبيتِ آل مورالِس.

كان يحتوي صندوقُ تنظيفِ أحذية غريغوري دهاناً أسودَ، وبنيّاً محروقاً وأصفر وأحمر قاتماً، لكن ينقصه الشمع الشفّاف للرمادي والأزرق، الدارج أيضاً، وكذلك الطلاء السائل لترميم التقشيرات. كان قد صمّم أن يجمع نقوداً ليكمل معدّات عمله، لكن ما إن يظهر فيلم جديد حتى يخونه العزم. فالسينما إدمانه السرّيّ، وكان في الظلمة واحداً من مجموعة الأطفال الصاخبين، لا يفوته عرض في سينما الحي، التي كانت تعرض أفلاماً مكسيكيّة بشكل متواصل فيذهب أيّامَ السبت مع خوان خوسيه وكارمن إلى مركز المدينة لمشاهدة المسلسلات الأمريكيّة، حيث ينتهي المشهدُ بالبطل مربوطاً من قدميه ويديه، في عنبرٍ مليء بالديناميت، أشعل فيه الوغدُ فتيلاً وفي الذروة تصير الشاشة سوداء ويعلو صوت يدعو إلى مشاهدة البقيّة في السبت القادم. كان غريغوري يشعر بنفسه بائساً إلى حدّ تمنيهِ الموت، لكنّه كان يؤجّلُ الانتحار إلى الأسبوع التالي، فمن المحال أن يُغادر هذا العالم قبلَ أن يعرف كيف سيتخلصُ البطلُ من المكيدة. لكنّه دائماً يخرجُ سالماً، الحقيقة أنّه لمدهشٌ أنْ يستطيع الزحف وسط اللهب ويخرج سليماً وقبّعته على رأسه وثيابه نظيفة. كان الفيلم ينقلُ غريغوري إلى بُعدٍ آخر، فيتحوّل لساعات إلى زورو (الثعلب)أو ساكن السهوب المتوحّد، جميعُ أحلامه تتحقّق وبسحرِ ساحرٍ كان الطيِّبُ يتعافى من الرضوض والجراح، يفكّ نفسه من القيود والأفخاخ، ينتصرُ على أعدائه بجدارته الخاصّة ويبقى مع الفتاة، كلاهما في البعد الأوّل يتبادلان القبل والشمس أو القمر تتلألأ خلفهما وجوقة من الأوتار، والرياح تسمَح بسماعِ موسيقاها الواهنة. لم يكن عليه أن ينشغل، فالسينما لم تكن مثل حيِّهِ، ففي الأفلام لا مجال إلاّ للمفاجآت اللطيفة، والطيِّب يهزم دائما الشرير، ويجعله يدفعُ ثمن جرائمه موتاً أو سجناً. وأحياناً يندمُ ويعترف بعد إهانة حتميّة بأخطائه، ثمّ يبتعد تحيطُ به موسيقى الختام غالباً ما تكون موسيقى أبواق وطبول. كان غريغوري يشعر بأنَّ الحياةَ جميلةٌ وأمريكا *أرضُ الأحرار ومسكنُ الشجعان*، حيث يستطيعُ واحدٌ مثله أنْ يصبح رئيساً، فالمسألة في كلّ شيء هي أن يحافظ على القلب صافياً، يحبَّ الله وأمّه ويبقى مخلصاً لخطيبة واحدة للأبد، يحترم القوانين، يدافع عن المعوقين ويحتقر المال، فالأبطال لا ينتظرون تعويضاً. وكان تردُّدُه يتبخّر في ذلك الكون الملوّن بالأبيض والأسود. يخرجُ من المسرح متصالحاً مع الحياة، مفعماً بنوايا لطيفة تدوم دقيقتين، فصدمة الشارع تعيد إليه الشعور بالواقع. تعهّدت أولغا أن تحيطه علماً بأن الأفلام كانت تصنع في هوليوود على مسافة قصيرة من بيته ذاته وأن كلّ شيء كان

كذبة هائلة، والشيء الوحيد الحقيقي هي رقصات الكوميديات الموسيقيّة وغناؤها وما عداها حيل كاميرا، لكنّ الصبيّ الصغير لم يسمح لهذا الكشف أن يعكّر قناعته.

كان يعملُ بعيداً عن بيته في منطقةِ مكاتب وباراتٍ ومتاجرَ صغيرة؛ قطر دائرة عمله أربعة فراسخ يجوبها في الاتجاهين عارضاً خدماته المتواضعة، عيناه مغروزتان في الأرض، يراقبُ أحذيةَ الناس، المتآكلة والمشوّهة كأحذية جيرانه اللاتينيين. هناكَ أيضاً لم يكونوا يستخدمون الأحذيةَ الجديدة باستثناء بعض أفراد العصابات والتجّار الذين ينتعلون الموكازين[1] اللامعة، الجزمات ببراشم من فضّة، أو أحذية من لونين، يصعبُ تلميعها. كان يحزر وجه الأشخاص من طريقة سيرهم ومن أحذيتهم، فالهيسبانيون يستعملون الأحمر مع الكعب، والزنوج والخلاسيّون يفضلون الأصفر والمقدّمة الدقيقة، الصينيون صغار القدم، أما البيض فرأس حذائهم مرفوع والكعب متآكل. كان التلميع بالنسبة إليه سهلاً، وأصعب منه الحصول على زبائن مستعدّين لدفع عشرة سنتيمات وإضاعة خمس دقائق على مظهر حذائهم. لمّع حذاءك يُحْسَنُ استقبالك! كان ينادي إلى حدِّ الصراخ، لكن الذين يولونه أذناً صاغية كانوا أقليةً. وإذا حالفه الحظ حصّل خمسين سنتيماً في مساء واحد، أي ما يساوي سيجارة ماريغوانا. في المرّات القليلة التي دخّن فيها حشيشاً قدّر أنّ تمويل هذه القذارة التي تجعل معدته تتقلّب ورأسه يدوي مثل طبل لا يستحق كل هذه الساعات في تلميع الأحذية، لكنّه كان يتظاهر بين الناس بأنّها ترفعه إلى السماء، كما كان يؤكّد الآخرون، وذلك كيلا يعتبرونه غبيّاً. فهي بالنسبة إلى المكسيكيين، الذين يرونها تنمو كالأعشاب الضارّة في حقول بلادهم لم تكن أكثر من كلأٍ، لكنّ تدخينها بالنسبة للغرينغويين علامة رجولة. كان فتية الحيّ يستخدمونها بالقطعة تقليداً ومحاولةً منهم لإدهاش الشقراوات. ونظراً لقلّة نجاحه مع الماريغوانا ولكي يضفي على نفسه أهميّة اعتاد غريغوري أن يظهر وسيجارة ملتصقة بشفتيه، مقلّداً أوغاد السينما. كان عنده من الممارسة ما يجعله يتحدَّثُ ويعلك الشكلس دون أن يسقط من فمه. وحين يحتاج لأن يظهر بمظهر الفحل ،أمام أصدقائه، يخرج غليونه المصنوع بيتيّاً ويملؤه بخلطة من اختراعه: بقايا سجائر ملتقطة من الشارع، بعض النشارة، حبّة أسبرين مطحونة تضفي

---

(1) الموكازين: حذاء الهنود الحمر ويطلق أيضاً على حذاء حديث يُقلّده. (المترجم)

بحسب الشائعة الشعبيّة شجاعةً مثل أيّ مخدِّر آخر معروف. كان يعمل أيّامَ السبت طوال النهار ويكسب عادة أكثر من دولار، يكادُ يسلّمه كاملاً لأمّه، تاركاً لنفسه عشر سنتيمات لسينما الأسبوع، وأحياناً خمساً أخرى لصندوق المبشرين في الصين. إذا جمع خمسة دولارات كان الأب يسلّمه وثيقة تَبنِّي طفلة صينيّة، لكن البركة كانت في جمع عشر دولارات فهذا ما يمنحه الحق بطفل. ليباركك الربُّ كان الراهب يقول لغريغوري حين يصل بخمس سنتيمات للصندوق، وفي إحدى المرّات لم يباركه الله وحسب بل كافأه برزمة من خمسة عشر دولاراً وضعها له في المقبرة ليعثر عليها. كانت المقبرة المكان المفضّل للأزواج السريّين في الأماسي، يختبئون هناك بين القبور، يتجسّسُ عليهم أطفالُ الحيِّ الذين لا يضيّعون مشاهد هيجان الحب الصاخب. أي، يا للخوف، فالنساء تقضي عقوبة، تبكي، تخلط ضحكات المتلصصين المخنوقة مع همس الأرواح، ومع ذلك يسمحن لهم أن يرفعوا لهن ثيابهنّ ويتدحرجوا معهنّ بين الشاهدات والصلبان. مقبرتنا أفضلُ مكان في المدينة، أجمل من مقبرة مليارديري وممثّلي هوليوود التي ليس فيها غير العشب والأشجار وتبدو ملعباً للغولف وليس حقلاً مقدّساً، حيث ارتُئيَ ألا يرافق الموتى أيُّ تمثال، تُعرب إنماكولاد مورالِس عن وجهة نظرها، مع أنَّ الأغنياء وحدهم يستطيعون أن يبنوا الأضرحة والملائكة الحجريّة والمهاجرون لا يكادون يتمكّنون من تغطية ثمن لوح بحفرٍ بسيط. كان المكسيكيون يزورون، في تشرين الثاني للاحتفال بيوم الموتى، أقاربَهم الموتى الذين لم يتمكّنوا من إعادتهم إلى قراهم ويحملون إليهم الموسيقى وأزهار الورق والحلوى. تسمع منذ الفجر الأغاني الشعبيّة، القيثارات، الأنخابُ، وما إن يحلّ الليل حتى يثمل الجميع، بمن في ذلك أرواح المطهر التي يقدّمون لها تكيلا الأرض. كان طفلا عائلة ريفز يذهبان مع أولغا إلى الحقل المقدّس، فتشتري لهما جماجمَ وهياكل من سكّر ليأكلاها فوق قبر والدهما. بينما تمكث نورا في البيت قائلةً إنّها لا تحبُّ هذه الاحتفالات الوثنيّة، الذريعة الجيّدة للهو والرذائل، لكنَّ غريغوري كان يعرفُ أنّها الحجّة الحقيقيّة كيلا تلتقي بأُولغا. أو ربّما لأنّها تنكر أن يكون زوجها ووري التراب، فتشارلز ريفز بالنسبة إليها كان في مجال آخر مشغول عن *الخطّة اللانهائية*. كانت الدولارات الورقيّة الخمسة عشر مموّهة تحت بعض الشجيرات، وغريغوري يبحثُ عن عناكب في الثقوب، فقد كانت ما تزال تشدّه المكائد الرائعة لصيد الحشرات التي غزلتها العناكبُ وأكياسها الحاوية على مئات المخلوقات، أكثر من رعشات الأزواج الخرقاء

وآهاتهم غير المفهومة.كذلك كان يلتقط بعض البالونات المطّاطيّة البيضاء، المتروكة هناك وتتّخذ شكل النقانق. رأى المحفظة عندما انحنى فوق ثقبٍ فشعر برجفة شديدة في قلبه وصدغيه. لم يعثر قط على شيءٍ ذي قيمة، لم يدر ما إذا كان الأمرُ يتعلّقُ بهبةٍ من السماء أو بإغواءٍ من الشيطان. ألقى نظرةً حوله ليتأكّد من أنّه وحيد، أخذها بسرعة وركض ليختبئ خلف أحد الأضرحة ويتفحّصَ كنزه. فتحها بيدين مرتعشتين وأخرج ثلاثة أوراقٍ برّاقةٍ ملتهبة من فئة الخمسة دولارات، أكبر مبلغ رآهُ في حياته كلّها. فكّرَ بالأب لارّاغيبل الذي سيقولُ له بأنّ الربَّ وضعها هناك ليختبره ويتأكّد مما إذا كان سيبقي على الغنيمة لنفسه أم سيودعها في صندوق البعثات التبشيريّة كي يتبنّى طفلين دفعةً واحدة.لم يكن في المدرسة من هو غنيٌّ إلى حدٍّ يدفع فيه لتبني واحد من كل جنس، وهذا ما سيجعله من المشاهير، ومع ذلك قرّرَ أنَّ درّاجة ستكون أكثر عمليّة بكثير من مخلوقين شرقيين قصيين لن يعرفهما على كلِّ الأحوال. كان قد وضع عينه على الدرّاجة منذ شهور، عرضها عليه جارُ أولغا بعشرين دولاراً، وهو مبلغ باهظ، لكنّه يأمل أن يلين أمام الأوراق. كانت آلة بدائيّة وفي حالة يُرثى لها، إلاّ أنّها ما تزال تدور. تعود ملكيّتها إلى هنديٍّ وغد حطّت به حياة قضاها في تجارات لا يمكن البوح بها، يخافه غريغوري لأنّه كان يحمله بمختلف الحجج إلى مرآبٍ ويحاول أن يدخلَ يده في بنطلونه. لذلك طلب من أولغا أن ترافقه.

ـ لا تظهر النقود، لا تفتح فمك، ودعني أقمْ بالمهمّة ـ أشارت عليه.ساومته جيّداً حتى حصلت على الدرّاجة باثني عشر دولاراً وتميمةٍ ضدّ العين ـ الدولارات الثلاثة التي زادت تعطيها إلى أمّك، هل سمعتني؟ ـ أمرته عند وداعه.

وانطلق يحرِّكُ الدوّاستين متحمِّساً وسط الشارع، لم يرَ شاحنة المرطبّات القادمة من الاتجاه المعاكس. ارتطم بها. معجزة أنَّ الصدمة لم تسحقه، فالدراجة لم يكد يبقي منها إلا بعض قطع الحديد الملتوية وشظايا الدولابين. هبط السائق لاعناً، أمسكه من قميصه، أنهضه، هزّه مثل منفضة الريش، ثمّ ودّعه في الحال معزّياً إيّاه بدولار.

ـ اشكرْ الله أنّني لا أودعك السجن لأنّك تسير فاغر الفم في عرض الشارع العام، أيّها الصبيّ اللعين ـ تمتم الرجلُ، خائفاً أكثر من ضحيَّته.

ـ لم أرَ في حياتي أغبى منكَ، كان عليك أن تأخذ منه دولارين على الأقل ـ نهرته جودي عندما علمت بالحالة.

ـ يحدثُ لك هذا لأنّك ولد غير مطيع، قلتُ لك ألفَ مرّة لا تدخل إلى المقبرة، فالمال الحرام نهايته وخيمة ـ شخّصت نورا ريفز الحالة بينما راحت تصبّ وسكي على كشطات الركبتين والمرفقين.

ـ يا يسوع المبارك، الحمد لله أنّك ما زلت حيّاً ـ عانقته إنماكولادا موراليس.

صار الحصولُ على المال هوساً بالنسبة إلى غريغوري.كان على استعدادٍ للقيام بأيِّ عملٍ، بما في ذلك قشر حبّات الذرة لصنع العجّة، العمل المضجر الذي سلخ جلد يديه وتسبّبت له رائحته بالغثيان لساعات عدّة. اختار فيما بعد السرقة، دون أن يخطر له قط أن يسرق نقوداً، فهذه مغامرة، رياضة وليست طريقة لكسب العيش.كان يدخل في الليل عبر فراغ موجودٍ في سور المدرسة، يتسلق سطح كشك محطّة البنزين، يرفع لوح زنكٍ وينزلق إلى الداخل ليخرج قطع مثلّجات، يتناول منها اثنتين أو ثلاثاً ويأخذ واحدة إلى كارمن. سبّبَت له هذه الرحلات الليليّة مزيجاً من الشعور بالعظمة والذنب، قواعد الشرف الصارمة التي فرضتها أمّه كانت تطرق في رأسه، فيشعر بأنّه منحرف، ليس لأنّه يتحدّاها فقط وإنّما لأنّ صاحبة الكشك عجوز طيّبةٌ كانت تميّزه عن بقيّة الأطفال، ومستعدّة دائماً لأن تهديه قطعة حلوى. وذات ليلة عادت المرأة في طلب شيءٍ، فتحت البابَ وأشعلت النورَ قبلَ أن يتمكّن هو من الهرب فباغتته وأداة الجريمة في يده. شُلّ بينما هي تدمدم كيف تستطيع أن تفعل هذا معي، أنا التي كنتُ معك في غاية الطيبة! انفجر غريغوري بالبكاء طالباً الصفح ومقسماً بأنّه سيدفع لها ثمن كلّ ما سرقه. ماذا؟ إذن هذه ليست المرّة الأولى؟ واضطرّ الآخر لأن يعترف بأنّه مدينٌ لها بأكثر من ستّة دولارات ثمن مثلّجات. منذُ ذلك اليوم وهو لا يقترب منها إلاّ ليسدِّدَ دَيْنَه الذي دفعه شيئاً فشيئاً. وعلى الرغم من أنَّ المرأة عفت عنه إلاّ أنه ما عاد يشعر بالراحة في حضورها. كان حظه أقلّ في حانوت نفايات الجيش، حيث كان يسرق أسقاطَ الحرب التي لا تفيده في شيء. كان يجمع كنزه في كيس في كهف المعدّات: مطرات، أزرار وحتى زوج من الجزمات هائل ، خبّأه في كيس المدرسة، دون أن ينتابه شكّ بأنَّ صاحب الدكان قد وضعه تحت نظره. استخرج ذات مساء مصباحاً، خبّأه تحت القميص، كان يسير باتجاه الباب، وصل قرب عربة الشرطة. كان من المحال عليه أن يهرب، أخذوه إلى النظارة ووضعوه في زنزانة، استطاع أن يرى منها الضربات الفظيعة التي أنزلوها بفتى أسمر. انتظر دوره، مذعوراً، ومع ذلك عاملوه بشكل جيّد، اقتصروا على تسجيل معلوماته وتعنيفه وإجباره على إعادة ما كان

يخفيه في بيته. ذهبوا في طلب نورا ريفز على الرغم من توسّلاته الهستيريّة بألا يفعلوا، لأنّهم سيمزقون قلبها. مثلت هي بثوبها الأزرق وقبّته المطرَّزة، سمعت التوبيخ والتأنيب بصمتٍ، وبصمتٍ خرجت يتبعها ابنها. قالت له إنماكولادا مورالِس حين علمت بالمسألة: احمد الله أنّك أبيض، يا غريغ، فلو كنت من لون أبنائي لضربوكَ بقسوة . كان شعور نورا بالعارِ من القوّة بحيث بقيت أسابيعَ عدّة لا تنبس بكلمة، وحين تكلّمت فعلت ذلك لتقول له أن يغتسل ويرتدي طقمه الوحيد، طقم الحداد على أبيه، الذي ضاق عليه كفايةً لأنّهما ذاهبان لأمر في غاية الأهميّة. حملته إلى مأوى للأيتام تديره الراهبات، كي تتوسّل المديرة قبولَه، لأنّها تشعر بأنّها عاجزة عن النجاح في تربية هذا الصبيِّ سيِّئ العريكة. أقسم غريغوري الواقف خلف أمّه وعيناه مغرورِقتان في حذائه ويتمتم: لن أبكي، لن أبكي، بينما الدموع تنهمر من عينيه، إنّه سيتسلّقُ برج الكنيسة ويرمي بنفسه على رأسه إذا تركته هناك. لم يكن ذلك ضروريّاً، لأنّ الراهبات رفضنه، فعندهنّ ما يفيض من الأيتام الذين عليهن أن يستقبلنهم وهو يملك أسرة، يعيشُ في بيت خاصٍّ ويتلقى مساعدة من الرعاية الاجتماعيّة، غير مؤهَّلٍ لمأوى الأيتام. بعد أربعة أيّام وضعت أمّه أشياءه في كيسٍ، قادته في باص إلى خارج المدينة، إلى بيت أحد أصحاب المزارع المستَعدِّين لتبنِّيه. ودَّعت ابنها بقبلة حزينة على جبينه، مؤكِّدةً له بأنّها ستكتب له، ومضت دون أن تلتفت. في تلك الليلة جلس غريغوري إلى العشاء مع عائلته الجديدة، دون أن ينطق بكلمة أو يرفع عيناً، مفكِّراً بأن أحداً لن يطعم *أوليفر* وأنّه لن يرى بعد الآن كارمن مورالِس وأنه ترك مطواته في الكهف.

ـ ابننا الوحيد مات منذ إحدى عشرة سنة ـ قال المزارع ـ نحنُ ناس نخاف الله، ناس نعمل. لن يكون عندك هنا وقت للتسلية. المدرسة والكنيسة ومساعدتنا في الحقل، هذا كلُّ شيء. لكنَّ الطعامَ جيِّدٌ وستلقى معاملة حسنة إذا ما أحسنت السلوك.

ـ غداً أصنعُ لك حلوى البيض بالحليب ـ قالت المرأةُ ـ سأريكَ غرفتَكَ، التي كانت غرفة ابننا، لم نبدِّل فيها شيئاً منذ رحل.

للمرّة الأولى يملكُ غريغوري تحت تصرُّفه غرفةً وسريراً، فهو حتى تلك اللحظة استخدم كيس النوم. كانت غرفة صغيرة لها نافذة مفتوحة على أفق الحقول المشغولة، مفروشة بما لا غنى عنه. على الجدران تُعْرَضُ صور لاعبي بيسبول مشهورين وطائرات حربيّة قديمة، مختلفة جدّاً عن تلك التي تظهر في الأفلام الوثائقيّة الحديثة. تفحَّصَ الأشياء دون

أن يتجرّأ على لمسها، متذكِّراً والده، أفعى البوا، أطواقَ الاختفاء عند أولغا، مطبخَ إنماكولادا، كارمن مورالِس، طعمَ الحليب المكثّف المُبْشِم، بينما في داخله تكبر كرةٌ حديديّة رهيبة. انتظر، جالساً على السرير أن ينام أهل البيت، وكيس ممتلكاته المتواضعة على ركبتيه، ثمّ خرج بصمت وأغلق البابَ بحذر. نبحت الكلابُ، لكنّه تجاهلها. راح يسير باتجاه المدينة على الطريق ذاته الذي قطعه في الباص، واحتفظ به كالخارطة في عقله. سار الليلَ بطولِه ومَثُلَ في الصباح الباكر بباب بيتهم بعد أن نال منه الإعياء. استقبله *أوليفر* بفرحٍ صاخب ونورا ريفز ظهرت في العتبة، أخذت حزمة ثياب ابنها بيدٍ ومدّتْ اليد الأخر لتداعبه، لكنَّ الحركةَ جمدت في الهواء.

ـ حاول أن تكبر بسرعة ـ هذا كلّ ما قالته له.

في ذلك المساء خطر لغريغوري أن يصارع القطار مصارعةَ الثور.

أجري صاعداً التلَّ، يتبعني *أوليفر*، أبحثُ عن الأشجار، ألهث، تخدشُ الأغصانُ ساقيَّ، أسقطُ فتنكسرُ ركبتي، خراء، أصرخُ، خراء، وأتركُ الكلبَ يلعقُ دمي، لا أكادُ أرى موضعَ قدمي، لكنّني أتابعُ الجري إلى أن أعثر على ملجئي، الذي أختبئُ فيه دائماً. لا أحتاج لأن أرى العلامات على جذوعِ الأشجار، كي أجدَ طريقي، فقد قصدت المكان من المرّاتِ ما يجعلني قادراً على الوصول مغمضَ العينين، أعرف كلَّ واحدة من شجرات الأوكالبتوس، كلّ رعلات التوت البرّي، كل صخرة. أرفعُ غصناً فيظهر المدخلُ، نفقٌ ضيقٌ تحت شُجيْرَةٍ شائكة، يبدو أنّه كان وجار ثعالب، وهو بعرض جسمي تماماً، وإذا ما زحفتُ على مرفقيَّ منزلقاً بحذرٍ ومقدِّراً المنعطفات جيِّداً، ووجهي بين يديَّ، استطعتُ أن أمرَّ دون أن أُفَجَّ. في الخارج *أوليفر* ينتظر أن أناديه، فهو يعرفُ الرتابة. أمطرت خلال الأسبوع والأرض طريّة. الطقسُ بارد، لكنَّ الحمّى تعمُّ جسدي منذ ساعاتٍ، منذ كنتُ في الصباح في غرفة المكانس، نار لن تنتهي أبداً، أنا واثق من ذلك.شيءٌ يُمسك بي من الخلف فأصرخُ، ليست غير أشواك الأغصان في صدرتي. هكذا أمسك بي مارتينث من الخلف، ما زلتُ أُحسُّ برأس السكين في عنقي، لكن يبدو أنّني لم أعد أنزفُ: إذا تحرَّكتَ قتلتُك، أيُّها الغرينغو الحقير، يا ابن العاهرة. ولم أستطع الدفاعَ عن نفسي. الشيء الوحيد الذي قمت به هو أنّني بكيتُ ولعنته بينما كان يفعل بي ذلك. والآنَ، قالَ لي بينما راح يسوّي بنطلونه: اجرِ واحكه لمس جون لأقطع

رأس أُختك هناك بالذات وتعرف ماذا أفعل معك. ذهب ضاحكاً. إذا ما علم الآخرون بذلك أكلتُ خراءً، سينادونني لوطيّاً ما بقيت حيّاً. يجب ألاّ يعرف هذا أحدٌ أبداً! وماذا لو حكاه مارتينث؟ أريدُ أن أقتله! يدايَ، وثيابي ووجهي ملطّخة بالوحل، ستثورُ أمّي، من الأفضل أن أخرج بذريعة: صدمتني سيّارة أو أمسكت بي العصابةُ من جديد، لكنّني أتذكّرُ أنّه لا حاجة بي لابتداع أيّة كذبة لأنّني سأموت وعندما يجدون جثّتي لن يهمّها الوسخُ، هذا ما آمله، ستكون يائسة، لن تفكّر في شروري، بل فقط بالجانب الطيّب، بأنّني أغسلُ الصحونَ وأعطيها كلّ ما أكسبه من تلميع الأحذية، وستنتبه عندئذٍ إلى أنّني كنتُ ابناً صالحاً، وستأسفُ لأنّها لم تكن حنوناً معي، وأرادت أن تمنحني للراهبات ولصاحبي المزرعة ولأنّها لم تقل لي بيضاً لطعام الإفطار ولو مرّةً واحدة. وهذا ليس بالأمر الصعب فالسيّدة إنماكولادا تعمل ذلك مغمضةَ العينين، بل حتى المتخلّف عقليّاً يستطيع أن يقلي زوجاً من البيض، ستندم، لكن ستكون قد تأخرت لأنّني سأكون ميتاً. سيقيمون احتفالاً في المدرسة، سيكرّمونني كما كرّموا ثاراتِ، الذي غرق في البحر، سيقولون بأنّني كنتُ أفضلَ زميل، وكان ينتظرني مستقبل عظيم. سيضعون التلاميذ في صفٍّ وسيجبرونهم على المرور أمام التابوت ليقبّلوني على جبيني، الأطفال الصغار سينفجرون بالبكاء والطفلات سيغشى عليهنّ دون شكٍّ، النساء لن يحتملن مشهدَ الدم، جميعهنّ سيزعقن باستثناء كارمن، التي ستعانقُ جثّتي دون قرف. حبذا لو أنه لن يخطر لمس جون أن تقرأ الرسالةَ التي كتبتها لها، ويحي، لماذا فعلتُ ذلك؟ لن أستطيع بعد الآن أن أنظر إلى وجهها، يا لها من قليلة حياء، تبدو حوريّةً أو ممثلةَ سينما، لو عرفت بالأشياء التي تخطر ببالي في الصف، هي هناك في الأمام، تشرح الجمع على السبّورة وأنا في مقعدي أنظر إليها بقماءة، ورأسي في الغيم. من يستطيع أن يجاريها بالأرقام! أفكّرُ مثلا بأنّها تقولُ لي: سأساعدكَ في واجباتك، يا غريغ، لأنّ علاماتك في الحضيض، فأبقى بعد انتهاء الدروس، البقيّة يذهبون ونبقى نحن وحيدين في المبنى دون أن أقول لها شيئاً وكأنّها جُنّت تستلقي على الأرض فأبول بين ساقيها. لن أعترف في يومٍ من أيّام حياتي للأب بهذه القذارات التي تخطر لي، فأنا مُنحطّ، وسخ. تصوّر أن أكتب هذه الرسالة إلى مس جون ! يجبُ أن أكون فاجراً جباناً. حسناً، على الأقل لن أتحمّلَ عار أن أعودَ وأراها. لو تعرف ما فعله معي مارتينث لرافقتني لتموت معي هنا، لكنّني لا أستطيع أن أقوله لأحد، على الأخصّ لها.

هذا أفظعُ ما حدث لي في حياتي كلّها، إنّها أكبر لعنة عملها لي

البائس مارتينث، أسوأ مما فعله في أوَّلِ تناولٍ للقربان المقدّس، حين أجبرني على تناول قطعة من الخبز قبلَ تناولِ القربان كي تقصفني صاعقة حين أبلعها وأمضي على رأسي إلى الجحيم؛ لكن لم يحدث لي شيء، لم أشعر بأيِّ شيء لأنَ الذنب لم يكن ذنبي بل ذنبه، ومن سيغلي في مراجل الشيطان سيكون هو، لا أنا، لأنَّه حرَّضني على ارتكاب الخطيئة، وهذا أخطر من الخطيئة ذاتها كما شرح لنا الأبُ لارَّاغيبل حين حكى لنا قصّة آدم وحواء. في تلك المرّة اضطررت أن أكتب خمسمئة مرّة: عليَّ ألا أكفر لأنَّني قلت للخوري بأن الخطيئة خطيئة الله، ذلكِ أنّه هو من وضع التفاحةَ في جنَّة آدم، ويعرف أنَّ آدم سيأكلها على كلِّ الأحوال، وإذا لم يكن هذا تحريض على الخطيئة فماذا يكون؟ هذا أسوأ من فعلة مارتينث حين عرَّاني في درس الرياضة وخبَّأ ثيابي، ولولا وصول عاملة النظافة ومساعدتها لكنتُ قضيتُ الليلَ في الحمّام ولرأتني كلّ المدرسة في اليوم التالي كما خلقني ربّي. أسوأ من إعلانه بصوت عالٍ أنَّه رآني في الحمَّام ألعبُ لعبة الطبيب مع إرْنِشتينا بِردا. أكرهه، من أعماقِ روحي أكرهه، ياليته يموت، لكن ليس مرضاً، بل قتلاً، على أن تُقطعَ له حمامته أوّلاً كي يدفع هذا الديوث مارتينث ثمن كل ما فعله معي، أكرهه، أكرهه.

ها أنا في عريني. أصفر *لأوليفر* فأسمعه يزحف عبر النفق، أعانقه، فيستكين، مترصِّداً ولسانه خارج فمه، ينظرُ إليَّ بعينيه العسليّتين ويفهمني. هو الوحيد الذي يعرفُ كلَّ أسراري. *أوليفر* كلبٌ قبيحٌ كفايةً، جودي تمقته، إنه مزيج من عدَّة سلالاتٍ، له ذيلٌ ثخين وطويل كعصا بيسبول. ثمّ إنّه سيِّئ المزاج، يأكل الثياب، يمرِّغُ نفسه بوجه الكلاب الأخرى ثُمَّ يحشر نفسه في الفرش، يحبُّ المشاجرات ويصل أحياناً معضوضاً بالكامل، لكّنه حارٌّ ورائحته رائعة حين لا يكون قد حشر نفسه في القاذورات. أدخل أنفي في رقبته، شعره في الأعلى قاسٍ وقصير، بملامسة الجلد أجد وبراً ناعماً، كالقطن وأحبُّ أن أشمّه هناك. لا يوجد ما هو أفضلُ من رائحة الكلب. غابت الشمسُ والوجار مليء بالظلال، إنَّه واحد من المساءات الشتوية وعلى الرغم من أنّني ألتهب حرارة فأذناي ويداي صَقِعتان، إحساسٍ نظيف. أقرِّرُ أن أقطع رقبتي بمطواتي، كما كنتُ قد خططتُ، سأموتُ برداً، سأتجمّدُ في برهة خلال الليل وسأكون في الصباح متخشّباً، ميتة بطيئة لكنَّها أهدأ من ميتة القطار. تلك كانت الفكرة الأولى، لكنَّني في كلِّ مرَّةٍ أجري فيها أمام القطار أَجْبُنُ وأقفز في آخر لحظة من عزة الروح فأنجو بفارق شعرة. لا أدري كم مرَّةً حاولتُ ولم أُقرِّر أن أموت بهذه الطريقة، لا بدَّ أنّه يُؤلِم كثيراً، ثم إنَّ تبعثر الأمعاء

يُقْرِفُني، لا أريدُ أن يلملموني بالرفش، ولا أن يحتفظ أحد الظرفاء بأصابعي كذكرى. أدفع *أوليفر* كيلا يحميني وإلاّ فلن أتجمَّد أبداً، أكشطُ الأرض قليلاً كي أسوّي مكاني وأتمدَّد على ظهري. أمكثُ بلا حراك، والألم هناك - اللعنة على مارتينث اللوطي البائس - ورأسي مليئة بالأفكار والرؤى والكلمات، لكن بعد برهة طويلة جدّاً تنضبُ دموعي وأبدأ أتنفسُ كما أفعل دائماً وعندئذٍ أُحسُّ بالأرض الطريّة والرطبة تضمُّني كحضن دونيا إنماكولادا. أغوص، أهجر نفسي وأفكرُ بالكوكب الدائريّ يسبحُ بلا جاذبيَّة في هوّة الكون السوداء، يدور ويدور، وبنجوم درب التبّانة أيضاً وكيف ستكون نهاية العالم حين ينفجر كل شيءٍ وتخرج الجزَيئات مبعثرة كأسهم الرابع من تموز الناريّة فأشعرُ بأنَّني جزءٌ من الأرض، مخلوق من المادّة نفسها، وحين أموت سأتفكّكُ وأصبح جزيئات خالصة كالكعك، سأصير جزءاً من التراب وستنمو الأشجار من جسدي. يخطر لي أنَّني لستُ وحيداً في الكون أو شيئاً خاصاً، لا بدَّ أنَّني قطعة من طين، وربّما لا روح خاصة لي وفجأة هناك روح وحيدة هائلة لكلِّ الكائنات الحيّة بمن فيها *أوليفر* وليس هناك سماء ولا جحيم ولا مطهر، لا بدَّ أنّها من ترهات الأب، الذي من كثرة ما هو عجوز صار عقله مشوَّشاً، ولوجيّو ومعلمو والدي لا وجودٍ لهم والوحيدة التي تمضي قريبة من الحقيقة إلى هذا الحدِّ أو ذاك هي أمّي بديانتها البهائيّة، على الرغم من أنَّها تتورّط بهراءاتٍ تناسب إيران، فكيف سنستخدمها هنا. فكرة أن يكون الواحد جزيئاً ، حبّة رملٍ كونيّة تعجبني. تقول مس جون إنّ الأذناب التائهة للمذنّبات تتكوّن من غبار النجوم، مليارات الحصيّات التي تعكس النور. يغزوني هدوء عميق، فأنسى مارتينث، الخوفَ والألمَ وغرفة المكانس، إنَّني بسلام، أرتفع وأمضي طائراً بعينين مفتوحتين إلى فضاء السدرة، أمضي طائراً، طائراً مع *أوليفر*.

منذ صغرها كانت كارمن مورالِس تمتلك المهارة اليدويّة التي ميَّزتها بقيّة حياتها، فأي شيء بين يديها كان يفقد شكله الأصلي ويتحوّل. كانت تستطيع أن تصنع أطواقاً من شُعَيْرِيَّة الحساء، وجنوداً من بكرات الورق الصحي، لعباً من بكرات الخيطان وعلب الكبريت.كانت تلعبُ ذات يوم بتفّاحاتٍ ثلاث فاكتشفت أنَّها تستطيع أن تبقي عليها في الفراغ دونما أيَّة صعوبة، وبسرعة صارت تلعبُ ألعاباً بهلوانيَّة بخمس بيضات ومنها انتقلت طبعاً إلى أشياء أخرى أكثر غرابة.

ـ بمسح الأحذية يتعرق المرء كثيراً ويكسب قليلاً، يا غريغ. تعلّم إحدى الظرافات وسنعمل معاً. فأنا بحاجةٍ إلى شريك ـ عرضت على صديقها.

بعد عددٍ لا يحصى من البيض المنفجر وضح عدم رشاقة غريغوري. لم يتمكّن من السيطرة على أيّة حيلة مهمّة، ما لم يكن تحريك أذنيه، وأكل الذباب الحي، لكنّه كان يعزف الهارمونيكا سماعياً، و*أوليفر* صار أكثر ذكاءً، علّماه أن يسير على ساقين وقبّعة علي مخطمه وأن يخرج أوراقاً من صندوق. في البداية راح يبلعها، ثم تعلّم أن يناولها برقّةٍ للزبون. حضّرت كارمن وغريغوري بأناةٍ تفاصيلَ العرض وانطلقا أبعدَ ما استطاعا ليهربا من نظرات أصدقائهما وجيرانهما، فقد كانا يعرفان أنّه إذا ما وصلت المسألةُ إلى مسامع بيدرو أو إنماكولادا مورالِس لن ينقذهما أحدٌ من صفعة محترمة، كتلك التي نالاها حين خطر لهما بأن يطلبا صدقة في الحيّ.صنعت الفتاة تنورة من مناديل متعدِّدة الألوان وقلنسوة من ريش الدجاج، وحصلت على جزمة أولغا الصفراء استعارةً. أمّا غريغوري فقد سرقَ قبّعة الكأس العالي، وربطة عنق الفراشة اللتين كان يستخدمهما والده في عظاته واحتفظت بهما نورا كاثرين منه. طلبا مساعدة أولغا في تحرير أوراق الحظّ مؤكّدَيْن لها أنَّ الأمر يتعلّق بلعبة لعيد نهاية السنة الدراسيّة، فرمقتهما بنظرةٍ من نظراتها النافذة، إلاّ أنها لم تطلب توضيحات وراحت تملي عليهما سلسلةً من النبوءات على طريقة بسكويت الحظ الصيني. أكملا معدّاتهما من بيضٍ وشموعٍ وخمس من سكاكين المطبخ خبّآها في كيس، لأنّهما لم يكونا يستطيعان أن يخرجا بمثل تلك الحمولة من بيتيهما دون أن يثيرا الشكوك. أمّا *أوليفر* فغسّلاه بالخرطوم وربطا شريطةً إلى رقبته بهدف أن يخفّفا قليلاً من مظهره الضاري. أقاما في زاوية بعيدة تماماً عن الحيّ، ارتديا ملابسهما الخاصّة بمهرّجين وبدأا العمل في الحال. بسرعة التمَّ حشدٌ صغيرٌ حول الطفلين والكلب. والنتيجة أنَّ كارمن بهيئتها الصغيرة وخرقها الغريبة ومهارتها اللامعقولة في قذف الشموع المشتعلة وسكاكينها الحادّة في الهواء، شكّلت جاذبيّة لا تقاوم، بينما غريغوري يتيه في أغاني الهارمونيكا. في وقفة للمشعوذة توقف الفتى عن العزف ودعا الحضور ليجربّوا حظّهم. وبمبلغ زهيد يختار الكلبُ وريقة مطويّة يمرّرها للزبون، مبللة قليلاً باللعاب لكنّها مقروءة. وخلال ساعتين جمع الطفلان من النقود ما يجمعه عاملٌ في يومِ عملٍ كامل في أيٍّ من معامل الأطراف. وعندما بدأ يحل الظلام خلعا أقنعتهما، خبّأا معدّاتهما واقتسما غنيمتهما وعادا إلى

بيتيهما بعد أن أقسما أنّهما لن يكشفا عن السر ولا حتى تحت التعذيب. طمرت كارمن غنيمتها في علبة في صحن الدار وغريغوري سلّمها بعد قليلٍ في بيته ما عدا جزء منها للسينما، كي يتجنّب المساءلة.

ـ اذا كنّا نربح كلّ هذا هنا، فتصوّر ما نستطيعُ فعله في ساحة برشينغ. سنصبح مليونيريين. إلى هناك يذهبُ ناس كثيرون ليستمعوا إلى المجانين، ثمّ هناك الأغنياء الذين يدخلون ويخرجون من الفندق ـ قالت كارمن.

لم تكن لتدخلَ في دماغ غريغوري جسارة بهذا الحجم، التي لها بالنسبة إليه حدٌّ غير مرئيّ لا يتجاوزه من لهم ظروفه؛ على الجانب الآخر كان العالم مختلفاً، الرجال يسيرون بسرعة، لأنَّ لديهم أعمالاً ومشاريع مستعجلة، النساء يتنزّهن مرتديات القفّازات، الدكاكين فاخرة والسيّارات لألاءة. ذهب إلى هناك مرّتين أو أكثر، يرافق أمّه لمتابعة بعض الأوراق، لكن لم يكن ليخطر له أن يُغامر هناك وحيداً. أوحت له كارمن في لحظة عن إمكانيّات السوق: مضى عليه ثلاث سنوات يلمّع أحذيةَ أفقر الفقراء دون أن يفكِّرَ أنّه على بعد فراسخ قليلة يستطيع أن يتقاضى ثلاثة أضعاف ويفوزَ بزبائن أكثر. لكنّه على الفور أبعد الفكرة خائفاً.

ـ أنتِ مجنونة.

ـ لماذا أنتَ بهذا الذكاء، يا غريغوري؟ أُراهِنُ أنّكَ لا تعرف الفندق.

ـ الفندق؟ هل دخلتِ إلى الفندق؟

ـ طبعاً. إنّه مثل القصر، فيه رسوم في السقف والأبواب، وستائر بخصلٍ من حرير، وثريّات، ماذا أحكي لك، تبدو بواخر مليئة بالأنوار. السجاد تغوص فيه الأقدام، كما على الشاطئ، وكل الناس ترتدي بأناقة ويقدّمون الشاي مع الحلوى.

ـ وهل تناولت الشاي في الفندق؟

ـ يعني، ليس تماما، لكنّني رأيتُ الصواني. يجب أن ندخل دون أن ننظر إلى أحد، كما لو أنَّ أمّنا تنتظرنا على إحدى الطاولات. هل تفهم؟

ـ وماذا لو قبضوا عليك؟

ـ مبدئيّاً يجب عدم الاعتراف أبداً بشيء. إذا قالَ لكَ أحدٌ شيئاً ما تظاهر بأنّك الطفل الغني، ترفع أنفك وتجيب بفظاظة. سآخذك ذات يوم. على كلِّ الأحوال أفضل مكان للعمل هو هناك.

ـ لا نستطيع أن نذهب في الترامواي مع *أوليفر* ـ تذرّع غريغوري

بوهن.

ـ سنمشي ـ أجابت هي.

منذ ذلك اليوم ذهبا إلى ساحة برشينغ في كلّ مرّة استطاعت فيها كارمن أن تتملّص من مراقبة أمّها. وكانا يشدّان إليهما جمهوراً أكبر من جمهور الوعّاظ الذين يعتلون صناديقهم، ويتكلّمون بحماس غير مجدٍ عن أشياء لا تهمُّ أحداً. والعرض إذا خلا من تجارب البهلوانيّات خلا من الجدّة، أي أنه إذا لم تستطع صديقته أن ترافقه عادَ إلى رتابة تلميع الأحذية، على الرغم من أنّه يقوم به الآن في شوارع المنطقة التجارية. كان الطفلان مرتبطين بالحاجة المتبادلة والسرُّ المشتَرَك، إضافة إلى ارتكابات كثيرة مشتركة.

في السابعة عشرة كان غريغوري في المرحلة الثانويّة مع خوان خوسِه مورالس، وكانت كارمن أدنى بسنة دراسيّة واحدة ومارتينث قد غادر المدرسة وشكّلَ جزءاً من عصابة «*الجزّارين*». لم يكن ريفز قريباً منه وكلّما بعد عنه أكثر شعر بأمانٍ أكبر. في تلك المرحلة كان قد خفَّ التمرُّد الذي أبقاه من قبل في حركةٍ متواصلة، لكنَّ قلقاً أخرس من نوعٍ آخر كان يعذّبُهُ. في المرحلة الثانويّة صارت غالبيّة الطلاّب من البيض، ماعاد يشعر بأنّه يُشارُ إليه بالإصبع ولا بأنَّ عليه أن ينطلق جارياً ما إن يقرعوا الجرس كي يتملّصَ من أعدائه. لم يكن التعليمُ الإلزامي ينفَّذُ دائماً بين الفقراء وعلى الأخص عند اللاتينيين، الذين ما إن ينهوا الابتدائيّةَ حتى يكون عليهم أن يكسبوا عيشهم من استخدام ما. كان أبو غريغوري قد أدخل في ذهنه طموح الدراسة، الذي لم يستطع هو أن يلبّيه لأنّه كان يجوب حقولَ أستراليا، يرعى الأغنام منذ الثالثة عشرة من عمره. أمُّه أيضاً كانت تغذّي عنده فكرةَ الحصول على مهنة كيلا ينقصم ظهره في أكثرِ الأعمال تواضعاً: اعمل حسابك يا بني، ثلثُ حياتك سيذهب في النوم،كانت تقول له، وثلثها الثاني في الانتقال من جانبٍ إلى آخر وفي الأعمال الرتيبة، والثلثُ الأهم سيمضي في العمل، لذلك منَ الأفضل لك أن تقوم به في شيء تحبّه. المرّة الوحيدة التي تكلّم فيها عن ترك المدرسة للبحث عن عملٍ حين نظرت أولغا إلى حظّه في الورق فخرجت معها ورقة القانون.

ـ لا يخطر ببالك. ستصبح قاطع طريق أو شرطيّاً وفي كلا الحالتين من الأفضل أن تحصّل علماً ـ قرّرت.

- لا أريدُ أن أصبحَ أيّاً من هذين الشيئين.

- هذه الورقة تقولُ بوضوح بأنك ستكون محشوراً في القانون.

- ألا تقول ما إذا كنتُ سأصبحُ ثريّاً؟

- أحياناً ثريّاً وأحياناً فقيراً.

- لكنّني سأصبح شخصاً مهمّاً، أليس كذلك؟

- في الحياة لا يصل الإنسان إلى أيِّ مكان، يا غريغوري. يعيشُ لا أكثر.

تعلّم مع كارمن مورالِس أن يرقص على الإيقاعات الأمريكيّة وأصبحا خبيرين في الخطوات التزيينيّة، حتى أنّ الناس كانت تشكِّلُ حلقة لتصفِّق لهما في عروض *الجيتر بوغ والروك أندرول*. هي تطير وساقاها في الهواء وحين توشكُ أن تتحطّم على رأسها، يدورُ بها دورة مُحالةً من فوق الكتفِ ويمرِّرها بين ساقيه، يجرّها على الأرض وبشدَّةٍ واحدة يتركها منتصبة على قدميها سالمة معافاة، كل هذا دون أن يكونا قد تعلّما الإيقاع ولا ذات السن. وفّرَ غريغوري خلال أشهر ما يكفي لشراء سترة جلديّةٍ سوداء وحاول أن يزرع فوق عينيه خصلة جعدة من الشعر، لكن وبما أنّه ما من مستحضر صمغي مهما أفرط باستخدامه استطاع أن يمنع مظهر الهدب البائس لشعره، اختار تسريحة قصيرة إلى الخلف، أكثر راحة لكنّها أقلُّ ملاءمة لصورة المُتمرِّد التي كانت تجعل الفتيات يرتعدن خوفاً وإعجاباً. كذلك كارمن لم تكن تبدو مثل بطلات أفلام المراهقين: شقراء، عفيفة وبلهاء قليلاً، يتنهّدُ الفتيان لها، وتحاول السمراوات تقليدها والصغيرات المكسيكيّات الربعات، اللواتي يشقِّرن شعرهن بالأوكسجين، دون جدوى. كانت باروداً خالصاً. كان الصديقان في نهايات الأسابيع يتزيّنان بأفضل ما عندهنَّ من ثياب، هو بسترته الجلديّةِ السوداء دائماً حتى وإن كان الحرُّ جهنّميّاً، وهي ببنطلون مشدودٍ تخبِّئه في كيس وترتديه في إحدى دورات المياه العامّة، لأنّه لو رآها والدها لانتزعه عنها، ثم يذهبان إلى الصالونات حيثُ يعرفونهما فلا يدفعان الدخول لأنّهما كانا أفضل تسليات الليل. يرقصان بلا كللٍ، دون أن يستهلكا مرطباً واحداً، لأنّهما لايستطيعان دفع ثمنه. كانت كارمن قد تحوّلت إلى شابّة مقدامة بشعر أسود ووجه محبَّبٍ بأجفانٍ وشفاه غليظة، وابتسامة سهلة وانحناءات صلدة وثديين مفرطين في الضخامة بالنسبة لطولها وعمرها، البروز الذي كانت تمقته كنوع من التشوّه، لكنَّ غريغوري كان يراقبهما ويقدِّرُ أنّهما يزدادان امتلاء يوماً إثر يوم. وحين كان يراقصها، يُجهدها

فقط كي يرى نينك الثديين النبيلين يتحدّيان قوانين الجاذبيّة والحشمة، لكنّه حين تأكّد أنّه ليس المعجب الوحيد بهما، شعر بحنقٍ أصم. لم تكن صديقته تجذبه برغبةٍ محدّدة، فمجرّد الفكرة كانت سترعبه كخطيئة من خطايا غشيان المحارم. كان يعتبرها أختاً له كجودي، ومع ذلك كانت نواياه الطيّبةُ تتزعزع تحت ضغط الهرمونات الخائنة، التي تبقي عليه في حالة استنفار دائم. أخذ الأبُ لارّاغيبل على عاتقه حشو رأسه بالنبوءات المرعبة فيما يتعلّق بنتائج التفكير الشرير بالنساء ولمس المرء لجسده. كان يهدّدُ الشبقين بالصواعق الحارقة، ويؤكد أنّه ينبت لهم شعر في راحة الكفّ وتظهر فيهم حبوب متقيّحة، والقضيب يُصابُ بالغنغرينا وأخيراً يموت المرتكب وسط عذابات فظيعة، مع الثقة التامّة بأنّه سيذهب مباشرة إلى الجحيم في حال موته دون اعتراف. كان الفتى يشكّ بأمر الصاعقة المقدّسة والشعر في راحة الكفّ، لكنّه واثق من صحّة الشرور الأخرى، فقد رآها في والده، وهو يتذكّر كيف كان مليئاً بالتقيّحات وكيف مات لأنّه لمس نفسه. ثمّ عليه ألاّ يفكرَ بالبحث عن التسلية مع بنات المدرسة أو الحي اللواتي كنّ بالنسبة إليه خارج حدود الممكن، ولا أن يلجأ إلى العاهرات، اللواتي يبدون مخيفات مثل مارتينيث. كان يعيش قانطاً من الحبّ، مشتعلاً بحرارة وحشيّة مبهمة، خائفاً من طبلِ قلبه، من العسل اللزج في كيسِ نومه، من الأحلام المضطربة ومن مفاجآت جسده، فعظامه كانت تتمطّى وتظهر له عضلات وينمو له زغبٌ ويغلي دمه في حمّى متواصلة. كان يكفي مُحرّض تافهٌ كي يتفجّر لذّةَ مُباغتة تتركه مذعوراً، شبهَ مغشيٍّ عليه. احتكاك بامرأة في الشارع والنظر إلى ساق أنثى، مشهدٌ في سينما، جملة في كتاب، بل وحتى اهتزاز المقعد في الحافلة الكهربائيّة، كلُّ شيء كان يثيره. يعمل بالإضافة إلى الدراسة ومع ذلك فالتعب لم يلغِ الرغبةَ بالغوص في مستنقع بعيد الغور، ضياع في الخطيئة، معاناة جديدةٍ من هذه اللذّة وهذا الموت القصير دائماً. ساعدته الرياضةُ والرقصُ على صرف طاقته، لكنّه احتاج إلى شيءٍ أكثر عنفاً لإسكات جيشان غرائزه. وكما عشق في الطفولة مس جون بجنون، عانى في المراهقة من هيجانات عاطفيّة مباغتة تجاه فتيات لسنَ في متناول يده، غالباً ما كنّ كبيرات، لم يجرؤ على الاقتراب منهنّ فيكتفي بعبادتهنّ عن بُعد. بعد عام أدركَ دفعةً واحدة حجمه ووزنه النهائيّين، لكنّه في السادسة عشرة كان ما يزال مراهقاً رقيقاً، ركبتاه وأذناه كبيرة أكثر من اللازم، على الرغم من أنّه كان من الممكن التكهن بطينته الطيبة.

ـ إذا ما نجوت من أن تكون قاطعَ طريق أو شرطيّاً، فستصبح ممثّلَ

سينما وستعبدُكَ النساء ـ وعدته أُولغا كي تواسيه حين رأتهُ يعاني فـ
مِشْوَكِ جلدهِ ذاته.

هي من انتشلته من عذابات أصالته المحرقة. فمنذ أن زربه مارتين
في غرفة المكانس في المدرسة الابتدائيّة، كانت تحاصره شكو
برجولته. لم يعد يتردّدُ على إرنِشتينا بِردا بحجّة اللعب بلعبة الطبيب. كان
معارفه عن هذا الجانب الغامضِ من الحياة مشوَّشة ومتناقِضة. وفتا
المعلومات المحصَّلة من المكتبة خلسةً لم تساهم إلاّ في زيادة حيرت
لأنّها كانت تتحطّم على تجربة الشارع. أمزجة الأخوة مورالِس وأصدقا
آخرون، عظات الأب، إيحاءات السينما وذعره من خياله. انغلقَ على نفس
في العزلة، رافضاً بتصميم عنيدٍ رجفات القلب واضطرابات الجسد
محاولاً أن يُقلّدَ فرسانَ المائدة المستديرة الأعفّاء أو أبطالَ الغرب البعيد
لكنَّ احتدام طبيعته كان يخونه في كلّ لحظة. فهذا الألم الأصمُّ وهذ
الاختلاطاتُ التي لا اسم لها أصابته بالحنين لزمنٍ سرمديٍّ، لم يع
باستطاعته تحمُّل ذلك العذاب. ولو لم تهبّ أولغا لمساعدته لانتهى نصة
مجنون. فالمرأة شهدت ولادته وحضرت كلّ اللحظات المهمّة في طفولت
عرفته كابن لها ولم يكن عند الصبيّ من شيءٍ يخفى عن عينيها، وما ا
تكن تستخلصه لمجرّد الشعور العام كانت تتكهّن به بفطنتها كساحر
التي تقوم في أحسن الحسابات على معرفة الروح الغريبة، عين جيّد
للملاحظة وصفاقة في ارتجال النصائح والتنبؤات. لم تكن ، في هذ
الحالة، بحاجة لمواهب التبصّر لرؤية حالة العزلة عند غريغوري. كا
أولغا في تلك المرحلة في الأربعين من عمرها وتكوُّرات الشباب صار
شحوماً والتبدّلات في ميولها الغجريّة أذبلت جلدها، لكنّها حافظت عل
ظرافتها وأسلوبها وزينة هبلها الضاربة إلى الحمرة، وهسهسة تنورت
وضحكتها الواضحة. كانت ما تزال تعيش في المكان نفسه، لكنها
تشغل غرفة واحدة فقط، فقد اشترت العقار وحوّلته إلى معبدها الخاص
حيث تملك غرفة للأدوية، والماء الممغنط وجميع أنواع الأعشاب وأخر
للمسّادات العلاجيّة والإجهاض وصالة جيّدة الحجم للجلسات الروحاني
السحر والتكهن. كانت تستقبل غريغوري في الغرفة الموجودة فو
المرآب دائماً. وجدته في ذلك اليوم أعجف فعادت لتحرّكها تلك الشف
الفجّة التي تحوّلت في تلك الأيام إلى شعور مُلحّ تجاهه.

ـ ومن تعشق الآن؟ ـ ضحكت.

ـ أريد أن أرحل عن مكان الخراء هذا ـ تمتم غريغوري ورأسه ب

يديه، يهزمه ذلك العدو في أسفل بطنه.

- وإلى أين تفكّر بالذهاب؟

- إلى أيِّ مكان، إلى الزب، لا يهمّني. هنا لا شيء يحدث، لا يستطيع المرء أن يتنفَّس، إنَّني أختنق.

- ليس الحيّ، هذا أنت. أنت تختنق في جلدك بالذات.

أخرجت العرَّافةُ قنينة وسكي من الخزانة، صبّت له دفقةً جيِّدة في كأسه وأخرى لنفسها، انتظرته حتى شربها وصبَّت له أكثر. لم يكن الفتى معتاداً على المشروبات القويّة، والطقس حارٌّ والنوافذ مغلقة ورائحة البخور والأعشاب الطبيّة والباتشولي تكثّف الهواء. استنشق رائحةَ أولغا مرتعشاً. وفي لحظة استلهام تصدّقية اقتربت منه المرأة الكهلة من الخلف ولفّته بذراعيها، ثدياها اللذان أصبحا بائسين تفلطحا على ظهره، أصابعها المليئة بالخواتم الرخيصة فكّت أزرارَ قميصه تلمُّساً، بينما راح يتحوّل هو إلى حجر، شلّته المفاجأة والخوف، لكنَّها شرعت تقبِّله من عنقه، تدخلُ لسانها في أذنيه وتهمس له كلمات بالروسيّة، تسبره بيديها الخبيرتين، تلمسه هناك حيث لم يلمسه أحدٌ قط، إلى أن استسلم منتحباً، هاوياً إلى عمقٍ سحيق، يهزّه خفرٌ ومتعةٌ مسبقة، ودون أن يدري ماذا يفعل ولا لماذا يفعله التفت نحوها، متلهِّفاً، ممزِّقاً ثيابها من العجلة، هاجماً مثل حيوان في النزوة، يتدحرج معها على الأرض، رافساً وهو يخلع البنطلون، شاقّاً لنفسه طريقاً بين الثياب الداخليّة، والجأ بدافع الوحشة ، متشظّياً في صرخة، في الوقت الذي كان يفرِّغ نفسه كالفوّارة، كما لو أنَّ شرياناً انفجر في أحشائهِ. تركته يرتاحُ برهةً على صدرها، تحكُّ له ظهره، كما فعلت معه مرّاتٍ كثيرةً حين كان طفلاً، وماكادت تُقدِّرُ أنَّ الندمَ بدأ يفعل فيه فعلته حتى نهضَت ومضت لتُغْلِقَ الستائر.وراحت في الحالِ تنزعُ عنها القميصَ والتنّورةَ المتجعِّدة على مهلٍ.

- سأعلِّمكَ الآنَ ما نحبُّه نحن النساء - قالت له بابتسامةٍ جديدة - . الشيء الأوّل هو ألاّ تستعجلَ، يا بُني...

- أنا بحاجة لمعرفة شيء واحد، يا أُولغا. أقسمي أنَّك ستقولين لي الحقيقة.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- والدي وأنتِ... أريدُ أن أقول حضرتكما...

- هذا ليس من شأنك، لا علاقة له بك.

ـ يجبُ أن أعرفه... كنتما عشيقين، أليس صحيحاً؟

ـ لا، ياغريغوري. سأقوله لك مرّة واحدة: لم نكن عاشقين.إيّاك أن تعود وتطرق الموضوع، إذ لو فعلت فلن أراك بعدها أبداً. هل فهمت؟

كانت حاجةُ غريغوري ماسّةً لتصديق ذلك بحيث لم يطرح أسئلةً أخرى. منذ ذلك المساء بدّل العالم لونه بالنسبة إليه، صار يزورُ أولغا كلّ يوم، وكتلميذٍ مجبرٍ تعلّم ما تكرّمت بالكشف له عنه. حرّك خباياه، وتجرّأ على الهمس بكل البذاءات الممكنة، واكتشف مفتوناً بأنّه لم يكن وحيداً تماماً في الكون وأنّه ما عاد لديه أيّة رغبة بالموت.نما جسده تماماً كما انتفخت روحه وفي أسابيع قليلة ما عاد يبدو صبيّاً ،ترسّخت في وجهه سيماء الرجل السعيد. وعندما اكتشفت أولغا أنّه عاشق لمجرّد الامتنان، أتعبته بضراوة وأجبرته على النظرِ إليها عاريةً فعمل قائمة دقيقة ببدانتها، شيبها وتجاعيدها، تعبها من كلّ تلك السنوات من متابعة قدرها بالعصا وهدّدته بوقارٍ بأنّها ستطرده من جانبها إذا ما أصرّ على الأفكار الملتوية. جعلته يرى بوضوحٍ حدودَ علاقتهما وأضافت ليلطم صدره بحجر لأن حظّه فظيع ولن يجدَ امرأة أخرى تمنحه جنساً مجّانيّاً وأكيداً، تكوي له قمصانه، وتضع له نقوداً في جيوبه ولا تطلب منه أيَّ شيءٍ مقابلَ ذلك وأنّه ما زال *أبا مخطة* وحين لن يعود كذلك ستكون قد أصبحت عجوزاً، لذلك عليه أن يركّزَ على دراسته، ليرى ما إذا كان يستطيع أن يخرجَ من الحفرة حيث ترعرع ويصيرَ شخصاً مهمّاً، فهو يعيش في بلاد الفرص التي إن لم يستغلّها كان أبله لا علاج له.

تحسّنت علاماته، أقام صداقاتٍ جديدةً، بدأ يساهم في مجلّة المدرسة ورأى نفسه فجأةً يكتب مقالاتٍ ملتهبةً، يترأس اجتماعات طلابيّة لأسبابٍ مختلفة، بعضها بيروقراطي، كبرنامج ساعات الرياضة، وأخرى مبدئيّةً كالتمييز العنصري ضدَّ الزنوج واللاتينيين: ورثته عن أبيكَ. كانت تتنهّدُ نورا مشغولة قليلاً، لأنّها لم تكن تريد أن تراه وقد تحوّل إلى واعظ. استطاع وقد هدّأته أولغا أن يتذوّق متعة القراءة، يستغلّ كلّ لحظة حرّة ليذهب إلى مكتبة البلديّة، حيث أقامَ صداقةً مع سايروس، عامل المصعد العجوز. كان العجوز يحرّكُ أزرار التحكّم بيدٍ ويمسكُ كتاباً بالأخرى باستغراق يجعلُ المصعدَ يعملُ على هواه، مثلَ آلة خرجت عن خطّها. كان لا يرفعُ عينيه إلاّ عندما يصلُ غريغوري وعندئذٍ يُضاءُ وجهه النبوي وتُبدّلُ بسمةٌ خفيفةٌ تكشيرةَ فمه النفورة، لكنّه يسيطر حالاً على إيماءته

ويحيِّيه مدمدماً، كي يترك انطباعاً واضحاً جدّاً بأنَّ ما يجمعهما ليس إلاّ التجانس الفكريّ. كان الفتى يظهر غالباً عند العصر، بعد المدرسة ويمكثُ وحيداً قرابةَ نصف الساعة، لأنَّ عليه أن يعمل. كان العجوز ينتظره باكراً ومع اقتراب الساعة يُفاجَأ وهو ينظر إلى الساعة، متحفِّزاً دائماً للسيطرة على عواطف غير ضروريّة، لكنَّه إذا لم يأتِ كان بالنسبة إليه كما لو أنَّ الشمسَ لن تُشرق. صارا صديقين جيِّدين. وريفز يحبُّ أن يقضي معه أيَّامَ السبت، يزوره في غرفة معيشته الوسخة التي يعيشُ فيها، أحياناً أخرى يخرجان للتنزُّهِ أو إلى السينما ليودِّعه عند الغروب ويذهبَ مع كارمن إلى صالات الرقص. بعدَ زمن واعده سايروس في حديقةٍ بحجَّة الحوار بالفلسفة والمشاركة في عصرونيّة، انتظره ومعه سلّة تُطلُّ منها قطعةُ خبزٍ وعنق قنينة، قاده من ذراعه إلى مكان معزولٍ، حيث لا يستطيع أحدٌ أن يسمعهما، وهناك أعلنَ له هامساً بأنَّه مستعدٌّ لأن يبوح له بسرٍ فيه حياة وموت. ثم وبعد أن جعله يُقسِم بأنَّه لن يخونه، اعترف له بانضوائه في الحزب الشيوعي. لم يكن واضحاً بالنسبة للفتى معنى تلك المُسارَّة، على الرغم من أنَّه كان في ذروة مرحلة صيد الساحرات التي عصفت ضدّ الأفكار الليبراليَّة، لكنّه لا بدَّ فكّرَ أنَّهُ شيءٌ مُعْدٍ وسيئُ السمعة كالأمراض التناسليَّة. قامَ ببعض الاستقصاءات التي لم تفده إلاّ في تعتيم المشهد العام. قدَّمت له أمُّه جواباً مبهماً عن روسيا ومجزرة إحدى العائلات الملكيّة في قصرٍ شتويّ، وكله كان من البعد بحيثُ كان من المحال عليه أن يربطه بمكانه وزمانه. وعندما ذكره في بيت آل مورالِس، رسمت إنماكولادا إشارةَ الصليب مذعورةً، وبيدرو منعه من قول تلك البذاءات في بيته وحذّره من حماقة أن يزجَّ نفسه في مسائل ليست من اختصاصه. السياسة رذيلة، والناس المحتشمون والعاملون لايحتاجونها إطلاقاً، حسم الأمرَ الأبُ لارَّاغيبِل الذي ازدادَ ميله نحو الأشياء المرعبة مع مرور السنين، اتهم الشيوعيين بأنَّهم معادون للمسيح شخصيَّاً، وأعداء طبيعيون للولايات المتَّحدة ، وأكّدَ بأنَّ الكلامَ مع واحدٍ منهم يُشكِّلُ خيانة تلقائيّة للثقافة المسيحيَّة وللوطن، ذلك أنَّ كل ما يقال يرسلُ على الفور إلى موسكو لأغراضٍ شيطانيَّة.حذارِ، إذ من الممكن أن تجدَ نفسك في ورطةٍ مع السلطات وتنتهي إلى الكرسي الكهربائي، وهو ما تستحقُّه في هذه الحالة. بلاّعو الأير الحمر ملحدون، بلشفيُّون وناسٌ سيِّئون، لامكان لهم في هذا البلد، فليذهبوا إلى روسيا، إذا كان هذا ما يعجبهم. ختمَ ضارباً بقبضته على الطاولة ضربةً جعلت فنجان قهوته بالبراندي يطير. فهم غريغوري

بأنَّ سايروس قدَّمَ له أكبر برهان على صداقته حين حكى له سرَّهُ وبالمقابل قرَّر ألاّ يخيِّب أمله في طريق الفكر الذي شرعه توّاً. زرع فيه الرجلُ الشغفَ ببعض المؤلِّفين، وفي كلِّ مرَّةٍ يصيغ سؤالاً كان يرسله ليبحثَ عن المعلومةِ بنفسه، وهكذا تعلَّم استخدامَ الموسوعة، القواميس ووسائل المكتبة الأخرى. وإذا لم تُجْدِكَ هذه كلّها، راجعْ الصحفَ القديمةَ، هكذا نصحه. انفتح أمام عينيه أفقٌ فسيحٌ، فبدا له لأوَّل مرَّة أنَّ من الممكنِ أن يخرجَ من الحيِّ، وأنّه لم يكن محكوماً عليه أن يعيش هناك مقبوراً فيما تبقى من أيّامه، فالعالم كان هائلاً، استيقظ عنده الفضولُ والرغبة بأن يعيش المغامرات التي كان يقتصرُ على رؤيتها في السينما. وحين لا يكون عنده مدرسة أوعمل يمكث ساعات مع معلِّمه، صاعداً ونازلاً في المصعد حتى يهزمه الدُّوَارُ فيخرج مترنِّحاً ليستنشق الهواء النقيَّ.

في الليل كان يتناولُ عشاءَهُ مع آل مورالِس وبالمناسبة يساعدُ كارمنِ في وظائفها، لأنَّها كانت تلميذة سيِّئة جدّاً، ثم يذهبُ إلى بيت أولغا فيصلُ إلى البيت وقد نامت جودي وأمُّه. أحياناً كان يبحثُ في نهايات الأسبوع عن رفقةِ نورا ليتحدّث معها عن قراءاته، لكنَّ علاقته بها كانت تفتر يوماً بعدَ يوم فما عادا يتمتَّعان بأحاديث أيَّام الشاحنة البوهيميَّة، حين كانت تحكي له حكايات الأوبرات وتفك له لغز السماء في الليالي الصافية. قليلة الأشياء المشتركة التي كانت تجمعه بأخته، ولم يكن يبدو غافلاً إلى حدِّ أنَّه لا يشعر بعداوتها. في تلك السنوات كان الكوخ قد عاد ليتآكل، فالخشب يصرّ والسقف يدلف، لكنَّ قيمة الأرض ارتفعت مع زحف المدينة في ذلك الاتجاه. اقترح بيدرو مورالِس أن يبيعَ آلُ ريفز تلك المُلْكِيّةَ ويقيموا في شقَّة صغيرة، حيث تقل النفقات والحفاظ عليها أسهل، لكنَّ نورا خافت ضياعَ زوجها بسبب الانتقال.

ـ الأموات بحاجةٍ إلى ملاذٍ ثابت، ـ كانت تقول ـ ولا يستطيعون أن يمضوا متنقِّلين من مكان إلى آخر. كذلك البيوت تحتاجُ موتاً وولادةً. هنا سيولدُ ذات يومٍ أحفادي.

فضلاً عن أُولغا التي كان يشاركها حميميَّة العاشقين الصفيقين العجيبة، كانت كارمن مورالِس أقربَ الأشخاص إلى غريغوري. فما أن أخمدت أولغا غرائزَه حتى استطاع أن يتأمَّلَ نتوءاتِ صديقته دون أن يعاني من إحباطاتٍ مزعجة. كان يتمنّى لها مصيراً أقلَّ قذارةً من مصير نساء الحيِّ، الفقيرات إلى حدِّ الإدقاع، واللواتي يسيِّئ الأزواجُ مُعاملتَهُنَّ وينهكهنَّ الأولادُ. كان يعتقد أنَّها بقليلٍ من المساعدة تستطيعُ أن تنهي

دراستها في المدرسة وتدرس مهنةً. حاول أن يُشرِعها في القراءة، لكنّها كانت تملّ في المكتبة،تمقت الدراسةَ ولا تبدي أيَّ اهتمام بأخبارِ الصحافة.

ـ إذا ما قرأتُ أكثرَ من نصف صفحة يؤلمني رأسي. من الأفضل أن تقرأ أنتَ ثمَّ تحكيه لي... ـ تعتذر مَحشورةً بين الكتاب والجدار.

ـ لأنَّ صدرها كبيرٌ. كلَّما كبرت الأثداءُ صَغرَ الدماغُ، هذا هو قانون الطبيعة، لذلك النساء البائسات هنَّ على ما هنَّ عليه ـ وضَّحَ سايروس لغريغوري.

ـ هذا العجوز قميء ـ انفجرت كارمن حين علمت بذلك وصارت تستخدم منذُ ذلك اليوم حمّالات بحشوة لمجرَّد روح التحدّي، فأعطى ذلك نتائج باهرة حتى أنَّ أحداً من الجيرانَ لم ينقطعْ عن التعليق بقوله: كم تنمو جيِّداً صُغرى آل مورالِس.

لم يكن ثدياها الوحيدين اللذين كانا يلفتان الانتباه. كانت قد خلَّفت وراءها مظهر الفأر النشيط وراحت تتحوَّلُ إلى فتاةٍ انفجاريّة يحومُ حولها المعجبون، دون أن يجرؤوا على تخطّي عتبة الشرف، لأنَّه كان على الجانب الآخر بيدرو مورالِس وأولاده الأربعة، وجميعهم مكتنزون، حاسمون وغيورون. لم تكن مختلفة ظاهريّاً عن أترابها، فهي تحبُّ الحفلات، تكتبُ أفكاراً رومانسية، وأبيات شعرٍ منسوخةً من يوميَّة من يوميّات الحياة. تعشقُ ممثلي السينما، وتغنجُ مع كلٍّ من تطاله يدها من الفتية، كلَّما استطاعت أن تتفادى مراقبةِ الأسرةِ وغريغوري المهووس بدور الفارس الجوّالِ. ومع ذلك وبخلاف الشابات الأخريات كانت تملك خيالاً مضطرباً سيخلّصها فيما بعد من حياة تافهة.

وذات خميس وجد غريغوري وكارمن نفسيهما عند الخروج من المدرسة أمامَ مارتينث وثلاثة من عصابته في الشارع. توقَّف دفق الشبابِ الذي كانَ يخرج من البناء برهة، ثمَّ انحرف كي يتجنّبهم، لكيلا يعتبرونه تحريضاً، لكنَّ مارتينث كان قد رأى الفتاة يوم السبت الفائت في صالة الرقص وكان ينتظرها بكبرياء من يعرف أنَّه الأقوى. توقّفت هي فجأةً وكذلك الطلاب الآخرون حولها، الذين أحسّوا بالتهديد في الجوِّ ولم يقدروا على ردّة الفعل. كان مارتينث قد كبرَ كثيراً بالنسبةِ إلى عمره، كان عملاقاً وقحاً بشوَيْربِ رجلٍ معتدٍّ بطلعته وبعض الوشم الظاهر للعيان، بلباس إمّعة، شعر مردود إلى الخلف في خصلتين ومثبَّت بمرهم، بنطلونٍ ببنسات عند الخصر، نعلين بواقيتين معدنيَّتين في المقدِّمة، سترة جلديّة

وقميص بنفسجيٍّ.

ـ هيّا، يا حلوة اعطني قبلة... ـ تقدّم خطوتين وأمسك كارمن من ذقنها.

وبضربة قويّة من يدها أبعدته بينما صغرت عيناه حتى أصبحتا بحجم صاعقتين. أخذ غريغوري صديقته من ذراعها وحاول أن يخرجها من تلك الورطة الجبانة، لكنَّ العصابةَ قطعت عليهما الطريقَ وليس هناك من يشتعينان به، فقد حدثَ في الشارع فراغٌ رهيب، والفتيان الآخرون تراجعوا إلى مسافة حكيمة على شكل نصف دائرة ولم يبق في المركز غيرهما مع المعتدين.

ـ أنتَ أعرفُكَ، يا ابن العاهرة ـ سخر مارتينث دافعاً غريغوري دفعة خفيفة، ثمَّ أضاف لأنصاره ـ : هذا هو اللوطي الحقير الذي كلّمتُكم عنه.

عاد غريغوري دون أن يفلت كارمن من ذراعها وقام بمناورة للتملص، لكنَّ مارتينث تقدَّم مهدِّداً وعندها عرف أن اللحظة التي طالما خافها قد حانت. لم يعد بالامكان التملّص من ذلك التهديد الذي كان يتربَّصُ به دائماً. تنفَّسَ عميقاً، محاولاً التحكمَ بذعره، ومجبراً نفسه على التفكير، مقدِّراً أنَّه وحده، وما من أحدٍ من رفاقه سيأتي ليدافع عنه وأن الآخرين كانوا أربعة ومعهم دون شكٍّ سكاكين ولاكمات حديديّة، جعلته الكراهية مثل موجةٍ حارّة صعدت من عمق بطنه حتى حنجرته، جاءته الذكريات متزاحمةً، مدوِّخةً ففقد النظر والفهم لبرهة، غاص في الموحَلة الداكنة. أعاده صوتُ كارمن إلى الشارع.

ـ لاتلمسني، أيّها المقرون ـ وهي تحمي نفسها من يدَي مارتينث بينما الآخرون يضحكون.

دفعَ غريغوري كارمن جانباً وواجه، لاهثاً، عدوَّهُ وجهاً لوجه: القبضتان جاهزتان والعينان محتدمتان.

ـ ما الذي تريده، أيُّها الغرينغو العاهر...؟ هل تريدني أن أنيكك من جديد، أم أنَّك تفضِّلُ أن تفعلها معي ـ دمدم مارتينث بصوتٍ بطيء وناعم وكأنَّه يكلِّمه عن الحبّ.

ـ العاهرة، أمُّكَ! أربعة من قتلتك ضدَّ واحد وحيد وأعزل شيءٌ سهل ـ ردَّ غريغوري.

ـ هاها! اسمعوا جيِّداً إذن أيّها اللاحمون اتركوه. سيكون هذا بيننا نحن الإثنين فقط ـ أمر مارتينث أتباعه.

ـ لا أريدُ معركة صبيان. ما أريده هو مبارزة حتى الموت ـ دمدم غريغوري كازّاً على أسنانه.

ـ ها هذه المزحة؟

ـ ما سمعتَهُ، أيُّها الرخو ـ ورفع غريغوري صوته كي يستطيعَ جميعُ من في الشارعِ سماعه ـ خلال ثلاثة أيّام، خلف معمل المطّاط، في الثالثة مساءً.

ألقى مارتينث نظرةً حوله، دون أن يفهم جيّداً المسألة وهزّ أتباع عصابته أكتافهم، وهم ما يزالون ساخرين، بينما دائرة الفضوليين انغلقت قليلاً، لأنَّ أحداً لم يكن يريد أن يضيع كلمةً مما كان يُقال.

ـ بالسكاكين، أم بالهراوة أو السلسلة أو المسدَّس؟ ـ سألَ مارتينث غيرَ مُصَدِّقٍ.

ـ بالقطار ـ أجاب غريغوري.

ـ وما به قطار الخراء؟

ـ سنرى من بيضه أكبر ـ أخذ غريغوري كارمن من يدها وابتعد في الشارع، مديراً له ظهره باحتقار زائف لمصارع ثيران مع البهيمة التي لم تنهزم بعد، سائراً بسرعة كيلا يسمعَ أحدٌ دويَّ قلبه.

كانت قد مضت عدَّة سنوات وأنا أجري بعكس القطار، أوّلاً بهدف أن أموت ثم لا لشيء إلا من أجل الاستمتاع بالحياة. كان يمرُّ مزمجراً مثل تنينٍ هادرٍ، مهيِّجاً الريحَ والصمت. أنتظره دائما في المكان ذاته، أرض بائرة ومسطّحة، حيثُ تتجمَّع في بعض الفترات الخرداوات والقاذورات وفي فترات أخرى، بعد تنظيفها، يذهبُ الأطفالُ ليلعبوا بالكرة. أوَّلاً كان يصلني الصفيرُ بعيداً وكذلك ضجيجُ الآلات، ثم أراه يظهر، أفعى هائلة من حديدٍ وضجيج. كان تحدِّيَّ يكمن في حساب اللحظة الدقيقة لاجتياز الخط أمام القاطرة، الانتظار حتى اللحظة الأخيرة، وقد صار فوقي تقريباً، والجريُ عندئذٍ كملهوف والوصول إلى الجانب الآخر بقفزةٍ واحدة.كانت الحياة تتوقَّف على أدنى خطأ، تردُّدٍ تافه، تعثُّرٍ بالسكّة وعلى مهارة سائقيَّ ودمي البارد. كنت أستطيعُ أن أميِّزَ مختلفَ القطارات من خلال ضجَّةِ آلاتها، وأعرفُ أنَّ قطار الصباح الأوّل هو الأبطأ وقطار السابعة والربع الأسرعُ. كنتُ أشعر بثقة كافيةٍ بنفسي، لكن وبما أنّني لم أصارعه منذ زمن طويلٍ، رحتُ أتمرَّن مع كلِّ قطارٍ مرَّ في الأيّام التالية، ترافقني كارمن

وخوان خوسِه، لقياس النتائج. في المرّة الأولى التي رأياني أقوم بذلك سقط الموقِّت من يده وراحت كارمن تصرخُ فاقدة السيطرة على نفسها، لحسن الحظِّ بأنّني لم أسمعها إلا بعد أن عبرت القاطرة. كنتُ بكلِّ تأكيد سأتردّدُ ولمّا كنتُ لأحكي لكم الآن هذه الحكاية. اكتشفنا أفضلَ مكان للمسابقة، هناك حيث يظهر الخطّان بوضوح، أزلنا الحجارةَ وحدَّدنا المسافة بخطٍ على الأرض، وقصرناها مع كل محاولة، إلى أن أصبح من غير الممكن اختصارها أكثر، كان القطار يلامس ظهري. كانت المسألة في المساء أصعب لأنّ الظلمة تعمُّ تقريباً وأنوار القاطرة تُبهِرُ. أعتقدُ أنَّ مارتينث تمرَّن أيضاً في مكان آخر حيث لا أحد رآه وبقي كبرياؤه المفرط سالماً، فهو لم يكن يستطيع أن يظهر أدنى اهتمام بالمبارزة أمام رفاقه، لا بدّ أنّه أبدى استهانة كاملةً بالخطر لمجرّد الفحُولة الفارغة.أخذتُ هذا بالحسبان للتفوّق عليه، لأنّني تعلّمت خلال سنواتي في دغل الحيِّ أن أقبل الخوفَ بتواضعٍ، هذا الحريق في المعدة الذي يعذّبني أحياناً عدّةَ أيامٍ متتالية.

في يوم الأحد المعيّن دبّ الصوت في المدرسة، وفي السادسة والنصف كان هناك صفٌ من السيَّارات والدرّاجات العاديّة والناريّة متوقِّفة في المكانِ البور، وما يقارب الخمسين من رفاقي يجلسون على الأرض قرب الخطّ الحديدي ينتظرون بداية المشهد. كان معملُ المطّاطِ مغلقاً، ومع ذلك لا تزال تطفو في الجوِّ رائحة المطّاط الحارِّ المثيرة للغثيان. كان الجوُّ احتفاليّاً، بعضهم حملَ معه عصرونيّتَهُ، وبضع عشرة حملوا وسكي وجبناً مموَّهاً في قناني مرطّباتٍ، وعددٌ آخر يحضِّر الكاميرات. تفادت كارمن الضوضاء، مصلّيةً بعيداً عن البقيّة. رجتني ألاّ أفعل ذلك، فألف كلمة جبان ولا رحمه الله في شهقة، ثمَّ إنَّ مارتينث لم يفعل شيئاً، وهذه المبارزة تهوّر، خطيئة. والله سيعاقبنا عليها جميعاً. وضَّحتُ لها ألّا علاقة لهذا بما جرى في الشارع، ليست هي السبب بل الذريعة، فالأمر يتعلَّقُ بدَيْنٍ قديمٍ جدّاً من المحالِ قوله، أشياء تتعلَّق بالرجال. علَّقتْ حول رقبتي مثلَّثاً من الخرق مطرَّزاً.

- إنَّه وشاحُ عذراء غوادلوب، جاءت به أمّي حين أتت من ثاكاتكاس. إنَّه يأتي بالمعجزات...

في السابعة تماماً ظهرت أربعُ سيَّارات قبيحة، مطليّة بلون «*الجزّارون*» البنفسجي، تحمل العصابة، التي جاءت لتدعم مارتينث. مرّوا بيننا محيين باليد المنغرِّفة أمام الوجه ولامسين قضبانهم علامة

استفزاز. تصوَّرتُ أنّه إذا لم تكن النتائج حسنة ستحدث ورطة مريعة فمجموعتي على الرغم من أنَّها أكثر عدداً، لم تكن ولا بحالٍ من الأحوال عدوًّاً يُخشى جانبه بالنسبة إليهم، هم المسلّحون، المعتادون على إثارة المتاعب. اضطررت للنظر مرّتين كي أميِّزَ مارتينث، فالجميع متشابهون، التسريحة بالكريم ذاتها، السترات والزينات والتمختر الاستفزازي في السير. لم يتنازلوا عن ثيابهم، ثياب الغاوي ولا عن أحذيتهم ذات الكعب العالي، بينما كنت أرتدي ثياباً مريحة ـ لم يكن باستطاعتي أن أشتري في ذلك الوقت إلاّ الثياب المستعملة من بازار الكنيسة، وانتعلتُ حذاءً رياضيّاً. استعرضت نقاط تفوّقي: كنتُ أسرع وأخفَّ منه، في الحقيقة لم يكن يستطيع أن يهزمني في سباقٍ تكون فيه اليدُ على اليد، لكنّه كان تحدّياً حتى الموت، وفي النهاية تلعب الجرأة أكثر من المهارة. كان في المدرسة الابتدائيّة رياضيّاً جيّداً، بينما كنتُ دائماً متواضعاً في الرياضة، لكنَّني حاولتُ ألاّ أفكر بهذا.

ـ في السابعة والربع تماماً يمرّ القطار السريع. سنركض في وقتٍ واحدٍ تفصلُ بيننا ثلاثُ خطواتٍ كيلا تستطيعَ دفعي، أيُّها المقرون، أنا أقربُ إلى القطار، هذه هديّة مني إليك، إذا رغبت. ـ صرختُ كي يسمعني الجميع.

ـ لستُ بحاجة إلى امتيازات، أيُّها الغرينغو اللواطي الحقير.

ـ اخترْ إذن: أتجري أقرب إلى القطار أم تنطلق بعدي.

ـ أخرج بعدك.

خططتُ بعودٍ خطَّين على الأرض، بينما كان يجتازُ السكَّةَ ثلاثة من العصابة وبعضٌ من رفاقي على رأسهم خوان خوسِه مورالِس، ليراقبوا المبارزة من الجانب الآخر.

ـ أبهذا القرب؟ هل أنت خائف، أيُّها اللوطي؟ ـ سخر مارتينث منّي باحتقار.

كنتُ قد قدَّرتُ ردَّةَ الفعل عنده، محوتُ الخطَّينْ بقدمي وخططتُهما من جديد إلى الوراء. قاس خوان خوسِه وواحد من العصابة خطوات الفصل وفي تلك اللحظة سمعنا صفيَر القطار. اقترب جميع المشاهدين، العصابة على اليسار في كتلة ملتحمة ورفاقي على اليمين. نظرتُ إليَّ كارمن نظرةً أخيرةً مشجِّعة، لكنَّني رأيتها منهارة. وقفنا عل الخطّين، لمستُ الوشاحَ خفيةً، ثم أغلقتُ عقلي كلياً عن كلّ ما كان يحيطُ بي، مركِّزاً على نفسي وعلى تلك الكتلة الحديديَّة التي كانت تقترب، عادّاً الثواني، مشدودَ الجسدِ،

منتبهاً إلى الضوضاء التي تتنامى، أنا وحدي أمام القطار، كما في مرّات كثيرةٍ سابقة. ثلاثة، اثنان، واحد. ودونما شعورٍ بما كنتُ أفعل شعرتُ بجئيرٍ وحشيٍّ في أحشائي، انطلقت قدماي مثل النار بدافع مستقل. تيّار رهيب سرى فيَّ بالكامل ، عضلاتي انفجرت في الجهد والفزع أعماني بوشاحٍ من دم. ضجيج القطار وزعيقي نفسه دخلا تحت الجلد وغزَياني كاملاً تحوّلتُ إلى زئير خالص. لمحتُ الأنوار الهائلةَ تنقضّ عليّ، التهب جلدي من حرارة المحرِّكين والهواء المنشطر شطرين بذلك السهم العملاق، شرر العجلات المعدنيَّة على الخطَّين أصابني في وجهي. كانٍ هناك لحظة دامت عشرة قرون، جزء من الزمن تجمَّد للأبد. وبقيت معلَّقاً في هاويةٍ لا يمكن تصوّرها، طافياً أمام القاطرة، طائراً تحجَّرَ في أوج طيرانه، كلّ جزيئة من جسدي ممدودة في قفزة أخيرة إلى الأمام، الدماغ متوقِّف في يقينيّة الموت.

لا أعرف ما جرى في تلك اللحظة. فلا أذكر إلاّ أنّني استيقظت مُنهكاً على الجانب الآخر من خطِّ القطار وبي غثيان، أستنشقُ رائحةَ معدنٍ حارٍّ، مذعوراً من القصفِ المجنون للبهيمة الهائلة التي كانت تمرُّ وتمرُّ، هائلة الطول، لا تنتهي وعندما ابتعدَ أخيراً أحسستُ بصمتٍ غير عادي وبفراغ مُطلق. لفَّتني الظلمةُ بكليتي. بعدَ قرنٍ أخذتني كارمن وخوان خوسِه منْ ذراعيَّ لينهضاني.

- انهض، يا غريغوري، هيَّا بنا من هنا قبلَ أن تأتي الشرطة...

عندئذٍ برقت في ذهني ومضةٌ من جلاء واستطعتُ أن أرى في شبه ظلمة المساء كيف كان الفتيان يهربون جرياً باتجاه الطريق، وكيف كانت تنطلق سيَّارات العصابة البنفسجيّة مثل البرق ولم تبق روح واحدة في المكان غيريٍ أنا الملطَّخ بالدم وكارمن وخوان خوسِه، ومزق مارتينث منثورة في كلِّ مكان.

# القسم الثاني

تردَّدَ من فمٍ إلى فم خبُر مبارزة القطار وزخرفَ حتّى أدرك أبعاداً خياليّة، جعلت غريغوري ريفز يتحوَّل إلى بطلٍ بين رفاقه. شيءٌ جوهريٌّ تبدَّل وقتَ ذاك في طبيعته ، كبُر فجأةً وذهب عنه ذلك النوع من الخجل الملائكي الذي تسبَّبَ له بكثيرٍ من المرارات والصفعات، نال ثقةً بنفسه وشعر لأوّلِ مرّةٍ في عمره بأنه مرتاح في جلده، إذ ما عاد يرغب بأن يكون أسمر مثل بقيّة أبناء الحي، وبدأ يقدِّرُ مزايا ألا يكون كذلك.كان في المدرسة الثانوية قرابة أربعة آلاف طالب جاؤوا من مختلف قطاعات المدينة، جميعهم تقريباً بيضٌ من الطبقة المتوسِّطة. كانت الطالبات يجمعن شعرهنَّ على شكل ذيل حصان، لا يستخدمن الكلمات الرذيلة أو يطلين الأظافر، يتردَّدن على الكنيسة وليس لبعضهنَّ مظهر السيِّدات الراسخ الذي لأمَّهاتهنَّ. لا يضيِّعن مناسبة لتبادل القبل مع خطيبِ الدَوْر في الصف الأخير في السينما، أو المقعد الأخير في السيَّارة، لكنَّهن لا يعلقنَ على الموضوع. يحلمن بالماس في البنصر وريثما يحدث هذا كان الفتيان يستغلُّون حرِّيَّتهن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، قبلَ أن تدجِّنهنَّ صاعقة الحبِّ المداهمة. يعيشون آخرَ فرصِ الفوضى، اللعب والرياضة الخشنة، والسكر بالكحول والسرعة، مرحلة شقاوات رجوليّة، بعضها غير ضارٍّ كسرقة تمثال لِنكولن النصفي من مكتب المدير، وأخرى ليست كذلك كالوقوع على زنجيٍّ أو مكسيكيٍّ أو لوطيٍّ لطليه بالروث. يسخرون من الرومانسيَّة لكنّهم يستخدمونها للحصول على القرين. يتكلَّمون فيما بينهم عن الجنس دون توقُّفٍ، لكن نادراً ما يملكون الفرصة لممارسته. خفراً لم يذكر غريغوري أولغا قط بين أصدقائه. كان يشعر في المدرسة أنَّه على هواه، ما عاد معزولاً بسببِ لونه، لا أحد يعرف بيته أو عائلته، ويجهلون أنَّ أمّه تتلقّى شيكاً من الرعاية الاجتماعيّة. كان أكثر الجميع فقراً، لكنَّه

دائماً يحمل في جيبه شيئاً من النقود، لأنَّه يعمل، يستطيعُ أن يدعو فتاةً إلى السينما، ولا تعوزه النقودُ لدورةٍ من البيرة أو مراهنة، بل لقد كفاه الرخاء في السنة الأخيرة لامتلاك سيَّارة مرضوضة بما فيه الكفاية، لكنَّها ذات محرِّكٍ جيِّد. لم يكن عوزه يلاحظُ إلاّ من خلالِ البنطلون اللامع والقمصان المستهلكة وندرة الوقت الحرّ. يبدو كبيراً، لكنه كان ناحلاً، رشيقا وقويّاً كأبيه؛ يعتقد أنَّه وسيم ويتصرَّف على هذا الأساس. في السنوات الأخيرة استفاد من أسطورة مارتينث ومعرفته بالثقافتين اللتين ترعرع فيهما. غرابة أسرته الفكريَّة وصداقته مع عاملِ المصعد في المكتبة نمَّيا الفضولَ عنده. في مكانٍ لا يكادُ يقرأ الرجالُ فيه صفحاتِ الرياضة في الصحف والنساء يفضِّلن إشاعات فنّاني هوليوود، قرأ بحسب الأحرف الأبجديَّة أبرزَ المُفكِّرين، بَدءاً من أرسطو وحتى زرادشت. كانت رؤيته للعالم مشوَّهة، لكنَّها على كلِّ الأحوال أوسع من رؤية بقيَّة الطلاَّب ومن عددٍ من الأساتذة، كل فكرةٍ جديدة تُدهشهُ، ويعتقد أنَّه اكتشف شيئاً فريداً فيشعرُ بواجب البوح به لبقيَّة الإنسانيَّة، لكنَّه سرعان ما انتبه إلى أنَّ استعراض المعارف يقع على رفاقه كرفسة البغل. كان يتحفَّظ بينهم، لكنَّه لم يكن يستطيع تفادي إغواء التباهي بين الفتيات كبهلوانٍ للكلمة. علَّمته النقاشات التي لا تمل مع سايروس الدفاعَ عن أفكاره بحماس، فمعلِّمه كان يُفنِّدُ له كلَّ محاولات تدويخه بالبلاغة، ويقول له: كثير من الجوهر وقليل من السفسطة، يا بُنَيّ، لكنَّ غريغوري اكتشف أنَّ حيلَةَ الخطابيَّة تعملُ عملها جيِّداً مع أشخاصٍ آخرين. كان يعرف كيف يقف دائماً على رأس المجموعة، واعتاد الآخَرون أن يفسحوا له الطريق وبما أنَّ التواضع لم يكن من فضائله فقد تصوَّرَ أنَّه انطلقَ على درب السياسة.

ـ ليست فكرة سيِّئة. من الآن ولعددٍ من السنوات ستكون الاشتراكيَّةُ قد انتصرت في العالم وتستطيع أن تكون السيناتور الشيوعي الأوَّل في هذا البلد ـ كان يُحَمِّسُهُ سايروس في تهامساتهما السرِّيَّة في سرداب المكتبة، حيث حاول ولسنواتٍ أن يزرع دون نتائجَ في عقل مريديه شغفه الحار بماركس ولينين. وكانت هذه النظريَّاتُ تبدو له من وجهة نظر العدالة والمنطق غير قابلة للنقاش، لكنَّه يحدس بأنَّها لا تملك أدنى إمكانيَّة للانتصار، على الأقل في نصفِ كوكبه. ومن جهة أخرى كانت تبدو له فكرة تحقيق الثروة أكثر إغواءً من تقاسم الفقر بالتساوي، لكنَّه لم يجرؤ قط على البوح بمثل هذه الأفكار البائسة.

ـ لستُ واثقاً من أنَّني أُريدُ أن أصبح شيوعيّاً ـ كان يدافع عن نفسه

بحكمة.

ـ ماذا ستصيرُ إذن، يا بُنَي؟

ـ ديمقراطيّاً مثلاً...

ـ لا يوجد أيُّ اختلاف بين الديمقراطيين والجمهوريين، كم مرَّةً عليَّ أن أشرح لك هذا؟. على كلِّ حال إذا أردت أن تصلَ إلى مجلس الشيوخ فعليك أن تبدأ من الآن. فالأربيان الذي ينام يجرفه التيَّار . عليك أن تصبح رئيساً للطلبة.

ـ أنت مجنون، يا سايروس، أنا أفقرُ طلاَّب الصف وأتكلَّم الإنكليزيَّة كتشيكاني. من سيصوِّتُ لي فأنا لستُ غرينغو أو لاتينيّاً، ولا أُمثِّلُ أحداً.

ـ لذلك تستطيع أن تُمَثِّلهم جميعاً ـ وأعاره العجوز /الأمير وأعمالاً أخرى لنيكولاس مكيافيلّي كي يعرف بعضَ الأمورِ عن الطبيعة البشريَّة. بعد ثلاثة أسابيع من القراءة السطحيَّة عادَ مشوَّشاً كفايةً.

ـ هذا لا يفيدُ في شيء، يا سايروس. ما العلاقة بين إيطاليي القرن الخامس عشر وصعاليك مدرستي.

ـ أهذا هو كلّ ما تستطيع أن تقولَه لي عن مكيافيلّي؟ لم تفهم شيئاً، أنتَ جاهل. لا تستحقُّ أن تكون سكرتيراً في الحضانة وأقل من ذلك رئيس طلبة ثانويّة.

عادَ الفتى وحشرَ أنفَه في الكتب اللعينة، بمواظبة أكبر هذه المرَّة، وشيئاً فشيئاً راح الشعاعُ المضيءُ عند رجل الدولة الفلورنسي يعبرُ خمسةَ قرونٍ من التاريخ، مسافة نصفِ العالم، الحواجز الثقافيّة وضبابَ دماغِ شابٍّ كي يكشف له عن فن السلطة. سجَّلَ ملاحظاتٍ في دفترٍ عنونَهُ بتواضعٍ «أنا الرئيس» وكان نبوئيّاً، لأنَّه وبفضل الستراتيجيَّة المكيافيليّة ونصائحِ مُعلِّمه ومناوراته واستلهاماته الخاصة استطاع أن يُنتخبَ بالأغلبيّة الساحقة . تلك كانت السنة الأولى التي مرّت دون مشاكل عرقيَّة في المدرسة، لأنَّ الطلابَ والمدرِّسين عملوا بالإجماع وقد أقنعهم ريفز بأنهم يبحرون في زورق واحد وليس من مصلحة أحد أن يجذِّفَ بالاتجاه المعاكس. كذلك نظم أوَّل حفل راقصٍ بالجوارب، أمام ذهول اللجنة الإدارية التي اعتبرته الخطوة النهائيّة باتجاه الجنس الجماعي الروماني، لكنَّ شيئاً جسيماً لم يحدث. كان حفلاً بريئاً خلع فيه المشاركون أحذيتَهم فقط. كان الرئيسُ الجديدُ قد صمَّمَ على أن يترك ذكرى لا تمحى في حوليَّات الموسّسة وأن يشرع في الطريقِ باتجاه البيت الأبيض، لكنَّ المهمّة

كانت بالمُحصِّلة أكثر وعورة من المقدَّر. بالإضافة إلى مسؤوليّات المنصب كان يساعد في مطبخ صالةٍ للبلياردو حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي نهايات الأسبوع يصلح المطاط في مرآبِ بيدرو مورالِس، وفي الصيف ينطلق ليعمل أجيراً في قطف الفاكهة في الأرياف. كانت حياته تجري مشغولة حيث نجا من الكحول والمخدِّرات والمراهنات في اللعب ومنافسات السرعة، وخلّفَ جزءٌ كبيرٌ من أصدقائه براءتهم، إذا لم نقل صحتهم بل وحتى حياتهم أيضاً.

صارت الفتيات فكرته الثابتة، التي تتجلّى أحياناً كنوع من الاندهاش السعيد الذي ينسيه حتى اسمه بالذات، لكنّها لم تكن بشكلٍ عامّ أكثر من عذاب الحساء الساخن في العروق ومن البذاءات العامّة في العقل. نفته أولغا من سريرها برقّة، لأنّها تكنُّ له مودّة كبيرة، لكن بتصميم لا رجعة عنه، بحجّة أنّه حان الوقت كي يبحثَ عن عزاءاتٍ أخرى. قالت إنّها تشعر بنفسها عجوزاً كبيرة على ذلك الخبَب، لكنّها في الحقيقة كانت قد عشقت سائقَ شاحنة، أصغر منها بعشر سنواتٍ، اعتادَ زيارتها بين رحلة وأخرى. انتهت هذه القابلة الجموحةُ الروح إلى رافئة لجوارب عشيقٍ سيِّئ الطلعة ومتحمِّلة لنزواته عدداً من السنين، إلى أن انحرف الرجلُ في أحدِ أسفاره عن الطريق ليلحق بحبٍّ آخر ولم يعدْ بعدها أبداً. ومن جهة ثانية فقدت لقاءات أولغا وغريغوري جاذبيّة الجِدّة وسحر ما لا يُباح. انحطّا إلى نوعٍ من الرياضة البدنيّة بين جدَّةٍ وحفيد. استُبْدِلَتْ أولغا بإرنِستينا بِردا، رفيقة غريغوري في المرحلة الابتدائيّة وكانت تعمل وقتذاك في مطعم. كان يتصوَّرُ معها الحبَّ، هذا الوهم الذي يتلاشى بعد دقائق قليلة، مخلّفاً عنده طعمَ الخطيئة. ربّما كان العشيق الوحيد لإرنِشتينا الذي يملك مثل ذلك الخجل، ولكي ينتصر عليه اضطرَّ لأن يخونَ الطبيعةَ الرومانسيّة ومبادئ الفروسيّة التي تعلّمها من أمّه وقراءاته، لم يكن يرغب باستغلالها، مثل الكثير من الآخرين، لكنّه أيضاً لم يكن قادراً على أن يكذبَ عليها بالحبّ. لم تكن قد لاحت في الأفقِ بعد التبدلات في العادات التي حوّلت الجنسَ إلى نوع من الرياضة الصحيّة، وتمرين لاخطورة فيه بالحمل أو عائق الخطيئة. كانت إرنِستينا بِردا واحدة من تلك الكائنات المنذورات لسبر هوّة الحواسّ، لكنَّ حظّها جعلها تولدُ مبكِّرةً خمسة عشرَ عاماً، عندما كان على المرأة أن تختارَ بين الحشمة والمتعة ولم تكن تملك من الجرأة ما يكفي للتنازل عن واحدة منهما، فمنذ أن صارت تتذكّر عاشت مبهورة بإمكانات جسدها، ففي السابعة من عمرها حوّلت حمّام المدرسة إلى مخبر ورفاقها إلى أرانبَ هنديّة، بحثت فيهم

وجرَّبتهم ووصلت إلى نتائج مدهشة. لم ينجُ غريغوري من ذلك السعي العلمي، فكلاهما كان يهرب إلى الحميميّات القذرة في الحمّام كي يتحسَّس الآخر بأفضل النوايا الطيبة، اللعب الذي كان من الممكن أن يستمرَّ إلى ما لا نهاية لولا وحشيَّة مارتينث وعصابته، الذين جمَّدوه بأخذه بالجرم المشهود. تسلّقوا في إحدى الفرص صندوقاً ليتجسسوا عليهما فاكتشفوهما وهما يلعبان لعبة الطبيب فأثاروا فضيحة من السخريات، جعلت غريغوري يمرضُ أسبوعاً من العار ولم يعد ليجرِّبَ مثل تلك التسليات إلا عندما خلَّصته أولغا من حيرته. كانت إرنستينا بِرِدا في ذلك الوقت قد عاشت تجاربَ لا تحصى، لم يبق فتى في الحيِّ لم يتبجَّح بأنَّه عرفها، بعضهم لأسبابٍ مبرَّرة، لكنَّ الغالبيَّة لمجرَّد التبجُّح. عمل غريغوري جاهداً علىألاَّ يفكِّرَ بهذه الاختلاطات، فلقاءاتهما كانت خالية من الزيف العاطفي، لكنَّهما كانا دائماً يتعاملان بشيء من المجاملة، على الرغم من أنَّهما لا يتكلَّمان عن المشاعر، فالحبُّ يحضره دائماً على شكل عواطف عابرة تجاه بعض فتيات الضواحي، اللواتي لا يستطيع أن يمارس معهنَّ طفرات الهيام في قائمة أولغا ولا حلزنات إرنستينا بِرِدا الجنونيّة. لم يكن يجد صعوبة في الحصول على النساء، لكنَّه لم يشعر قط بأنَّه محبوبٌ كفايةً والأثر الذي كان يتلقّاه لا يكاد يكون أكثر من انعكاس غير طليٍّ للعاطفة الكلِّيّة التي يستهلك نفسه فيها. كان يُحبّهنَّ ناحلاتٍ ورشيقات، لكنّه يذعن أمام أيِّ إغواء من الجنس الآخر، حتى وإن كنَّ أميل إلى الربعة كما هو حال لاتينيّات الحيّ. لم يكن يستبعدُ كاستلهام لهذياناته الجنسيّة غير كارمن فقد كان يعتبرها رفيقته ولم تكن خواصُّها الأنثويّة لتخلَّ برفاقيَّته الأوَّليّة. ومع ذلك كان لهما مزاجان مختلفان وشيئاً فشيئاً خلقا فيما بينهما هوَّة فكريَّةً. كان يشاركها الأسرار والرقص والسينما، لكن كان من غير المجدي أن يناقشها بقراءاته أو قلقه الاجتماعي، أو الميتافيزيقي الذي زرعه في قلبه سايروس. عندما كان يسرحُ في هذه الدروب لم تكن رفيقته لتطري عليه باهتمامات مزيّفة، بل تُجمِّده بنظرة من ثلج وتأمره بأن يكفَّ عن هذه الترّهات. لم يكن يلقَ من الفتيات الأخريات استقبالاً أفضلَ، يجذبهنَّ في البداية بصيته كمتوحِّشٍ وراقص، لكنَّهنَّ سرعان ما يتعبن من مضايقاته ويمضين معلِّقات بأنَّه متحذلقٌ فارغ، غير قادر على البقاء دون أن يحرِّكَ يديه، وحذار أن تقبلي القيام بنزهة معه في سيَّارته المهترئة، أوَّلاً يضجرك بثرثراته عن الترشيح ثم يحاول أن يَخلع لك الحمّالة، ومع ذلك لم ينقص ريفز مغامرات غراميّة. فخوان خوسِه مورالِس كان يرى أنَّه لم يكن هناك ما يستحق أن يُفْهَمَ عند النساء، فهنَّ

هدف للغلمة والضياع، كما كان يؤكِّد ديوان الشعر اللاتيني والأبُ لارْاغيبل، حين كان ينتفخ بالغيرة الكاثوليكيَّة. فبالنسبة لفحول الحي كان هناك نوعان من النساء فقط، نوع مثل إرنستينا بِرِدا وآخر لا يمكن لمسه، مخصّص للأمومة والمنزل، لكن يجب عدم عشق أيٍّ منهما، فهذا يحوِّلُ الرجلَ إلى عبدٍ، إن لم يكن إلى مقرون. لم يكتفِ غريغوري قط بهذه المقدمات وسار في السنوات الثلاثين اللاحقة بلا هوادة خلف الحب الكامل، متعثِّراً مرَّاتٍ لا تحصى، ساقطاً ومعاوداً النهوض في سباق لا ينتهي من العوائق، إلى أن تخلى عن البحث وتعلَّم العيش وحيداً. عندئذٍ وفي واحدة من مفاجآت الحياة الخاطئة وجد الحبَّ في الوقت الذي لم يكن يفكِّر بأنَّه سيجده. لكنَّ هذه حكاية أخرى.

انتهت تطلُّعات غريغوري ريفز السيناتوريَّة فجأةً في اليوم التالي لنيله شهادة الدراسة الثانويَّة، حين سألته جودي ماذا كان يفكِّر بالنسبة لمصيره لأنَّ ساعة رحيله عن بيت أمِّه حانت.

ـ منذ زمن كان عليك أن تعيش في مكانٍ آخر، فالمكان هنا لايسَعُنا، ونحن متضايقون جدّاً.

ـ حسناً سأبحث عن مكان أذهبُ إليه ـ أجابها غريغوري بمزيجٍ من الأسى لهذه الطريقة في طرده من العائلة، والراحة لخروجه من مكانٍ لم يشعر بنفسه محبوباً فيه.

ـ علينا أن نصلح أسنان أمِّنا، ولا نستطيع أن نؤجِّلَه أكثر.

ـ هل من شيء موفَّر؟

ـ لا يُغطي. ينقصنا ثلاثمئة دولار. ثم إنَّنا وعدناها بتلفاز لعيد رأس السنة.

مرَّت جودي بمرحلة مراهقة بائسة وتحوَّلت إلى امرأةٍ مُدَمَّرة بفعل نقمة خرساء. كان وجهها ما يزال ذا جمال مدهش وشعرها على الرغم من أنَّه جزَّ جزّاً، يحتفظُ بلونه الذهبي الأبيض الذي كان له في طفولتها الأولى. طبقاتٌ وبيلةٌ من الشحوم توضعت على هيكلها العظميّ، لكنَّها لم تشوِّهها كليّاً، لأنَّها كانت ماتزال يافعة جدّاً وعلى الرغم من بدانتها تُخَمِّنُ الأشكالُ الأصلية لجسدها، وفي المرَّات النادرة التي كانت تتخلّى فيها عن كراهية نفسها وتضحك تستعيدُ سحرها. كان لها بعض العلاقات الغراميَّة مع بعض الرجال البيض، الذين تلقاهم في عملها أو في أحياء أخرى،

فجيرانها الهيسبانيون كفّوا عن محاولة الصيد منذ زمنٍ طويل، لقناعتهم بأنّها فريسة صعبة المنال. كانت تأخذ على عاتقها إبعاد المتطلّعين الجاهدين إليها بغطرستها المحتدمة أو صمتها الطويل.

ـ هذه الصغيرة المسكينة لن تتزوّجَ أبداً، واضحٌ أنّها تكره الرجال ـ شخّصت أولغا حالتها.

ـ مالم تنحل قُرِئَ عليها السلام. ـ لاحظ غريغوري.

ـ لا علاقة للأمر بالوزن، يا غريغوري. لن تبقى عانساً بسبب بدانتها، بل لأنّها ترغب بذلك لمجرّد الكيد.

لمرّة واحدة أخطأت بصيرة أولغا. فقد تزوّجت جودي ثلاثَ مرّات، على الرغم من مظهرها، وكان لها عشّاق لا يحصون، بعضهم فقد سلام الروح في البحث عن حبٍّ لم تستطع أو لم تبغِ منحه له. أنجبت عدداً من الأولاد من أزواجٍ مختلفين وتبنّت أطفالاً آخرين ربّتهم بحنان. بقيت تلك الرقّة، التي طبعتْ السنين الأولى من حياة غريغوري وحاول أن يستعيدها على امتداد علاقته العاصفة مع أخته، مجمّدة في روح جودي إلى أن استطاعت صرفها باتجاه الجهد الأمومي. ساعدها أولادها الحقيقيّون والمتبنّون على تجاوز شلل شبابها العاطفي، وتحمّلت بقوّةٍ سرَّ ماضيها المأساوي والخفي. كانت قد تركت المدرسة في تلك المرحلة وراحت تعملُ في معمل للملابس، فوضع العائلة كان مزعزعاً ومساهماتها ومساهمات غريغوري لا تغطّي الحاجة، بعد سنة من العمل في تنظيف البيوت في ساعات الفراغ، وقد سلخت يداها واقتنعت بأنَّ هذا الطريق لن يقودها إلى مكان، قرّرت أن تشتغل كامل الوقت كعاملة إلى جانب نساء أخريات أسيئت معاملتهن والدفع لهنَّ. كانت تخيط في غرفتها الضيّقة المظلمة التي لا تهوية فيها حيث تتنزّه صراصير منتفخة. كانت القوانين في هذا المعمل تُخْتَرَقُ بمنأى عن العقوبة والعمّال يستغلّهم أرباب العملِ دون خجل. كانت تعودُ إلى بيتِها ومعها رزم من القماش فتقضي جزءاً كبيراً من الليل أمام آلة خياطة أمّها، يدفعون لها الساعات الإضافيّة بسعر ساعات العمل العاديّة لكنّها تحتاج إلى النقود وأمام أيّة مطالبة يصرفونها دون أيّة إجراءاتٍ أخرى، فالمتلهّفون الذين ينتظرون دورهم كثيرون.

كان غريغوري من جهته معتاداً على العمل أيضاً، وساهم في ميزانيّة البيت منذ السابعة من عمره. ساهم بوفوراته ببعض التغييرات. بدّل البرّاد القديم ببرّاد حديث وموقد الكيروسين بموقد غاز وحاكي الحبلة بحاكي كهربائي كي تسمع أمّه موسيقاها المفضّلة. لم تكن تُخيفه

فكرةُ العيش وحيداً. حاولَ صديقُه سايروس وأولغا إقناعه بأن يبحث عن طريقة يدفعُ بها للجامعة بدل الاشتغال من أجل كفاف العيش، لكنَّ هذا الاختيار لم يكن يُطْرَحُ بين فتيان وسطه، ففوق رؤوسهم سقف خفيٌّ يبقيهم ناظرين إلى الأرض. حين أنهى غريغوري دراسته الثانويّة وجد نفسه فجأةً محدوداً من جديد بأفقِ الحيِّ الأفطس. عمل خلال إحدى عشرة سنة ما أمكنه كي يصبح مقبولاً كواحد من الجيران وحقّق هذا تقريباً على الرغم من لونه. مع أنَّه لم يستطع أن يصوغه بكلمات، ربَّما كان السبب الحقيقي لتحوُّله إلى عامل إنَّما كانت رغبته بالانتماء إلى الجوِّ الذي حتَّم عليه قدره أن يترعرع فيه فبدت له فكرة الإرتقاء بالدراسة فوق الآخرين خيانة. عاش خلال سنوات الدراسة الثانويَّة السعيدة وهم الهرب من قدره، لكنَّه تحمَّل في أعماقه ظرفه كمهمَّش وفي ساعة المواجهة مع المستقبل سحقه ثقلُ الواقع. استأجر غرفةً أقام فيها مع ممتلكاته القليلة في صناديق، الكتب التي أعارها له سايروس *وأوليفر* كرفيق وحيد. كان الكلب قد شاخ جدّاً وصار شبه أعمى، فقد عدداً من أسنانه وقسماً كبيراً من شعره، لا يكاد يقوى على حمل هيكل البهيمة المبندق العظمي الثقيل، لكنَّه كان ما يزال صديقاً حصيفاً ووفيّاً. كفت غريغوري أسابيعُ قليلة من العمل المجهد كعبدٍ *أسود* كي يفهم أنَّ الحلم الأمريكي لا يَطال الجميع. حين كان يعود إلى غرفته ليلاً ويستلقي منهكاً في سريره ينظرُ إلى السقف ويحسب حساب قنوطه، يشعر بنفسه سجيناً في مصيدة. قضى الصيف في شركة نقل كان عليه أن يحمل على ظهره أحمالاً ثقيلةً فبرزت عضلاته حيث لم يكن يعرف أنَّها موجودة، وراح يكتسب مظهر مجالدٍ جلف حين أجبره حادثٌ على تبديل مساره.كانا يصعدان ببرّادٍ يسندانه إلى حزامين معلَّقين إلى كتفيهما، والحرُّ خانقٌ وفراغ الدرج ضيقٌ ومع كلِّ درجة يرتاح ثقل البرّاد بكامله على جانبٍ من الجسم. سرعان ما شعر بشحنة كهربائيَّة حارقة تفرّغُ في ساقه اليمنى فاضطرَّ أن يمسكه بيده بإرادة صلبة كيلا يسحق رفيقَه. فلتت منه صرخة تبعتها سلسلة من اللعنات حين استطاع أن يثبته على الأرض ويرى شجرةً بنفسجيَّة ثخينة الجذع والأغصان، انفجرت شرايينه وتشوَّهت ساقه خلال دقائق قليلة. انتهى إلى المشفى حيث نصحوه بعد فحصه بالراحة المطلقة وحذَّروه بأنَّ الشرايين المتضرِّرة ستأخذ شكل الدوالي ووحده العمل الجراحي يستطيع أن يزيلها. دفع له مُسْتَخْدِمُه أجرةَ أسبوع وأمضى ريفز النقاهةَ في غرفته يتعرَّقُ تحت المروحة، يعزِّيه وفاء *أوليفر* ، وبعض مسَّادات أولغا العلاجيّة والصحون المولّدة التي أعدَّتها له إنماكولادا مورالِس. كانت كتبُ

سايروس والموسيقى الكلاسيكيَّة وزيارة بعض الأصدقاء تسليته، وكارمن تمثل في غرفته باستمرار وتحكي له عن الأفلام المعروضة في الصالات فهي تملك موهبة القصّ، يسمعها فيبدو كأنَّه أمام الشاشة. مرَّ به خوان خوسيه مورالِس، الذي أتمَّ الثامنة عشرة أيضاً، ليودِّعه قبل أن ينضوي في القوّات المسلحة وترك له كذكرى ألبوماً من صور النساء العاريات، فضَّل ألاّ يتفحّصها كي يتجنَّبَ عذابات أكبر، يكفيه القيظ. كان سايروس يذهبُ إليه يوميَّاً، يحكي له الأخبار بنبرة سرِّيّة: الإنسانيَّة كانت على حافَّة الكارثة والحرب الباردة تضع الكوكب في خطر، وهناك فائض من القنابل النوويّة الجاهزة للإطلاق، وفائضٌ من الجنرالات المتعجرفين المستعدِّين لتنفيذ ذلك، في أيِّ لحظة هناك من قد يضغط على الزرِّ المشؤوم لينفجر العالم في صلاء أخير ويذهب كلُّ شيءٍ إلى الجحيم.

ـ ضاعت الأخلاق، نحنُ نعيشُ في عالم القيم البائسة، الملذَّات دون فرح والعمل دون معنى.

ـ ما هذا، يا سايروس! ألم تحذِّرني مرَّات كثيرةً من التشاؤم البرجوازي؟ ـ ردَّ تلميذه ساخراً.

كانت أمَّه تحضر فجأة، متحفِّظة ورقيقة. تحمل إليه بسكويتاً وعظماً *لأوليفر*، تجلس بجانب الباب، تحدِّثه بكثير من الرسميَّات عن المواضيع الدائمة: التاريخ، ذكريات الأب، الموسيقى. في كلِّ يوم تبدو أكثرَ أثيريّة وضبابيّة. يسمعان أيّامَ السبت معاً برنامج الأوبرا في الإذاعة، تعلَّقُ نورا متأثِّرةً حتى البكاء بأنَّ تلك الأصوات لكائنات خارقة للطبيعة، البشر لا يمكنهم أن يدركوا مثل ذلك الكمال. كانت تنظر من بعيد بطريقتها المهذَّبة المعتادة إلى كومة الكتب الموجودة بجانب السرير وتسأل بلطف ماذا كان يقرأ.

ـ فلسفة، يا أمَّاه.

ـ لا أحبُّ الفلاسفة، يا غريغ، فهم ضدّ الله. يحاولون أن يعقلنوا الخلقَ، الذي هو عمل حبٍّ وسحر. الإيمان أكثر جدوى لفهم الحياة من الفلسفة.

ـ لا بدَّ أنَّ هذه الكتب تعجبُ حضرتك، يا أُمّاه.

ـ نعم، أظنّ ذلك. يجب على المرء أن يقرأ كثيراً، يا غريغ. فبالمعرفة والحكمة يمكن أن يُهزمَ الشرُّ في العالم.

ـ تقولُ هذه الكتبُ بكلمات أخرى ما علَّمتنيه بالذات، أي أنَّه توجدُ

إنسانيّة واحدة، يجب ألاّ يملك الأرض أحدٌ لأنّها للجميع والعدالة والعدل سيحلاّن ذات يوم بين البشر.

ـ وهذه، أليست كتباً دينيّةً؟

ـ على العكس، ليست كتباً عن الآلهة، بل عن البشر. تتكلّمُ عن الاقتصاد، السياسة والتاريخ...

ـ ليتها لا تكون كتباً شيوعيّة، يا بُنَيّ.

وحين كانت تغادر تتركُ له نشرة عن عقيدتها البهائيّة أو دليلاً روحيّاً جديداً من تلك التي تظهر بكثرة في تلك المناطق وتُغادر بحركةٍ ناعمةٍ من يدها، دونَ أن تلمسَ ابنها. كان مرورها بالغرفة من الخفّة بحيثُ أنَّ غريغوري يبقى في شكٍّ مما إذا كانت هناك فعلاً، أم أنَّ تلك السيِّدة ذات الشعر الضبابي والثياب القديمة مجرَّد مزحة من خياله. كان يشعر تجاهها بحنان مؤلم، تبدو له كائنا مسكيناً لم يمسّها الشرّ، رقيقة وهفهافة كالأطياف في الحكايات. تخنقه معاندتها أحياناً يريدُ أن يخرجها من وسنها الدائم. بعنفٍ يصرخُ بها أن تفتح عينيها دفعة واحدة وتنظر إليه مواجهة، فها أنا هنا، يا أمّاه؟ ألا تريني؟ لكنَّه كان بشكلٍ عامٍّ لا يرغب إلا أن يقترب منها، يلمسَها، يضاحكَها ويحكي لها أسرارَهُ.

أغلق بيدرو موراليس مرآبَه ذات مساءٍ وذهب لرؤيته، فهو قد سهر بعزم على أسرةِ مُعَلِّمِهِ تشارلز ريفز منذ أن تُوفِّيَ.

ـ هذا حادثُ عمل، عليهم أن يعطوكَ تعويضاً ـ وضَّحَ له.

ـ قالوا لي بأنّه ليس لي أيّ حقٍّ، يا دون بيدرو.

ـ معلِّمُك عنده تأمينات، أليس كذلك؟

ـ المُعلِّم قال إنَّه ليس المُعَلِّم وإنَّنا لسنا مستخدَمين، بل متعاقدين مستقلّين.يدفعون لنا نقداً، يطردوننا في أيَّةِ لحظة وليس لنا ضمان. حضرتك تعرف كيف هي الأمور.

ـ هذا غير قانوني. يمكن للمحامي أن يُساعِدَكَ، يا بُنيّ.

لكنَّ ريفز لم يكن يملك مالاً للمحامين وأحبطته فكرة التورُّط لسنواتٍ في مستنقع الإجراءات المزعجة. ما إن استطاع أن ينهضَ على قدميه حتى وجدَ عملاً أقلّ جهداً، على الرغم من أنّه ليس أكثر إمتاعاً، في مصنعٍ للمفروشات حيث يبقي غبارُ النشارة الناعم في الجوِّ، بخارُ الغراء، الورنيش والمحِلاّتُ تترك العمّال في حالة خبل دائم. بقي شهوراً يصنع سيقان كراسٍ لا تختلف واحدة منها عن الأخرى. تعلّم من حادث ساقه

فواجه مرّاتٍ كثيرة رئيسَ العمّال مطالِباً بحقوقه المكتوبة في العقود والمُتَجاهَلة في الواقع العملي فانتهوا إلى أن صنَّفوه بالمشاغب العصيّ وطردوه. من هنا كان تنقّله بين أعمال مختلفة، خرج منها جميعاً بشكلٍ سيّئ بعد أسابيعَ قليلة.

ـ لماذا تثيرُ كلَّ هذا الصخب، يا غريغ؟ لم تعد في الثانوية ولا رئيسَ شيءٍ إذا كانوا يدفعون مالكَ فلا تُطالِب بشيءٍ آخر، وابقَ هادئاً ـ كانت تنصحُه أولغا دون أن تأمل منه إصغاءً.

ـ حسناً تفعلُ، يا بُني، يجب أن يكون هناك تضامن طبقي. في الوحدة تكمنُ القوّة ـ كان سايروس يصيحُ وهو يشيرُ بإصبعه المرتعشة إلى راية حمراء غير مرئيّة ـ فالعمل يرفعُ من شأن الإنسان وجميعُ العمّال متساوون في الكرامة ويجب أن يتلقوا الأجرَ نفسه، لكن ليس لهم المهارات ذاتها. وأنت لا تصلح لهذا، يا غريغ، إنّه جهدٌ غيرُ ذي جدوى، لا يقودك إلى مكان، إنَّه كمن يرمي رملاً في البحر.

ـ لماذا لا تنصرف للفن، أليس أفضل لك؟ أبوك كان فنّاناً، أليس كذلك ـ كانت تنصحه كارمن.

ـ ومات في الفاقة وتركنا على عاتق الرعاية الاجتماعيّة العامّة. لا، شكراً فقد سئمتُ من الفقر. الفقرُ خراء.

ـ ما من أحدٍ يعملُ عاملاً في مصنعٍ ويصبح غنيّاً. ثمّ إنَّك لا تعرف إطاعة الأوامر وتملُّ في الحال. الشيء الوحيد الذي تفيد فيه هو أن تكون رئيس نفسك ـ كانت تصرُّ صديقتُه، التي كانت تُطَبِّقُ المبادئَ ذاتها على نفسها.

لم يعد للشابّة العمر الذي يؤهِّلها لبهلوانيّات الشارع بالخرق الملوّنة، لكنَّها أيضاً لا تريدُ أن تكسبَ عيشها من وظيفة، كانت ترعبها فكرة قضاء النهار محبوسة في مكتب أو في عنبرٍ أمام آلةِ خياطة، وكانت تكسب بعض المال من صناعة بعض المواد اليدويّة لبيعها في دكاكين الهدايا والمعارض المتنقّلة. فهي كجودي وكالكثيرات من بنات الحي لم تنهِ دراستها الثانويّة ،لم تكن مهيّأة لكنّ حس المبادرة يفيض عنها وكانت تهرب من ضنى العمل الروتيني بتواطؤ، سرّيٍّ مع أبيها، بيدرو مورالِس الذي تضعف إرادته أمام تلك الفتاة غريبةِ الأطوار ويسمحُ لها بما لم يكن يسمحُ به لأولاده الآخرين.

كان العملُ في مصنع العلب المعدنيّة بسيطاً، لكنّ أية هفوة تكلّف إصبعين. الآلة التي يعمل عليها غريغوري ريفز تطبع صفّ العلب اللامتناهي الذي يمرُّ على قشاط ناقل.الضجيج، عويل العتلات والصفيح المعدني، هدير الطابعات والعجلات المُسنّنة، صرير الحديد رديء التشحيم، دويُّ المطارقِ، زعيق السكاكين، قعقعةِ المحدلات يُسبّبِ الجنون. وغريغوري المجهّز بكرتين فولاذيّتين في أُذنيه لا يكاد يتحمّل الدويّ في رأسه ويشعر بنفسه في برج نواقيس صاخب، يستنفده الضجيج، وحين يخرج إلى الشارع يبلغ به الدوار حدَّ أنّه لا يعي ضوضاء السير ويبدو له لبرهة طويلة غارقاً في صمتِ عمقِ البحر. الشيء الوحيد المهمّ كان الإنتاج وكلّ عامل يريد الاستمرار في العمل مجبرٌ على بلوغ أقصى جهده، ويتجاوزه دون أن يدري في كثيرٍ من الأحيان. كان العمّال يصلون يوم الإثنين واهنينَ من بقايا سُكر نهاية الأسبوع، لا يكادون يبقون على أنفسهم مستيقظين. وحين تسمع صفّارة الانصراف ويتوقّفُ الضجيج فجأة كان غريغوري يفقد اتجاهه لدقائقَ عديدة ويظنّ أنّه يطفو في الفراغ. كان العمّال يغتسلون من صنابير الفناء، يبَدّلون ملابسهم ويخرجون جميعاً باتجاه البارات. حاول في البداية مرافقتهم، استطاع وهو غارق في الدخان المشبع بالتكيلا الرخيصة والبيرة السوداء، ويضحك للنكات الفظّة ويغنّي الأغاني الشعبية غير الموزونة وهو أقرب إلى الضجر منه إلى الفرحِ كي يتصوَّر أنّ له أصدقاء، لكنّه ما إن يخرج إلى الهواء الطلق وتتقشع قليلاً ضبابةُ البار حتى ينتبه إلى أنّه يُعزّي نفسَه بخدع المغموم. ما من شيءٍ مشترك بينه وبين الآخرين، فالمكسيكيون لا يثقون به، تماماً كما هو حالهم مع كلّ الأمريكيين الشماليين. سرعان ما تخلّى عن تلك الرفاقيّة الوهمية فراح يمضي من المعمل إلى غرفته، يغلق على نفسه ليقرأ ويسمع موسيقى. لكي يكسب ثقةَ العمّالِ الآخرين كان يترأسِ الاحتجاجات وكان أول من يثير الشغب حين يقع حادث ما أو يرتكب عملٌ تعسُّفيّ، لكنَّ نشر أفكار سايروس عن العدالة الاجتماعيّة كان في الواقع صعباً، لأنّه لا يلقى دعم أصحاب المصلحة المُفْتَرَضين.

- يريدون الأمن، يا سايروس. إنّهم خائفون. كلٌّ واحد مشغول بأموره، ولا أحد يهمّه الآخرون.

- يمكن هزيمة الخوف، يا غريغوري. عليك أن تعلّمَهم التضحية بالمصالح الخاصّة في سبيل المسائل العامّة.

- في الحياة الواقعيَّة يبدو أنَّ كلَّ واحدٍ يدافع عن دجاجاته. إنَّنا نعيش في مجتمع في غاية الأنانيّة.

- عليك أن تُكلِّمهم، يا غريغ. فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يهتدي بالأخلاق ويستطيع أن يتجاوز الغرائز ولولا ذلك لكنّا ما زلنا في العصر الحجري. هذه مرحلة حاسمة في التاريخ، والعناصر متوافِّرة لولادة الإنسان الجديد إذا استطعنا أن ننجو من الكارثة النوويّة - كان يشرح له عامل المصعد بلا كللٍ بمصطلحاته المشغولة.

- ليتك تكون على حقٍّ، لكنَّني أخاف أن تكون ولادة الإنسان الجديد في مكانٍ آخر، يا سايروس وليس في هذه المناطق. لا أحد في هذا الحيِّ يفكر بالقفزات البيولوجيّة، بل بالبقاء على قيد الحياة.

وهكذا كان. لا أحد يرغب بلفت الانتباه. فالهيسبانيّون غير الشرعيين وصلوا في غالبيّتهم متغلّبين على عوائق لا تُحصى وليس في نيّتهم أن يثيروا فواجعَ جديدة بالمكائد السياسيّة التي من الممكن أن تجلب لهم شرطة «الهجرة» المخيفة. راقب رئيسُ العمّال، الرجلُ الضخم ذو اللحية الحمراء ريفز خلال أشهر. لم يطرده لأنَّه كان أحد مرضي جودي المعجبين، يحلم بتعريتها ذات يوم، كي يجوبَ لحمها الكريم، فكّر لفترة بتليينها مستخدماً أخاها. لم يترك فرصةً تفوته لتناول بعض الجرعات مع غريغوري، آملاً دائماً أن يُرَدَّ عليه بدعوة إلى بيت آل ريفز. لا أريدُ أن أراه هنا، زمجرت جودي عندما ألمح لها أخوها، دون أن تدري أنَّ ذا الشعر الأحمر سيكسب الجولة بعناده وسيصبح ذات يوم زوجها الأوَّل. باغت الرجلُ غريغوري ذات مرَّة وهو يوزِّع أوراقاً مكتوبة بالإسبانيّة بشكل سيّئ، وأراد أن يعرف بأيّة شياطين تتعلّق.

- إنَّها مواد من قانون العمل - أجاب بتحدٍّ.

- ما هذا الهراء؟

- ظروف هذا العنبر غير صحّيّة وأنتم مدينون لنا بساعات إضافيّة كثيرة.

- تعالَ إلى المكتب، يا ريفز.

ما إن أصبحا في المكتب حتى قدَّمَ له المقعد وجرعةً من قنينة جنّ كان يُخبّئها في خزانة المساعدين الأوائل. راقبه خلال برهة طويلة بصمتٍ باحثاً عن طريقة يوضّح له بها أسبابه. كان قليل الكلام ولا يمكن أن يسبِّبَ لنفسه هذا الإزعاج أبداً لولا وجود جودي في الوسط.

ـ هنا تستطيع أن تصل بعيداً، يا رجل. ويمكنك، كما أرى، أن تصبح رئيس عمّالٍ خلال أقل من خمس سنين. عندك تربية وتتقن القيادة.

ـ كما أنّني أبيض، أليس صحيحاً؟ ـ صوّبَ ريفز.

ـ أيضاً. حتى في هذا أنت محظوظ.

ـ حسبما يظهر ما من أحدٍ من رفاقي سيغادر قشاط النقل...

ـ هؤلاء الهنود الحمر المقمّلون ناسٌ سيّئون، يا ريفز. يتعاركون، يسرقون، لا يمكن الثقة بهم. ثُمَّ إنَّهم أغبياء، لا يفهمون شيئاً، لا يتعلّمون الإنكليزيّة، إنَّهم ضعفاء.

ـ أنت لا تعرف ما تقول. إنَّهم مهرة وعندهم إحساسٌ بالشرف أكثر منّي ومنك. عشت كلَّ حياتك في هذا الحي ولا تعرف كلمة إسبانيَّة ، بينما أيّ واحدٍ منهم يتعلَّم الإنكليزيَّة في أسابيع قليلة. ثمّ إنهم ليسوا ضعافاً، يعملون أكثر من أيِّ أبيض وبنصف أجر.

ـ ولماذا يهمّكَ هؤلاء الناس الوسخون؟ لا علاقة لك بهم، أنت مختلف. صدِّقني، ستصبح رئيس عمّالٍ ومن يدري فقد تصبح ذات يوم صاحب معمل خاص بك. عندك مال كثير وعليك أن تفكّرَ بمستقبلك. سأساعدُكَ، لكنّني لا أريدُ مناشير طيّارة، فهي لا تناسبك. ثمَّ إنَّ هؤلاء الهنود لا يتذمَّرون من شيء، وهم في أسعد حال.

ـ اسألهم لنرى كم هم سعداء...

ـ ليذهبوا إلى بلدهم إذا كان لا يعجبهم، لم يطلب منهم أحدٌ أن يأتوا.

كان ريفز قد سمع هذه الجملةَ مرّاتٍ كثيرة وخرج من المكتب مغتاظاً. رأى في الفناء الذي يغتسل فيه العمّالُ برميل القمامة طافحاً بمنشوراته، فقلبه برفسة من قدمه ومضى مدمدماً باللعنات. ذهب كي يُمَرِّر اللحظة السيِّئة إلى السينما ليشاهد فيلمي رعب، ثمَّ تناول همبرغر على الواقف في أحد البارات وعند منتصف الليل عاد سيراً على قدميه إلى غرفته. تحوّل الحنق خلال ذلك إلى شعور ضاغطٍ بالعجز. وحين وصل وجد رسالة في الباب: سايروس في المشفى.

احتُضِرَ عاملُ المصعد العجوز يومين دونما أيِّ رفيق غير غريغوري ريفز. لم تكنْ له عائلة ولم يبغِ إخبار أحدٍ من أصدقائه، لأنَّه كان يعتبر الموتَ مسألةً خاصّة. كان يكرهُ العاطفيّة ويحذِّرُ غريغوري أنَّ من الأفضل لو يذهب مع أوَّلِ دمعة، فهو ليس على استعدادٍ لأن يقضي آخر لحظاته على هذه الأرض يواسي بكّاءً. ناداه، وضّح له، لأنّ عنده أشياء لم

يعلّمها له بعد. ولا يريد أن يغادر نادماً على مهمّة لم ينجزها. لم ينطفئ قلبه في تلك الأيّام بسرعة، كان يقضي ساعاتٍ كثيرة مركّزاً في السيرورة المتعبة لمغادرة الحياة وينفصل عن جسده؛ متمتّعاً أحياناً بقوّة على الكلام ويملك من الفطنة ما مكّنه من تحذير تلميذه من جديد من مخاطر الفرديّة وإملاء لائحة من المؤلفين الضروريين عليه مع تعليماتٍ لقراءتها بحسب النظام المشار إليه. ثمّ سلمه مفتاح بيتٍ من بيوت محطّة القطار متوقفاً كثيراً ليتماسك ويوصيه وصيّتين أخيرتين.

ـ ستجدُ هناك ثمانمئة وعشرة دولارات ورقيّة. لا أحد يعرف بأنّني أملكها والمشفى لن يستطيع أن يطالبني بها لدفع نفقاتي وستتحمل جمعيّة الإحسان العام أو المكتبة نفقات جنازتي، فهم لن يلقوا بي في القمامة، أنا واثق من ذلك. هذا المبلغ لك، كي تذهبَ إلى الجامعة. فمن الممكن أن يبدأ المرء من تحت لكن من الأفضل كثيراً أن يبدأ من الأعلى وسيكلّفك الخروج من هذا الجحر دون شهادة كثيراً. كلّما ارتقيت كلّما استطعت أن تعمل أكثر في تغيير أمور هذه الرأسماليّة الملعونة. هل تفهمني؟

ـ سايروس...

ـ لا تقاطعني، فقوّتي تفلت مني، لماذا ملأتُ رأسك بالقراءة خلال كلّ هذه السنوات؟ كي تستخدمها! عندما يكسبُ المرء أوده فيما لا يعجبه يشعر بنفسه عبداً وحين يقوم به فيما يحبُّ يشعر بنفسه أميراً. خذ المال واذهب بعيداً عن هذه المدينة، هل سمعتني؟ حصلت على علامات جيّدة في المدرسة، وسيقبلونك دون مشاكل في أيّة جامعة. أقسم لي بأنّك ستفعل هذا.

ـ لكن...

ـ أقسم لي!

ـ أقسم لك بأنّني سأحاول...

ـ لا يكفيني. أقسم بأنّك ستفعل هذا.

ـ حسناً سأفعله ـ واضطر غريغوري للخروج إلى الممر كيلا يراه صديقُه يبكي. عاوده الخوف القديم مثل ضربة. اعتقد بعد أن رأى مارتينث نتفاً على خطِّ القطار أنّه تجاوز هوس الموت، وبالفعل مضت سنون لم يفكّر به ، لكنّه حين أحسَّ برائحة اللوز المرِّ الخفيفة في غرفة سايروس عاد إليه الرعب بالشدّة نفسها التي كانت له في طفولته. تساءل لماذا كانت تسبّبُ له هذه الرائحة الغثيان، لكنّه لم يستطع التذكّر. في تلك

الليلة مات سايروس كما عاش بتكتّمٍ وكرامة، يرافقه الرجل الذي اعتبره ابناً. قبل النهاية بقليل أخرجوا المحتَضَر من الصالة العامّة ونقلوه إلى غرفةٍ خاصّة. حضر الأب لارّاغيبِلْ، الذي أعلمته كارمن مورالِس بالأمر ليقدّم عزاء إيمانه، لكنَّ المريض كان قد صار في اللاوعي واعتبر غريغوري أنَّ من قلّة الاحترام إزعاج سايروس، الشكّاك المطلق، باستنشاق الماء المبارك والصلوات اللاتينيَّة.

- هذا لن يضرّه، ومن يدري ما إذا كان سيفيده - تعلَّل الخوري.

- أنا آسف، يا أبانا، اعذرني فسايروس لا يحبُّ هذا.

- ليس من شأنك أن تقرّرَ، أيها الفتى - ردَّ الآخر حاسماً ودونما إطالة. أبعده بدفعة وأخرج بطرشيلَ سلطته وزيتَ مسحة المريض المقدّسَ وشرع بتنفيذ مهمّته مستغلاً أنَّ المريض في وضع لا يسمح له بالدفاع عن نفسه.

كانت ميتة هادئة، مرّت دقائق قبل أن ينتبه غريغوري لما حدثَ. بقي برهةً طويلة جالساً بجانب جسد صديقه يكلّمه للمرّة الأخيرة، شاكراً له ما يجب أن يشكره عليه، وطالباً منه ألاّ يهجره وليسهر عليه من سماء الكفرة: انظر ما أغباني، يا سايروس، أطلب هذا منك أنت بالذات، الذي إذا كنت لا تؤمن بالله فلن تؤمن أكثر بملائكة الحراسة. في صباح اليوم التالي أخرج الكنزَ المتواضعَ من البُيَيْتِ وأضاف إليه بعض وفوراته الخاصّة لتمويل جنازة وقورة ترافقها موسيقى الأرغُن ووفرة من أزهار الغاردينيا، دعا إليها جهازَ المكتبة وعدداً من الأشخاص يجهلون وجود سايروس. حضروا فقط لأنّه طلبَ منهم ذلك، كأمّه وجودي وقبيلة آل مورالِس بمن فيهم الجدّة الخرفة التي كانت تقارب المئة عام من عمرها وما زالت قادرة على أن تفرح بتشييعِ غيرها، سعيدة لأنّها ليست من يمضي في التابوت. كانت الشمسُ يوم الجنازة ساطعة والطقس دافئاً وغريغوري يتعرّق في بدلته القاتمة المستأجَرة، يسير وراء النعش في الطريق إلى المقبرة يودِّعُ مُعلِّمَ المرحلة الأولى من حياته من هذه المدينة ومن الأصدقاء. بعد أسبوع استقلَّ القطار إلى بيركلي. يحملُ في جيبه تسعين دولاراً وذكريات طيِّبة قليلة جدّاً.

قفزتُ من القطار بسبق من يفتحُ دفتراً أبيض، بدأت حياتي من جديد. كنتُ قد سمعت الكثير عن تلك المدينة خالعة العذار، المدمِّرة المغرورة،

التي يعيشُ المجانين فيها بجانب الحاصلين على جائزة نوبل، بدا لي أنّني أشعر بالهواء مشحوناً بالطاقة وبخفق ريحٍ مُعديةٍ تنفضُ عني عشرين عاماً من الرتابة والتعب والاختناق. فشلتُ، كان سايروس على حقٍّ، كانت روحي تتعفَّنُ. رأيتُ خطاً من الأنوار الصفراء في الضباب القمري، رصيفاً متآكلاً قليلاً، أشباح مسافرين صامتين محمَّلين بالحقائب والرزم، سمعت نباحَ كلب. كان هناك رطوبة باردة غير ملموسة ورائحة غريبة، خليط من حديد القاطرة وبخار قهوة. كانت محطّة كئيبة مثل الكثير غيرها، لكنَّ هذا لم يهزم حماسي، قذفت بكيس الخيش على ظهري وانطلقت قافزاً مثل *مخّاطٍ* أصرخُ ملءَ رئتيّ بأنَّ تلك الليلة هي الأولى من بقيّة الأيام العجيبة في حياتي الرائعة. لم يلتفت أحدٌ لينظرَ إليَّ، وكأنَّ ذلك الهيجان من الجنون المباغت كان من أكثر الأمور طبيعيّة، وكان كذلك فعلاً، كما تأكّدتُ في صباح اليوم التالي ما إن خرجتُ من فندق الشباب الصغير ووضعتُ قدميَّ في الشارع لأشرع بمغامرة تسجيلي في الجامعة وحصولي على عمل وعثوري على مكان أعيشُ فيه. كانت كوكبا آخر.أسكرني، أنا الذي ترعرعتُ فيما يشبه *الغيتو*، جوُّ بيركلي العالمي والفوضوي. كُتبَ على جدار بفرشاة طلاء أخضر: *كلُّ شيء مسموح إلاّ عدم التسامح*. كانت السنوات التي قضيتُها هناك مكثَّفة وزاهية، ما أزال في كلِّ مرَّة أزور فيها هذه المدينة، الشيء الذي أقوم به كثيراً، أحسُّ بأنني أنتمي إليها. حين وصلتُ إليها في بداية العقد السادس لم تكن ولا حتى ظلاً من السيرك الذي صارت إليه في المرحلة التي وصلتُ فيها إلى الطرف الآخر من الخليج، لكنّها كانت قد صارت غريبةَ الأطوار، مهداً للحركات الجذريّة وأشكال التمرد الجريئة. قُدِّرَ لي أن أعيش مرحلة انتقال دودة الشرنقة إلى الحشرة كبيرة الأجنحة، متعدِّدة الألوان التي هيَّجت جيلاً. كان يصلُ إليها من أربع جهات الأرض شبابٌ بحثاً عن أفكارٍ جديدة ليس لها اسمٌ بعد. لكنَّها تُحَسُّ في الجوِّ كدويِّ طبلٍ في مِخْفات. كانت مكّة حجّاجٍ بلا إله، الطرف الآخر للقارَّة، يهربونُ إليها من الخيبات القديمة أو بحثاً عن طوباويَّة ما، جوهر كاليفورنيا ذاتها، روح تلك البلاد الفسيحة الوضّاءة التي لا ذاكرة لها. برج بابل بيضٍ وآسيويين وزنوج وبعض اللاتينيين. أطفال، شيوخ وشباب، شباب على الأخصّ: *لا تثق بمن تجاوز الثلاثين*. كان الفقر أو على الأقل التظاهر به موضةً وبقي كذلك في العقود اللاحقة حين استسلم البلدُ لخمرة الجشع والنجاح. بدا لي سكّانُها رثّي الثياب، فكثيراً ما يبدو مظهرُ متسوِّلِ الزاوية أقلَّ إثارة للشفقة من

المارّ الكريم الذي يعطيه الصدقة. كنتُ أرقب هذا بفضول الريفيّ. ففي حينَ في لوس أنجلوس لم يكن يوجدُ هيبّي واحد، ولو وجد لمزّقه المكسيكيون الكثيرون. ومع أنّني رأيت بعضهم على الشاطئ أو في التلفزيون، فلم يكن هناك ما يقارن بهذا المشهد. فقد استولى ورثة *البيتنيكز*[1] بشعرهم الطويل ولحاهم ولحى السالفين والأزهار والأطواق والعباءات الهنديّة، بنطلونات الجينز بألوانها غير المتقنة وصنادل الرهبان، على الشارع. كانت رائحةُ الماريغوانا تختلط برائحة حركة السير والبخور والقهوة وموجات من توابل المطابخ الشرقيّة. كان الشعر القصيرُ والملابس العاديّة ما تزالُ دارجةً في الجامعة، لكنّني أعتقد بأن التبدلات تلك قد بدأت تُلْمَحُ والتي ستقضي بعض عامين من الزمان على تلك الرتابة الحكيمة. كان الطلابُ يخلعون أحذيتهم وقمصانهم في الحدائق ليتشمّسوا كمقدّمة للمرحلة القريبة التي سيتعرّى فيها الرجالُ والنساءُ تماماً، محتفلين بثورة الحبّ الجماعي. شبابٌ للأبد، هكذا كان يقول إعلان أحد الجدران، وناقوس الكامبَنيل الذي لا يرحم يذكّرُنا في كلّ ساعة بمرور الوقت.

قُدِّرَ لي أن أرى عن قربٍ عدّة أوجه للعنصريّة، وأنا واحد من البيض القليلين الذين عاشوها بلحمهم. حين شَكَتْ ابنةُ آل مورالِس الكبرى من وجنتيها البلديّتين ولونها القرفيّ أمسكها أبوها من ذراعها وجرّها إلى أمام مرآة وأمرها أن تنظر جيّداً وتشكرَ عذراء غوادلوبٍ المقدّسة لأنّها ليست *خنزيرة سوداء*. فكّرتُ في تلك اللحظة أنّ شهادة *الخطّة اللانهائية* المعلّقة على الجدار تأكيداً على تفوُّقِ روحه لم تفده كثيراً، ففي أعماقه يعاني من الأحكام المسبقة للاتينيين الآخرين الذين يكرهون الزنوج والآسيويين. لم يكن يدخلُ الهيسبانيون الجامعة في ذلك الزمن، جميعهم كانوا بيضاً باستثناء قلّة قليلة من المتحدّرين من المهاجرين الصينيّين. كما لم يكن يوجد زنوجٌ في قاعات الدرس، نادراً ما تجد عدداً محدوداً منهم في الفرق الرياضيّة. لا يرى منهم إلا العدد القليل في المكاتب والحوانيت والمطاعم، بينما يملؤون السجون والمشافي. صحيح أنّه كان يوجد تفرقة عنصريّة، لكنّ الزنوج لم يعانوا من ظروف الأجانب المذلّة

---

(1) بيتنكز: مفردها بيتنك وهم أتباع حركة شبابيّة تمرّدت على المجتمع في العقدين السادس والسابع من هذا القرن كالهيبيين.

التي يعاني منها أصدقائي اللاتينيون، فهم على الأقلّ يسيرون فوق أرضهم وكثيرون منهم يفعلون ذلك بخطوات واسعة وصاخبة.

طفتُ على المكاتب، محاولاً أن أستقرّ في متاهة الجامعة، مقدِّراً كم من المال أحتاجُ للاستمرار في الحياة وكيف أحصلُ على عمل. كانوا يرسلونني من شبَّاكٍ إلى آخر في إجراءات دائريّة تصطدم بالدور. سحقني الروتين، لا أحد عنده فكرة عن شيء وكنّا نُعتبر نحن الوافدين الجدد إزعاجاً حتميّاً يحاولون تفاديه. لم أدرِ ما إذا كانوا يعاملوننا جميعاً كقمامةٍ كي نيأس أم أنّني وحدي التائه. وصل بي الأمر أن فكّرتُ أنّهم يزبلونني بسبب نبرتي التشيكانية. من حين لآخر يهمسُ في أذني طالب طيّبُ الإرادة تخطّى العوائق، ببعض المعلومات ليقودني في الاتجاه الصحيح، ولولا هذه المساعدة لقضيتُ شهراً أدورُ مثل ساذج. لم أجد شاغراً في المهاجع ولم يكن عندي رغبة بالأخُوّات فهي أوكارٌ للمحافظين والطبقيين حيث لا مكان لأمثالي. قال لي فتى تصادفت معه عدّة مرّاتٍ خلال المراجعات المزعجة في تلك الأيّام إنّه استأجر غرفة وهو على استعدادٍ لتقاسمها معي. كان يُدعى تيموثي دوان وكان يعتبر حسبما علمتُ فيما بعد أطيب رجال الجامعة. عندما تعرّفت عليه كارمن، بعد سنوات كثيرة، قالت إنّه مثل تمثال يونانيّ. لم يكن فيه من الإغريق شيء، فقد كان إيرلنديّاً فاهي العينين، أسودَ الشعر مثل الكثيرين. حكى لي بأن جدّه هرب من دبلن في بداية القرن تلاحقه العدالةُ الإنكليزيّة، وصل إلى نيويورك يداً خلفه ويداً أمامه وبعد سنوات قليلة من العمل في تجارات سوداء غامضة. جمعَ ثروةً وتحوّل في شيخوخته إلى محسنٍ للفنون ولم يعد أحدٌ يتذكّرُ بداياته التي يعتورها الغموض وحين مات ترك لذرّيّته جبلاً من المال واسماً محترماً. تربّى تيموثي في مدارس كاثوليكيّة داخليّة للأطفال الأغنياء، تعلّم فيها بعض الرياضات، زرعوا فيه إحساساً خانقاً بالخطيئة كان واثقاً من أنّه جاء معه من المهد. في أعماق نفسه كان يرغب بأن يُصبح ممثّلاً لكنّ والده كان يعتبر أنّه لا يوجد إلاّ مهنتان محترمتان، الطب أو المحاماة، وكلّ ما عداهما مكائد أوغاد، فكيف ما تعلّق منها بالمسرح، الذي كان برأيه عمل لواطيين وشاذّين. كان يذهب بنصف الضرائب إلى معهد الفنون الذي ابتدعه الجد دوان، لكنّ هذا لم يأتِ عليه برضى الفنّانين. فقد حافظ على نفسه أمّاراً متسلطاً وبصحّةٍ جيّدة قرابةَ القرن، حارماً البشريّةَ من صورة ابنه التامّة على الشاشة أو خشبةِ المسرح. صار تيم طبيباً يكره مهنته واشتغل بعلم الأمراض لأنّه بهذا الشكل لن يحتاج على الأقل لسماع شكاوى الموتى أو مواساتهم. وعندما

تخلّى عن أحلامه التمثيليّة واستبدل الخشبة بصالات المحنّطات الصَّقِعة صار انعزاليّاً تعذّبُه شياطينٍ عنيدة. نساء كثيرات لاحقنه، لكنَّ غراميّاته كلّها فشلت في الطريق مخلّفة له غمّ كوابيس وعدم ثقة، إلى أن ظهر في آخر حياته شخص أنقذه من نفسه بعد أن فقد الضحكةَ والأمل وجزءاً كبيراً من موقفه. لكنّني أسبِّق، فهذا ما حدث بعد ذلك بكثير. كان في الفترة التي تعرّفت فيها عليه يخدعُ أباه بوعده بدراسة الحقوق أو الطب، بينما كان منهمكاً في المسرح، شغفه الوحيد. وصل في ذلك الأسبوع إلى المدينة وهو ما يزال في مرحلة السبر، لكنّه على العكس منّي يملك تجربة في عالم تربية البيض، ودعم أبٍ ثريٍّ يفتحُ له الأبواب. كان يبدو بوقاره مالك الجامعة. هنا يدرسُ المرء قليلاً لكنّه يتعلّم كثيراً، نصحني: افتح عينيك وأغلق فمَكَ. كنت ما أزال كمسحور. كانت غرفته بالنتيجة ملحقاً في بيت قديم، غرفة واحدة سقفها على شكل جملون فيه فتحتان للنور من حيث يُلمح برج كامبَنيل. برهن لي تيم بأن من الممكن رؤية أشياء أخرى، فبالصعود فوق كرسيّ كنا نلمح حمّام مهجع حيث تمرّ صفوف الفتيات كلَّ صباح في ثيابهنّ الداخليّة في طريقهن للتدوّش. وحين اكتشفن بعد فترة قصيرة أننا نراقبهنّ راح عدد منهنَّ يتمشى عارياً. كان أثاث الغرفة قليلاً جدّاً، سريران، طاولة كبيرة ورفوف للكتب، مددنا قطعة من ماسورة بين عمودين لتعليق الثياب وما عداه راح ليستقرّ في بعض الصناديق الكرتونيّة على الأرض. كان يشغل بقيّة البيت امرأتان ساحرتان، جون وسوزانٍ صارتا فيما بعد صديقتينٍ رائعتين لي. كان عندهما مطبخ واسع يحضّران فيه وصفات كتابٍ تُفكّران بكتابته. كانت رائحة طبخهما تسيل لعابي وتعلمت بفضلهما الطّبخ. بعدها بزمن قصير ستصبحان مشهورتين، ليس بالضبط بسبب مهارتهن في الطبخ أو الكتابِ الذي لم ينشر قط بل لأنّهما درّجتا عادة حرق حمّالات الصدر في الاحتجاجات العامّة. هذه العمليّة التي جاءت نتيجة استوحيتاها في هيجان حدث عندما منعوهما من الدخول إلى بارٍ للرجال فقط، التقطته مصادفةً آلةُ تصويرِ سائحٍ ياباني وظهر في أخبار التلفزيون، قلّدته نساء أُخريات وسرعان ما تحوّل إلى كلمةِ سرٍّ نصيراتِ الحركة النسائيّة في العالم. كان البيت بالنتيجة مثاليّاً فهو على بعد خطوة من الجامعة وكان مريحاً جدّاً. ثمَّ إنَّ جوّه كان يعجبني، فهو يبدو قصراً. سيضمُّ بعد سنوات بعض جماعات الهيبّيين المشهورة في المدينة، بضع وعشرون شخصاً في اختلاط لطيف تحت سقفٍ واحد، وستتحوّل الحديقة إلى مزرعة ماريغوانا مختلطة بالأعشاب البرّية، لكنّني كنتُ آنذاك قد انتقلتُ إلى مكانٍ آخر.

حملني تيم على التخلّص من قمصاني، قال إنّني أبدو مثل طائر استوائيّ في هذه الموضة من جنوب كاليفورنيا، لا أحد في بيركلي يلبس هكذا، لا يمكن الخروج للاحتجاج في هذه الهيئة. قال لي إنّنا إن لم نحتجّ فلن نكون أحداً ولن نحصل على نساء. كنت قد انتبهتُ إلى اللافتات والأفيشات تعلن عن قضايا مختلفة: فقر مدقع، دكتاتوريّات وثورات في نقاط على الكوكب محال تحديدها على الخارطة، حقوق الأقلّيّات، النساءِ، الغاباتِ والأنواع التي في خطر، السلام والتآخي. لا يمكن التقدم فرسخاً واحداً دون التوقيع على بيانٍ أو تناول قهوة دون التبرّع بخمسة وعشرين سنتيماً لحصّالة لها هدف غيريّ بقدر ما هو بعيد. كان الزمن المخصّصُ للدراسة قليلاً جدّاً بالمقارنة مع الزمن المخصّص للاعتراض على مصائب الآخرين. فضح الحكومة، العسكريين والسياسيين، السياسة الخارجيّة، التعسف العنصريّ، جرائم البيئة والمظالم الفظّة. هذا الانشغال المفرط بمسائل العالم، حتى أكثرها هذياناً، كانت استلهاماً. فسايروس زرع في عقلي لسنواتٍ أسئلة، بدت لي حتى ذلك الوقت مواد كتبٍ وتمارين فكريّة دون تطبيق عمليّ في الحياة اليوميّة، الأمر الذي لم يكن بمقدوري مناقشته إلاّ معه لأنّه يبدو أنّ بقيّة البشر كانوا مصمتين أمام مثل تلك الموضوعات. والآن أقاسم أصدقائي هذه الهموم، ونشعر بأنّنا جزء من شبكة معقّدة، كل عملٍ يساهم بنتائج مفاجئة في مصير البشريّة المستقبلي. فبحسب رفاقي في المقاهي هناك ثورة زاحفة لا أحد يستطيع إيقافها، ونظريّاتنا وعاداتنا ستُقَلَّد عالمياً في القريب العاجل، على عاتقنا تقع مسؤوليّة الوقوف إلى جانب الصالحين والصالحون بالطبع هم المتطرّفون. يجب ألاّ يبقى شيءٌ على قدميه، من الضروري تسوية الأرض أمام المجتمع الجديد. سمعتُ كلمة *سياسة* للمرّة الأولى همساً في مصعدِ المكتبة وكنت أعرف أنّ تسمية *ليبرالي* أو *راديكالي* شتيمة لا تكاد تقلُّ عدوانيّة عن شيوعي. كنتُ في المدينة الوحيدة في الولايات المتحدة التي كان فيها الأمر معكوساً، الشيء الوحيد الذي يعتبر أسوأ من المحافظ هو *الحياديّ أو اللامبالي*. بعد أسبوع أقمت في العلّيّة مع صديقي دوان، حضرتُ الدروسَ بانتظام وحصلت على عملين كي أحافظ على استقراري. لم تثقل الدراسة عليّ، فهذه الجامعةُ لم تكن قد تحوّلت إلى مصفاة للأدمغة التي آلت إليها فيما بعد، بدت لي مثل المدرسة الثانويّة، لكنّها أكثر فوضى. كان هناك إلزام بحضور الدروس العسكريّة لسنتين. كنت أتسلّى كثيراً في التمارين ومعسكرات الصيف وأحب اللباس الموحّدَ كثيراً حتى أنّني نفّذتُها بأربعة وحصلت على رتبة ضابط. عندما سجّلتُ حملوني على القَسَم بأنّني

لم أكن شيوعيّاً. وبينما كنت أضع توقيعي في أسفل الوثيقة أحسستُ بنظرة سايروس الساخرة حيّةً في نُقرتي حتى أنّني التفتُّ لأسلّم عليه.

كان رئيسُ العمّال في المعمل يحلم كلَّ ليلة بجودي ريفز وفي اليقظة يلاحقه دون هوادة طيف هذه المرأة. لم يكن من أولئك المهووسين بالنساء البدينات، بل لم ينتبه إلى أنّها كانت كذلك. فهي في نظره تامّة لاينقصها ولا يزيدُ عنها شيء، ولو أنَّ أحداً قال له إنّها ضعف وزنها الطبيعيّ لفوجئ فعلاً. لم يكن يمعن في حجم عيوبها وإنّما في نوعيّة فضائلها، كان يحبُّ ثدييها الدائريين ومؤخّرتها المبهرجة ويتمنى لو تكون أكبر كي يستطيع أن يحتضنها بذراعيه. كانت تذهله بشرتها الطفولية. يداها اللتان خرّبتهما الخياطةُ وأعمال البيت، لكن بطريقة نبيلة، ابتسامتها المشعّة التي لمحها في مناسبتين وشعرها الناعم والأشقر كخيوط الفضة . كان يبحث عن فرصٍ للاقتراب منها على الرغم من العجرفة التي تتجاهله بها مرّةً بعد أخرى. كان يقفُ كلَّ مساءٍ وقد اغتسل توّاً ورشّ نفسه بالكولونيا كي يذهب برائحة حموضة المعمل على موقف الباص ينتظر أن تعودَ حبيبته من العمل، يمدُّ لها يدَه ليساعدها على الهبوط من السيّارة فلا ينزعج حين كانت تُفضِّلُ أن تهبط متعثّرة قبلَ أن تستند عليه. يسير بجانبها يكلّمُها بنبرة عاديّة كما لو كانا صديقين حميمين، دون أن يخيب صمتُ جودي الداهي أمله، يحكي لها تفاصيل من يوم عمله، أخباراً عن أشخاص تجهلهم ونتائج كرة اليد، يرافقها حتى باب بيتها، يدعوها للعشاء ـ واثقاً من رفضها الصامت ـ ويودّعها واعداً برؤيتها في اليوم التالي في المكان ذاته. استمرَّ هذا الحصار الصبور شهرين متواصلين دون أيِّ تبدُّلٍ.

ـ من هذا الرجل الذي يأتي كلَّ يوم؟ ـ سألت نورا ريفز أخيراً.

ـ لا أحد، يا أُمّاه.

ـ ما اسمه؟

ـ لم أسأله ولا يهمُّني.

في اليوم التالي انتظرت نورا سارقةً النظرَ من النافذة وقبلَ أن تتمكّن جودي من إغلاق الباب في وجهِ ذي الشعر الأحمر العملاق خرجت للقائه ودعته لتناول كأسٍ من البيرة على الرغم من نظرة ابنتها القاتلة. بقي في الصالة الصغيرة جالساً بصمتٍ في الكرسيّ الهشّ بالنسبة لجسمه الضخم

يفرقع أصابعه بينما نورا تراقبه دون مواربة من كرسّي الخيزران. اختفت جودي في غرفة النوم وسُمِعت تأفّفاتُها الحانقة عبر الجدران الرقيقة.

ـ اسمح لي أن أشكرك على نواياك الرقيقة تجاه ابنتي. ـ قالت نورا ريفز.

ـ هها ـ أجاب الرجلُ غير قادرٍ على استنباط جواب أكثر شغلاً، لأنّه لم يكن معتاداً على هذه اللغة المصطنعة.

ـ تبدو شخصاً طيِّباً.

ـ هها...

ـ هل أنت كذلك؟

ـ ماذا؟

ـ تراك شخص طيِّب.

ـ لا أعرف أيَّتُها السيِّدة.

ـ ما اسمك؟

ـ جيم مورغان.

ـ أنا أدعى نورا وزوجي تشارلز ريفز، معلِّم موظَّف، دكتور في العلوم اللاهوتيّة، لا بدَّ أنَّك سمعتهم يتكلّمون عنه، إنّه مشهورٌ جدّاً...

لم تحتمل جودي التي كان تسمع الحديث من الغرفة الأخرى أكثر. دخلت إلى الصالة مثل إعصارٍ استوائيّ مواجهة مُعْجَبَها الخجول وقد وضعت يديها على خاصرتها.

ـ أيّة شياطين تريد منّي! لماذا لا تتركني بسلام!

ـ لا أستطيع... أظنُّ أنّني عاشق، بالفعل إنّني آسف... ـ تلعثم المغرم البائس بوجهه الذي اشتعل كشعره.

ـ حسناً، إذا كانت الطريقة الوحيدة للتخلُّص من هذا الكابوس هي بالنوم معك، فهيّا وخلّصنا!

أطلقت نورا ريفز تنهيدة رعب ونهضت بقفزة جعلت الكرسيّ ينقلب، فابنتها لم تستخدم قط مفردات من هذا النوع بحضورها. مورغان نهض بدوره وودّع نورا بإيماءة، ووضع قبّعته وخرج.

ـ يبدو أنّني أخطأت معك. فما أريده هو الزواج ـ قال لها بجفاف من العتبة.

عندما هبطت جودي في اليوم التالي من الباص لم تجد أحداً مُستعدّاً لأن يمدّ يدَه لمساعدتها. تنهّدت بارتياح وراحت تسير باهتزازها البطيء الذي لفرقاطة تُراقبُ حركة الشارع، الناس في أعمالها، القطط تنكش في صناديق القمامة، الأطفال السمر يتراكضون في لعبة رعاة بقر وقطّاع طرق. شعرت بالطريق طويلاً وما إن وصلت إلى البيت حتى اختفت فرحتُها وحلّ محلّها غمٌّ كريه. لم تستطع النوم في تلك الليلة، كانت تتلوّى بين الملاحف، يائسةً مثل حوت جنح مع الجزر. نهضت مع الفجر، أكلت موزتين، فنجان شوكولا وثلاث بيضات بشحم الخنزير وثماني قطع خبز محمّصة ومدهونة بالزبدة والمربّى. وجدتها أمُّها في الرواق بشارب من شوكولا وصفار بيض وخيطين من الدموع يسيلان على خدّيها.

ـ جاءني أبوك من جديد ليلاً. أوصى قائلاً بأن تطمري أكباد بعض الفراريج بالقرب من الصفصافة.

ـ لا تُكَلّميني عنه، يا أُمّاه.

ـ من أجل النمل. يقول بأنّها ستذهب عن البيت.

لم تذهب جودي في ذلك اليوم إلى العمل، بل ذهبت لزيارة أولغا. نظرت العرّافةُ إليها من قدميها وحتى رأسها، مُقدِّرةً الاسطوانات، الساقين المنتفختين، التنفّس اللاهث، وثوبها الرهيب المخاط من قماش عاديّ بسرعة، الكآبة المريعة في العينين مطلقتي الزرقة فلم تحتج لكرتها الزجاجيّة لارتجال نصيحة.

ـ ما الذي تحبّين أن يكون لك أكثر، يا جودي؟

ـ أولاد ـ ردّت دون تردُّدٍ.

ـ إذن تحتاجين إلى رجل. وبما أنّك في هذه الحالة فمن الأفضل أن يكون زوجاً.

اتجهت الشابة إلى حانوت الحلويّات والتهمت ثلاث قطع من الحلوى المورّقة وكأسَي سيدرة تفّاح، ومن هناك إلى صالون التزيين الذي لم تضع قدمها فيه قط، فعملت لها مكسيكيّةٌ ربعة وظريفة في الساعات الثلاث اللاحقة تسريحة شعر مموّجة، وطلت لها أظافر يديها وقدميها بلون ورديٍّ متأجِّج، ونزعت لها شعر ساقيها بالشمع بينما راحت تلتهم كيلوغراماً من المُلَبّس بعزم وأناة. ثم أخذت الباص إلى المركز بهدف شراء ثوب من الحانوت الوحيد للبدينات الموجود آنذاك في ولاية كاليفورنيا. فازت بتنورة سماويّةٍ وقميص مزهَّر. تخفي قليلاً بدانتها

وتبرز نداوةً بشرتها وعينيها الطفوليّة. انتصبت في الخامسة مساء مزيّنة هكذا، مكتفة الذراعين، بسيماء مريعة تنتظر على باب المعمل الذي يعمل فيه عاشقها. دوّت الصافرة ورأت جيش العمّال اللاتينيين يخرج وبعد عشرين دقيقة ظهر رئيس العمّال دون حلاقة، متعرّقاً وبقميص مشحم. توقّف حين رآها فاغرَ الفم.

ـ ماذا قلت إنّك تُدعى؟ ـ سألته جودي بصوت ضخمٍ فيه قليل من اللطافة لتخفي خجلها.

ـ جيم، جيم مورغان...تبدين جميلة جدّاً.

ـ هل ما زلت تريد الزواج منّي؟

ـ طبعاً!

قام الأب لارّاغيبل بالحفل في كنيسة لوردس، على الرغم من أنّ جودي كانت بهائيّة مثل أمّها وجيم من كنيسة الرسل المقدّسين، لكنّ أصدقاءهما كانوا كاثوليكيين والزواج الوحيد المقبول في ذلك الحي هو الذي يقوم على التقاليد الفاتيكانيّة. سافر غريغوري فقط كي يقود أخته من ذراعها إلى المذبح. موّل بيدرو مورالِس الحفلة بينما أمضت إنماكولادا وبناتها وصديقاتها يومين في تحضير الصحون المكسيكيّة وصنع البسكويت للعرس. أخذ العريس على عاتقه المشروبات الروحيّة والموسيقى. أقاموا سهرة وسط الشارع مع أفضل مجموعة مارياتشيس وأكثر من مئة مدعوٍّ قضوا الليل يرقصون على إيقاعات الموسيقى اللاتينيّة. خاطت نورا ريفز لابنتها ثوب عرس مُتقن من القطن الشّفاف، كثير الكشاكش يبدو من بعيد مثل سفينةٍ قراصنة وعن قربٍ مهدَ وليٍّ للعرش. كان جيم مورغان يملك بعضَ الوفورات، استطاع أن يقيم مع زوجته في بيت صغير، لكنّه مريح، ويشتري لها غرفةَ نومٍ جديدة سريرها خاصّ المقاييس قادر على اتساعهما وتحمّل اصطداماتٌ وحيدي القرن التي تحابّا بها بإخلاصٍ في الأسبوع الأوّل. يوم الجمعة التالي لم يذهب الزوج للنوم في البيت. انتظرته زوجته حتى يوم الأحد، حين وصل ثملاً إلى حدٍّ أنّه لم يتذكّر أين كان ولا مع من. أخذت جودي قنينة حليب وكسرتها على رأسه. ولو أنّ الضربة أصابت رأسَ شخص أضعف منه فربّما قتلته، لكنها لم تكد تخدش جبين جيم مورغان، لم تُخجِله الحالة بل وضعته في حالة هيجان جنونيٍّ. جفّف الدم بكمِّهِ عن عينيه، وانقضّ على جودي فعملا على الرغم من كلّ رفساتها الولد الأوّل، طفلاً فاخراً وزن خمس كيلوغرامات حين ولادته. جودي ريفز، التي أضاءتها سعادة لم

تتصّور أبداً أنّها ممكنة وضعته على صدرها مقرِّرة أن تمنحه الحبَّ الذي لم تحصل عليه هي قط. لقد اكتشفت ميل الأمومة عندها.

شكَّلَ رحيلُ غريغوري إهانة شخصيَّةً لكارمن موراليِس. عرفت دائماً في أعماق قلبها أنَّه لا ينتمي إلى الحيّ وأنّه عاجلاً أو آجلاً سيمضي في دروب أخرى، لكنَّها كانت تعتقد أنّهما سيذهبان معاً حين تحين تلك اللحظة، ربّما ليعيشا مغامرات في سيركٍ جوّال، كما خطَّطا مرَّاتٍ كثيرةً. لم تكن تستطيع أن تتصوَّر حياتها دونه. منذ استطاعت أن تتذكّر رأته يوميّاً تقريباً، ما من كبيرة أو صغيرة جرت معها إلاّ وشاركت بها صديقها. باح لها بأسرار طفولته، بأنَّ سانتا كلارا غير موجودة، لا الأطفال ينمون في الملفوف ولا طائر اللقلق يأتي بهم من باريس، وكان أوّل من عرف بالخبر حين اكتشفت في الحادية عشرة من عمرها بقعة حمراء على سروالها الداخلي. كانت أقرب إليه من أمّها و أخوتها، معاً كبرا وحكى واحدهما للآخر تلك الأشياء المحرّمة بفعل الخجل الذي تربَّيا عليه. وكغريغوري كانت تعشق في كلِّ لحظةٍ بولهٍ متأجِّج ونفسٍ قصير، لكنَّها على العكس منه كانت مُقيَّدة بتقاليد أسرتها ومحيطها البطريركيّة. كانت طبيعتُها العاطفيّة تتحطّم على صخرة النظام الأخلاقي المزدوج الذي يحوِّل النساءَ إلى سجينات، ويمنح الرجالَ رخصةَ الصيد. عليها أن ترعى سمعتها فأيُّ ظل يمكن أن يأتي بفاجعة، فأبوها وأخوتها يراقبونها بغيرة، مستعدين لحماية شرف البيت، بينما يحاولون أن يفعلوا مع نساء أخريات ما لا يسمحان به أبداً لمن هنَّ من دمهم. كان لها روح جموحة، لكنَّها كانت ما تزال في ذلك الوقت واقعة في حبال ما يقولون، تخافُ بشكلٍ خاصٍّ أباها، ثم الخوري الوحيد لارّاغيبِل والله، على التوالي، وأخيراً ألسنةَ السوء، القادرة على تخريب مستقبلها. وكالكثيرات من بنات جيلها رُبّيَت على بديهيّة أنَّ الزواج والأمومةَ هما المصير الأكمل - *تزوَّجوا، أنجبوا أولاداً كثيرين وكانوا في غاية السعادة* - لكنَّه لم يكن حولهم مَثَلٌ واحد على السعادة البيتيّة، ولا حتى أبواها، اللذين استمرا معاً لأنّهما لا يستطيعان أن يتصوَّرا خياراً آخر، لكنّهما بعيدين عن محاكاة الأزواج الرومانسيين في السينما. لم ترهما يداعب واحدهما الآخر. وكان يشاع أنَّ لبيدرو موراليِس ابناً من امرأة أخرى. لا ليس هذا ما كانت تبغيه لنفسها. ما زالت تحلم كما في الطفولة بحياة مختلفة ومغامرة، لكنَّها لا تملك الجرأة على القطيعة مع محيطها والخروج منه. كانت تعرف أنَّ شائعاتٍ كثيرةً ستجري خلفها، من تظنُّ نفسها ابنة آل موراليِس الصغرى؟ ليس لديها عمل ثابت، تذهب وحيدة في الليل وتزين عينيها بإفراط، أليس

سواراً هذا الذي تحمله في معصمها؟ تخرجُ أكثرَ من اللازم مع غريغوري ريفز، فبعد كلّ شيء ليسا قريبين، على آل مورالِس أن ينتبهوا أكثر إلى ابنتهما، فقد أصبحت في عمر الزواج، لكن لن يكون من السهل عليها، الحصول على زوج وهي على ما هي عليه من الأخلاق الغرينغية الفالتة.

ومع ذلك لم ينقص كارمن مرشحون متحمّسون للزواج. الاقتراح الأوّل تلقّته حال إكمالها الخامسة عشرة وفي الثامنة عشرة كانت قد تلقّت خمسة متطلّعين متلهّفين للزواج وقد عشقت الجميع بعاطفة وهميّة وامتعضت بعد أسابيع قليلة والحركات الروتينية الحتميّة لم تكد تبدأ. في المرحلة التي غادر فيها ريفز كان عندها الخطيب الأمريكي الأوّل توم كلايتون، كل ما عداه كانوا لاتينيين من الجوار. كان الأمر يتعلّق بصحفيٍّ بهرها بمعرفته للعالم ونظريّاته الرائعة عن الحبِّ الحر والمساواة بين الجنسين، الموضوعين اللذين لم تجروٌ قط على طرحهما في بيتها، وناقشتهما بإسهابٍ مع غريغوري.

ـ مجرّد كلام، ما يريده هو النوم معك ليخرج بعدها هارعاً ـ حسم الأمر صديقُها.

ـ أنت الحلقة المفقودة، أكثر تخلُّفاً من أبي.

ـ هل كلّمكِ عن الزواج؟

ـ الزواج يقتل الحبَّ.

ـ وما الذي لا يقتله، بالله عليك، يا كارمن؟

ـ لا يهمُّني أن أدخل إلى الكنيسة مرتديةً البياضَ، يا غريغ. أنا مُختلفة.

ـ قولي لي وخلّصيني، هل نمت معه؟

ـ لا، حتى الآن لا ـ وبعد وقفة مليئة بالتنهدات ـ ماالذي يشعر به الإنسان؟ قل لي بماذا يشعر...

ـ بما يشبه التيّار الكهربائي، لا أكثر. الحقيقة أنَّ الجنس يمنح أكثر من قيمته، أوهام كثيرة ويبقى الواحد دائما شبه خائب.

ـ كذّاب. لو كان الأمر كذلك ما كنت لتمضي لاهثاً خلف كلِّ النساء.

ـ تماماً هنا يكمن الفخُّ، يا كارمن. فالواحدُ دائماً يظنُّ أنّه سيكون أفضلَ مع أخرى.

غادر غريغوري في أيلول وفي كانون الأوّل من العام التالي رحل توم كلايتون إلى واشنطن بهدف الانضمام إلى فريق صحافة الرئيس

الأكثر كرامة في القرن، الذي أذهلته سياسته ذات الأفكار المبهرجة. كان يرغب بتلمُّسِ السلطة والمشاركة في روائع التاريخ، كان يشعر بألاّ مستقبل للصحفيين الطامحين في الغرب البعيد جداً عن مركز الامبراطوريّة، كما قال لكارمن. تركها مبلّلة بدموعها، لأنّها كانت عاشقة للمرّة الأولى، بالمقارنة مع المشاعر التي كانت تهزّها وقتذاك كل العشق الذي مرَّت به بعد ذلك كان تافهاً.حكت له بالهاتف وبملاحظات قصيرة ملطخة بالأخطاء النحويّة المريعة، تفاصيلَ عذاباتها الرومانسية، معاتبة له ليس فقط أنّه تركها وحيدة في مثل تلك اللحظة، بل أيضاً كذبه عليها بالنسبة للتيّار الكهربائي، لأنّها لو كانت تعرف من قبل كيف كان الأمر في الواقع ما تأخّرت في إلحاقه بحياتها.

ـ مؤسف أن تكون على هذا البعد، يا غريغ. ليس عندي من أُروِّح معه عن نفسي.

ـ الناس هنا أكثر حداثة، الجميعُ ينامون مع الجميع ثم يحكونه.

ـ لو يعرف والداي لقتلاني.

عرف آل موراليس بالأمر بعد ثلاثة أشهر. حين جاءت الشرطة لاستنطاقهم. لم يجب توم كلايتون على رسائل كارمن ولم يعطِ أيّة علامة توحي بأنّه حيّ إلى أن صادته بالهاتف في ساعة غير مناسبة من الفجر، كي تعلن له أنّها حاملٌ. كان الرجلُ لطيفاً معها، لكنّه حاسم: لم تكن مشكلته، كان يحاول أن يكرّس نفسه للصحافة السياسيَّة وعليه أن يفكّر بمهنته، ولم يكن الوقت وقت عودة ثمَّ إنَّه لم يذكر الزواج قط، فهو من أنصار العلاقات التلقائيّة ويفترض أنّها تشاركه أفكاره، ألم يناقشها مرّاتٍ كثيرة بهذا الشكل؟ على كلِّ الأحوال لم يكن يحاول أن يضرَّها، وهو يتحمَّل مسؤوليَّته وسيضع في اليوم التالي شيكاً بالبريد لحلِّ هذا العائق المزعج بطريقة معتادة. غادرت كارمن مركز الهاتف مسرنمة إلى مقهى، حيث ارتمت على كرسيّ، مضعضعةً تماماً. هناك بقيت نظرتها مغروزة في فنجانها حتى أعلموها بساعة إغلاق المحلّ.قرَّرت بعد ذلك وهي مستلقية على سريرها وألم أصم في صدغيها بأنَّ الأهم في الأمر هو الحفاظ على السر وإلا دمَّرت حياتها دون أدنى شك. أوشكت في الأيّام التالية على أن تدير قرص الهاتف طالبة رقم غريغوري، لكنّها أيضاً لم ترغب بأن تركن إليه بمأساتها. تلك كانت ساعة الحقيقة بالنسبة إليها وأرادت أن تواجهها وحيدةً، فتحدّي العالم بفخفخات نسائيّة تافهة شيء وأن تصير أمّاً عازبة في ذلك الوسط شيء مختلف تماماً. حسبت حساب أنَّ أسرتها ستقاطعها

ولن تتوجّه إليها بالكلام، ستطردها من البيت، من عشيرتها بل ومن حيِّها، والداها وأخوتها سيموتون عاراً، وسيكون عليها أن تأخذ على عاتقها مخلوقاً دون مساعدة من أحد، تحافظ عليه وتربِّيه، تعملَ في أيِّ عملٍ من أجل العيش، ستكرهها النساء وسيعاملها الرجال كعاهرة. فكّرت بأن الصغير سيقضي عليها أيضاً بثقل الجرم الذي لا يحتمل. ليس لديها شجاعة لمثل هذه المعركة الطويلة أو لاتخاذ قرار. في هذا التردّد. عاركت زمناً لانهائيّاً، مخفية غثياناتها التي كانت تخنقها في الصباحات والأرق الذي يقلّبها في المساءات، متفادية أسرتها ومُعْلِمَة غريغوري بالحدّ الأدنى، إلى أن جاء يوم لم تستطع فيه أن تزرّرَ تنّورتها وشعرت بالحاجة إلى عمل سريع. هتفت مرّة أخرى لتوم كلايتون، لكنّهم أعلموها أنّه مسافرٌ ولا يعرفون متى يعود. وعندئذ ذهبت إلى كنيسة لوردِس، متوسِّلةً ألاّ يظهر الخوري الباسكي. ركعت أمام المذبح، كما فعلت في مرّات كثيرة في حياتها. وتوجَّهت للمرَّة الأولى إلى العذراء لتكلِّمها امرأةً لامرأة.كانت تمارس منذ سنوات شكوكاً صامتة حول الدين وتحوَّل قدَّاس الأحد عندها إلى مجرَّد طقس اجتماعي، لكنّها في تلك اللحظة من الخوف وجدت نفسها بحاجة لأن تلتقي بعزاء إيمانها. تمثال المادونّا مع ثيابها الحريرية وهالة اللؤلؤ لم يقدِّم لها المساعدة، كان وجهُ الجصّ ينظرُ بعينيه البلّوريّتين المدهونتين إلى الفراغ. وضّحت لها كارمن دوافعها لارتكاب الخطيئة التي تطرحها عليها، طلبت منها الرحمة والمباركة ومن هناك ذهبت مباشرة إلى بيت أولغا.

ـ لم يكن عليكِ أن تنتظري كلَّ هذا الوقت ـ قالت الساحرة بعد أن تحسَّستها بيديها الخبيرتين ـ . في الأسابيع الأولى لاتوجد مشاكل، لكن الآن...

ـ والآن أيضاً. عليك أن تفعليه.

ـ إنّها مجازفة كبيرة.

ـ لا همّ. أرجوك ساعديني... ـ وراحت تبكي يائسةً بين ذراعيّ العرّافة.

رأت أولغا كارمن تكبرُ، فآلُ مورالِس كانوا كأسرتها تماماً، عاشت في ذلك الحي ما يكفي لكي تعرف ما ينتظر الفتاة ما إن يبدأ يبرز بطنها. أعطتها موعداً في الليلة التالية، جهّزت أدواتها وأعشابها الطبيّة ونظّفت بوذا، لأنّ الإثنتين كانتا بحاجة في هذه المناسبة للكثير من الحظ. أعلنت كارمن في بيتها أنّها ذاهبة مع صديقة لها إلى الشاطئ لعدد من الأيّام

وانتقلت إلى بيت أولغا. لم يبق شيء من فرح وظرافة الشابة. فالخوف من الألم الفوري ألغى المخاوف الأخرى، لم يكن باستطاعتها أن تفكّر بالمخاطر ولا بالنتائج المحتملة، كلّ ما كانت ترغب به هو أن تنام بعمق وتستيقظ متحرّرة من ذلك الكابوس. لكن وعلى الرغم من مغلّيات أولغا ونصف قنينة الوسكي الذي جرعته غير ممزوج لم تفقد الوعي بالحاضر وما من حلم رحيم ساعدها في هذا الوقت الحرج. واضطرت إلى تحمُّلِه مربوطة من مرفقيها ورسغيها إلى طاولة المطبخ وخرقة محشورة في فمها كيلا يصل أنينها إلى الشارع، حتى ما عادت تستطيعُ أكثر وأشارت أنّها تفضّلُ أي شيء دون هذا العذاب المريع، لكنّ الطبيبة الشعبيّة أجابتها بأن الوقت صار متأخرا على الندم وعليها أن تصل إلى نهاية هذه المهمّة الوحشيّة. بقيت كارمن متكوِّرة مثل وليد وكيس ثلج على بطنها، تبكي بكاءً غزيراً إلى أن هزمها التعب، فعلت مفعولها المهدِّئات والكحول واستطاعت أن تنام. بعد ثلاثين ساعة وهي لم تستيقظ بعد وتبدو ضائعة في هذيانات عالم آخرَ وبينما خيط خفيف من الدم لكنّه متواصل يلطّخ الملاحفَ عرفت أولغا أن نجم حظِّها السعيد قد خانها لأوّلِ مرّةٍ. حاولت أن تُخفِّضَ لها حرارتها وتوقف النزيف بكل الوسائل المتوافِّرة في قائمتها البارعة، لكنّ حالة الفتاة كانت تسوء للحظات، كان واضحاً أن الحياة تفارقها. وجدت أولغا نفسها محاصرة، فقد تموت تحت سقفها وفي هذه الحال يكون هلاكها، ثم إنّها لا تستطيع أن تضعها في الشارع أو تخبر أسرتها. وبينما كانت تسند لها رأسها لتجبرها على شرب الماء، شعرت أنّها تهمس باسم غريغوري، ففهمت في الحال أنّه الوحيد الذي تستطيع أن تطلب مساعدته. حين هتفت له كان نائماً: تعال حالاً، قالت له، فعرف غريغوري من نبرة صوتها استعجال الرسالة فلم يسأل، أخذ أوّلَ طائرة في الصباح وبعد ساعات قليلة كانت صديقته بين ذراعيه يحملها في سيّارة أجرة إلى أقرب مشفى مدمدماً باللعنات لأنّها لم تثق به في تلك الأسابيع الرهيبة، لماذا استبعدتني، كان يجب أن أرافقك، قلتُ لكِ، ياكارمن، إن توم كلايتون ابن عاهرة لا شفقة عنده، لكن ليسوا جميعا متساوين ليس جميعهم ينامون ويذهبون، كما يقولُ أبوك، أقسم لك إنّه يوجد من هو أفضلُ من كلايتون، لماذا لم تتركيني أساعدك من قبل، فلربّما كان الجنين قد عاش، كان عليك ألاّ تفعلي ذلك وحدك، فلماذا نحن أصدقاء إذا لم يكن كي يساعد واحدنا الآخر، أيّة حياة خراء هذه، يا كارمن، لا تموتي، يا كارمن، رجاءً، لا تموتي.

بينما الجرّاحون يعملون كانت الشرطة التي أخبرها المشفى بالحالة

التي وصلت فيها المريضة تحاول أن تستحصل على معلومات من غريغوري ريفز.

ـ لنتعاهد ـ عرض الضابط، وقد حنق بعد ثلاث ساعات من التحقيق غير المجدي ـ . تقول لي من عمل لها العمليّة وأتركك تذهب في الحال، بل حتى إنّك لن تُفَيَّش. وما من سؤالٍ أكثر، أبداً، وتصبح حرّاً تماماً.

ـ قلتُ لك مئةَ مرّة لا أعرف من قام بهذا. حتى أنّني لا أعيش هنا، أخذت طائرة الصباح، انظر إلى تذكرة سفري، هتفت لي صديقتي وجئتُ بها إلى المشفى، هذا كلّ ما أعرفه.

ـ هل أنت أبُ الجنين؟

ـ لا. لم أر كارمن مورالِس منذُ أكثر من ثمانية أشهر.

ـ من أين أخذتها؟

ـ كانت تنتظرني في المطار.

ـ هذا مُحال، لا تستطيع أن تمشي! قل لي من أين أخذتها وأتركك تذهب. وإلا أخذناك سجيناً بتهمة المشاركة في الجريمة والتستر.

ـ هذا ما يجب عليك إثباته.

وتعود لتتكرّر دورةُ الأسئلة، الأجوبة، التهديدات والمراوغات ذاتها. أخيراً أفلتته الشرطة وذهبت إلى بيت آل مورالِس لاستنطاق الأسرة، وبذلك علم بيدرو وإنماكولادا بما جرى وعلى الرغم من شكّهما بأولغا إلا أنّهما لم يقولا شيئاً لأنّهما تكهّنا بنيّتها الطيّبة في مساعدة ابنتهما من جهة، ومن جهة أخرى لأنَّ الوشاية في الحي المكسيكي جريمة لا يمكن تصوّرها.

ـ لقد نالت عقاب الله، لذلك لا يتوجّب عليّ أن أعاقبها أنا ـ قال بيدرو مورالِس بصوتٍ أجش حين علم بالحالة الخطرة التي توجد فيها ابنته.

بقي غريغوري ريفز بجانب صديقته إلى أن تجاوزت الخطر. نام بجانبها،جلوساً على كرسيٍّ خلال ثلاث ليالٍ، مستيقظاً في كلِّ لحظة كي يراقب تنفّسَ المريضة. في اليوم الرابع فجراً أصبحت كارمن دون حرارة.

ـ أنا جائعة ـ أعلنت.

ـ الحمد لله! ـ ابتسم هو وأخرج من جيبه علبةَ حليب مكثّف. شربا الحلو الدبقَ برشفاتٍ بطيئة، وقد أمسك كلٌ منهما بيد الآخر، كما فعلا

مرّاتٍ كثيرةً في طفولتهما.

حملت أولغا في هذه الأثناء حقيبتها وذهبت إلى بورتو ريكو، إلى أبعد ما استطاعت، معلنةً في الحي أنّها ذاهبة إلى كازينوهات لاس فيغاس للعب، لأنّ روح هنديٍّ أحمر ظهرت لها وهمست في أذنها رهاناً من رهاناتٍ ورق اللعب. وضع بيدرو مورالِس شريطةً سوداءَ على ذراعه، وفي الشارع قال بأنّ قريباً له مات. في البيت أحاطهم علماً بأنّ ابنته لم توجَد قط ومنع ذكرَ اسمها. إنماكولادا نذرت للعذراء أن تصلي صلاة سبحة يوميّاً فيما تبقى لها من حياة كي تغفر لكارمن الخطيئةَ التي ارتكبتها، أخذت النقود التي كانت قد خبّأتها تحت أحد ألواح الأرضية الخشبيّة وذهبت لرؤيتها من وراء ظهر زوجها. رأتها جالسةً في كرسيٍّ تنظرُ من النافذة إلى جدارٍ آجرٍّ المبنى المقابل وقد ارتدت دثار قماش المشفى الأخضر والخشن. كانت من التعاسة بحيث لم تكشف عن عتابها ودموعها بل فقط ضمّتها بذراعيها. خبّأت كارمن وجهها في صدرِ أمِّها وتركت نفسها تنتحب برهة طويلة مستنشقةً تلك الرائحة من الثياب النظيفة والطبخ التي رافقتها على امتداد طفولتها.

ـ هذه وفوراتي لك، يا بُنَيّتي. من الأفضل أن تسافري لوقت قصير، إلى أن يرقّ قلبُ والدك اشتياقاً إليك. اكتبي لي، لكن ليس إلى البيت، وإنما إلى بيت نورا ريفز. فهي أكثر من عرفتُ حشمةً. انتبهي إلى نفسك كثيراً، وليكن الله في عونك...

ـ لقد نسي اللهُ أنّني موجودة، يا أُمّاه.

ـ لا تقولي هذا ولا حتى مِزاحاً ـ قاطعتها إنماكولادا ـ ليحدثْ ما يحدث فإنّ الله يحبُّكِ وأنا أيضاً، يا بُنَيّتي. سنكون أنا وهو بجانبك دائماً، هل فهمتِ

ـ نعم، يا أُمّاه.

رأى غريغوري ريفز سمانثا إرْنِست لأوّل مرّة في ملعب للتنس حيث كانت تلعب بينما هو يقلّمُ الشُجَيْرات المجاورة للحديقة. أحد أعماله كان الخدمة في مطعم في جناح للنساء مقابل لبيتها. كانت تعدُّ الطعامَ طبَّاختان وغريغوري يقود مجموعةً من خمسة طلاّبٍ لخدمة الطاولات وغسل الصحون، الوضع الذي يُحسد عليه لأنّه يمنحهُ حريّةَ الدخولِ إلى البناء ومنفذاً على الطالبات. كان يعمل في ساعات فراغه جنائنيّاً. ولم يكن

يعرف عن النباتات شيئاً، حين بدأ، غير قصّ العشب واقتلاع الأعشاب الضارّة، لكنّه كان يملك إلى جانبه معلماً جيّداً، رجلاً رومانياً اسمه بالسيسكو، له مظهرُ بربريٍّ وقلبٌ رقيق، يحلقُ رأسَهُ بالموسى ويُلمِّعُ صلعتَهُ بقطعة لبّاد، ويربطُ بخليطٍ مُدوِّخٍ من اللغات، يحبُّ النباتات كما يُحبُّ نفسَهُ. عمل في بلده حارساً حدوديّاً، لكن ما إن سنحت له الفرصة حتى هرب مستغلاً معرفته بالأرض وبعد كثير من التشرّد دخل إلى الولايات المتحدة من كندا سيراً على قدميهِ، بلا نقود ولا أوراقٍ وبكلمتين إنكليزيّتين فقط: المال والحريّة. ونظراً لقناعته بأنّ المسألة في أمريكا هي هذه، لم يجهد نفسه في توسيع قاموسه وتدبَّر أمره بالإيماء. معه تعلَّم غريغوري محاربة الحشرات، الذباب الأبيض، الحلزون، النمل وحشرات أخرى عدوّة للنبات، والتسميد، والتطعيمَ والغرس. وكان هذا الوقت في الهواء الطلق بالنسبة إليه تسلية محبّبة أكثر مما هو كدح، خاصّة وأنّه كان عليه أن يفكّ رموزَ تعليمات رئيسه بتدريبٍ متواصل على الحدس. في ذلك اليوم كان يُقلِّم شُجيرات السورَ حين تفرَّس في واحدةٍ من لاعبات التنس، بقي يراقبُ الفتاة برهةً طويلةً، لمظهرها، الذي ما كان ليلفت انتباهه في حالة الراحة كما لدقّتها الرياضيّة. كانت مشدودةَ العضلاتِ سريعة الساقين، طويلة الوجه، نبيلة التقاسيم، قصيرة الشعر، برونزيّة البشرة، تلك البرونزيّة الترابيّة قليلاً والخاصّة بمن يبقى تحت الشمس. شعر غريغوري بنفسه مشدوداً إلى رشاقتها التي لحيوان معافى، انتظر انتهاء اللعبة وتسمّر عند المخرج ينتظرها. لم يكن يعرف ما يقول لها وحين مرّت بجانبه لم تخطر بذهنه أيّة جملة شهيرة وبقي أخرس. تبعها على مسافة قريبة ورآها تدخل سيّارة رياضيّةً فاخرةً. في تلك الليلة حكى ذلك لتيموثي دوان بنبرة لامبالية مدروسة.

ـ لن تكون وغداً إلى حدّ أن تعشقها، يا غريغ.

ـ طبعا لا. تُعجبني، ليس أكثر.

ـ ألا تعيش في غرفة النوم.

ـ لم أرها قط هناك.

ـ حظٌّ سيّئ. كان بإمكان المفتاح أن يفيدك لمرّة واحدة...

ـ لا تبدو طالبة، عندها سيّارة مكشوفة حمراء.

ـ لا بدّ أنها زوجة أحد الأعيان...

ـ لا أظنُّ أنّها متزوّجة.

ـ إذن فهي عاهرة.

ـ أين رأيت عاهرات يلعبن بالتنس، يا تيم؟ يعملن في الليل وينمن في النهار. لا أعرف كيف أكلّم فتاة مثلها... إنّها مختلفة تماماً عن بنات وسطي.

ـ لا تُكلِّمها. العب التنس معها.

ـ لم أمسك في عمري مضرب تنس بيدي.

ـ لا يمكنني أن أصدّقَ ذلك! ماذا فعلت في حياتك إذن؟

ـ العمل.

ـ أيّة شياطين تعمل إذن، يا غريغ؟

ـ أرقص.

ـ إذن ادعها للرقص.

ـ لا أجرؤ.

ـ هل تريد أن أكلِّمها أنا؟

ـ إيّاك أن تقترب! ـ صاح غريغوري، غير مستعدٍّ للتنافس مع صديقه أمام أحد وعلى الأخصّ أمام تلك المرأة.

بقي في اليوم التالي برهة طويلة يتجسَّسُ عليها متظاهراً بالانشغال بالشجيرات وحين مرَّت به أومأ ليوقفها، لكن الخجل هزمه من جديد. تكرَّرَ المشهدُ إلى أن انتبه بالسيسكو إلى أن النباتات قد قلّمت حتى جذرها وقرَّر التدخلَ قبل أن تلقى بقيّة الحديقة المصيرَ نفسه. دخل الروماني في الملعب، قطع المباراة بوابلٍ من الكلمات باللغة الترانسيفانية وبما ان الفتاة المرعوبة لم تستجب لإيماءاته باتجاه المعجَب، الذي كان على الجانب الآخر من الحاجز الحديدي يراقب المشهد ذاهلاً، أخذها من ذراعها وجرَّها مغمغماً بشيء عن المال والحريّة ليزيد من إرباك اللاعبة. هكذا كان أن التقى غريغوري ريفز وجهاً لوجه مع سمانثا إرنست، التي تعلَّقت به كي تهرب من بالسيسكو، وانتهيا إلى تناول القهوة بموافقة الجنائني المعلّم الغريب. جلسوا إلى طاولةٍ من الطاولات المضعضعة في أكثر مقاهي المدينة ارتياداً، زاوية في تدهورٍ مستمر، مزدحمة بالناس حيث كتبت عدّة أجيال من الطلاّب آلاف القصائد وناقشوا جميعَ النظريّات الممكنة وبدأت أزواجٌ أخرى غيرهما عمليّة التعارف الحذرة. حاول غريغوري أن يبهرها بقائمة الموضوعات الأدبيّة، لكنّه سرعان ما تخلّى عن هذا التكتيك أمام شرودها واختار تلمّسَ الطريق بحثاً عن أرضيّةٍ

مشتركة. لكنَّ الفتاة لم تتحمّس أيضاً للحقوق المدنيّة أو الثورة الكوبيّة، وبدا أنَّه ليس لها رأي في شيء، لكنَّ غريغوري خلط بين موقفها السلبيّ وعمق الروح فلم يتخل عن صيده.

لم تقدّم سمانثا إرنست اهتماماً أكبر خارج ملعب التنس، لكنّها على كلّ الأحوال كانت أفضل من فتيات المرحلة الثانويّة أو الحيّ اللاتيني. كانت ترغب بأن تتفرّغ لعلم الآثار، تحبّ أن تسبرَ أماكن غريبة بحثاً عن حضاراتٍ ألفيّة، في الهواء الطلق وبالبنطلونات القصيرة، لكنّها ما إن عرفت متطلّبات هذه المهنة حتى تخلّت عن تطلّعاتها. لم يكن عندها عريكة للتصنيف الدقيق للعظام المتآكلة وقطع الدوارق التي لا فائدة منها. بدأ آنذاك زمنٌ من التردُّدِ يشمل جوانب مختلفة من حياتها. ترعرعت في بيتٍ جميلٍ بمسبحين لمنتج أفلام في هوليوود، تزوّجَ أبوها أربع مرّاتٍ وكان يعيش محاطاً بالحورِ الخارجات توّاً من محاراتهنّ، اللواتي يعدهنَّ بنجوميّة باهرة مقابلَ خدماتٍ شخصيّةٍ صغيرةٍ . أمُّها أرستقراطيّة من فرجينيا لها كبرياء ملكة وآداب معلّمة حضانة، تحمّلت بصبر عبثَ زوجها معزّيةً نفسها بمخزن هائل من المخدِّرات وبطاقات الاعتماد، إلى أن نظرت ذات يوم إلى نفسها في المرآة دون أن تميّزَ صورتَها، التي محاها استنزاف الوحدة لها. وجدوها طافيةً في رغوةٍ ورديّة في حوضِ الحمّام الرخامي حيث فتحت شرايينها. سمانثا، التي كانت في السادسة عشرة من عمرها، استطاعت أن تمرَّ دون أن ينتبه إليها أحد في صخب الأخوة غير الأشقاء والزوجات السابقات، والخطيبات المتناوبات، الخدم والصداقات والكلاب من سلالة بيت الأب. بقيت تسبحُ وتلعب التنس بالعناد نفسه، دونما حنين غير مجدٍ، ودون أن تصدر حكماً على أمِّها. لم تكن تشتاقُ إليها، لم يقم بينهما أيُّ ودٍّ، وربما كانت ستنساها كلّيّاً لولا كوابيس رغوةٍ ورديّةٍ مُتكرّرة. وصلت إلى بيركلي مثل الكثيرين يشدُّها صيت الفوضى، فقد سئمت الآداب البرجوازيّة الجيّدة المفروضة عليها من أمِّها ومن حفلاتِ غِلمان ووصيفات أبيها. كانت سيّارتُها تلفتُ الانتباه بين كراكيب التلاميذ الآخرين المحطّمة، وكان بيتُها ملاذاً بوهيميّاً بين الأشجار والسراخس العملاقة مع مشهد الخليج الفاخر، الذي كان يدفعُ إيجاره والدها. ما بهر غريغوري ريفز كان تهذيب الشابة، لم يعرف أحداً يأكلُ بست بدائل من أطقم المائدة ويميّز الصدّارة الكشميريّة الأصليّة أو السجادة العجميّة من النظرة الأولى، باستثناء تيموثي دوان، لكنّه كان يسخر من كلِّ شيء، خاصّةً من الصدّارات الكشميريّة والسجاد العجمي. ظهرت في المرّة الأولى التي دعاها فيها إلى الرقص في ثوبٍ أصفرَ مقوَّر

وطوقٍ من اللؤلؤ. فهمَ وقد شعر بنفسه مثاراً للسخرية في البدلة التي استعارها من دوان، بأنَّ عليه أن يأخذها إلى مكان أغلى بكثير من الذي وضع له ميزانيّة. كانت سمانثا سيّئةَ الرقص، تتابع الموسيقى بانتباهٍ وتعدُّ الخطوات، واحد، اثنان، واحد، جاسئة مثل مكنسةٍ بين ذراعي رفيقها، وتشرب عصير فواكه، تتكلّم قليلاً ولها مظهر متحفّظ وبارد تصوّره غريغوري مشحوناً بالغموض. وظّف عناده لخدمة هذا الحبّ وأقنعَ نفسه بأنَّ الأذواق المشتركة أو الوله ليست متطلّبات ضروريّة لتكوين الأسرة. تلك كانت نيّته، على الرغم من أنّه لم يتجرّأ على قبوله في قرارة نفسه وخاصّة على صبّه في كلمات. طوال حياته وهو يتمنّى أن ينتمي إلى بيتٍ حقيقيٍّ، كبيت آل مورالِس، وكان من العشق لذلك الحلم بحيث قرّر تحقيقه مع أوّلِ امرأة يطالها، دون أن يتحقّقَ من أنّ لها الخطّة نفسها.

نجح ريفز في الآداب مع التنويه بتفوّقه، الذي لا بدَّ أنَّ صديقه الطيّب سايروس احتفل به في العالم الآخر. دخل مدرسة القانون في سان فرانسيسكو. وفكرة أن يتحوّل إلى محام خطرت له ليناقض تيموثي دوان الذي كان يعتبر أنَّ أقرب ما يكون إلى المحامي هو القرصان، ثمّ سحر به. وما إن اتخذ القرار حتى هتف لأولغا ليقول لها إنّها أخطأت في تكهُّناتها له، فهو لن يكون قاطع طريق أو شرطيّاً، إذا استطاع تفاديه. ردّت عليه الساحرةُ التي كانت قد عادت من بورتو ريكو منذ زمن طويل بمعارف تكهُّنيّة وطبيّة جديدة ، بأنَّها أصابت بين بين، كما هي العادة دائماً، لأنّه سيعمل في القانون إضافة إلى أن المحامين ليسوا أكثر من لصوص شرعيين. أحد الأسباب التي دعت ريفز لدراسة القانون كان تفادي الخدمة العسكريّة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فحرب ڤييتنام، التي بدت قبل ذلك صراعاً مصغّراً وبعيداً اتخذت بعداً مقلقاً وما عاد من المسلّي له أن يتباهى في بدلة ضابط الاحتياط ولا أن يتمرّن على الألعاب العسكريّة في نهايات الأسبوع. والتأجيل لمدة ثلاث أو أربع سنوات، ريثما يحصل على شهادته، يمكن أن ينقذه من الذهاب إلى الجبهة.

– لا أفهم مقاومة هؤلاء الأقزام الشرقيين. كيف لم يعرفوا حتى الآن أنّنا أكبر قوّة عسكريّة ساحقة في التاريخ؟ نحن ننتصر بالطبع. خسائرهم كثيرة. حسب التقديرات الرسميّة لم يبقَ أحياء والذين يطلقون النار على الجانب الآخر أشباح – يسخر تيموثي دوان.

ما كان بالنسبة إلى دوان سخرية لاذعة كان بالنسبة للكثيرين

حقيقة، كانوا مقتنعين بأنّه يكفي الجهد الأخير لينهزم هؤلاء البشر الوهميون للأبد أو ليُبادوا عن وجه الأرض. هذا ما كان يؤكّده الجنرالات في التلفزيون، بينما تُظهر الكاميرات خلفهم صفوفَ الأكياس البلاستيكيّة بجثث الجنود الأمريكيين تنتظر على أرض المطار.أناشيد، أعلام، استعراضات في مدن الوطن. قصف وهرج ومرج وفوضى في جنوب شرقيّ آسيا. سجل أسماء الموتى يُشكَّكُ عنه، وما من قائمة بمشوّهي الحرب روحيّاً أو جسديّاً. كان الشباب من دعاة السلام يحرقون عبر احتجاجاتهم في الشارع الأعلام وبطاقات التجنيد. ويرد عليهم معارضوهم خونة، حمرٌ، لوطيّون، إذا كانت لا تعجبهم أمريكا فليرحلوا، فنحن لا نريدهم. كانت الشرطة تخنق التمردّات بهراواتها وأحيانا بإطلاق نارها. بينما يغنّي الهيبّيُّون الحبُّ والسلام، يا أُخوتي، وهم يقدّمون الأزهار إلى الذين يصوّبون إليهم بنادقهم، ويرقصون في مجموعات ممسكين بعضهم بأيدي بعض زائغي العيون في جنّة من الماريغوانا، مبتسمين دائماً بسعادة محيِّرة لا أحد يستطيعُ أن يغفرها لهم. كان غريغوري يتردَّدُ. تشدُّهُ مغامرةُ الحرب، لكنّه يشعر بالشكّ الغريزيّ بالحماس الحربي. مجانين، الجميع مجانين، كان يتنهَّدُ تيموثي دوان، بمنأى عن الخدمة العسكريّة بفضل بضع عشرة وثيقة طبيّة مشكوك بصحَّتها تؤكد وجود أمراض طفوليّة.

بعد مرحلة طويلة من الصداقة تحوَّلت عاطفة غريغوري الأوّلية تجاه سمانثا إلى حب، وتلاشى الشكُّ بها واستقرّت العلاقة في رتابات وطقوس الخطيبين الأبديين. يتشاطران السينما والرحلات إلى الهواء الطلق، الحفلاتِ الموسيقيّة والمسرح، يجلسان معاً للدراسة تحت الأشجار، وأحياناً أخرى يجتمعان بعد الخروج من الدروس في سان فرانسيسكو، ويتنزّهان آخذاً الواحد منهما الآخر من ذراعه مثل السيّاح في الحيّ الصيني. كانت مشاريع ريفز من البرجوازيّة بحيثُ أنّه لم يجرؤ على طرحها ولا على سمانثا، سيبنيان بيتاً مع حديقة من الورد وبينما يكسبُ هو عيشه كمحام ستعملُ هي الحلوى وتربّي الأطفال. كلُّ شيءٍ صحيح ولائق. ذكرى بيتهُ في الشاحنة، حين كان والده معافى، ما يزال في ذاكرته المرحلةَ السعيدةَ الوحيدةَ في حياته. كان يتصوّر أنّه لو استطاع أن يعيد انتاج تلك القبيلة لشعر بالأمان والسكينة من جديد، ويحلم بالجلوس على رأس طاولة طويلة عليها أبناء وأصدقاء، كما في الحالات التي طالما رآها في بيت آلِ مورالِس. كان يفكر بهم كثيراً، لأنَّهم، على الرغم من الفقر ومحدوديّة الوسط الذي اضطرّوا للعيش فيه، أفضلُ مثل في متناول يده.

كان حلمه البطريركي، في تلك الأزمنة من المجموعات الهيبيّة والوجبات السريعة، مشكوكاً بأمره ومن الأفضل عدم البوح به. كان الواقع يتغيَّر بإيقاع مرعب، في كلِّ يوم يتقلّص مكان الطاولات العائليّة، العالم يدور بسرعة والأشياء تسير على رأسها، صارت الحياة مشادّة محضة ولم تعد حتى السينما، المكان الوحيد الأمين في الماضي، تُقدِّمُ أيَّ عزاء. رعاة البقر، الهنود الحمر، ، العشّاق المحتشمون والجنودُ البواسلُ في لباسهم الموحّد النظيف لا يظهرون إلا في التلفزيو ن في أفلام قديمة، تقطعها كل عشر دقائق إعلانات تجاريّة لمزيلات التعرّق والبيرة، لكن في معبد صالات السينما، حيث كانوا يلوذون في الماضي بحثاً عن هدوء فرورٍ صار من المحتمل جدّاً أن يتلقى المرء ضربةً سفليّة.، فجون واين البطلَ القاسي المقدام والوحيد الذي حاولَ أن يباريه دون أيِّ نجاح، تراجع أمام تقدّم أفلام الطليعة. أسيراً في كرسيِّه كمشاهدٍ كان يتحمّلُ المقاتلين اليابانيين بحركاتهم الهيراكيريّة على الشاشة الكبيرة، بينما سحاقيّات سويديّات منغمسات وساديون غير أرضيين يسيطرون على الكوكب. حتى في الميلودرامات لم يعد يستطيع الاسترخاء لأنّها ما عادت تنتهي بالقبل والكمانات وإنّما بالانقباض أو الانتحار.

كانا ينفصلان في العطل لأسابيع، سمانثا تذهب لزيارة أبيها وهو يوزِّعُ وقته بين المعسكرات الإجباريّة والعمل السياسي، يوزِّعُ مع طلّابٍ آخرين مبادئ الحقوق المدنيّة. مُحال وجود واقعين بمثل تباينهما: التدريبات العسكرية الفجّة، حيثُ يبدو أن البيضَ والسود متساوون ظاهريّاً بأمرة الرقيب ومهّمات ولايات الجنوب الخطيرة حيث كان يعمل مع الجاليات السوداء عمليّاً بالسرِّ، كي يتحاشى مجموعات القبضايات البيض المستعدِّين لمنع أيّة فكرة تتعلّق بالعدالة العرقيّة. كان الفهود السود بقبّعاتهم الشهيرة وخطبهم الحقودة ومسيراتهم العسكرية يشيعون الرعب ويسحرون الألباب. زنوج بزنجيّةٍ متكبِّرة، زنوج بثياب سوداء ونظّارات سوداء وتعابير استفزازيّة يشغلون الرصيف العريض عندما يمرون، الكتف على الكتف مع زوجاتهم، زنجيّات جريئات يمضين بأثدائهنّ المشرئبّة المصوّبة إلى الأمام، لا يفسحون الطريق للبيض، لا ينظرون إلى الأرض ولا يخفضون أصواتهم. المذلولون الجبناء سابقاً يتحدّون الآن. كان الخطيبان يلتقيان في نهاية الصيف دونما استعجال، لكن بسعادة صادقة، كرفيقين طيّبَين. نادراً ما كانا يتناقشان، فهما لا يتحدَّثان بموضوعات ساخنة، إلاّ أنّ الواحد منهما لا يملّ الآخر. كان الصمت مريحاً لهما. غريغوري لايطلبُ رأيَ سمانثا ولا يحكي لها عن نشاطاته،

لأنّها لم تكن تصغي إليه كما كان يبدو، فجهد توصيل أفكاره كان يضايقها. لا شيء يثير حماسها، ما لم تكن الرياضة وبعض المستجدّات القادمة من الشرق، كرقصة الدراويش المهاجرة وفنون التأمُّلِ الخارقة. في هذا الجانب كان هناك الكثير مما يمكن اختياره لأنَّ المدينة تُقدِّم دورات ماراتونيّة لا نهائيّة لمن يرغبون الحصول على المعرفة الشاقّة لعظماء الصوفيّة في الهند خلال نهاية أسبوع مريح. فريفز الذي ترعرع بين لوجيين ومعلّمين موظَّفين، ورأى أمَّه تنفصل عن الواقع وتهرب عبر السبل الروحيّة، وعرف شعوذات أولغا لم يكن غريباً عليه أن يسخر من تلك المذاهب. كانت سمانثا تأسفُ لقلّة حساسيّته، لكنّها لم تكن تشعر بالإهانة أو تحاول تغييره، فالمهمة لا بدّ ستكون مضنية. طاقتها كانت محدودة، وربّما لم تكن أكثر من كسولة كقططها، لكن كان من السهل الخلط في ذلك المكان وتلك الأزمنة بين مزاجها الفاتر وبين السلام البوذيّ الدارج جدّاً. كانت تخلو من الحماس حتى للحب. لكنّ غريغوري كان مصرّاً على تسمية البرودة خجلاً ويضع خياله الدؤوب في خدمة تلك الخطبة التافهة، مختلقاً فضائلَ حيث لا توجد. تعلّم استخدام مضرب التنس ليرافق خطيبته في شغفها الوحيد، على الرغم من أنّه كان يمقت هذه اللعبة لأنّه لم يتمكّن قط من الفوز عليها، وبما أنَّ الأمر يتعلّق بمواجهة بين متنافسين لم يكن هناك من وسيلة لشعشعة الهزيمة بين أعضاء آخرين من الفريق ذاته. بالمقابل لم تحاول هي أن تتعلم أيّاً من الأشياء التي كانت تشدّه. في المرّة الوحيدة التي حضرا فيها معاً أوبرا نامت هي في الفصل الثاني وفي كل مرّة خرجا فيها إلى الرقص تعكّر مزاجهما، لأنّه كان من المحال عليها أن ترتخي أو تهتزّ مع الموسيقى. الشيء ذاته كان يحدث حين كانا يمارسان الحبَّ، كانا يتعانقان بإيقاعين مختلفين لينتهيا إلى إحساس بالفراغ، ومع ذلك ما من أحدٍ منهما رأى في هذا الجفاء تحذيراً للمستقبل، ويلقيان بالذنب على الخوف من الحمل. كانت تعارض كلّ أنواع مانعات الحمل، بعضها لأنّه مزعجٌ وليس فيه جمالية، وبعضها الآخر لأنّها غير مستعدّة لأن يتداخل مع التوازن الدقيق لهرموناتها. كانت تُعنى بجسدها بإفراط، تمارس التمارين الرياضيّة كل عدّة ساعات، تشرب ليتري ماء يوميّاً وتأخذ حمّامات شمسيّة عاريةً. بينما غريغوري يتعلّم الطبخَ مع صديقتيه جون وسوزان ويقرأ *الكاماسوترا* وكلّ الكتب الجنسيّة التي تقع بين يديه. هي تمضغ خضراوات نيّئة وتدافعُ عن العفّة كوسيلة صحّيّةٍ للجسد وآداب الروح.

فقدَ ريفز انبهاره الأوَّلي بالجامعة بالدرجة ذاتها التي أضاع فيها

نبرته التشيكانيّة. وخلص عندما أُجيزَ، مثل الكثيرين، إلى أنّه حصل على معارف من الشارع أكثر مما من قاعات الدرس. كانت التربية الجامعيّة تحاول أن تُهَيِّئَ الطلاّب لحياةٍ منتجة ووديعة، هذا المشروع الذي كان يتشظّى باصطدامه مع تمرُّد الشباب المستجد. لم ير الأساتذة أنّهم معنيّون بذلك الزلزال، فبانغلاقهم على تنافساتهم الصغيرة وبيروقراطيّتهم لم يستشعروا خطورة ما كان يحدث. لم يملك غريغوري في تلك المرحلة من الأساتذة من يستحق أن يُذكر، ما من أحد مثل سايروس يجبره على مراجعة أفكاره والمغامرة على السبر الفكري، على الرغم من أنَّ كثيرين منهم كانوا من مشاهير الكفاءات العلمية أو الإنسانيّة. كانت الساعات تفلت منه في بحوث غير مجدية، يستظهر معلومات ويكتب محاضرات لن يراجعها أحد.كنس روتينٌ تافهٌ أفكاره الرومانسيّة عن حياة الطالب. لم يكن يرغبُ بالرحيل عن تلك المدينة غريبة الأطوار، على الرغم من أنّه كان من الأفضل له أن يعيش في سان فرانسيسكو لأسبابٍ عمليّة. فقد تسلّلت جمهوريّةُ بيركلي الشعبيّة تحت جلده. كان يحبّ أن يتيه في تلك الشوارع، حيث يتكاثر السياميون بدثاراتهم القطنيّة والنساء تبدو عليهن روح عصر النهضة، علماء بلا مبرّر على الأرض، ثوريون بلا ثورة، موسيقيون جوّالون، وعّاظ، مجانين، باعة خرداوات، مهنيون يدويون، شرطة ومجرمون. كانت الطريقة الهندية هي السائدة بين الشباب، الذين يرغبون بالابتعاد ما أمكن عن آبائهم البرجوازيين. وكان يُتَاجَرُ بكل ما هو موجود في الشوارع والساحات: مخدِّرات، قمصان قصيرة الأكمام، اسطوانات، كتب مستعملة، وأدوات زينة تافهة. كانت حركة المرور فوضى وغليان، باصات مغطّاة بالإعلانات، دراجات، سيّارات «*كاديلاك*» قديمة ليمونيّة، خضراء وزهريّة غامقة، سيّارات موصوفةٌ في فهارس مؤسّسة لتأجير السيّارات الرخيصة للناس العاديين والمجانيّة للناس الخاصّة، كالمشرَّدين والمتظاهرين في احتجاج ما.

كي يكسب عيشه كان غريغوري يرعى أطفالاً بعد الدروس، يأخذهم من المدرسة إلى بيوتهم ويتسّلى لساعاتٍ في المساء. في البداية كانوا خمسة أطفالٍ فقط، ازداد العددُ بعدها واستطاعَ أن يتخلّى عن عمله في جناح البناتً وكجنائني مع بالسيسكو. اشترى باصاً صغيراً وتعاقد مع اثنين من المساعدين. كان يكسب مالاً أكثر من أيٍّ من رفاقه والنظرة إليه من الخارج كانت أظرف، لكنّه منهكٌ عملياً فالأطفال مثل الرمل، جميعهم متشابهون عن بعد، ينزلقون حين يريد أن يضع لهم حدّاً ودبقون حين يريد أن ينفضهم عن كاهله، لكنّه أحبَّهم وكان يشتاقُ إليهم في نهاية

الأسابيع. أحدُ الأطفال كانت له موهبة الاختفاء ويجهد في أن يمرَّ دون أن يلفت الانتباه، ولذلك سيكون الوحيد الذي لن يُنسى في السنوات اللاحقة. ضاع ذات مساء. وغريغوري الذي كان يعدُّ الصغار دائماً قبل أن ينطلق، تأخّر ولم يعدّهم في تلك المناسبة، حملته جولته المعتادة إلى بيت الصغير وحين وصل انتبه مذعوراً إلى أنَّ الصغير لم يكن في الباص.فدار وانسلّ بسرعة الضوء عائداً إلى الحديقة التي وصلها والعتمة بدأت تُخيِّمُ. جرى يناديه ملء رئتيه، بينما الآخرون يتذمّرون باكين من التعب وطار أخيراً إلى هاتف يطلب النجدة. بعد دقائق كان هناك فصيل من الشرطة مزوَّد بالمصابيح والكلاب وعددٌ من المتطوّعين وسيَّارة إسعاف تنتظر احتمال الحاجة إليها وصحفيَّان ومصوِّرٌ وقرابة الخمسين من الجيران والفضوليين خلف النطاق المضروب.

- يجبُ أن تُعلِمَ الأبوين - قرَّرَ الضابط.

- يا إلهي! كيف سأقول لهم ذلك؟

- هيا، سأرافقك. يحدث هذا، صادف أن رأيت كلَّ شيء. بعدها تظهر الجثثُ، من الأفضل عدم وصفها، بعضهم مُغْتَصَبون ... مُعَذَّبون... ولا يخلو الأمرُ من وجود منحرفين جنسيّاً أبداً. لو كان الأمرُ بيدي لأرسلتهم جميعاً إلى الكرسيّ الكهربائي.

وهنت ركبتا ريفز، شعر بالغثيان. وحين وصل فُتِحَ البابُ وظهر في الباب المخّاط الضائعُ ملوَّثَ الوجه بزبدة الفستق. قال إنّه ضجر وفضَّل العودةَ إلى البيت لمشاهدة التلفزيون. لم تكن قد عادت أمُّهُ بعدُ من العمل، ولم يخطر لها أنَّهم سلَّموا بأنَّ ابنها بحكم الضائع. منذ ذلك اليوم وغريغوري يربط زبونه الفرور بحبل إلى خصره. تماماً كما كانت تفعل إنماكولادا مورالِس مع أمِّها المجنونة، وهذا ما جنَّبه مشاكل جديدة وأثبط أيّة محاولة استقلال عند الأطفال الآخرين. فكرة رائعة، ما همّ إذا كانوا سيضطرون فيما بعد لأن يدفعوا لطبيبٍ نفسيٍّ كي يخلِّصهم من عقدة كلب الحضن؟ علّقت كارمن حين حكى لها ذلك بالهاتف.

انتقلت جون وسوزان إلى بيت قديم خرب كفايةً، لكنّه ما زال راسخاً فوق أعمدته، حيث دشّنوا مطعماً نباتيّاً وطبيعياً سيصبح ذات يوم أفضل مطعم في المدينة. أقامت مكانهما جالية من الهيبّيين بدأتْ تنمو وتتضاعف بإيقاع سريع. في البداية كانوا زوجين وأولادهما، لكن سرعان ما ازدادت القبيلة والأبواب تبقى مفتوحةً لمن يرغب الوصول إلى تلك الواحة من المخدِّرات والفنون اليدويّة المتواضعة، اليوغا، الموسيقى

الشرقيّة، الحب الحر والقدر المشترك. لم يتحمَّل تيموثي دوان الخليط والفوضى والوَسَخ فاستأجر شقّة في سان فرانسيسكو، حيث كان يدرسُ الطبَّ، عرض على ريفز أن يتقاسمها معه لكّنه لم يقرِّر ترك الملحق، على الرغم من أنّه كان يدرسُ أيضاً في المدينة و ملَّ الهيبِّيين وأزعجه أن يجد غرباء في غرفته، يكره موسيقى الطبلة والصفير والنايات الرتيبةَ ويزيدُ غضباً حين كانت تختفي أشياؤه الشخصيَّة. سلامٌ وحبٌّ، يا أخي، هكذا كان يقولُ له أبناء الأزهار حين يهبط متحوِّلاً إلى حيوان ضارٍ ليطالب بقمصانه، ودائما يرجعُ إلى غرفته خالي الوفاض تقريباً وذيله بين ساقيه إلى آخر زاوية خاصّة وقد شعر بنفسه أنّه برجوازي عفنٌ. كانت بيركلي قد تحوَّلت إلى مركز للمخدِّرات والتمرُّد، في كل يوم يظهر بدوٌ جددٌ بحثاً عن الجنّة، يصلون على درَّاجاتٍ ناريّة صاخبة وسيَّارات خربة مضعضعة وباصات عُدِّلت لتكون مساكنٍ مؤقّتة، يخيِّمون في الحدائق العامّة، يتجامعون في الشوارع، ويتغذَّون على الهواء والموسيقى والحشيشة. كانت رائحة الماريغوانا تلغي كلَّ ما عداها من روائح. ثورتان تزحفان، ثورة الهيبّيين الذين يحاولون تغيير قوانين الكون بالصلوات السنسكريتيَّة والأزهار والقبل، وثورة معادي التقاليد الذين يتطلّعون إلى تغيير قوانين البلد بالاحتجاج والصراخ والحجارة. كانت الثانية تنسجم أكثر مع جبلّة غريغوري، لكن لم يبق لديه وقتٌ لمثل تلك النشاطات، فقد نفد حماسه للتمرُّد في الشوارع حين عرف أنّه تحوَّل إلى طريقة في الحياة، نوعٍ من التسلية المضنية. زال عنه الشعور بالذنب حين صار يمكث للدراسةً بدل إثارة الشرطة ويعتبرُ أن عمله الصامت من بيت زنجيٍّ إلى آخر في الصيف أكثر جدوى. حين لم يكن هناك مظاهرات للمطالبة بالحقوق المدنيّة كانت هناك أخرى ضد حرب ڤييتنام، ولا يكادُ يمرُّ يومٌ دون عراكات عامّة.والشرطةُ تستخدم تكتيكاتٍ وأجهزة حربٍ للحفاظ على صورة النظام الزائفة. نُظِّمَ هجومٌ معاكس هدفه الحفاظ على فضائل آباء الوطن بين أولئك المذعورين من الاختلاط والتمرّد واحتقار الملكيّة الخاصّة. ارتفعت جوقة من الأصوات دفاعاً عن *طريقة الحياة الأمريكيّة*. إنَّهم يدكُّون أساسات الحضارة المسيحيّة الغربيّة! سينتهي هذا البلد ليصبح سدوم الشيوعيّة والمهووسين، هذا ما يريده هؤلاء الأشقياء! الزنوج والهيبّيون سيذهبون بالنظام إلى الجحيم! كان تيموثي دوان يحاكي أباه وسادة آخرين من النادي بسخرية. لم يكونوا الوحيدين الذين وضعوا المخالفين لهم في سلّة واحدة، الصحافة أيضا وقعت في هذا التبسيط على الرغم من أنَّ نظرةً بسيطة كانت تكفي لرؤية الاختلافات الكبيرة. كانت الحقوق

المدنيّة تتعزّزُ بالدرجة نفسها التي يتفكّكُ فيها الهيبّيون، والثورة ضد العنصريّة تتقدّمُ حاسمة وحتميّة، لكنّ ثورة الأزهار كانت حلماً. الهيبّيّون، الذين شرعوا في رحلة عجيبةٍ مع فطرهم المهلّوس، حشيشتهم، وجنسهم والروك لم ينتبهوا لضعفهم الذاتي ولقوّةِ أعدائهم، اعتقدوا بأن البشريّة دخلت مرحلةً أسمى وأنّه ما من شيء سيعود كان كما في السابق.كان دوان يؤكّد قائلاً يجبُ ألاّ نقلّلَ من البلاهة الإنسانيّة، بعض المخبولين يتبادلون القبلَ ويشِمون حماماتٍ على صدورهم، لكنّني أؤكدُ لك أنّه لن يبقى منهم أثر، سيلتهمهم التاريخ. وكان يؤكّدُ في أحاديثهما الليلية المتطاولة على الشك، مقتنعاً بأنّ الرداءة ستهزم أخيراً الأفكار العظيمةَ ولذلك فالأجدى ألاّ نتحمّس لعصر الدلو أو لأيّ عصر آخر.ويصرُّ على أنّ إضاعة الصيف بتسجيل الزنوج في سجلاّت الانتخابات كان مضيعة للوقت، لأنّهم لن يزعجوا أنفسهم بالانتخاب أو أنّهم سيصوّتون للجمهوريين، ومع ذلك كان في كلّ مرّةٍ تجمع فيها التبرعات لحملات حقوق الإنســان يتدبّر أمره وينتزع من أمِّه شيكاً بثلاثة أصفار. كان يدافع عن الحركة النسائيّة لأنّها تحرِّره من دفع حصّة السيِّدة في موعدٍ ثم يستطيع أن يحملها إلى السرير مجّاناً، مع أنّه في الحياة الواقعيّة لم يكن يستغل هذه الميِّزات. كان له موقفٌ كلبيٌّ يصدم غريغوري ويسلّيه.

حرِّية ومال، مال وحرِّيّة، هكذا كان يتنبّأُ بالسيسكو بغموض، كان قد اكتسبَ مجموعةً مفرداتٍ إنكليزيّة أوسع وترك خصلة تنمو في مقدمة جمجمته الحلّيقة ويلبس مثل فلاّح روسيٍّ ويعلّمُ فلسفته لمجموعة من المريدين. كان دوان يعزو نجاح المعلّم الجنائني إلى أنَّ أحداً لم يكن يفهم عن أيّة شياطين يتكلّمُ ولبراعته في زراعة الماريغوانا في أحواضِ الحمّامات والفطرِ السحري في أصص داخل الخزائن. كان الرومانيُّ يملكُ في مرآبه معملاً صغيراً للحمض الليسرجي، التجارة المزدهرة التي ستحوِّله في وقتٍ قصير إلى رجلٍ غنيٍّ. وعلى الرغم من أن غريغوري لم يكن يعمل معه منذُ سنوات، إلاّ أنّهما حافظا على صداقةٍ جيّدة بينهما قائمة على حبّ الورد ومتع الطعام. بالسيسكو كان يملك موهبة طبيعيّة لاختراع أطباق على أساس الثوم الذي كان يلفظه بطريقة لا تُلفظ ويمرِّرها على أنّها أطباق تقليديّة في بلده. كما علّمَهُ زراعة الورد في براميل بعجلاتٍ، كي يتمكّن من أخذها معه في حال بدّل بيته أو هاجر.

ـ لا أفكِّرُ بالهجرة! ـ كان غريغوري يضحك.

ـ هذا ما لايُعْرَفُ أبداً. نقص في الحريّة، نقصٌ في المال، ماذا

سيفعلُ المرء عندئذٍ؟ يهاجر ـ كان الآخر يتنهّد بعلامة حنين مؤثِّرة.

كانت سمانثا إرنست تدرس الأدبَ في لحظات فراغها، بعد أن تقوم بتمارينها البدنيّة ورياضاتها. في ذلك العام أفلس أباها فيلمٌ عن الامبراطوريّة البيزنطيّة كلّفه الملايين وشكّل فشلاً ذريعاً ودمّر خلال وقتٍ قصير امبراطوريّته ذاتها. وككل أخوتها غير الأشقّاء وزوجات والدها، الذين تمتّعوا حتى تلك اللحظة بكرم منتج السينما، كان على سمانثا أن تتدبَّرَ أمرها بنفسها، ومع ذلك لم يصل بها الأمر حدَّ الحاجة لأنَّ غريغوري ريفز كان هناك. خطّطا للزواج حين ينهي هو دراساته ويحصل على عملٍ مضمون، لكنّ إفلاسَ القطب سرّع الأمور واضطرّا أن يقدّما العرسَ سنتين. تزوّجا في حفل كان من الخاصّيّة بحيث بدا سرِّيّاً، بحضور تيموثي دوان ومدرِّب التنس كصديقين وحيدين، ثمّ أبلغا الآقارب والأصدقاء بالهاتف. كانت نورا وجودي تريان غريغوري مرّة في العام في يوم الفضيلة، وتشعران بأنّهما بعيدتان جدّاً عنه، ولم تستغربا أنّهما لم تدعيا، لكنَّ آل مورالِس امتعضوا من أعماقهم ولم يكلّموا «الابن الغرينغو»، كما كانوا يدعونه، فترةً من الزمن، إلى أن جاءت وِلادةُ مرغريت فليّنت قلوبهم وانتهوا إلى العفو عنه. انتقلَ غريغوري إلى بيت سمانثا مع أشيائه، بما في ذلك براميل الورد، المعدّة لتتمَّ حلم عائلة سعيدة. لم تأتِ حياة الزوجية شاعريّةً كما كان قد تخيّلَ وفي الحقيقة لم يحلّ الزواج أيّاً من مشاكل مرحلة الخطوبة، بل أضاف أخرى، لكنّه لم يسمح للخذلان أن يتملّكه وافترض أن الأمور ستتحسَّنُ حين يُستقْبَلُ كمحام ويصبح له عمل عادي وأخفّ ضغطاً. كانت مؤسّسة رعاية الأطفال كافيةً لتمنح زوجته حياةً مريحة، لكنّه لم يتمتّع إطلاقا بذلك الرغد. برنامج عمله اليوميّ سقط في سباقٍ من العوائق، يستيقظ عند الفجر ليقوم بواجباته، يتأخّر ساعة للوصول إلى الدروس وأخرى للعودة، يعملُ في المساء. يحمل الأطفالَ إلى المتاحف والحدائق والعروض المسرحيّة ، يراقبهم بعين ويدرس بالعين الأخرى. يذهبُ مرّة في الأسبوع إلى المصبغة والسوق، ويكسب في ليالٍ كثيرة بعض الدولارات من مساعدته جون وسوزان في المطعم. وفي نهاية النهار يظهر في بيته منهكاً، يُحضّرُ قطعةَ لحم على المشوى، يأكلُ وحيداً ويتابع دراسته. كانت سمانثا تتقزّزُ من رؤيةِ اللحم النيّء ومن رائحة الشواء وتفضّل ألاّ تكونَ هناك ساعةَ العشاء. كما أنَّ برنامجي عملهما لا يلتقيان، هي تنام حتى الظهيرة وتبدأ نشاطاتها في المساء، ودائماً يكون عندها درسٌ ليليٌّ: طنابير أفريقيّة، يوغا، رقصات كمبوديّة. بينما يطيرُ زوجها ليقوم بواجباتٍ لا تنتهي، تبدو

هي مبلبلة، كما لو كانت الحياة بحدّ ذاتها برهاناً هائلا على طبيعتها المراوغة. لم يزد التعايشُ من اهتمامها بألعاب الحبّ، فبقيت لامبالية في الفراش كما في السابق مع خطورة أنّ فرص البقاء معا صارت أكبر وحجج البرودة أقل. حاول غريغوري أن يُطبّق نصائح كتبه، على الرغم من أنّه كان يشعر بنفسه مضحكاً كفاية في تطبيق حبائله الجنسيّة التي لم تكن سمانثا تقدّرها إطلاقاً. وأمام النتائج النادرة لجهوده افترضَ أنّ النساء لا يشعرن بحماسٍ كبير تجاه هذه المسألة، باستثناء إرنستينا بِردا، التي كانت تشكّل استثناءاً سعيداً. تجاهل المنشورات التي لا تُحصى مبرهناً عكسها وبينما كان العالم الغربيّ يكتشف شبق الأنوثة الجارف استعدّ هو لاستبدال العاطفة بالصبر، على الرغم من أنّه لم يتخلّ كليّاً عن فكرة حمل سمانثا شيئاً فشيئاً نحو حدائق الغلمة الأثيمة، كما كان يسمّي تيموثي دوان، بضميره الكاثوليكي، النشاطَ الجنسي البسيط والنقي.

انهارت سمانثا تماماً حين اكتشفت أنّها حامل. شعرت بأنّ جسدها البرونزي الذي ليس فيه غرام واحد من الشحم صار وعاءً مقرفاً ينمو فيه شرغوف شره من المحال عليها الاعتراف به كشيءٍ منها. أنهكت في الأسابيع الأولى من القيام بأعنف تمارين قائمتها بأملٍ غير واعٍ للتخلّص من تلك العبوديّة الوبيلة، لكن التعب هزمها فانتهت إلى التمدّدِ على السرير والنظر إلى السقف، يائسةً وحانقة على غريغوري، الذي بدا سعيداً بفكرة الخلف فيردّ على شكواها بعزاءات عاطفيّة، أبعد ما تكون مناسبة في تلك الظروف، كما قالت له مرّاتٍ كثيرة: الذنبُ ذنبُكَ، الذنبُ ذنبك، كانت تؤنّبه، أنا لا أريدُ أولاداً، على الأقل الآن، أنت من يتكلّم طوال الوقت عن تكوين عائلة، انظر الأفكار التي تخطر لك، ومن كثرة ما تكلّمتَ عن مثل هذه الأشياء أعطى نتيجته الآن، اللعنة، لم تكن لتستطيع أن تفهم ضربة ذلك الحظ السيّئ، فقد كانت تعتقد أنّها عاقر، لأنّها في كل تلك السنوات لم تأخذ حذرها ولم تحدث أيّة مفاجأة. إذا كنت لا أرغب به فلن يحدث، كانت تصرُّ مثل طفلة تشعر بنفسها عاجزة عن السماح بفرض شيء كريه عليها. كانت تصيبها نوبات غثيانٍ، قرفاً من نفسها وكراهية للطفل أكثر من حالتها. اشترى زوجها كتاباً عن الطعام الطبيعي وطلب مساعدة جون وسوزان ليعمل لها أطباقاً صحّيّةً، الجهد غير المجدي، لأنّها لا تكاد تقبل قطعة كرفس أو تفاح. وحين شعرت بعد ثلاثة أشهر بتغيّراتٍ في خصرها وثدييها أسلمت نفسها لقدرها بنوعٍ من الغيظ العاجل. انعدام الشهيّة

تحوّل إلى نهم وبعكس كلّ مبادئها النباتيّة راحت تلتهم بمنهجيّةٍ شرحات خنزير مدهنةً وسجقاً كان يعدّها لها غريغوري في المساء فتقضمها باردةً على امتداد النهار. تناولا العشاء ذات ليلةٍ مع مجموعة من الأصدقاء في مطعم إسبانيّ حيث اكتشفت طبق اليوم: كرشة على الطريقة المدريديّة، خبيص من الأمعاء لها شكل منشفة مضمخة بصلصة البندورة. مرّاتٍ كثيرةً ذهبت في غير الأوان لتطلب الطبقَ ذاته، فتحمّس لها الطبّاخُ وصار يهديها أطباقاً طافحة من طبخه غير الصحي. سمنت، وعلت جلدها التشوّهات، وانتهت إلى الاكتئاب الكلّي، شعرت بنفسها مريضةً ومذنبة، مسمّمة بأغذيةٍ فاسدة وجثث حيوانات، لكنّها لم تستطع أن تنقطع عن الالتهام، وكأنّها عقوبة. صارت تنام أكثر من اللازم وتقضي بقيّة اليوم ممدّدة في السرير تشاهد التلفزيون، مع قططها. ريفز الذي يتحسّس من شعر هذه الحيوانات، انتقل إلى غرفة أخرى، دون أن يفقد المزاجَ الرائق أو الصبر. ستزول عنها،كان يبتسم ويقول، إنّها وِحامات الحمل. كانت سمانتا تكره أعمال البيت، لكنّها في السابق كانت تحافظ على شيء من الترتيب في البيت، وفي تلك الشهور تحوَّل التنظيم النسبي في البيت إلى فوضى. حاول غريغوري أن يرتِّبه قليلاً، وعلى الرغم من محاولته فإن رائحة القطط المحبوسة والكرشة على الطريقة المدريديّة كانت تغمر الجوّ.

في ذلك العام بدأت موضة الولادات المائيّة الطبيعيّة، مجموعة من التمارين التنفسيّة، البلاسم، التأمّل الشرقي والماء العادي والمعروف. كان من الضروري أن تتدرّب المرأة مسبقاً على الولادة في حوضٍ، يساعدها أبُ الطفل ويرافقهما الأصدقاء ومن أراد المشاركة، كي يدخل المولودُ الجديدُ العالم دون المرور بصدمة مغادرة جوّ بطن الأمّ السائل، الدافئ والساكن، ليهبط فجأة في جناح التوليد، تحت بؤرٍ ضوئيّة لا ترحم، تحيط به أدوات الجراحة. لم تكن الفكرةُ سيّئة، لكنّها عمليّاً كانت معقّدة قليلاً. رفضت سمانثا التطرّق لموضوع الولادة، وفيّةً لفكرتها التي تقول إنّها إذا كانت لا ترغب بالشيء فلن يحدث أبداً. لكنّها حين قاربت الشهر السابع لم يبقَ أمامها مناص من مواجهة الواقع، لأنّه وبعد مدّة محدّدة سيولد الطفل وسيكون لها ما تفعله في هذا الحدث الحتميّ. بدت لها الولادةُ في حوضٍ من الماء الفاتر والضوء الخافت وزوج من القابلات المرتاحات، أقل خوفاً من فعل ذلك فوق طاولة في مشفى بين أيدي رجلٍ بمئزرٍ ووجهٍ مقنّع كيلا يعرفه أحد، إلاّ أنّها لم توافق على تحويل ذلك إلى نوعٍ من الحشد الاجتماعي، على الرغم من وعد القابلتين الطبيعانيتين بأنّها لن تتحمّل شيئاً فتكلفة التوليد تشملُ المشروبات والماريغوانا

والموسيقى والصور. إذا كنّا قد تزوجنا بالسرّ فلن أُفكر أن ألِدَ في العلن، كما لا أريدهم أن يصوّروني مفتوحةَ الساقين، هكذا قرّرت سمانثا واضعةً نهايةً للمأزق. نهضت أخيراً من السرير وشرعت ترافق زوجها إلى الدروس حيث وجدت نساءً أخريات في حالتها ذاتها واكتشفت أنّه ليس بالضرورة أن تكونَ الأمومة بليّة. لاحظت مندهشةً أنّ الأخريات يبرزن بطونهنّ متباهيات، بل ويبدون سعيدات. وكان لهذا تأثيرٌ علاجيّ، فاستعادت جزءا من الاحترام لجسدها، وقرّرت الاهتمام بنفسها، لم تمتنع عن الكرشة على الطريقة المدريديّة، لكنّها أضافت إلى نظامها الغذائيّ الخضارَ والفواكه، صارت تسير مسافاتٍ طويلة وتفرك جلدها بزيت اللوز وغسولات الميرميّة والنعناع، اشترت ملابس للمولود وعادت لتظهر على مدى أسابيع شخصيّتُها القديمة. شملت الاستعدادات الواسعة للولادة وضع حوض خشبيّ هائل في الصالة، مبدئيّاً كان باستطاعتهما استئجاره، لكنّهم أقنعوهما بفوائد شرائه، يستطيعان بعد الولادة إشغاله لأغراضٍ أخرى، قالوا لهما بأنّ الحمّامات الجماعيّة راحت تنتشر وتصبح موضة بين الأصدقاء، الجميع عراة ويتبلّلون بالماء الساخن. لكنَّ الحوض لم يجدِ شيئاً، لأنّ سمانثا ولدت ابنتها التي أسمتها مرغريت، مثل جدّتها التي ماتت في الرغوة الورديّة قبل خمسة أسابيع من التاريخ المتوقّع. وصل غريغوري إلى البيت مساءً فوجدَ زوجته جالسةً في بركة من مياهها السلاويّة، فوصل به الارتباك حدَّ أنّه لم يخطر له طلبَ المساعدة أو تذكّرَ تنفّس الفقمة الذي تعلّمه في دروس الولادة المائيّة. حملها في الباص الذي كان يستخدمه في عمله وانطلق إلى المشفى، حيث اضطرّوا لإجراء عمليّة قيصريّة لأنقاذ الطفلة. لم تدخل مرغريت العالمَ على هديل الغناء المهدّئ وغيوم البخّور، كما كان متوقّعاً، وبدأت حياتها في حاضنة، مثل سمكةٍ وحيدةٍ مؤثّرة في حوضٍ مائي. بعد يومين وحين خطت الأمُّ خطواتها الأولى التجريبيّة في ممرّ المشفى تذكّرُ الأب أن يهتفَ للقابلات الروحيّات والأقرباء والأصدقاء ليروي لهم الخبر. حزن لأنّ كارمن لم تكن إلى جانبه، الوحيدة التي كان يرغب بأن تشاركه حرج تلك اللحظات.

بدأت تهبُّ رياحُ الفاجعة على سمانثا إرنست يومَ ولادتها ذاته، حين وضعتها أمّها الأرستقراطيّة بين يدي ممرّضةٍ وتنصّلت منها إلى الأبد، متحولة إلى إعصارٍ أطلقها خارج الواقع لحظةَ إنجابها لابنتها. بعد زمن طويل ستعترف لمحلّلها بأنَّ تلك المخلوقة الصغيرة جدّاً التي تتنفّس

بصعوبة لا تثيرُ عندها إلاّ الرفض. في سرِّها كانت تحمد الله أنّه ليس عندها حليب لترضعها، بل وأكثر من ذلك ربّما تمنّت من أعماق قلبها أن تختفي كيلا تجدَ نفسها مجبرةً على حملها بين ذراعيها. ما تعلّمته في الدورات لم يفدها شيئاً. كان من المحال عليها بالنتيجة أن تعتبر مرغريت واحدة من آلاف المولودات في ذلك اليوم وتلك الساعة. لم تستطع قبولها قط. كما لم تذعن لفكرة أنّها مرتبطة بتلك الدودة بمسؤوليّات لا مفرّ منها. نظرت إلى نفسها في المرآة فرأت أثرَ جرح قبيح في بطنها، الذي كان قبل ذلك أملسَ وبرونزيّاً صار الآن جلداً رخواً مليئاً بالأخاديد فبكت بكاءً مرّاً على جمالها الضائع. حاول غريغوري خطب ودِّها ليساعدها، لكنّها كانت تبعده في كلِّ مرّة بعنفٍ جنونيٍّ. ستعتاد، إنّها حديثة العهد، مشوّشة، هكذا كان يفكرُ غريغوري، لكنّه بعد ثلاثة أسابيع حين خرَّجوا الطفلةَ من المشفى والأمُّ ما تزالُ تنظر إلى نفسها في المرآة وتتأسّفُ، اضطُرَّ أن يطلبَ مساعدةَ أخته. ربّما كانت أمُّه الشخص الأكثر ملاءمة في تلك المرحلة العصيبة، لكنَّ سمانثا لم تكن تتحمّلُ حماتها ولم تقدِّر قط أيّاً من فضائلها، وتعتبرها عجوزاً شمطاء غريبة الأطوار، قادرة على أن تُجنِّنها. فكَّرَ أيضاً بأولغا التي كانت تتمتّع بالوله بحديثي الولادة لكنّه اعتبر أنّه إذا لم تطق زوجته نورا فكيف ستتحمّلُ أولغا.

ـ أنا بحاجةٍ إليكِ، يا جودي، فسمانثا مريضةٌ ومصابة بالاكتئاب وأنا لا أعرف شيئاً عن الأطفال، من فضلك تعالي ـ هتف غريغوري.

ـ سأطلبُ إذناً من العمل يوم الجمعة وسأقضي معكم نهاية الأسبوع، لا أستطيع أكثر من ذلك ـ ردّت عليه.

جودي التي ضاقت ذرعاً بسهرات جيم مورغان، العملاق ذي الشعر الأحمر والذي أنجبت منه ولدين طلقته وعادت لتعيشَ مع أُمِّها في الكوخ ذاته. كانت نورا ترعى حفيديها، اللذين كان واحد منهما ما يزال في الحضن، بينما تعيلُ جودي الأسرةَ. كان جيم مورغان يحبُّ زوجته وسيحبّها إلى آخر أيّامهِ على الرغم من أنّها أصبحت امرأةً قبيحةً تلاحقه في البيت صارخةً وتقف في باب المعمل لتشتمه أمام عُمّالِهِ وتطوف على البارات بحثاً عنه كي تفضحه. وعندما طردته من البيت نهائيّاً شعر بأنَّ حياته قد انتهت وأسلمَ نفسه لسكرة بلا ذاكرة استيقظ على أثرها وراء القضبان. لم يستطع أن يفسّر كيف وقعت الفاجعة، بل ولم يتذكر الرجل الذي قتله. بعض الشهود قالوا كان حادثاً طارئاً ولم ينوِ مورغان قتله إطلاقاً، ضربه ضربة تافهة فذهب البائس إلى العالم الآخر، لكن الظروفَ

لم تخدم المتّهم. كانت الضحيّة شخصاً هزيلاً بوزن الريشة وقنوعاً بشهادة الجميع، وُجِدَ حين بدأت المشاجرة في زاوية وفي يده جرس صغير يطلب صدقةً لجيش الإنقاذ. لم يستطع جيم مورغان أن يساعد من زنزانته في نفقات ولديه ،وجودي فرحت لهذا الأمر، مقتنعةً بأنّه كلّما قلّ احتكاكُ الولدين بوالدهما المجرم كلّما كان أفضل لهما، لكن وبما أنّها لم تكن تستطيع أن تغطي حاجة البيت وحيدةً عادت لتعيش مع أمّها.

ذهب غريغوري إلى المطار بحثاً عن أخته وارتعب حين رأى كم سمنت. لم يستطع أن يخفي الانطباعَ السيّئ فلاحظت ذلك.

ـ لا تقُلْ لي شيئاً، أعرف بماذا تفكّر.

ـ اعملي حميةً، يا جودي!

ـ قول هذا من أسهل الأمور، البرهان على ذلك أنّني حاولته مرّاتٍ كثيرة، لقد أنزلت وزني ما يزيد عن ألفي رطل.

تسلّقت المرأةُ باص غريوري بصعوبةٍ وانطلقا إلى المشفى في طلب مرغريت. أسلموهما كتلة صغيرة مغطّاة بشالٍ كان من الخفّة بحيث أنّهما فتحاه ليتأكّدا من محتواه. اكتشفا بين الصوف مخلوقة في غاية الصغر تنام هادئةً، قرّبت جودي وجهها من ابنة أخيها وبدأت تقبّلها وتشمشمها مثل كلبةٍ تشمشم جروها، وقد صارت في رقّة لم يرها فيها غريغوري منذ عقود، لكنّه لم ينس. راحت تكلّمها طوال الوقت وتداعبها بينما أخوها يراقبُ ذلك شزراً، مندهشاً وهو يرى جودي تتبدّل، فقد اختفت طبقات الشحم التي تتكوّنُ منها كاشفةً عن جمالٍ وضّاء متخفٍّ في داخلها. وحين وصلا إلى البيت وجدا القطط وقد دخلت في المهد وسمانثا واقفة على رأسها في غرفتها، تبحثُ عن الراحة من القلق العاطفي في بهلوانيّات فقير هندي. شرع غريغوري ينفض شعر الحيوانات من المهد ليضع فيه الوليدة بينما أخرجت جودي، المنهكة من السفر وساعات الوقوف، بدفعة واحدة كنّتها من سعادتها القصوى وأعادتها إلى وضعيّة الرأس من الأعلى وفظاظة واجبات الواقع.

ـ تعالي أشرحُ لك كيف يجهّز حليب الرضاعة وكيف تُبدَّل الفوط ـ أمرتها.

ـ عليك أن تشرحيه لغريغ، فأنا لا أجدي لمثل هذه الأشياء ـ تلعثمت سمانثا متراجعة.

ـ من الأفضل ألاّ يقترب هو كثيراً من الصغيرة، كي لا يخرج سافلاً كوالده ذاته ـ دمدمت جودي وقد ساء مزاجها.

ـ عمّ تتكلّمين؟ ـ سأل غريغوري والصغيرة بين ذراعيه.

ـ تعرف جيّداً عمّا أتكلّم. فأنا لستُ متخلّفة عقليّاً. هل تعتقد أنّني لا أعرف أنّك دائماً محاطٌ بالأطفال الصغار؟

ـ إنّه عملي!

ـ طبعاً عملك. من بين كلّ الأعمال الممكنة كان عليك أن تختار هذا العمل. طبعاً لشيءٍ ما في نفس يعقوب. أراهن على أنّك ترعى طفلات أيضاً أم لا؟ الرجال جميعاً منحرفون.

وضع غريغوري مرغريت في مهدها وأخذ أُخته من دائر تنورتها وجرّها إلى المطبخ، مغلقاً البابَ خلفه.

ـ الآن ستوضّحين لي أيَّ خراء تقولين!

ـ لديك قدرة مدهشة على تَصَنُّعِ الغباء، يا غريغوري. لا أستطيع أن أُصدِّق أنّك لا تعرف...

ـ لا!

وعندئذ أفرغت جودي السمَّ الذي تحمّلته منذ تلك الليلة التي لم تسمح له بالنوم معها، منذ أكثر من عشرين سنة، السرّ الذي احتفظت به بحذر وتشكّ بأنّه لم يكن لغزاً والجميع يعرفونه، الموضوع الخفيّ لأحلامها السيّئة وحنقها وعارها الذي لا يمكن البوح به، وتجرؤ الآن على عرضه فقط لحماية ابنة أخيها، المخلوقة المسكينة، كما قالت، كي تتفادى تكرار خطيئة غشيان المحارم في الأسرة، لأنَّ تلك الأمور تنتقل مع الدم، وهي لعنات وراثيّة جينية وإرث تشارلز ريفز الوحيد، الماجن الذي جاء بنا إلى الحياة في ساعة مشؤومة، إنّه شرُّ غلمته القذر: أستطيع إذا كنت تريدُ مزيداً من التفاصيل أن أحكيها لك، لأنّني لم أنس شيئاً، كلّ شيءٍ محفور بالنار في ذاكرتي، إذا أردت استطعت أن أروي لك كيف كان يحملني إلى الكهف بحججٍ مختلفة ويجعلني أفكّه له ليضعه في يديّ ويقول لي إنّه دميتي، سكّرَتي، وأن أمسك به هكذا وهكذا إلى أن...

ـ كفى! ـ صرخ غريغوري ويداه على أُذنيه.

في صباح كلِّ إثنين كان غريغوري يهتف لكارمن مورالِس، العادة التي حافظ عليها حتى اليوم. فبعد الإجهاضِ الذي كاد يكلّفها حياتها ودّعت صديقتُهُ أمَّها، اختفت دون أن تترك أثراً. امّحى اسمها بالنسبةِ لآل مورالِس، لكن ما من أحدٍ نسيها، خاصّة والدها، الذي كان يراها في حلمه بصمت، لكنَّ كبرياءه لم يسمح له قط أن يعترف بأنّه كان يموت ألماً على

الغائبة. لم تتّصل الشابة بأسرتها، لكنّ غريغوري تلقّى بعد شهرين
: من المكسيك عليها رقمٌ وزهرة مرسومة ، توقيع كارمن المميز. كان
د الذي حصل على أخبارها في ذلك الوقت، ومن خلاله كانت تَعْلَمُ
ولادا مورالِس بخطوات ابنتها. في محادثات أيّام الإثنين القصيرة
الصديقان يقفان على مستجدّات حياتيهما ومشاريعهما. كانت
ات تصلهما مشوّهة من التداخلات ومن اللهفة ذاتها بالتواصل عن
ة بعيدة. كان يصعب عليهما التعرف على بعضهما بعضاً من تلك
المتقطّعة وبدأ يغيبُ وجه الواحد منهما عن الآخر، كانا أعميين
، ممدودتين في الظلمة. أقامت كارمن في غرفة غاية في الرداءة
ج حدود عاصمة المكسيك وعملت في ورشة لصياغة الذهب. تضيع
ت وساعات عبر الانتقال في الباصات من طرفٍ إلى آخر من تلك
ـمة الشاسعة اليائسة فلا يبقى عندها وقت لأيِّ نشاطٍ آخر. لم يكن
صدقاء ولا غراميّات. فالخيبة التي سببها لها توم كلايتون خرّبت
ها الساذجة نحو الحبّ من النظرة الأولى ثم إنّه كان من الصعب جدّاً
ـ الرفيق الذي يفهم ويقبل بمزاجها المستقل في ذلك الوسط. ففحوليّة
ا وأخوتها كانت ناعمة بالمقارنة مع ما كانت تتحمّله الآن. وبحكمة
قبلت بالوحدة كشرٍّ أصغر. فمداخلة أولغا الجراحيّة والعمليّة اللاحقة
تاها من القدرة على الإنجاب وهذا ما جعلها أكثر حرّيّة وأكثر حزناً
ن معاً. كانت تعيش على حدِّ المدينة الجهمة تماماً الذي تنتهي عنده
نة الرسميّة ويبدأ عالم المهمّشين الذي لا يمكن قبوله. كان البناء
ضيّقاً بخطّين من الغرف على الجانبين، وزوج من الصنابير،
سلٍ في الوسط وحمّامات مشتركة في العمق، هي من الوساخة دائماً
ـ كانت تتجنّبها. كان ذلك المكان أكثر عنفاً من *الغيتو* الذي ترعرعت
فالناس يجب أن تقاتل من أجل المساحة الصغيرة، كانت تكثر
اجرات ويندر الأملُ، كانت في بلد الكوابيس الذي يجهله السيّاح،
ـة رهيبة حول المدينة الجميلة التي أسّسها الأزتيكيون.كتلة هائلة من
اكن البائسة والشوارع الخالية من الأرصفة والنور، غارقة في
امة التي تمتدُّ إلى حدودٍ لا نهاية لها. كانت تتمشّى بين هنود حمر
ين وهجناء فقراء، أطفالٍ عراة وكلابٍ جائعة ونساء منحنيات من
الأولاد والعمل، رجال متبطّلين ومستسلمين للحظ السيّئ وأيديهم على
ض خناجرهم جاهزين للدفاع عن الكرامة والرجولة المهدّدتين أبداً.
عادت تعتمد على حماية أسرتها وفهمت في الحال أنها امرأة شابة
عيدة هناك مثل أرنبٍ محاطٍ بكلاب صيد الحجل. لم تكن تخرج ليلاً،

تنام ومرتاج في الباب وآخر في النافذة وسكين جزّار تحت المخدّة. وحين كانت تذهب لتغسل ثيابها تجدُ نساءً أخريات ينظرن إليها بحذر لأنّها مختلفة. كنَّ ينادينها «الغرينغا» على الرغم من أنّها وضّحت لهنَّ ألفَ مرّة أنَّ عائلتها من ثاكاتِكاس. لم تكنِ تُكلّم الرجال، وتشتري أحياناً سكاكر وتجلس بانتظار أن يأتي الأطفالُ، الذين كانوا يشكّلون لحظات فرحها القليلة. في ورشة الصياغة كان يعمل بعض الهنود الحمر الكتيمين، بأيدٍ سحريّةٍ، نادراً ما يتوجّهون إليها بالكلام، إلاّ أنّهم يعلّمونها أسرار فنّهم؛ تمرّ عليها الساعات دون أن تشعر بها، غارقةً في عمليّة صبِّ قوالب الشمع الشاقّة، تفرغ المعادن، في نقش وصقلٍ ونظم الحجارة الكريمة وتركيب كلِّ قطعة دقيقة. في الليل كانت تصمّمُ أقراطاً، خواتمَ وأساورَ في غرفتها. في البداية كانت تصنعها من صفيح وقطعِ بلّور لتتدرَّب ثمّ وحين استطاعت أن تُوفّرَ بعض النقود صنعتْها من فضّة وحجارة شبه كريمة، لتبيعها في أوقات فراغها من بابٍ إلى باب، حذرة من أن يعلم معلّموها بهذه المنافسة المتواضعة.

أغرقت ولادةُ الصغيرة سمانثا في كآبةٍ حذرة لكنّها ضارية، لم يحدث معها حالات احتدام فضائحيّة أو تبدُّلات كبيرة وظاهرة في سلوكها، لكنّها ما عادت نفسها. استمرّت بالاستيقاظ عند الظهيرة، وبرؤية التلفزيون وأخذ حمّامات الشمس مثل ضبّة، دون أن تظهر مقاومة للواقع، لكن أيضاً دون أن تشارك فيه. تأكلُ قليلاً، في حالة نعاس دائم فلا تنبعث إلا في الملعب الرياضي، بينما مرغريت تنمو في الظلّ، مهجورة إلى حدٍّ أنّها في الشهر الثامن من عمرها لم تكن قادرة على الجلوس ونادراً ما تبتسم. لا تلمسها أمُّها إلا لتبدِّل لها الفوط وتضع الرضّاعة في فمها. كان غريغوري يحمِّمها ليلاً ويهدهد لها أحياناً محاولاً أن يفعل ذلك بحضور سمانثا دائماً. كان يحبُّ الصغيرةَ كثيراً وحين يأخذها بين ذراعيه يشعر برقّة مؤلمة، برغبة طاغية لحمايتها، لكنّه لم يكن قادراً على إرضاعها كما كان يرغب، فاعترافات أخته رفعت سوراً صينيّاً بينه وبين ابنته، كما لم يعد يشعر بالراحة مع الأطفال الذين يرعاهم في عمله ويتفاجأ وهو يتفحّص نفسه بحثاً عن تفصيلٍ موح من طبيعة مفترضة موروثة عن أبيه. وحين يقارن بين مرغريت وأطفال آخرين بعمرها كان يجدها متخلّفة في نموّها، لا شك أنَّ شيئاً ما كان لا يسير كما يجب، لكنّه لم يكن يريد أن يقاسم زوجته هذه الشكوك كيلا يخيفها ويبعدها أكثر عن الصغيرة. كان يقوم بتجارب ليرى ما إذا كانت تسمعُ جيِّداً، فربّما كانت صمّاء وتبدو

لهذا السبب هـادئةً، لكنّه حين يضرب بكفّيه قرب المهد تفزع. كان يظنُّ أن سمانثا لم تكن تنتبه لكنّها سألته ذات يوم كيف يمكن معرفة ما إذا كان الطفل متخلّفاً، وعندئذ استطاعا أن يتكلما للمرّة الأولى عن مخاوفهما. بعد أن فحصوا مرغريت من الداخل والخارج شخّصوا في المشفى أنّها كانت سليمة، ولا تحتاجُ إلا لمنشّط، فقد كانت محرومةً من حواسّها مثل حيوانٍ في صندوق. أخذ الوالدان دورة في التحريض المُبكّر فتعلّموا دغدغةَ ابنتهما، التحدُّث إليها بترديد الصوت، تعليمها العالم المحيط بها ومهاراتٍ أخرى أوّليّة تعرفها أيّة سعلاة منذُ ولادتها واضطرّا لتعلُّمها من كتاب تعليمات. جاءت النتائجُ واضحةً بعد أسابيعَ قليلةٍ حين بدأت الطفلةُ تزحفُ على الأرضِ وبعد عامٍ لفظت أوّلَ كلمتين لم تكونا بابا أو ماما، بل قط وتنس.

كان غريغوري يدرس للامتحانات الأخيرة، ساعات وأياماً وشهوراً وهو مع الكتاب شاكراً السماء على ذاكرته الجيّدة، الشيء الوحيد الذي كان يعمل جيّداً بينما كلّ ما حوله يبدو أنّه يتآكلُ بلا رحمة في سيرورة من التفكّك. حرب ڤييتنام البعيدة عن الانتهاء كما كان قد قدَّرَ كانت تأخذ أبعاداً كارثيّة، فإلى جانب الراحة لأنّه كان سيشتَقبلُ أخيراً كمحامٍ كان هناك كابوسٌ الذهاب إلى الجبهة الذي لا مفرَّ منه. لأنّه وقّع عقداً مع القوّات المسلّحة ولا يستطيع الاستمرار بالتأجيل. كانت أسرته باعث القلق الأساسي وعلاقته مع سمانثا تتخبّط والانفصال لا شكّ سوف يأتي عليها، ثم إنّه يخافُ أن يترك مرغريت التي تنمو مليئة بالغرائب. كانت ابنته تعيش بطريقة مواربة وغامضة فسمانثا تنساها أحيانا فيجد حين يعود ليلاً أنّها لم تأكل شيئاً منذ الفطور. لا تلعب مع أطفالٍ آخرين، تتسلّى لساعات بالنظر إلى الروايات التلفزيونيّة، لم تملك قط شهيّةً. كانت تغتسل بطريقة مهووسة، وسخة، وسخة. كانت تقول في كل لحظة وتجرُّ كرسيّاً صغيراً إلى جانب المغسلة لتصبن يديها طويلاً. تبول في الفراش وتبكي بمرارة حين تستيقظ مبلّلة الملاحف. كانت وستبقى جميلة على الرغم من الاعتداءات التي كانت ترتكبها بحقّ جسدها تتمتّع بملاحة جدّتها الفرجينيّة وغرابة وجه نورا ريفز السلافي، الذي يظهر في صورة أخذت لها على باخرة اللاجئين التي أقلّتها من أوديسا. بينما كانت مرغريت تنمو في ظل الأثاث متخفّية في الزوايا، كان والداها المشغولان زيادة بمسائلهما والمغشوشان بمظهرها الذي لطفلة هادئة غير قادرين على رؤية الشياطين التي كانت تتوالد في روحها.

كان الناس يعيشون اضطراباتٍ كبيرة ومفاجآت متواصلة. جدَّةُ

الحب الحرّ، بعد الإبقاء عليه قروناً في الأسر، رُويَ بسرعة. وما بدأ كخيالٍ من خيالات الهيبّيين تحوّل إلىاللعب المفضّل للبرجوازيين. رأى غريغوري باندهاش كيف أن الأشخاص أنفسهم الذين كانوا يدافعون عن أكثر الأفكار تزمّتاً راحوا يمارسون الآن الإباحيّة في مجموعات صغيرة ذات طبيعة بيتيّة. كان من المحال عليه في عزوبيّته أن يحصل على فتاة مستعدة لممارسة الحبِّ معه دون وعدٍ بالزواج، فالمتعة دون شعورٍ بالذنب والخوف لم تكن تخطر بالبال قبل حبوب منع الحمل. كان لديه انطباع بأنّه كرّس السنوات العشر الأولى من شبابه للحصول على نساء، كلّ عزمه وخياله ينصرف في صيد خانق، وعامّة ما يكون عبثاً. فجأة دارت الأمور ولم تعد العفّة خلال سنتين فضيلةً بل صارت نقصاً يجب العلاج منه قبل أن يعلم به الجيران. كانت دورة قاسيةً لم يتمكّن غريغوري الغارق في مشاكله، من التأقلم مع التبدلات المأساويّة، فالثورة وصلته متأخّرةً. وعلى الرغم من فشله مع سمانثا لم يخطر بباله الاستفادة من تلميحات بعض زميلاته الفطنات أو أمّهات الأطفال الذين يرعاهم.

وذات سبتٍ ربيعيٍّ دعيت عائلة ريفز للعشاء في بيت بعض الأصدقاء. كانت قد انتهت عادة الجلوس إلى الطاولة، فالعشاء ينتظر في المطبخ وكل نديم يخدم نفسه في صحنٍ من كرتونٍ ويتخذ الوضعيّة المريحة بأفضل ما يستطيع موازناً كأساً مترعة وصحناً يتقطّر صلصة، وقطعة خبز ومنديلاً، بل وأحياناً سيجارةً أيضاً، يفرطون في الشراب ويدخنون الماريغوانا. كان اليوم ثقيلاً على غريغوري. يشعر بالتعب ويتساءل ما إذا لم يكن من الأفضل له أن يكون في البيت يقطّع فروجاً على ركبتيه دون أن يسقط فوقه. بعد العشاء بدأت مناورة جماعيّة، خلع الناسُ ثيابهم ودخلوا في حوضٍ كبيرٍ من الماء الساخن وُضِعَ في الحديقة تحت ضوء القمر، مضت موضة الولادات المائيّة دون تبعات كبيرة، لكنَّ عائلات كثيرة احتفظت كذكرى بحوض هائلٍ، وكانت عائلة ريفز ما تزال تحتفظ بحوضها في الصالة تستخدمه كزريبة لمرغريت وكمستودع ينتهي إليه كلّ ما يلمّانه من الأرض ومصيره النسيان. آخرون أكثر فطنة حوّلوه إلى مركز للهو، مستوحين الفكرة من الحمّامات الجماعية في اليابان، إلى أن أنزلت الصناعة الوطنيّة أحواضاً ضخمة لهذه الغاية. لم يشعر غريغوري بإغواء الخروج وقد انتهى من تناول طعامه توّاً كيلا يبرد في صحن الدار، بدا له من غير اللائق بقاؤه بلباسه بينما الآخرون عراة، فقد يفكّرون أنَّ به شيئاً يخجلُ منه. خلع ملابسه، مراقباً شذراً سمانثا ومستغرباً طبيعتها في الاستعراض. ليس عندها خجل. كان يشعر بالفخر بجسده وكثيراً ما كان

يتحرّك عارياً في البيت، لكن هذا العرض العام أربكه قليلاً، بينما بقيّة المشاركين في الاجتماع يبدون مستمتعين مثل أيٍّ من سكان الأمازون الأصليين. كانت النساء يحاولن البقاء في الماء، والرجال يستغلّون أيّة حجّة كي يتغاووا، أكثرهم عجرفة كان يقدّم عرض عريه وهو يصّب الجرعات. يشعل السيجارة، أو يبدِّل الاسطوانات، حتى أنَّ بعضهم كان يجلس القرفصاء على حافّة الحوض على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من وجه زوجة غيره. فهم غريغوري أنّها لم تكن المرَّة الأولى التي يجد فيها أصدقاؤه أنفسهم في هذه الحالة وشعر بنفسه مَخوناً، وكأنّهم يتقاسمون سرّاً استثني منه عمداً .انتابه شكٌ بأنَّ سمانثا حضرت حفلات مشابهة ولم تجد من المناسب أن تحكي له ذلك. حاول ألاّ ينظرَ إلى النساء، لكنّ عينيه كانتا تهربان منه إلى أثداء أمِّ صاحبة البيت. سيّدة ستّينيّة، لم يتوقّف عندها إلاّ عندما ظهرت هاتان الخاصّتان غير المتوقّعتين في امرأة لها عمرها طافيتان على وجه الماء. في مصيره المضطرب كان ريفز سيطوف في جغرافيّات مؤنّثة كثيرة من المحال عليه تذكّرها جميعاً، لكنّه لن ينسى ثديي تلك الجدّة أبداً. خلال ذلك كانت سمانثا مطبقة الأهداب مرميّة الرأس إلى الخلف، مسترخية وسعيدةً أكثر من أيّة مرّة رآها فيها زوجها، تدندن على هواها حاملة كأس نبيذها الأبيض بيدٍ واليد الأخرى ضائعة تحت الماء، قريبة برأيه أكثر من اللازم من ساقي تيموثي دوان. في طريق العودة إلى البيت حاول أن يتكلّم حول الموضوع، لكنّها نامت في السيّارة. بدت حفلة العري في اليوم التالي أمام فنجان القهوة المتصاعد بخاره في المطبخ المضاء بالشمس حلماً بعيداً ولم يذكرها أيٌّ منهما. منذ تلك الليلة استغلّت سمانثا كل فرصة لتجربة إحساسات جماعيّة جديدة بالمقابل بقيت، كما في السابق، باردةً جدّاً في خلوتها في فراش الزوجيّة. لماذا ستحرم نفسها؟ ليس على المرء أن يطرح بل أن يجمع تجارب في الحياة، من كلّ لقاء يخرج المرء أكثر غنى وبالتالي يملك المزيد مما يقدّمه لقرينه، فالحبّ يكفي الجميع، واللذة بئر لا ينضب، يستطيع الواحدُ أن يشرب منه حتى التخمة، هذا ما كان يؤكده أنبياء الزواج المفتوح. كان غريغوري يظنّ بوجود مكيدة ما في هذه التبريرات، لكنّه لم يتجرّأ على البوح بشكوكه خوفاً أن يبدو كأحد سكّان الكهوف. كان يشعر بنفسه غريباً في ذلك الوسط، لم يقتنع بالاختلاط وحين رأى القبول المتحمّس له من جميع أصدقائه تصوّر أنّ ماضي الحيِّ يُثقِلُ عليه ولذلك لم يتمكّن من التكيّف. لم يكن يبغي أن يقبل ما كان يزعجه من تلمّس رجالٌ آخرين لسمانثا بذريعة القيام بمسّاداتِ إزالةِ السمّيّة وتنشيط نقاط أو تحريض النمو الروحي من

خلال تواصل الأجساد. كانت تشوّشه، فيعتقد أنّها تخفي عنه جوانب من شخصيّتها، لاتبدي له وجهها الحقيقي أبداً بل تتالي أقنعة، كان يبدو له أنّ من الانحراف أن يداعب امرأة أمام زوجته، لكنّه أيضاً لا يريد أن يبقى في الخلف. في كل أسبوع يكتشف علماء الجنس الدارجون مناطق إثارة جديدة ويبدو أنّ على المرء أن يمرّ عليها جميعاً كي لا يعتبر جاهلاً. على كومودينة غرفة النوم كانت تتراكم كتب الاستشارة، تنتظر دورها لتُدْرَس. تجاسر في إحدى الفرص على اختبار طريقةٍ للقاء مع الأنا وإيقاظ الضمير بواسطة الاستمناء الجماعي، فاتهمته سمانثا بأنّه بربريّ وروحٌ مبتدئة وبدائية.

ـ لا أدري ما علاقة نوعيّة روحي بأمر طبيعي تماماً وهو أنّني لا أحبُّ أن أرى أصابعَ رجالٍ آخرين بين ساقيكِ!

ـ نموذج الثقافة المتخلّفة والغريبة ـ علّقت راشفةً بقسوة عصيرَ كرفسها.

ـ كيف؟ ـ سأل مرتبكاً.

ـ أنت مثل هؤلاء اللاتينيين الذين ترعرعتَ بينهم. كان عليك ألا تخرجَ أبداً من ذلك الحي.

فكّرَ غريغوري ببيدرو وإنماكولادا مورالِس وحاول أن يتخيّلهما عاريين في حوضٍ من الماء الساخن مع جيرانهما سابرين أجساد بعضهم بعضاً، الأنا والضمير. مجرّد الفكرة امتصّت حنقه وراح يضحك مقهقهاً. الإثنين التالي عقّب على هذا الموضوع مع كارمن عبر الهاتف وآلاف الكيلومترات فسمع ضحكةَ صديقته الجامحةَ، مامن واحدة من هذه الحداثات وصل إلى غيتو لوس أنجلوس وأقل منها إلى المكسيك حيث تعيش هي.

ـ مجانين، كلّهم مجانين ـ أبدت كارمن ـ . ولا ميّتة أظهر عارية أمام أزواج غرباء. لن أعرف أين أضع عينيَّ، يا غريغ. من جهةٍ أخرى إذا كان بعضُ الرجال يمدّون أيديهم إليّ وأنا في لباسي فتصوّر ماذا سيفعلون إذا ماتعرّيتُ.

ـ يالك من هنديَّة، يا امرأة. هنا لن ينظر إليك أحد.

ـ إذن لماذا يفعلون ذلك؟

لم أكن أشعر بالراحة في مكان، فالحي الذي ترعرعتُ فيه ينتمي إلى الماضي ولم أستطع أن أتجذّر في مكانٍ آخر. لم يبق من عائلتي إلا القليل،

فزوجتي وابنتي بعيدتان عنّي بعد أمّي وجودي في الماضي. كذلك كنت بحاجة إلى الأصدقاء، فكارمن في كوكبٍ آخر ولا أعتمدُ كثيراً على تيموثي، لأنّه صار يملّ سماننا وأظنّ أنه كان يتفادانا، حتى بالسيسكو نفسه، الذي يشبه الكاريكاتير، المنيع على أيّ تبدّلٍ، انقلب وتحوّل إلى ورعٍ يعيشُ محاطاً بسدنة يعبدون الهواء الذي يتنفسه ومن كثرة ما نظر الروماني الغريب إلى نفسه في مرآة تلك العيون المؤلّهة انتهى إلى قبض الأمر بجدّيّة. وفقد إلى جانب ظرافته اهتمامه باختراع أطباق طعام غريبة أو بزراعة الورد، أي أنّه لم يبق بيننا أشياء كثيرة مشتركة. احتفظت جون وسوزان بسحرهما وبرائحة الأعشاب والبهارات اللذيذة التي تشرّبها جلداهما، لكن صار من الصعب الوصول إليهما، فقد صارتا تعيشان لنضالهما من أجل المرأة وكيمياء وصفاتهما المطبخيّة النباتيّة. كانتا خبيرتين في تمويه أي طعام كريه الرائحة ومنحه طعم حلوى الكليات. لم أبنِ في كلّيّة الحقوق صداقاتٍ جديدةً، فالطلاب يتنافسون في وسطٍ ضارٍ وكلّ واحدٍ غارق في مشاريعه وطموحاته، ندرس بلا راحة. لم يبق عندي حماسٌ للاجتماعات، حتى القلق السياسي والفكري صار في المقام الأخير. كم كان من الصعب عليّ أن أشرح لسايروس بأنّ مشكلة اليسار الوحيدة هناك أنّ أحداً لا يريد أن يصير يمينيّاً. كنت أشعر عند العودة إلى البيت في المساء بتعبٍ في أحشائي، أتصوّر في الطريق إمكانيّة أن أنعطف وأضيعَ في الأفق، كما كان يفعلُ والدي حين كنّا نجوبُ البلد على غير هدى ولا غاية. كانت فوضى البيت تثيرُ أعصابي، وهذا لا يعني أنّني متعصّبٌ للنظام إطلاقاً. أظنُّ أنّني كنتُ منهكاً من الدراسة والعمل، وربّما لم أكن أتصرّف كزوجٍ صالح وسماننا لا تساهم من جهتها بالكثير. أحياناً نبدو خصمين أكثر مما نحن حليفين. وفي هذه الظروف يُعمى على المرء فلا يلمحُ مخرجاً للزقاق الذي يجد نفسه محشوراً فيه، يبدو الواحد في طاحونة اللحم وليس أمامه من مهرب. حين تحصل على شهادتك سيختلف كلّ شيء، هكذا كانت تواسيني كارمن من بعيد، لكنّني كنتُ أعرف أنّ هذا لم يكن السبب الوحيد لضيقي. كنت أشاهد بإيمانٍ مسلسلاً تلفزيونيّاً عن محامٍ داهية يقامر بسمعته وأحياناً بحياته من أجل أن ينقذ بريئاً من السجن أو أن يعاقب مذنباً. لم أضيّع حلقةً واحدة بأمل أن يعيد إليّ البطلُ الحماسَ للقانون ويخلّصني من الاشمئزاز الهائل الذي تسبّبه لي هذه المهنة. لم أكن قد بدأتُ بممارستها بعد ومع ذلك كنت خائب الأمل. يظهر المستقبل مختلفاً عن المغامرة التي تصوّرتها في شبابي. الجهد الأخير لإنهاء الدراسة يضجرني إلى حدّ أنّني بدأت أتكلّمُ عن ترك الدراسة

والانصراف إلى شيء آخر. الضجرُ حنقٌ بلا حماس، كان يؤكِّدُ لي تيموثي دوان. برأيه كنت مغتاظاً من العالم ومن نفسي، لا غرابة في الأمر فقدري لم يكن طريقاً مفروشاً بالورد. كان ينصحني بالتخلّص من التعقيدات، بادئاً بزواجي من سمانثا الذي بدا له خطأً واضحاً. كنتُ أرفض قبول ذلك، ومع ذلك جاءت لحظة أعطيته فيها الحقّ على الأقل في هذا الجانب. حدث ذلك في حفلة مثل الكثير من تلك التي كنّا نذهب إليها في تلك المرحلة، في بيتٍ ككلّ البيوت بأثاث مضعضع، سجّادٍ بلدي يغطي لطخ الأريكة، ملصقاتٍ «لهوشي منه» و«تشي غيفارا» إلى جانب المنظرات الهنديّة المطرّزة، وأزواج الأصدقاء أنفسهم، الرجال بلا جوارب والنساء بلا حمّالات. الطعام البارد، قطع الجبن الذي كان يزداد زنخاً مع مرور الساعات، جرعات زائدة أكثر من اللازم، سجائر وماريغوانا من النوعيّة الرديئة جدّاً حتى أنّ دخانها كان يفزع البعوض. أيضا الحوارات اللانهائيّة نفسها عن الحلقات الأخيرة للصرخة الأولى ، حيث كلّ واحد يعوي إلى أن يبحّ صوته للتخلّص من العدوانيّة، أو العودة للرحم، يتخذُ المشاركون العراة وضعية الجنين ويمصّون أصابعهم. لم أفهم قط هذه العلاجات، ولم أرض بتجربتها، كنت أشمئزُّ من الكلام عن هذا الموضوع، فقد تعبتُ من السماع عن المتغيّرات الجوهريّة المتعدِّدة في حياة كلّ واحدٍ من معارفي. جلستُ في الشرفة أشرب وحيداً. أعترف بأنّني صرت أشرب كلّ يوم أكثر. تخلّيتُ عن تناول المشروبات القويّة لأنّها كانت تشوِّشُ سعادتي وتخنقني بالأغشية المخاطيّة الملتهبة، والضيق الرهيب في صدري.سرعان ما اكتشفتُ أنَّ النبيذَ يسبِّبُ لي الأعراض نفسها، لكنّني أستطيع أن أستهلك كميّاتٍ أكبر قبل أن أشعر بنفسي مريضاً فعلاً. كنتُ قبل ساعات قد دخلت في نقاشٍ صارخ مع سمانثا وبدأت أفكِّرُ أنّ زواجنا راح يتدحرج نحو هاوية. كنت أدخل إلى المرآب بالسيّارة حين رأيت جاراً لنا قادماً يمسك مرغريت من يدها، وليس لابنتي من العمر إلاّ سنتين ونيّف. أعتقد أنّها ابنتكَ، وجدتها هائمة على بعد ميلين من هنا ولكي تصل إلى هناك لا بدّ أنّها سارت منذ الصباح، قال الرجلُ دون أن يخفي عتبه واحتقاره. عانقت الصغيرة مذعوراً. كان صدغاي ينبضان .لم أكن أستطيع الكلامَ تقريباً حين واجهتُ زوجتي لأسألها أين كانت حين خرجت مرغريت من البيت، وكيف لم تنتبه لغيابها كلّ هذه الساعات؟ ردّت عليَّ واضعة يديها على خصرها، مغتاظة مثلي زاعمة أنَّ الجارَ كريهٌ ويكرهها لأنَّ القططَ أكلت له كناريَّهُ، وأنّها غير مضطرّة لأن تقدِّم لي توضيحاتٍ، فهي بعد كلّ شيء لم تسألني أين كنتُ أنا طوال النهار، ومرغريت كانت مستقلة تماماً بالنسبة

لعمرها وهي ليست على استعداد لأن تراقبها كسجّان ولا أن تبقي عليها مربوطة بحبلٍ، كما كنتُ أفعلُ مع الأطفال الذين كنتُ أرعاهم، وتابعت مدمدمة حتى ما عدتُ أتحمَّل أكثر وخرجت من الغرفة صافقاً البابَ . ثم أخذتُ حمَّاماً بارداً طويلاً كي أزيل من مُخيِّلَتي الأمور المشؤومة التي كان من الممكن أن تقع لمرغريت في ذينك الميلين الملعونين. ولم يكن هذا كافياً ففي الحفلة بقيت حانقاً من سمانثا. ذهبتُ إلى الشرفة بكأسٍ من النبيذ وارتميتُ على كرسيٍّ، عكرَ المزاج، دائخاً قليلاً وضجراً من موسيقى كاتماندو الرتيبة، الواصلة من الصالة. قدَّرتُ الزمنَ الضائع في ذلك الاجتماع المزعج، كان عليّ أن أقدِّمَ الامتحانات الأخيرة خلال أسبوع وكلّ دقيقة دراسة كانت ثمينةً. في تلك اللحظة وصل تيموثي دوان وحين رآني قرَّب كرسيّاً وجلس بجانبي. فرص لقائنا وحيدين كانت قليلة. لاحظتُ أنّه فقد وزناً في السنوات الأخيرة وملامحه علَّمت بإزميل، لم تعد تعلوه ملامح البراءة التي على الرغم من تبجُّحاته كانت أحد جوانب سحره حين تعارفنا. أخرج من جيبه أنبوباً زجاجيّاً، وضع فيه كوكايييناً واستنشقه بصخبٍ ثم قدَّمه إليَّ، لا أستطيع استعماله فهو يقتلني، فقد شعرتُ في المرّة الوحيدة التي جرَّبته فيها بأنّهم يطعنونني بخنجرٍ شديد البرودة بين عينيّ، ودام ألم رأسي ثلاثة أيّام، دون أن أتذكَّرَ الجنّةَ الموعودة. قال لي تيم يجب أن ندخل لأنّهم كانوا ينظّمون لعبة، لكن لم يكن عندي أيّ اهتمام برؤية الجميع عراة من جديد.

ـ هذا مختلف. سوف نتبادلُ الزوجات ـ ألحَّ.

ـ ليس عندك زوجة، كما أعلم.

ـ أتيتُ بصديقة.

ـ لصديقتك وجه عاهرة.

ـ وهي كذلك ـ ضحك، وهو يجرُّني إلى الصالة.

كان الرجالُ قد اجتمعوا حولَ طاولة غرفة الطعام، سألتُ عن النساء فأعلموني بأنّهنَّ ينتظرن في السيَّارات. كانوا يبدون متوتِّرين، يربتون على أكتاف بعضهم بعضاً، يمزحون مزاحاً مزدوج المعنى فيحتفلون به بضحكات عالية. شرحوا القواعد: ممنوع التراجع، والندم أو محاولة التبديل. أطفؤوا الأنوار، وضعوا مفاتيحهم في صينيّة، خلطها أحدٌ ما وأخذ كلُّ مشترك واحداً على عماها. وعلى الرغم من ضبابيّة الكحول والتشوُّش الذي منعني من الانقضاض على الصينيّة مثل البقيّة، رأيتُ بوضوح مفاتيحي في يد طبيب أسنان بطين ومتحذلق، يعتبر صاحب

شهرة صغيرة لأنّه يقتلع الأضراس بإبر صينيّة مغروزة في الجلد كمخدّرٍ وحيد. أخذت المفتاح الأخير، وبي رغبة بأن أمسك طبيب الأسنان من ثيابه وأشقّ وجهه بواحدة من تلك اللكمات الأكيدة التي علّمنيها الأب لارّاغيبل في صحن دار كنيسة لوردِس، لكنّني خفت أن أصير مسخرة. خرج الآخرون باتجاه العربات تلفّهم الضحكات والمزاح وأنا مضيت إلى المطبخ لأضع رأسي تحت الماء البارد كي أنفض عنّي التشوّش. صببت بقايا القهوة في الترمس، جلستُ على كرسيّ صغير أستحضر الأزمنة التي كانت فيها الحياة أكثر بساطةً والجميع يفهمون القواعد. بعد قليلٍ وجدتني في المكان نفسه الرفيقةُ التي كانت من نصيبي، شقراء ، نمشاء وظريفة، أمٌّ لثلاثة أولاد ومدرِّسة لمادّة الرياضيات في إحدى المدارس الابتدائيّة، آخر امرأة يمكن أن يخطر لي أن أمارس معها الزنى. أنا بانتظارك منذ برهةٍ طويلة، قالت لي بابتسامة خجلة. حاولت أن أشرح لها أنّني لم أكن على ما يرام، لكنّها ظنت أنّني أرفضها لأنّها لا تُعجبني. بدت تنكمش في عتبة الباب مثل طفلة ضُبطت في خطئها. ابتسمتُ لها بأفضل ما استطعتُ فاقتربت، أخذتني من يدي، ساعدتني على النهوض، حملتني إلى السيّارة بمزيجٍ من الحياء الرقيق والثبات الذي أفحمني. قادت السيّارة حتى بيتها. وجدنا أولادها نائمين أمام التلفاز فحملناهم إلى أسرَّتِهم. ألبستهم صديقتي مناماتهم، قبّلتهم على جباههم، سوّت الألحفة وبقيت معهم إلى أن عادوا وناموا. ذهبنا بعدها إلى غرفة النوم، حيث تتصدَّرُ صورةُ زوجها، الذي يرتدي ثوب القضاة الكوموديْنة. أعلنت أنّها سترتدي شيئاً أكثر راحة واختفت في الحمّام، بينما رحتُ أفتح الفراش شاعراً بنفسي أبلةَ لأنّني لا أستطيعُ التخلّص من التفكير بسماننا وطبيب الأسنان وأتساءل لماذا لا أستطيع المشاركة في تلك الألعاب مثل الآخرين بلا حرج، ولماذا أُصابُ بكل ذلك الحنق. عادت الشقراء دون زينة وهي تمشِّطُ شعرها وترتدي ثوبَ نوم مجدول له لون بوظة الفريز، رائعاً بالنسبة لأمٍّ تستيقظ باكراً لتُحضِّر طعام إفطار العائلة، لكنه غير مناسب لتلك الظروف. لم يكن في حركاتها أيُّ غنجٍ، كأننا زوجان منذ زمنٍ بعيد في آخر رتابة لنا قبل الذهاب إلى الفراش بعد يوم من العمل. جلست على ركبتَيَّ وشرعت تفكُّ قميصي. كانت ابتسامتها ساحرة، وأنفها شامخ تفوح منها رائحة صابون ومعجون أسنان طريّة، ومع ذلك لم تولّد عندي أيّة إثارة. قلت لها أن تعذرني، وأنّني شربت كثيراً ويزعجني الفرحُ.

ـ الحقيقة لا أعرف لماذا جئتُ. لا أحبُّ هذه الألعاب، لا أحبُّها إطلاقاً وأعتقد أنَّ سماننا كذلك ـ اعترفت لها أخيراً.

- ماذا تقول؟ - وراحت تضحكُ مقهقهةً - زوجتك تنام مع عدد من أصدقائك ويقولون مع بعض صديقاتك. فلماذا لا تتسلى أنت قليلاً أيضاً؟

لم تكن تلك الأيام جيّدة بالنسبة إليّ. فحياتي كانت مجموعة من التعثُّرات، لكنّني الآن وأنا في الخمسين أعتقدُ حين أنظرُ إلى الخلف وأستخلص حساب جهودي ومآسيَّ أنّها كانت أسوأ مرحلة في حياتي، لأنَّ شيئاً جوهريّاً التوى في روحي وما عدت من كنته. أظنّ أن النصوع يضيعُ عاجلاً أو آجلاً. ربّما هذا أفضل، لأنّه لا يمكن للمرء أن يسيرَ في العالم كساذج، عارٍ ودون دفاعات. ترعرعتُ على الشجار في الشارع. وكان عليَّ أن أصَلِّب عودي في وقتٍ أبكر، لكنّ لم يحدث ذلك. الآن وبعد أن قلَّبتُ الألمَ عدّة مرّاتٍ أستطيع أن أقرأ قدري مثل خارطةٍ مليئة بالأخطاء وفي الوقت الذي ليس عندي فيه أيّة شفقة على نفسي وأصبحتُ قادراً على أن أراجعَ حياتي دونما عواطف، لأنني وجدتُ شيئاً من السلام، لا آسفُ على ضياع البراءة. أشتاق إلى مثاليّة الشباب، المرحلة التي كان لا يزال يوجد فيها خطّ واضح فاصل بين الخير والشر واعتقدتُ أنَّ من الممكن العمل دائماً حسب مبادئ ثابتة. لم يكن هذا موقفاً عمليّاً أو واقعيّاً، أعرف ذلك، لكن كان هناك حماس نظيفٌ في تلك الحالة من اللاتسامح ما يزال يحرِّكني حين ألقاه عند الآخرين. لا أستطيع أن أقول متى بدأت أتغيّرُ وتحوّلت إلى الرجل القاسي الذي أنا عليه الآن. من السهل أن يُعزى ذلك كلّه إلى الحرب، لكن التآكل بدأ في الحقيقة قبلها. أو بالأحرى أستطيع القول بأن مهنةَ المحاماة تحتاج إلى جرعة كبيرة من الكلبيّة، لا أعرف أحداً خالياً منها، لكن هذا جوابٌ ناقصٌ أيضاً. تقول لي كارمن ألاّ أهتمّ، لأنّني مهما ملكتُ من الكلبيّة لن يكون كافياً للعيش في هذا العالم ثم إنَّ هذه الشكوك ليست إلا حماقات منّي، وعلى الرغم من المظاهر ما أزال ذلك الحيوان القاسي المصارع لكن صاحب القلب الوديع أيضاً، الذي تبنّته منذ زمن بعيدٍ كأخٍ، لكنّني أعرف نفسي جيّداً وأعرف ما أنا من الداخل.

زملاء، نساء، أصدقاء وزبائن خانوني، لكن ما من خيانة آلمتني مثل خيانة سمانثا، لأنّني لم أتوقّعها. منذ ذلك وأنا أرتابُ دائماً ولا أفاجَأ حين يُخَيِّبني أحدٌ ما. في تلك الليلة لم أعدْ إلى البيت. نزعتُ عن معلّمة الرياضيّات الدثار ذا لون بوظة الفريز وتقلّبنا في فراشها الزوجيّ. لا بدَّ أنّها لاتحتفظ بذكرى طيّبة عني، وأنّها انتظرت عاشقاً خياليّاً وخبيراً وعثرت على واحدٍ مستعدٍّ للخروج من الطريق بأسرع ما يمكن. ارتديت بعدها ثيابي ورحتُ أمشي إلى بيت جون وسوزان، حيثُ وصلتُ في الثالثة

صباحاً، منهكاً وعليّ أثار جليّة لمن شرب. تعلّقتُ بالجرس لدقائق عدّة إلى أن ظهرتا حافيتين في ثياب النوم. استقبلتاني دون أسئلة، كما لو أنّهما اعتادتا زياراتي في مثل تلك الساعة، وبينما راحت واحدة منهما تعدُّ لي فنجانَ بابونج راحت الأخرى ترتجلُ من أريكة الصالة فراشاً لي. لا بدَّ أنّها وضعت في البابونج شيئاً، لأنّني استيقظت بعد اثنتي عشرساعة والشمسُ في وجهي وكلبُ صديقتيَّ عند قدميَّ. أعتقد أن شبابي انتهى في تلك الساعات.

عندما استيقظت كانت القرارات التي ستهديني في سنوات حياتي القادمة في عقلي وقلبي، على الرغم من جهلي لذلك في تلك اللحظة. الآن وأنا أستطيع أن أرى المستقبل بشيء من الأمل أنتبه إلى أنّني في تلك اللحظة بدأتُ أصيرُ ما صرته لزمن طويل، رجلاً متعجرفاً، بارداً، طمّاعاً طالما كرهته وكلّفني كثيراً التخلص منه.

مكثتُ مع صديقتيَّ خمسة أيّام دون أن أتصلَ بسمانثا. تناوبتا على مرافقتي والاستماع بصبرٍ إلى اشتياقاتي وقنوطي وشكوايَ المكرّرة ألفَ مرّة. تقدّمتُ يومَ السبت للامتحانات دونما شعور بالضيق، لأنّه لم يكن عندي أمل خادع. لم تكن تهمُّني شهادة المحاماة، حقّاً إنّني كنت أشعر باللامبالاة العميقة تجاه مستقبلي. بعد شهرين أخبروني على الطرف الآخر من العالم بأنّني حصلتُ على الشهادة من المحاولة الأولى، الأمر الذي نادراً ما يحدثُ في هذه المهنة الملتوية. اتجهتُ من الامتحان إلى مكتب تجنيد القوّات المسلّحة مباشرة. توجّب عليّ التدريب ستّةَ عشر أسبوعاً، لكنَّ الحرب كانت في أوجها فاختصروا الدورة إلى اثني عشر أسبوعاً. كانت هذه الشهور الثلاثة في بعضِ جوانبها أسوأ من الحرب ذاتها. لكنّني خرجتُ منها بتسعين كيلو غراماً من العضلات ومقاومةِ جملٍ ووحشيّة كاملة، جاهزاً لو أمروني لأن أمزِّق ظلّي ذاته. قبل يومين من ركوبي الباخرة اختارني الحاسوب لمعهد اللغات في مونتريّ. أعتقد أنَّ نشأتي في الحيِّ المكسيكيِّ واعتيادي سماع الروسيّة من أمّي وأوبراتها الإيطاليّة مرّنت أذني. بقيت قرابةَ شهرين في جنّةٍ من الشواطيء المليئةِ بالفقمات التي تتشمّسُ على الصخور، والبيوت الفيكتوريّة ومساءات بطاقات البريد، أدرسُ اللغةَ الڤييتناميّة كاملَ الوقت على يد أساتذةٍ يتعاقبون عليَّ كلَّ ساعة يهدِّدوني بمحاكمتي بالخيانة الوطنيّة إن لم أتعلّم بسرعة. في نهاية الدورة صرتُ أبربطُ بتلك اللغة أفضل من غالبيّة رفاقي. انطلقت إلى ڤييتنام وأنا أداعب شبح الموت السرّي كيلا أضطرَّ لمواجهة أعمال وكوابيس الحياة. لكنّ الموتَ أصعبُ بكثيرٍ من الاستمرار بالحياة.

# القسم الثالث

ناسٌ. الحربُ ناسٌ. الكلمة الأولى التي تحضرني عندما أتكلّمُ عنها هي الناس: نحنُ، أصدقائي، أخوتي، جميعنا تجمعنا الأخوّة اليائسة ذاتها. رفاقي والآخرون، أولئك الرجال والنساء الصغارُ، ذوو الوجوه العصيَّة على السبر، الذين عليَّ أن أكرههم، ولا أستطيع، لأنَّني تعلّمتُ معرفتهم في الأسابيع الأخيرة. كل شيءٍ هنا بالأبيض والأسود، ليس هناك لون أساس أو غموض، انتهت المناورة، النفاق، الخداع. فالمسألة حياةٌ أو موت، تَقْتُلُ أو تُقْتَلُ. نحن الطيِّبون وهم الأشرار، ولولا هذا اليقين لكنَّا أكلنا الخازوق. وهذا الهذيان بشكل ما منعشٌ، إنَّه واحدة من فضائل الحرب. إلى هذا الجحر يصل ما هبَّ ودبَّ، زنوج هاربون من البؤس، فلاّحون فقراء مازالوا يؤمنون بالحلم الأمريكي ، بعض اللاتينيين الذين أخذتهم حمَّى قرنٍ من الحنق ويتطلَّعون إلى أن يكونوا أبطالاً، معتلّون نفسيّاً، وآخرون مثلي، هاربون من الفشل والآثام، لكنّنا جميعاً في المعركة متساوون، لا يهمُّ الماضي، والطلقة هي التجربة الديمقراطيّة الكبرى. علينا أن نثبت كلَّ يوم أنَّنا رجالٌ، نحن محاربون، نقاومُ، نتحمّلُ الألمَ والإنهاك، وألاّ نتذمَّر أبداً، أن نقتلَ، نكزُّ على أسناننا ولا نفكر. لاتبحث عن الحقيقة، أطِعْ، على هذا روَّضونا كما تروّضُ الجياد، درَّبونا بروؤس أقدامهم، بالشتائم والإذلال. لسنا أفراداً، نحن في هذا المسرح المأساوي آلات في خدمة وطن الخراء. يفعل الواحد منَّا أيَّ شيء كي يبقي حيَّاً، أشعر بالراحة حين أقتل لأنّني أبقي حيّاً هذه المرَّة على الأقل. أقبلُ الجنون ولا أحاول تفسيره، فقط أتمسَّكُ بسلاحي وأطلِقُ النار. يجب ألاَّ تُفكر كي لا تتشوَّش وتتردَّد، وإذا فعلتَ متَّ، إنّه قانون الحرب الذي لا يخطئ. ليس للعدوِّ وجهٌ، فهو ليس إنساناً، بل حيوان، مسخ، شيطان، لو أستطيع تصديق هذا من أعماق قلبي لسهل الأمر، لكنَّ سايروس علّمَني

الشكَّ بكلِّ شيء، أجبرني على أن أسمّي الأشياءَ بمسمياتها: القتل، الاغتيال. جئتُ لأنفضَ عني اللامبالاة ولأغوصَ في شيء مدهش، جئتُ بموقف كلبيٍّ، مستعداً لأن أجمع تجارب المجازفة كي أضفي معنى على حياتي. جئتُ بسبب همنغواي، بحثاً عن الرجولة، عن أسطورة الفحل، تعريفٍ للذكوريّة، فخوراً بعضلاتي والمقاومة التي أحرزتها خلال التدريبات، مستعداً لاختبار قوّتي، فقد سئمتُ خيانةَ مشاعري لي. إنّه طقس التعلّم المتأخّر. لا أحد يأتي في الثامنة والعشرين إلى مثل هذا الضياع. كانت الأشهر الأربعة الأولى مثل لعبة التكهّن ، مراهنة متواصلة على نفسي، التي أراقبُها عن مسافة معيّنة وأحكمُ عليها ساخراً، الماضي يحاصرني فأبحث عن أقصى المخاطراتِ، الألم، التعبِ والوحشيّة. وحين أبلغُ الحدَّ لا أعود أستطيعُ التحمّل. المخدِّراتُ تساعدُ. لكنّني استيقظتُ ذات يوم فجأةً وأنا أشعر بنفسي حيّاً، حيّاً في الجوهر، حيّاً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، عاشقاً لهذا الصلاء الذي هو الوجود. فهمتُ أنّني فانٍ، قشرةُ بيضٍ، تفاهة تتحوّل في لحظةٍ واحدة إلى غبار فلا يبقى منها حتى ذكراها. وعندما يصل الجنودُ الجدد، سأنظرُ إلى الرجال، أتفحّصهم بحذرٍ، فقد طوّرتُ الحاسّة السادسة لقراءة العلامات، أعرف من سيموتُ أوّلاً ومن قد لايموت.سيموت أوّلاً الرجالُ الأشجع والأجرأ لأنّهم يظنّون أنّهم لا يُهزمون، هؤلاء يقتلهم كبرياؤهم. الجبناء سيموتون أيضاً لأنّهم سيصابون بالشلل أو يفقدون عقولهم، سيطلقون النار دون تبصُّرٍ وقد يصيبون رفيقهم، لذلك فمن الأفضل الابتعاد عنهم، إنّهم يجلبون سوء الطالع. لا أريدُهم في فصيلي. الأفضل هم الذين يحافظون على هدوئهم، لا يتعرّضون إلى مخاطر غير مجدية، لايهمّهم أن يفوزوا أو يلفتوا الانتباه. إرادة الحياة عندهم هائلة. أحبُّ اللاتينيين، فهم صموتون، شكسون من الخارج، ديناميت من الداخلِ، انفجاريّون، قتّالون، لا يخيفهمُ الموتُ. ليسوا بواسل وحسب بل ورفاقاً جيدين أيضاً.

أبلع ملء يديَّ من حبوب الأنفيتامين، دفعةً واحدة، هراوة تقطّعُ معدتي، مرارةٌ في فمي، أتكلّمُ بسرعة فلا أعرف ما أقول، بعد برهة لا أستطيع الكلام، أمضغُ علكة كيلا أمضغ لساني، أدوخُ بعدها من الكحول والمُنوِّمات كي أستطيع النومَ قليلاً. أحلم فأرى أنهاراً من دم، أمواجاً من البنزين ملتهبة،جراحاً مفتوحةً، شفاهَ نساءٍ، فروجاً، أكواماً من الموتى، رؤوساً مقطوعةً، أطفالاً مشتعلين بالنابالم، وتلك الصور المقرفة التي يجمعها الجنود، كلّها بالأحمرِ، ليس غير الأحمر. اعتدتُ أن أنامَ بالتقسيط، خمس أو عشر دقائق كلّما استطعتُ ذلك، مُلقًى في أيِّ مكان

ملفوفاً بمعطفي البلاستيكي، مستنفرَ الحواسّ دائماً. تطوَّرَ سمعي، أستطيعُ أن أسمع خطوَ حشرة تتجرجرُ على الأرض، ورهفت حاسّةُ الشمِّ عندي، أستطيعُ أن أشتمَّ المحاربين عن مسافة عدَّةِ أمتارٍ، يأكلون صلصة السمك وحين يخافون ويتعرَّقون تنتشرُ الرائحة. ما رائحتنا نحن؟ أعتقد أنّها رائحةُ كولونيا الحلاقة، لأنَّنا نشربها كما لو كانت وسكي، ففيها أربعون درجة من الكحول، وحين أتمكَّنُ من النوم ساعتين دون كوابيس أشعر بنفسي جديداً، لكنَّ هذا ليس ممكناً دائماً. عندما لا أقوم بالحراسة، بمهمَّةٍ ما، أقضي الوقتَ مرتعداً في المعسكر تحت ظِلَّةٍ مبلَّلةٍ بالمطر في خيمةٍ تفوح منها نتانة البول، الجزمات ، الرطوبة، بقايا تعيينات الطعام المتفسِّخة، العرق، أسمعُ تراكضِ الجرذان ورتابات الرجال والذباب حتى في الفم. أستيقظُ أحياناً باكياً مثلَ أبله، كم كان سيضحكُ منّي خوان خوسِه، كم مرَّة حملني إلى زاوية في المدرسة كيلا يراني الآخرون أبكي، أسكتْ، أيها الغرينغو اللوطيّ، الرجال لا يبكون، كانَ يهزُّني مغتاظاً، وبما أن التهديدَ أبعد ما يكون عن حلِّ المشكلة وكان يفاقمها، كان يتوسّلني بأعزِّ ما أحبُ أن: أسكتْ، يا أخي، قبل أن يمسكوا بنا ويرفسونا على أنَّنا امرأتان. كي أبدأ العمل أتناولُ أسبيريناً مع القهوة الباردة طبعاً، أُدخِّنُ يربا اليومِ الأول و قبل أن أمضي ألتهمُ الأنفيتامين. أشتاقُ لوجبةٍ ساخنة، لحمّامٍ، لبيرة مثلَّجة، سئمتُ التعيينات التي يقذفون لنا بها من الجوِّ في رزمٍ زرقاء وصفراء، الفاصولياء بالخنزير وسلطة الفواكه. أعود هنا لأصبح مثل طفلٍ، إحساس غريبٌ، ليس عندي مسؤوليّات تجاه نفسي ولا أسئلة، ليس غير الطاعة، مع أن هذا صعب عليَّ جدّاً، فأنا أصلح لإصدار الأوامر، لا لإطاعتها دون تبصّر. لن أصبح أبداً عسكرياً جيّداً. من السهل أن يمرَّ المرء دون أن يلفتَ الانتباه، أن يتلاشى مثل ظل. وما لم يرتكب حماقة هائلة فإنَّ الأيّام تمرُّ الواحد تلو الآخر دونما غاية أخرى غير الحفاظ على الحياة، وتتكفل هذه الآلية الرهيبة التي لا تهزم بكلِّ شيء، الذين في الأعلى يتخذون القرارات ويفترض أنّهم يتقنون صناعتها، ليس عندي هموم، أستطيعُ أن أختفي في الصفوف، أنا مثل الآخرين، رقم بلا وجهٍ، بلا ماض ولا مستقبل. أشبه بمن يُجنُّ، يطفو الواحدُ على حافة زمن سرمدي وفضاءات مفتولة، لا أحد يستطيع أن يطالبني بأيِّ حساب، يكفي أن أنفذ عملي لأستطيع بعدها أن أفعل ما يحلو لي. ليس هناك ما هو أخطر من أن تشعر بأنَّك متفوّق، لأنّه يتركك وحيداً مثل سُرَّة، هكذا حذَرني خوان خوسِه عبر دخان سيجارة ماريغوانا مشبعة بالأفيون في ذلك اليوم على الشاطئ. صحيح، الشيء الوحيد الذي ينقذُكَ

هو أخوّة الجنود الصلبة. أشعر بحزن خانق، برغبةٍ بالبكاء من الألم المتراكم، الخاص والعام، بأن آخذ رشّاشاً وأخرجَ لأقتلَ، لا أستطيع مقاومة الرغبة بالعواء إلى أن يتقزَّزَ الكون كلّه، أشعر بصرخة غير منتهية تعترض حنجرتي. أنتَ مجنون، يا أخي، ليس في الحرب رحمة. ألتقي مع خوان خوسِه على الشاطئ في يوميّ إجازة، أعجوبة أن نلتقي بين نصف مليون مقاتل في مكان وزمان واحد. نتعانق ونحن لا نستطيع أن نصدق مصادفة بهذه العظمة، يا له من حظٍّ رائع، نأتي لنلتقي هنا، يا أخي، ترابتنا وتضاحكنا، سعيدَيْن، ناسيين للحظة أين كنّا ولماذا. حاولنا أن نستذكر الماضي، هذه المهمّة المحالة لأنّنا لم نلتقِ منذ عشر سنواتٍ ، منذ أن دخلَ في القوّات المسلّحة وراح يتبختر ببدلته العسكريّة بينما تحوّلتُ أنا إلى عامل بدولار وخمسين سنتاً في الساعة. كلٌّ واحدٍ مضى في سبيله، هو إلى قدره كجنديّ وأنا لأكدح وأتصبّبَ عرقاً عاماً كاملاً، إلى أن أجبرني سايروس على مغادرة الحيّ. لا أفكّر بالبقاء في مرآبِ والدي البائس، أخدم في هذه المزبلة حتى الثامنة والثلاثين أو الأربعين، قال لي خوان خوسِه في تلك المناسبة، ثم أتقاعد بمرتبٍ جيّدٍ ويصير العالمُ ملكي، يا أخي، ما الشيء الآخر الذي أستطيعُ أن أفعله بلون جلدي ووجهي الهنديّ الأحمر؟ ثمّ إن اللباس العسكري يسحر النساء. كنّا نضحك كالمجانين على الشاطئ. هل تتذكر حين كنّا نسرقُ سيجارات نقار الزنبق ونبيذَ قدّاس الخوري لارَغيبِلْ؟ ونتراشق ببعر الخيل؟ وحين حلقنا *لأوليفر* شعره ووضعنا له ميكروكروم وأخذناه معنا إلى المدرسة قائلين إنّه مصاب بداء الطاعون الدمّلي؟ أيُّ خراءٍ هو داء الطاعون الدمّلي، يا أخي؟ تعاملنا بهذا الودّ الفجّ والمرائي، هذه الفظاظة الملطخة بالكلمات النابية والنوايا الطيّبة التي تعاملنا بها منذ طفولتنا. حكى لي أنّه عشق امرأةً فييتناميّة وحين أراني الصورة المحفوظةَ في مُغلّف بلاستيكي في محفظة نقوده صار جدّيّاً وتبدّل صوته. كانت واحدة من تلك الصور الفوريّة ذات النوعيّة السيّئة، استعراضيّة أكثر من اللازم، يبدو فيها الوجه قمراً شاحباً يحيطُ به ظل الشعر. لفتَ انتباهي عيناها، بينما بدا لي الوجه مثل الكثير من الوجوه الآسيويّة التي رأيتها في هذه الأشهر.

ـ اسمها تْهُوي ـ قال لي.

إنّه اسمُ شيطان.

ـ يعني الماء.

كنت قد سمعت إشاعاتٍ عن صديقي، فالجنود يتكلّمون، يتناقلون

الأقاويل بالهمس. أكّد لي ما كان يدور سرّاً: مهمّة صعبة، ضابط الفصيل كان جديداً، ووجدوا أنفسهم محاصرين، بدأ إطلاقُ النار، سقط خمسون مقاتلاً فأمر الضابط بالانسحاب دون أن يُخلي الجرحى. انظر، كم هو ديّوث، يا أخي، كيف يمكن أن نتركهم هناك، تصوّر نفسك مكانهم، أنا لن أتركك في أيدي العدو، هذا ما حاولت أن أوضّحه له، لكنّ ابن العاهرة أُصيب بالهيستريا، يا أخي، سحب مسدّسه وهدّدنا، راح يصرخ ويحرّك يديه فاقداً صوابه. لم أنتظر حتى يهدأ، لم يكن هناك وقت فأطلقت عليه النارَ عن قرب. سقط دون أن ينتبه. وتخبّطنا في الانسحاب حاملين أتباعنا، كما يجب أن نفعل. أنقذناهم جميعاً باستثناء واحد، لم يكن منه أمل فقد اندلقت أحشاؤه خارج بطنه. يا له من ولد مسكين، كان يسند أحشاءه بيديه ينظرُ إليَّ يائساً، يتوسّلني : لا تتركني حيّاً، *يا نجمَ الفأل الحسن*، لا تتركني، اضطررت أن أمنحه طلقة في صدغه، اللهمَّ غفرانك، اللعنة على هذه الفظاعة، يا أخي.

يجبُ أن توضعَ الجثث في أكياس عليها بطاقة تحمل الاسم، لكنّ هذه الرسميّات لا تحترم دائماً، ينقصهم الوقت أو الأكياس، يأخذونهم من رسوغهم وأكعابهم ويلقون بهم في المروحيّات أو يربطونهم كالرزم في معاطفهم، يعلوهم الذباب، ساعات وتنتفخ الجثث، تتشوّه، تتآكلها الديدان التي تغلي في مرجل التفسّخ. تهبط المروحيات، طيورُ صناعة الريح، محدثةً إعصاراً، رافعة الغبار والأوساخ والطينَ الدنسَ في دائرة قطرها ثلاثون متراً. وحين يمضي وقت طويل على الموتى في الحرِّ أو المطر تتطاير في الإعصار قطعٌ من اللحم وإذا ما كنتَ قريباً يمكن أن تصيبك في وجهك. في الجبل رفضتُ رفع الجثث. ساعدتُ الجرحى، ثمَّ صرتُ من حجر،لم يجرؤ أحدٌ على إعطائي أية أوامرَ، يبدو أنّني تجاوزت حالةَ الحياة والموت، وكنت منهاراً. أزمة عصبيّة، نوبة اضطراب عقليٍّ، لا أدري ما الاسم الذي أطلقوه عليها. يغسلون المروحيَّات بخراطيم الماء، لكنّ لا الرائحة تزول ولا الصرخات، فالموتى لا يغادرون المكان تماماً. لا أبكي، إنّها السعادة اللعينة أو الدخان، من يدري ماذا، أمضي دائماً ملتهب العينين، يعيش الواحدُ وهو يتنفّسُ قاذوراتٍ. في كلِّ مرّة أشكر الله لأنّني لا أمضي في واحدٍ من تلك الأكياس البلاستيكيّة، أو ما هو أسوأ في حالة كحالة أولئك، الذين فتحت صدورهم مثل ثمرة متفزّرة، وحلّت جدعاتٌ حمراءُ مكان أذرعهم أو سيقانهم، لكنهم يبقون أحياء، وربّما يبقون كذلك لسنواتٍ طويلةٌ تلاحقهم دائماً ذكرياتهم السيّئة. شكراً لك، يا إلهي، لأنّني ما أزال حيّاً، شكراً، كنتُ أصرخُ بالإنكليزيّة وأضيف بالإسبانيّة لا تتخلى

عني هنا في الجبل، أيّها الملاك الحارس، أيّها الرفيق العذبُ، لا ليلاً ولا نهاراً، لكنَّ أحداً لم يكن يسمعني، فأنا لم أستطع أن أسمع نفسي بين نيران المعركة وعواء الجرحى، يا أمّ الله التافهة أخرجيني حيًّاً من هنا، كنتُ أصرخ ووشاح عذراء غوادلوب في رقبتي، الخرقة التي سودَّها وقسَّاها دمُ خوان خوسِه. أعطاها لي قسّ بعد أسابيع من قتلهم لأخي. شاءت المصادفة أن يغمض له عينيه، قال لي إنّه كان رمادياً بلون الأشباح حين خلع وشاحه وطلبَ منه أن يعطيه لي ليعود عليّ بالحظّ، فربّما أخرجُ حيّاً من هنا. ماهي كلماته الأخيرة؟ الشيء الوحيد الذي خطر لي أن أسأله للقسّ. اسندني، أيّها الأبُ، فأنا أسقط، اسندني لأنّ هناك في الأسفل ظلمة دامسة، هذا هو الشيء الوحيد الذي قلتَهُ يا أخي، ولم أكن هناك كي أسمعك أو أسندكَ بقوّة وأبعدَ عنك الموتَ شدّاً، خراء، خراء ملعون! بماذا أفادكَ الوشاحُ، يا أخي! يفقد الواحد إيمانه هنا، لكنّه يؤمن بالخرافات ويبدأ يرى علائم نذيرة في كلّ مكان، أيام الثلاثاء تجلب الحظ السيّئ، منذ سبعة أيّام بالضبط لم يحدث شيءٌ، إنّه الهدوء السابق على العاصفة، الطائرات دائماً تسقط ثلاثاً ثلاثاً واليوم سقطت اثنتين اثنتين... ستعيشُ حتى الشيخوخة، يا غريغ، وسيكون لديك من الوقت ما يكفي لأن ترتكبَ أخطاءً كثيرة، تندم على بعضها وتعاني مثل محكوم، لن تكون حياةً سهلةً، لكنّني أضمن لك بأنّها ستكون طويلة، هكذا كُتِبَ في خطوط يدك وفي ورق لعب التاروت، أقسمت لي أولغا، لكن من الممكن أن تكون قد ابتدَعَته، فهي لا تعرف شيئاً، ثرثارة أسوأ من أبي، أسوأ من كل العرّافين وبائعي التمائم في هذا البلد الملعون. قالت الشيءَ ذاته لخوان خوسِه مورالِس وصدَّقها، كم كنتَ وغداً، يا أخي. كان واثقاً من حظه الحسن، لذلك لم ينتبه إلى نفسه، وكانت ثقته معدية إلى حدّ أنّ عنصرين من فصيله عملا المحال كيلا ينفصلا عنه مقتنعين بالأمان بجانبه والآن ما من واحدٍ من الثلاثة يستطيع أن يذهب إلى أولغا ليطالبها بشيء.

كانت الأدغال مليئة بالحفيف، وزعيق الحيوانات، بالسيقان، والاحتكاكات، بالدمدمات بينما الغابة صامتة، وصمتها كتيم. أظنُّ أنَّ كلّ شيءٍ يبدو من الجوّ نظيفاً مطهَّراً بالنار، لكنه الجحيم في الأسفل. يعتادُ المرءُ الحالة مع الزمن: إنَّه أسوأ انحراف، وأكثر ما في الحرب فحشاً أنَّها تبدو عاديَّةً. في البداية كنت مختنقاً، ثمَّ منتعشاً، وضميريَ يبقى نائماً دائماً. الآن في الضيعة عدتُ لأفكّرَ. على المرء ألا يُفكّرَ في المعركة، فيها يصبحُ آلةً للدمار والموت. لا أحد يريد العناصرَ المؤدبة، المنتقدة، صاحبة الضمير، لا يصلحُ فيها إلاّ الفحول الذين

تقيّأتهم الهرمونات الذكوريّة: الزنوج الأميّون، قطّاع الطرق اللاتينيون، المجرمون الذين يخرجونهم من السجون ليأتوا بهم إلى هنا، العناصر التي من أمثالي ليست أكثر من رمّانة القبّان. بعدَ كلّ مهمّة تختلج عضلاتي، لا أستطيعُ التحكّمَ بيديّ، أسناني مشدودة، صار في وجهي لمصّ، أشبه ما يكون بضحكة مجنونة، كثيرون عندهم مثلها، يقولون إنّها تزول فيما بعد. اعتدتُ في هذه الأشهر على أن أبقى مبلّل العظام وعلى قدميّ أن يبقيا لحماً حيّاً داخل الجزمة، وأصابعي ملتصقة بالبندقيّة، تحت وطأة ذلك الإحساس الدائم بأنّني محاصر بالأشباح، أنتظر طلقة الرحمة التي ستأتي في أيّةِ لحظة ومن أيّ جانب، أعدُّ الخطوات المتبقيّة للوصول إلى تلك الشُجيّرة، الدقائقَ للوصول إلى النهر، الساعاتِ لانقضاء المناوبة، الأيام لإنهاءِ خدمتي والعودة إلى البيت.أعدُّ ثواني حياتي وأستخلص أنّ من حسن حظّي أنَّ رشقة الرشّاش المقبلة ستقتل رفيقي دوني، وأتساءل أيُّ خراء أفعل هنا، وأنا لا أرغب بقبول سحر العنف الغريب حتى في أعمقِ أعماقي، دوار هذه الحرب. رأينا في ذلك الفجر في الجبل حين بدأ النور ينبلجُ أنه لم يبقَ منّا سوى تسعة أحياء، أما القتلى والجرحى فلم يكن من الممكن إحصاؤهم. لقد قاتلنا طوالَ الليل. وصلت القاذفاتُ مع خيوط نور الصباح الأولى، لامست السفوح، مجبرةً المحاربين، رجال العصابات على التراجع، هبطت بعدها المروحيّات. ضوضاء المحرّكات كانت موسيقى بالنسبة إليّ، خفقات قلبِ أمّي، قبل أن أولد، تيك ـ تاك تيك تيك ـ تاك، حياة، لِنُصَل، يقول القسُّ النظاميّ، فينشد الآخرون هليلويا وأنا أغنّي آهٍ، يا سوزان، اعترف، يا ولدي، يقولُ لي القسُّ الكاثوليكيُّ وأقول له اذهب واعترفْ للعاهرة أمّكَ التي ولدتك،ثمَّ أندم، لا أريدُ أن تقصفني صاعقة، كما كان يقول الأبُ لارّاغيبل وأقع في الخطيئة القاتلة. لا تخفْ، فالله معك، في قدّاس الأحد قرؤوا قصّة أيّوب. يقول أيّوب بعد أن خنقته الفجائع التي اختبره بها الله: « ما أخشاه يحدث لي وما يرعبني يمسكُ بي، لا أعرفُ الراحة، فالحيرةُ تملّكتني». لاتفكّر بأشياء بشعة، يا أخي، فتحدث، يجب ألاّ تستدعي الموت الزؤام بتفكيرك، ينصحني خوان خوسِه مورالِس، وهو يضحكُ دائماً. نجم *الفألِ الحسن*، هكذا كانوا يسمون خوان خوسِه مورالِس نجم *الفألِ الحسن*.

والدخان، طبعاً. عقلي في ضباب. دخان التبغ، اليربا، الحشيش، وكل القذارات التي أدخّنُها، غطيطَةُ السَحَر الباردة في الجبال، وبخار الوديان الحارق عند الظهيرة، مخلّفات المحرّكات والغبار، دخان النابالم الكثيف، الفوسفور وما لا يحصى من المتفجّرات والحرائق التي لا بداية

لها ولانهاية وتحوّلُ هذا البلد إلى صحراء تقطعها نُدَبٌ سوداء. كلُّ أنواع الدخانِ من كلِّ الألوان. لا بدَّ أنَّها تبدو من الأعلى غيوماً وهي كذلك أحياناً، وهي هنا في الأسفل جزء من الخوف. لا نستطيع أن نتوقّفَ لحظةً واحدة، لا أحد يستطيع ذلك، إذا تحرَّكنا نتوهَّم أنَّنا نسخرُ من الموت، نجري مثل جرذان مسمومة. العدوُّ بالمقابل ساكن، لا يهدرُ طاقته، ينتظر بصمت، عنده أجيالٌ عديدة متدرِّبة على الألم، من المحال فكُّ لغز أسارير وجوههم التي لا تتبدّل. هؤلاء الديُّوثون لا يشعرون بشيء، إنَّهم مثل ضفادع المخابر، قال لي أحدُ رجال البحريَّة المتخصِّصين في انتزاع الاعترافات. نحن نستنفر مثل المجانين كي نحيا وفي الطريق نلتقي مع الموتَ وجهاً لوجه. هم يزحفون بصمتٍ في أنفاقهم، يتموّهون مع الغابة، يختفون في لحظةٍ. لهم عيون ترى ليلاً. لسنا في أيّة لحظة بمنجاة. احسبْ، قال لي خوان خوسِيه مورالِس كم عدد الرجال الذين جاؤوا إلى هذه المخرأة وكم عدد القتلى؟ النسبة تافهة، يا أخي، سنخرج بكامل عافيتنا، لا تهتمّ. أفترضُ أنَّه كان على حقٍّ وأن الغالبية منّا ستعيش لتحكي هذا، لكنَّنا هنا لا نفكِّرُ إلاّ بالقتلى وبحكايات الناجين الفظيعة. نعم كثيرون يخرجون سالمين ظاهريّاً، لكن ما من أحد سيعودُ ليكون من كان في السابق، فلقد عُلِّمنا للأبد، لكن من يهمّه هذا، على كلِّ الأحوال نحن قاذورة، وهذه حرب الزنوج والبيض الفقراء، وفتيانِ الريف، والقرى الصغيرة، والأحياءِ المدقعة، السادة المدلَّلون ليسوا في الصفوف الأولى، فآباؤهم يتدبَّرون أمرهم كي يبقوهم في بيوتهم أو يرسلهم أعمامهم الكولونيلات إلى مناطقَ آمنة. تؤكِّدُ والدتي أن أخطر الشرورِ هي العنصريّة، وسايروس كان يقول إنّها ظلم الطبقات، كلاهما على حقٍّ، أظنُّ أنَّنا لسنا متساوين حتى في الذهاب إلى الحرب. لا يُسْمَحُ بالمكسيكيين أو بالكلاب، هكذا كانت تعلن بعضُ المطاعم حتى عهدٍ قريب، للبيض فقط، كانوا يكتبون على الحمّامات العامّة، بينما هنا، فأهلاً وسهلاً *بالملوَّنين*، ألف أهلاً وسهلاً بهم، لكن خلفَ الرفاقيّة الظاهريّة يتأجَّجُ الحقد العنصري، البيضُ مع البيض، الزنوجُ مع الزنوج، اللاتينيّون مع اللاتينيين، والآسيويّون مع الآسيويّين، كلٌّ ولغته، موسيقاه، طقوسه وخرافاته. للأحياء في المعسكرات حدود لا تُخْتَرَق، فأنا لا أجرؤ على الدخول في حي الزنوج إذا لم أُدْعَ، تماماً كما في *الغيتو* الذي نشأتُ فيه، لا شيء تبدَّلَ. لكلٍّ حكايته، التي لا أريدُ أن أسمعها، كما أنَّني لا أريدُ أصدقاء، لا أستطيع أن أسمح لنفسي بترف أن أُحبّ شخصاً ثمّ أراه يموت، مثل خوانٍ خوسِيه أو ذلك المسكين الكنساسي هناك في الجبل، فقط أريدُ أن أنفذ

عملي، أُنهي خدمتي وأخرجَ حيّاً. أُصلي من أجل جرحٍ خطير يُعيدني إلى بيتي، لكن ليس إلى حدٍّ أن أصبحَ مُعاقاً. كان يقولُ طيَّارٌ خلاسيٌّ من ألاباما في كلِّ رحلةٍ تقوم بها مروحيَّته، المهم ألاّ يصيبوني في خصيتيَّ لكنَّه عادَ إلى قريته في كرسيٍّ متحرِّك، مثقلاً بالميداليّات. لن يحدثَ لي هذا أبداً، أعني الميداليّات، كنت أقولُ لنفسي، منحوني واحدةً لأنَّني جُنِنْتُ، أنا بطلُ حرب، عندي نجمة فضِّيّة تافهة، لم يكن في نيَّتي أن أقومَ هناك بما يتجاوز الواجب، دائماً كنتُ أقولُ لنفسي خيرٌ لك أن تعيش جباناً من أن تموتَ غبيّاً، لكنَّني وبسبب واحدةٍ من تلك المهازل التافهة أنا الآن بطلٌ أبله. الدرسُ الأوّل الذي تعلّمته في الحيِّ هو أنَّه لا فضيلة في البطولة، الفضيلة في النجاة فقط. آهِ يا خوان خوسِه، كيف لم تعرف هذا إذا كنتَ أنتَ من علّمه لِي حين كنَّا طفلين مسلولين؟ والآن كيف سأشرح الأمر لوالديك وأخوتك، كيف سأنظر إلى وجه أمّك وإلى كارمن، بحق الشيطان كيف سأقولُ لهم الحقيقة، سيكون عليَّ أن أكذبَ، يا أخي، وسأبقى أكذبُ عليهم، لأنّني أخجل أن أقول لهم إنّهم درزوا نصفَ جسمك بالرصاص وأن الميداليّات التي فزت بها ببسالتك ولا بدَّ أنَّهم سلَّموها لأمِّكَ لتعلِّقها إلى جدار الصالة، هي من شبهان مطليٍّ ولا معنى لها عندما يموت الإنسان صارخاً.

أعرفُ العنفَ، إنّه وحشٌ هائج، لا جدوى من التفكير به، يجب خداعه. أحسدُ الطيَّارين في الأعلى، فأنت تختفي هناك بأناقة أكبر، تسقط مثل حجر أو تتشظّى مليون شظيّة، دون أن تملك الوقت ولا حتى للصلاة، كما حدث لمارتينث حين ذهب به القطار، ذلك الأمريكي المكسيكي الوغد الذي ما عدت أكرهه، بينما تستطيعُ هنا في الأسفل مع المشاة أن تقضي نحبكَ بألف طريقةٍ، بأن تسقط فوق عصا فخٍّ مسنَّنة، بأن يُقطع رأسك ببلطة، تنفجر بك قنبلة أو لغم، تشطرك رشقة رشَّاش شطرين، تتحوَّل إلى شعلة، هذا دون أن أحسبَ الميتات الأخرى التافهة في حال وقوعك أسيراً. أحفرُ حفرة في الأرض وأختبئ فيها إلى أن تنتهي هذه الحالة، ألجأ إلى جحر، كما كنت أفعلُ مع *أوليفر* حين كنتُ صغيراً. لماذا لم أُخَصّ بعمل مكتبيّ؟ فهناك عناصر كثيرة يمضون الحربَ تحت المراوح، لو كنتُ أكثر دهاء ما كنتُ هنا ولكنتُ أنجزتُ خدمتي بعد إنهاء المرحلة الثانوية، مثلاً، بدلَ أن أكسِّر عظامي مثل أدنى عاملٍ مياوم، لكنّهم لم يكونوا يتكلّمون عن الحرب في ذلك الوقت. والآن ها أنا هنا مثلَ أبله، وفي عمر لا يأتي فيه أحدٌ إلى هذا الضياع، أشعر بنفسي جدّاً لهولاء الأطفال الذين أكلوا الخازوق في لباسهم المموّه. ليس لي مصلحة في أن تتآكل عظامي تحت صليبٍ في

المقبرة العسكريّة، أن أكون واحداً من آلاف متشابهين، أفضّلُ أن أموت بين يدي كارمن. هاهَهْ، منذُ زمنٍ طويلٍ لم أُفكِّرْ بكارمن. لماذا قلتُ كارمن ولم أقل سمانثا؟ لماذا ومضت هذه الخاطرة في رأسي؟ في آخر رسالة لها أعلمتني بخاطبٍ ودٌّ صينيٌّ أو يابانيٌّ، يبدو أن هذا ما قالته لي، فهي لم تُسمِّه. من تراه يكون هذه المرَّة؟ عندها فطنة لاختيار أقلّهم مناسبةً لها، لا بدَّ أنَّه رقيق رثُّ الثياب وطويل الشعر، فهم كثرٌ في أوروبا أيضاً. في الصورة التي أرسلتها إليَّ، تظهر واقفة أمام كاتدرائيَّة برشلونة بلباس راقصة فلامنكو أو بما يشبهه، لستُ متزمِّتاً إطلاقاً، لكنَّني تذكَّرت بيدرو مورالِس وكتبتُ لها أنّها ليست في عمر يسمح لها بهذه الصبيانيات، وعليها أن تخلع تلك الخرق وترتدي حمّالة صدر، في النهاية ماذا يهمّني؟ هذا شأنها، فلتأكل الخازوقَ لغبائها. آه، يا كارمن... أودُّ أن أسمع صوتك، يا كارمن.

أخاف أن أكون قد جُنِنْتُ تماماً، أو ما عدتُ أُميِّزُ بين الخير والشر وفقدتُ الحشمةَ. فقد بلغ اعتيادي على العار حدَّ أنَّني ما عدت أستطيعُ تصوُّرَ الواقع دونه. أحاول أن أتذكَّرَ كيف يتسلّى الأصدقاء، كيف يُتَقاسَمُ طعام إفطارٍ عائليٍّ، كيف تُحَدَّثُ امرأةٌ في أوَّلِ موعدٍ، لكنَّ هذا كلّه تبخَّر، وأعتقد أنَّه لن يعودَ أبداً. الماضي زوبعة من الرشقات الضبابيّة، مباراة الرقص مع كارمن، أمّي في كرسيِّ الخيزران تصغي إلى الأوبرا، المبارزة مع مارتينث التي حوَّلتني إلى بطلِ المدرسة الأفّاق، صه، يجب أن يرى المرء التفاهات التي يرتكبها في مثل ذلك العمر، ما من فتاةٍ استطاعت تقاوم إغوائي وحين اشتريت «البويك» كنَّ يتوسَّلنني، وكنتُ أفقرَ من فأر في غرفة مقدّسات، لكنَّني حصلت على تلك الكركبة المضعضعة، وكنتُ أشعر بنفسي وراء المقود مثل شيخ وارتكبتُ في المقعدِ الخلفيِّ ما لا أدري من الحماقات الأثيمة.طبعاً لم نكن نتجاوز اللمس، يهجمُ الواحدُ فتدافعُ الفتاة عن نفسها دون حماس، ذلك أنَّ عليها ألاّ تشارك بإغوائها حتى ولو ماتت اشتهاء، احتدامات تبدو مثل شجارات القطط تترك الإثنين منهكين ينهيان عملهما في الخارج، حذار من تحبيلها، إذا ما نمت معها عليك أن تتزوَّجها، فأنت رجلٌ شهم، أليس كذلك؟ وحدهـا إرنستينا بِردا كانت تمارسه مع الجميع، مباركةٌ إرنستينا بِردا، حفظك الله يا إرنستينا القديسة، أنت كنت تحبّين ذلك حتى اللهفة، لكنَّك تبكين بعدها وعلى الواحد أن يقسم لك أنّه سيحفظ السرَّ، سرّ الصوت العالي، كلّنا كنّا نعرفه ونستغلّ اضطرامَك وكرمك فلولاك لسمّم الوسواس دمي. النساء هنا مثل طفلاتٍ غير بالغاتٍ، صغيرات جدّاً، كومة عظام صغيرة، ليس لهنّ صدر، ولا زغب

في أيّ مكان، حزينات دائماً، ويثرن الشفقة أكثر من الرغبة بمضاجعتهنّ، الشيء الوحيد الوفير عندهنّ هو شعر الرأس، المسترسل والداكن ذو البريق الأزرق. مارسته مع فتاة في غرفة مليئة بالناس، بينما كانت العائلة تأكل في زاوية وطفل يبكي في صندوق من صناديق مؤونة الجيش، كنّا نحن في السرير منفصلين عن البقيّة بستارة مهلهلة، وكانت تنشدني سلسلة من البذاءات التي تعلّمتها بالانكليزيّة عن ظهر قلب، بالتأكيد هناك كتاب لمثل هذه القذارات. القيادة العليا تفكّر في كلّ تفصيل، إذا كان هناك كتب لاستخدام المراحيض فلماذا لا يؤلفون أخرى لتدريب العاهرات، ما أسوأ ما يعامل به الفتيان الطيّبون، قلب الوطن، أليس صحيحاً؟ اخرسي، أيتها الشقيّة، رجوتها، لكنّها لم تفهم، أو لم يحلُ لها أن تخرس والعائلة تتكلّم على الطرف الثاني من الستارة والطفل ما يزالُ يبكي. تذكّرت في الحال شيئاً رأيته في الخامسة من عمري في إحدى قرى الجنوب المغبرّة، رجلان أبيضان يغتصبان فتاة زنجيّة، عملاقان يعتصران مخلوقة بائسة بهزالٍ وصغرٍ التي كانت معي، شعرت بنفسي كواحد منهما، هائلاً وشيطانيّاً، فذهبت رغبتي، وفششتُ بالكامل. لا أدري لماذا تذكّرتُ في تلك اللحظة شيئاً جرى منذُ أكثر من عشرين عاماً على الطرف الآخر من الكوكب. حملني ليو غالوبّي، ذلك الساحر الخسيس ليريني *الجدّة*، إحدى الغرائب هنا، امرأة غائصة في الزمن تخترقها التجاعيد تزحف تحت طاولات البار مقدّمةً خدماتها، إنّها معلّمة، يقولون، فما إن يمرّ الواحد بحنكيها اللذين لشامبانزي حتى يصبح ملحاحاً في طلبه، يعطونها عشرة دولارات فتتكفّل بكلّ ما يتبقّى، حتى أنّها تنظّفه لك وترفع لك السحاب، تمرُّ دوريّاً على كلّ واحد من الزبائن وتمتعه، منهمكة بعملها تحت الطاولة بينما يستمرّ البقيّة يشربون، يلعبون الورق، ويروون النكات الدهمائيّة. أنا لم أستطع فقد تمكّن مني القرفُ أو الأسفُ. *الجدّة* شعر يكاد يكون أبيض، عجوز ليس عندها أيُّ وقار تجاه رأسي تشارلز أتلاس ولها بعض الأسنان المسنونة كالمنشار، ستفعل في أيّة لحظة ما نخافه جميعاً، تقتلع نايه بقضمةٍ واحدة، هذه المجازفة جزء من اللعبة فكلُّ زبون يخاف أن تقرّر العجوز قضمه تماماً حين يأتي دوره!

أشعر بإنسانيّتي هنا في الضيعة. إنّهم يدعونني بالدور، كلّ يوم في بيت، يطبخون لي، تلتفُّ العائلة حولي لتراني وأنا أتناول طعامي، الجميع يبتسمون، فخورون لأنّهم يغذونني ، حتى ولو لم أبق لهم شيئاً.واعتدت على قبول ما يقدّمونه لي وشكرهم عليه دون مبالغة كيلا أهينهم. ليس هناك أصعب من التلقي ببساطة، كنت قد نسيت هذا، فمنذ أيّام بيت آل

موراليس لم يعطني أحدٌ شيئاً دون أن ينتظر مني ما يقابله، كان درساً في الودّ والتواضع، من المحال أنْ تمرَّ في الحياة دون أن تكون مديناً لأحدٍ ما بشيء. يأخذني أحياناً رجلٌ من الرجال من يدي، كما يأخذ خطيبته، تعلَّمتُ أيضاً ألاّ أسحب يدي. في البداية كنت أخجلُ، فالرجال لا يتلامسون، لا يبكون، لا يتأثّرون، الرجالُ، الرجال... منذ متى يلمسني واحدٌ باستلطافٍ خالص وصداقة؟ عليَّ ألاّ ألينَ، أن أنفتح، أثقَ، لكن إذا ما غفلتُ، متُّ. لا تفكِّر، المهم ألاّ تفرط في التفكير، فإذا ما تصوّرت الموت وقعَ، إنَّه كالهاجس ، لكنَّني لا أستطيع تفاديه، فرأسي مليئة برؤى الموت، بكلمات الموت. أريدُ أن أفكّرَ بالحياة...

كانت السريَّةُ في نهاية شهر شباط في قمّة جبلٍ ومعها أوامر بالدفاع عن المكان مهما كلفَ الأمرُ. لم يتوضّح في التحقيقات اللاحقة لماذا كان على الرجال أن يقاوموا كما فعلوا، وتكفَّلَت البيروقراطيّة والزمن بتغطية القضيّة بطبقةٍ من النسيان. سنموتُ جميعاً هنا، قال فتى كنساسيٌّ لغريغوري ريفز. لم تكن المرّة الأولى التي يتعامل فيها مع النار فقد مضى عليه أشهرٌ في الجبهة، لكنّ قلبه حدّثه بشكلٍ أكيدٍ بالنهاية وقدَّرَ بأنّه لن يملك وقتاً للتمتّع بالحياة، فهو قد أتمّ العشرين منذُ أقلّ من أسبوع. هزّه ريفز قائلاً: لن تموت، لا تتكلّم عن هذا. انتظرَ الجنود وهم يحفرون الخنادقَ ويكدِّسون أكياس التراب والحجارة ليشكّلوا متراساً، لا ليحموا أنفسهم بقدر ما ليتلّهوا عن الخوف ويبقوا منشغلين. على كلِّ الأحوال صار الانتظارُ سرمديّاً، وهم متوتِّرون وقلقون، أيديهم على سلاحهم يتأذّ البردُ بعد غياب الشمس والحرُّ أثناء النهار. حدثَ الهجوم ليلاً عرفوا منذ اللحظة الأولى أنّهم أمام عدوٍّ أكثر عدداً بعشر مرَّاتٍ. وأنّه ما من مهرب لهم. تحوّل المعسكر بعد ساعاتٍ قليلة إلى بؤرة يائسة ماتزال فيها حفنة من الرجال تطلقُ النار، تحيط بهم جثث أكثر من مئة رفيق منثورين على الجوانب. استطاع غريغوري ريفز أن يرى في سطوع انفجارٍ برتقاليٍّ الجندي الكنساسي يطيرُ في الهواء على الجانب الآخر من المتراس دون أن يدري ما كان يفعل أو لماذا ، فقفز من فوق الأكياس وزحف نحوه في جحيم من النيران المتقاطعة والانفجارات الساطعة والدخان الذي لا يمكن استنشاقه. تمكّن من أخذه بين ذراعيه ، ناداه باسمه، لا تهتمّ، أنا هنا، لم يحدث شيء، وشعر بيديه تتكلّب بثيابه وبصوته تهدّجه حشرجات الاحتضار، ورائحة الخوف، الدمِ، اللحمِ الممزّق

وفي ومضة أخرى لدويٍّ آخر رأى الموتَ في عينيه ولونِ جلده وتمكّن أيضاً أن يرى أنّه بلا ساقين، وأنّه من الأسفل كان بركة فحميّة. لم يحدث شيء، سأحملك إلى الطرف الآخر ، لحظة وتأتي المروحيّاتُ وقريباً سنشربُ البيرة ونحتفل، تشجّع. لا تتركني وحدي، أرجوك، لا تتركني وحدي وشعر ريفز بأن الظلمات تلفّهما معاً أراد أنْ يخلصه من القنوط، لكنّه انزلق من بين يديه كالرمل، تفتّتَ، صار دخاناً وعندما أثقلَ رأسُ الرجل صدره وارتخت يداهُ وبلّل عنقَهُ آخرُ رعشة دم حارٌّ تيقّن أن شيئاً تشظّى في داخله مليون شظيّة، مرآةٌ انسحقت. وضعَ رفيقه على الأرضِ بحذرٍ ورمى في الحال سلاحَه بعيداً. تردّدَ في داخله قرعُ ناقوسٍ هائلٍ، خرجت من أعماقه صرخة معدنيّةٌ هزّت الليل وانتصرت للحظةٍ على دويّ الانفجارات، جمّدت الوقتَ وأوقفت مسيرةَ العالم. بقي يصرخ ويصرخ حتى نفد الهواء والصراخُ. أخيراً تبدّدَ رَجْعُ الناقوس لكنَّ الوقت بقي مضطرباً، ومنذُ تلك اللحظة وحتى الفجر صار كلُّ شيءٍ صورة واحدة ثابتةٍ لا تتبدّل، صورة بالأبيض والأسودِ والأحمر ثبتت فيها حوادثُ الليلِ للأبد.هو غيرُ موجودٍ في تلك الصورة الجداريّة الدامية. يبحثونُ عنه بين الجثث والجرحى، بين أكياس تراب المتاريس فلا يَعثرون عليه. اختفى من ذاكرته ذاتها. حكى أحد الناجين أنّه رآه يلقي بسلاحه ويعوي واقفاً وذراعاهُ إلى الأعلى، كما لو أنّه يطالب برشقة الطلقات اللاحقة وعندما أفرغ ذلك الزئير الطويل من رئتيه التفت إليه، كان على بعدِ أربعة أمتارٍ عنه، ينزفُ بلا ألم، حمله عرضيّاً على ظهره وسار دون أن يأبه بالنيران التي تئز من حوله، بخطٍّ مستقيم إلى القمّة، حيثُ امتدّت أربعةُ أيدٍ لاستقبال الجريح. عاد غريغوري ريفز بحثاً عن رفيقٍ آخر سقط ثم آخر ونقلهم خلال ما كان قد تبقى من الليل الأعمى تحت قذف الرشاش المطبق واثقاً أنّه ما دام يفعل ذلك لا يمكن أن يحدثَ له شيءٌ، كان عصيّاً على الجراح.لم ولن يملك في حياته أبداً مثل ذلك الإحساس بالقوّةِ المطلَقة.

جاءهم الدعم عند الفجر. نقلت المروحيّاتُ الجرحى أوّلاً ثم الأحياء التسعة الباقين وأخيراً فرّغوا الأكياس البلاستيكيّة ليرموا الموتى. ثمانية من الناجين كانوا منهكين من التوتّر والرعب، يرتعدون في ثيابهم المبلّلة حتى أنّهم لم يستطيعوا أن يمسكوا بالقنينة ليتناولوا جرعة وسكي، لكن عندما أودعوهم بعدَ ساعات على الشاطئ ليتعافوا خلال ثلاثة أيّام من اللهو والاسترخاء من الرعبِ صار باستطاعتهم أن يتكلّموا عمّا حدث ورووه بتفاصيله، أغاروا جميعاً علىالبيرة المثلجة والهمبرغر الساخنة التي لم يروها منذ شهور، دنسين، منفعلين حتى الجنون، الكتف على

الكتف، أسرة من قطّاع طرقٍ يائسين، مثل الحيوانات وحين حاول
أن يبينّ لهم الأصول المتبعة أثاروا معركةً كادت لولا قليل أن تتن
مجزرةٍ أخرى. وعندما وصلت الشرطة العسكريّةُ ورأوا وجوههم
ما حدث لهم نزعوا منهم أسلحتهم وتركوهم طلقاء، ليروا ما إذ
سيعودون بقليلٍ من الماء المالح والرمل إلى عالم الأحياء. تاسعُ
كان غريغوري ريفز، تاسعُ الناجين وآخر من صعدَ إلى المروحيّة
ساعدَ البقيّةَ. بقي أخرس متخشّباً في مقعده، نظره ثابت أمامه،
تعبٍ عميقة مرسومة على وجهه، دون أيّ خدشٍ مغطّى بكامله بده
كانت أعصابه قد تمزّقت نتفاً. لم يستطيعوا إرساله إلى الشاطئ
حقنةً فاستيقظ بعد يومين في مشفى ميداني، مربوطاً إلى السر
يؤذي نفسه في زحمة الكوابيس. أعلموه أنّه أنقذ حياةَ أحدَ عشر
وأنّهم منحوه نظراً لأعماله مطلقةِ الشجاعة واحداً من أعلى الأوس
الناجون التسعة الذين خرجوا سليمين تماماً من المجزرة قد
بحسب قوانين الحرب الخرافية، أجسادَهم عن الموت، لكنّهم عُ
يكن أمامهم مجتمعين أدنى أمكانيّة للنجاة ثانيةً، لكن ربّما إذا ة
استطاعوا أن يخدعوا القدر. أرسلوهم إلى كتائب مختلفة، باتفاقٍ
على أنّهم لن يلتقوا لبعض الوقت. ثمّ إنّ أحداً لم يكن يرغبُ بذ
التفاؤل بأنّهم نجوا استمرَّ الخوف من أنّهم لن يستطيعوا أن يفسّر
كانوا هم المحظوظين الوحيدين بين أكثر من مئة رجل. اث
الجرحى تعافيا بعد أسابيع قليلة وتصادف معهما غريغوري ريفز
لم يكلّماه، تظاهرا بأنّهما لا يعرفانه لأنّ الدَّين كان أكبر من أن ؛
تسديده له وهذا ما خلق عندهما شعوراً بالعار.

كانت قد مضت عدّةُ أشهر منذُ أن وضع غريغوري ريفز ق
ڤييتنام، عندما تذكّرَ رؤساؤه أنّه يتكلّمُ لغةَ البلد فأرسلته
المخابرات إلى ضيعةٍ في الجبال كضابط ارتباط مع حلفائهم م
العصابات.كانت مهمّته الرسميّة تعليم الإنكليزيّة في المدرسة. لكن
أحدٍ من أهل المنطقة كان عنده شك بطبيعة عمله، مما جعله هو
يحاول أن يكذب. وصل في اليوم الأوّل للتدريس يحمل الرش
وحقيبةً فيها الكتب باليد الأخرى. اجتاز الصالة دون أن ين
الجانبين، وضع حاملة الوثائق على الطاولة والتفت إلى الطلاّب.
رجلاً من مختلف الأعمار انحنوا باحترام عميق تحيّةً له. لم ينحن
للمعلّم، للاحترام القديم عند هذا الشعب أمام المعرفة. شعر بالدم
وجهه، ما من لحظةٍ من لحظات الحرب شعر فيها بمثل تلك الم

انتزع سلاحه ببطءٍ، سار إلى الجدار، علّقه إلى المشجب، ثم عاد إلى السبورة فانحنى بدوره تحيّةً للطلاّب شاكراً لهم أعوامهم الاثني عشر في المدرسة والسبعة في الجامعة. السنة الدراسية لتعليم الإنكليزيّة التي لم تكن أكثر من واجهة لجمع المعلومات تحوّلت منذُ اليوم الأوّلِ إلى واجبٍ خانقٍ بالنسبة إليه، الطريقة الوحيدة لتعويض الريفيينَ عن الكثير الذي سيتلقاه منهم.

أقام في بيتٍ متواضع، لكنّه رطب ومريح، كان في السابق لموظّفٍ في الحكومة الفرنسيّة، واحداً من البيوت القليلة في دائرة قطرها عدَّة أميال يحتوي في عمق صحن الدار على مرحاض. انتهى بالاعتياد على سباقات القطط والفئران في السقف، حتى أنّه كان يستيقظ مذعوراً حين كانت تسكن في بعض لحظات الليل. كان عنده وقت طويل لإعداد الدروس، في الحقيقة لم يكن هناك الكثير ليعمله، فالمهمّة العسكريّة كانت نوعاً من المزاح، الذي حصل هو أن حلفاءهم من رجال العصابات كانوا ظلاً لا يُرى. الاتصالات المتفرّقة كانت سرياليّة وتقاريره تحوّلت إلى ضرب من ضروب التكهّن. يتصلُ يوميّاً بكتيبته عبر الراديو، لكنّه نادراً ما تمكّن من تقديم مستجدّات. كان في وسط منطقة المعركة، ومع ذلك كانت الحربُ تبدو له حكاية من مكان آخر. كان يسير بين البيوت بأسطحتها المكوّنة من قشٍ يدوس في الوحل وروث الخنازير يحيي كلَّ واحدٍ باسمه، يساعد الفلاّحين في تحريك محاريثهم الخشبيَّة الثقيلة التي تجرُّها الجواميس لتحضير مزارع الأرزِ، والنساءَ اللواتي يذهبن مع قافلة أطفالهنَ في طلب الماء، يحملن جراراً كبيرةً، ويُعينُ الصغارَ في رفع طائراتهم الورقيّة وصنع كراتهم من الخرق. في الليل كانت تتهادى أغاني الأمّهات اللواتي يهدهدن لصغارهنَّ وأصوات الرجال بلغتهم الصادحة والهامسة. تلك الأصوات كانت تحدِّدُ إيقاع الساعات، إنها موسيقى الشعب. عادَ أيضاً ليسمع موسيقاه لأوّل مرّةٍ في فترة سرمديّة، يقيمُ مع أشرطته الموسيقيّة فيتخيّل لساعاتٍ بأنَّ الحرب ليست إلاّ حلماً سيِّئاً؛ ويبدو له أنّه وُلِدَ بين هؤلاء الناس المتسامحين، الدمثين، القادرين مع ذلك على حملِ السلاح ومغادرةِ جلدِهم دفاعاً عن الأرض. بعد فترة وجيزة صار يتكلَّمُ اللغة بطلاقة على الرغم من اللكنة الخشنة التي كانت تثيرُ ضحكات سعيدة، لكن ليس في الصفِّ أبداً؛ أولئك الذين كانوا يعاملونه بألفة حين يدعونه لتناول الطعام كانوا يحيُّونه باحترام الخدم في المدرسة. كان يلعب ليلاً بالورق مع مجموعة من الرجال والقاعدة كانت أن يُطلقوا النكات البذيئة في مبارياتٍ كلاميّة حقيقيّة ذات فكاهة لاذعة، دائماً يخرج منها

خاسراً لأنَّهم في الوقت الذي تستغرقه ترجمة النكتة، ينتقلون إلى شيء آخر. كان عليه أن يكون حذراً في المعاملة، فهناك حدٌّ غير أكيدٍ بين النكات العاديَّة والآداب المصونة التي يفرضها الاحترام والسلوك الحسن. ظاهريّاً يتصرَّفون كمتساوين مع أنّه يوجد نظام هرميّ معقَّد ودقيق، كلُّ واحدٍ يسهر على شرفه بعزيمة فخورة. كانوا مضيافين وودودين، كما كانت جميع الأبواب مفتوحة أمام ريفز، وفي الوقت ذاته يتلقّى زيارات في بيته دون إعلام مسبق، ويمكثون ساعاتٍ وساعات في مسامرات لطيفة. كانت المهارة في رواية الحكايات تشكِّل أكثر الميِّزات تقديراً، كان بينهم راوية عجوز قادر على أن يجرف المستمعين إلى السماء أو إلى الجحيم، وأن يحرِّكَ عواطف أشجع الرجال بقصصه العاطفيَّة، وحكاياته المعقَّدة عن فتيات في وضع خطر وأبناء في كارثة. وحين يسكت يلزمُ الجميعُ الصمتَ لبرهةٍ طويلة فيطلق العجوز نفسه القهقهة الأولى ساخراً من مستمعيه المخدوعين كالأطفال بسحر كلماته. كان ريفز يشعر بنفسه محاطاً بالأصدقاء، فرداً آخر من أسرة كبيرة. سرعان ما صار لا يشعر بنفسه أبيضَ عملاقاً، نسي اختلاف الحجم، الثقافة والعرق، اللغة والأهدافَ واستسلم لمتعة أن يكون كالجميع. فوجئ ذات ليلةٍ وهو ينظر إلى قبَّةِ السماء السوداء مبتسماً، لأنَّ تلك القرية الآسيويّة القصيَّة كانت المكان الوحيد الذي شعر فيه خلال ثلاثين عاماً من عمره بأنَّه مقبولٌ كجزءٍ من جماعة .

كتب إلى تيموثي دوان يطلبُ منه قائمةً من الموادّ لدروسه لأنَّ نصوصه كانت طفوليّة وقديمة واتصل بمدرسة ثانويَّة في سان فرانسيسكو ليتبادل طلاّبه الرسائلَ مع الفتيان الأمريكيين. حكى طلاّبُه حياتهم في صفحتين كتبتا بإنكليزيَّة متعبة وبعد أسابيع تلقوا كيساً من الرسائل من الولايات المتحدة. احتفلوا في ذلك المساء بالحدث. كان بين الأشياء التي أرسلها تيموثي دوان قناع لتوضيح تقليد هالوين السنوي، كان القناع مطّاطيّاً وله ملامح غوريلا، شعر أخضر، وفكا سمكة قرش وأذنان منتصبتان تتحرَّكان كالهلام. وضعه ريفز على وجهه وغطّى جسده بملحفة وخرج إلى الشارع وهو ينطُّ حاملاً مشعلاً في كل يد، دون أن يتصوَّر الأثر المرعب لتلك المزحة. فقد حدثت جلبة أشبه ما تكون بتلك التي يحدثها هجوم جوّي. هربت النساء والأطفال باتجاه الغابة بصراخ يصمُّ الآذان والرجال الذين تمكّنوا من التغلُّب على الذعر نظَّموا أنفسهم للهجوم على المسخ بالعصي. يبدو أنَّ الغوريلاّ كان يقامر بحياته وقد اشتبك بالملحفة، بينما كان يحاول أن ينزع القناع شدّاً. استطاع أن

يعرِّفهم بنفسه في الوقت المناسب، لكن ليس قبل أن يتلقَّى بعض ضربات الحجارة. تحوَّل القناع إلى أغلى غنيمة بالنسبة إلى الناس، فالفضوليون شكَّلوا صفوفاً لتأمله عن قرب ولمسهِ بإصبعٍ متردِّدة. فكَّر ريفز أن يُقدِّمه جائزةً لأفضل طلاب الصفِّ، لكنّ كثيرين منهمْ حصلوا على علامات قصوى أمام ذلك الإغراء، مما جعله يسلمه للقرية ككنزٍ. انتهى المطافُ بوجه كينغ كونغ في دار البلديّة، بجانب علم ملطّخ بالدم، وخزانة إسعافات أوَّليّة، ومذياعٍ وبعضِ التحف الأخرى. وكمكافأة لمعلم الإنكليزيَّة قدَّموا له تنيناً خشبيّاً صغيراً، رمزاً للازدهار والحظّ السعيد، بدا بالمقارنة مع مسخ المطّاط كروبيم.

انتهى الهدوء الكاذب بالنسبة إلى ريفز في تلك القرية البائسة قبل المتوقّع. كانت الأعراض الأولى مشابهة لأعراض الزحار، وعزاه للمياه الملوّثة والطعام الغريب، اقتصر على طلب الدواء بالراديو. أرسلوا له عدَّة عبوات وورقةً مطبوعة تحتوي على التعليمات. صارَ يغلي الماء، يحاول أن يرفضَ الدعوات دون أن يسبِّب لهم الإهانة ويتناول العلاجَ بانتظام. شعر لعدَّةِ أيَّام بتحسُّنٍ، لكنّ حالته عادت وساءت أكثر. فكَّرَ أنّها وعكة المرض السابق فلم يهتمّ، كان مستعداً لقتل الفيروس باللامبالاة، لن يتباكى مثلَ عجوز، الرجال لا يشكون، يا أخي، لكنَّ حالته كانت تسوءأمام بصره، ووزنه يهبط، لم يعد يستطيع تحمّلَ عظامه، وكان النهوضُ من الفراشِ وإمعان النظر في الحروف لتحضير الدروس أو مراجعةُ وظائف الطلاّبَ يكلفه مشقّة هائلة. تبقى الطبشورةُ في يده دون رغبة بتحريك ذراعه، ينظرُ إلى سطح السبّورة السوداء ببلاهة، لا يدري ما معنى ساق الدجاجة التي كتبها بنفسه أو تلك الحرارة الحارقة التي تضنيه في داخله. *هل هذا القلم أحمر؟ هذا القلم أزرق*، ولم يستطع أن يتذكَّرِ عن أيّ قلم يتكلّم، أو من يهمّه ببنسٍ أنْ يكون القلم أحمر أو أزرق. فقد في أقل من شهرين ثمانية عشر كيلوغراماً من وزنه وعندما علَّق شخص بأن حجمه يتناقص وأنَّهُ صار بلون القرع، ردَّ بابتسامة واهنة بأنَّ الجاسوس الجيِّد يجب أن يتأقلم مع محيطه. لم تعد طبيعة مهمَّته الأساسيّة لغزاً على أحد في القرية هونفسه كان يسمح بالتنكيت حول هذا الموضوع. كان الناسُ يعتبرون وجودَه نتيجةً حتميَّةً للحرب. الأمر لم يكن شخصيّاً، فلو لم يكن ريفز لكان أيّ شخصٍ آخر، وما من مهرب. كان الوحيد الذي ارتاحوا إليه وأحبوه بين الأجانب، الأصدقاء والأعداء الذين لا يعدون ومرّوا على القرية. كان يظهر أحياناً صبيّ يهمسُ في أذنه أنَّ ليلةً عاصفةً تقترب ومن الأفضل له أن يُبقي على الأنوار مطفأة، ويُغلقَ الأبواب جيِّداً وأن لا يخرجَ

مهما كان السبب. لم يبد أنَّ الجوّ بعامّة قد تبدّل. كان ريفز يراقبُ حدوةَ القمر الخفيفة بحذرٍ من شقّ النافذة، يصغي إلى صياح الطيور الليليّة ويصمُّ أذنه عن مروراتٍ أخرى في أزقّة القرية البائسة. لم يكن يُخبر عن هذه الحوادث، مع أنَّ قادته لن يفهموا أنّ الناس لا تستطيع أن تعيشَ ما لم تنحني أمام الأقوى من هذا الطرف أو ذاك. كلمةٌ واحدةٌ منه حول ليالي التحرّكات الصامتة والغريبة وحملةٌ تأديبيّة واحدة قد تقضي على أصدقائه وتترك القرية ركاماً من الأكواخ المتفحّمة، المأساة التي لن تبدّل ولا بشكلٍ من الأشكال خطط رجال العصابات. بدا انعدام المعلومات مثيراً للشبهات في كتيبته، قصدوه للعودة به وتوجيه أسئلة شخصيّة إليه. أصيب في طريقه إلى القاعدة بالدوار في سيّارة الجيب وعندما وصل اضطرّ شخصان أن ينزلاه ويجرّاه إلى كرسيٍّ في الظلّ. أعطوه زجاجةَ ماءٍ كبيرة شربها كاملةً دون أن يأخذ نفَساً وتقيّأ في الحال. استبعدت فحوصاتُ الدم الأمراضَ المعتادة فأرسله الطبيبُ، خوفاً من التهابٍ معدٍ، في طائرة مباشرة إلى مشفى في هاواي.

كانت تجربةُ المشفى حاسمةً بالنسبة إلى غريغوري ريفز، فقد ملك فرصة التفكير بمستقبله، الترف الذي جهله حتى تلك اللحظة. نادراً ما تمتّع بمثل ذلك الوقت دون نشاط، كان ضمن فقاعة طافية في الفراغ، صارت الساعة بالنسبة إليه سرمديّة. في أشهر المعركة كان قد أرهفَ حواسّه والآن في صمت سرير مرضه النسبيّ صار ينتفضُ فزعاً حين يسقط ميزان حرارةٍ في صينيّةٍ معدنيّة أو حين يُغلقُ بابٌ. كانت رائحةُ الطعام تزعجه، رائحةُ الدواء تسبّبُ له الغثيان ورائحة أيّ جرحٍ تحدث عنده تقيّؤات مستعصية. ملامسةُ الملاحف عذابٌ لجلده وللطعام طعمُ الرمل في فمه. غذّوه بالمصول عدّةَ أيّام حتى أعاد له صبرُ إحدى الممرّضات، التي كانت تناوله طعام الرُضّع المسحوق بالملعقة، إليه شهيّته. في الأيّام الأولى ركّز تفكيره على نفسه، وضع حواسه الخمس في خدمة شفائه،مترصّداً ارتكاسات أمراضه وتفاعلات جهازه، واستطاع عندما شعر بتحسّنه أن ينظرَ حوله. وعندما خرج من حالة سميّة المخدّرات التي تعاطاها منذ أن بدأ خدمته، زالت الغشاوة عن عقله وسمحت له فطنة قاسية أن يرى نفسه. كان يفكّر وهو ممدّد على ظهره وعيناه عالقتان بمروحة السقف، أنَّ قدره حكم عليه أن يولد بين أبناء الطبقات الدنيا وأنَّ حياته حتى تلك اللحظة عمل وفقر. استطاع أن يخرج من الضاحية التي

ترعرع فيها ويصبحَ محامياً، وهذا أكثر مما أحرزه أيٌّ من رفاق طفولته، ولم يتخلّص من ندبة الفقر. زواجه لم يخفّف من ذلك الإحساس، غنجُ زوجته ورخاوتها اللذان كانا يثيران فضوله في البداية يزعجانه الآن. كان تيموثي دوان يقول إنَّ العالم ينقسمُ إلى نحلاتٍ ملكاتٍ مصيرها المتعة وعاملاتٍ مهمّتها إعالة الأولى. وسمانثا وتيموثي حصلا على كلّ شيء قبلَ أن يولدا، كانا كائنين دون هموم، وهناك دائماً من هو على استعداد لأن يسدّدَ الحساب عنهما، إذا لم يكفهما الإرثُ. عليهما اللعنةُ، كان يدمدم عندما يقارن نفسه بهما. أقسم إنّني سأكسر يدَ الحظّ، كان يردّدُ، محاولاً ألاّ يفكّر بأنَّ حظّه قد يودي به إلى المقبرة. لا، هذا ما لايمكن أن يحدث، ما تبقى عليَّ أقلُّ من شهرين، كان يواسي نفسه، ولن يرسلوني من جديد إلى الجبهة. كان يشعر بالتعاطف مع المرضى الآخرين، الخاسرين مثله، لكنّ أنينَهم، مشيتَهم البطيئة، تجرجرُ خفّافاتهم فوق اللينولين وبؤسَهم وفاقتَهم كانت تزعجه. كان يستمع إلى تلك الحوارات الدنيا والشكايات ويفكّرُ أنّهم يُسْتَخدَمون لمرّة واحدة، ليسوا غير رقم في اللوائح الإداريّة ويمكن أن يختفوا غداً فلا يبقى أثرٌ من مرورهم في هذا العالم.

وأنا؟ هل سيتذكّرني أحدٌ؟ لا أحد، ليس عندي امرأةٌ ولا ابنةٌ تبكياني، ولا حتى أمّي. وكارمن؟ ستكون ما تزالُ حزينةً على أخيها، كانت تعبدُ خوان خوسِه، الوحيد الذي بقي على احتكاك معها حين رفضها الآخرون. حذارِ مرّةً أخرى، فها أنا أعودُ عاطفياً. الحقيقة أن تذكُّري لايهمّني في شيء، ما أُريده هو أن أصبحَ غنيّاً، ويكونَ لي سلطة، كانت لوالدي في عالم المُهمّشين الذي تحرّك فيه، وكان قادراً على سحر صالة مليئة وإقناع الناس بأنّه ممثّلُ العقل الأعلى، أقنعنا جميعاً بأنَّ لديه خططاً وقواعد للكون، لكنّه مع ذلك مات مربوطاً إلى سرير، نافثاً رغوة دم من فمه وصديد عشرين بركانٍ من جلده، وقد جُنَّ لربطه. أعرفُ ما تهمسُ به، ياسايروس، لا دور إلاّ للقوّة الأخلاقيّة. أنتَ كنت مثلاً جيّداً على ذلك، لكنّك قضيتَ سنواتٍ محبوساً في مصعدٍ بلا هواء ولا نور، تقرأ خلسة وأعتقد أنَّ روحكَ ما تزال تبحث في الكتب. بماذا أفادك أنّك كنت رجلاً فائق الطيبة. منحتني الكثير، لا أستطيعُ أن أُنكر، لكنّك لم تملك شيئاً، عشتَ بائساً ووحيداً. بيدرو مورالِس رجلٌ آخر عادل. عندما كنت صبيّاً كنتُ أظنّه جبّاراً، وأخاف صوته البطريركي ووجهه الهندي الحجري بأسنانه الذهبيّة، مسكينٌ بيدرو مورالس، لم يكن قادراً على قتلِ ذبابة، إنّه ضحيّةٌ أخرى من ضحايا هذا المجتمع الخراء، يقولون بأنّه انتهى منذ غادرتهم كارمن، شاخَ ويأتيه الآن موت خوان خوسِه. سأملك قوّةَ المال والمكانةِ

الحقيقيّة، هذا الذي لم أره قط في حييّ، لن ينظر أحدٌ إليّ باستصغار أو يرفع صوته علي. لا بدَّ أن روحك الشكّاءة تتقلَّبُ حنقاً من كلبيَّتي، ياسايروس، حاولْ أن تفهمني، العالم للأقوياء وأنا سئمت البقاء في صفوف الضعفاء. يكفي أوَّلاً شفائي، لا أستطيع أن أرفع ذراعيّ لأسرِّح شعري، يؤلمني التنفس وأشعر بدماغي على وشك الغليان، ليس لهذا المرض اللعين علاقة بذلك، فهو معي من السابق، إنّهم يستهلكون طاقاتي. لن أذوق بعد الآن المخدِّرات، إنَّها تقتلني، إلاَ قليلاً من الماريغوانا كي أتحمَّل النهار، لكن ولا أيّ حبّة من الحبوب أو حقن القاذورات، عليَّ أن أعودَ إلى عالم المعافين. لن أصبح بطلاً آخر في كرسيٍّ مُتحرِّك، كحوليّاً، مخدراً ومهزوماً، فهناك الكثير منهم الآن. سأصبح ثريّاً، ويحي.

كانت الأفكار تتصادمُ في رأسه، يغمض عينيه فيرى زوبعة من الصور تدورُ وتدور، يفتحهما فتظهر ذكرياته على شاشة السقف الرماديّ. كان النوم يعذِّبه، فيبقى في الليالي مستيقظاً، يتعذَّب في إدخال الهواء إلى رئتيهِ.

شخَّصوا الالتهاب، أعطوه مضادَّاتٍ حيويّةً فنهض خلال ثلاثة أسابيع على قدميه، استعادَ بعضاً من وزنه، لن تكون له بعد الآن قوّته السابقة، أدرك أخيراً أنّه لا علاقة لضخامة العضلات بالرجولة. خفَّت آثار الحساسيّة، توقَّف وجع الرأس، لم يعد يتنفَّس بسرعة متلاحقة ولا عيناه عادتا مليئتين بالدم، لكنّه ما زال يشعر بالوهن ومع أدنى جهد تعلو الغشاوة نظرَهُ. سمع الطبيبَ ذات يومٍ غيرَ مصدِّقٍ يُخرِّجه وتلقّى أوامر للالتحاق بالجبهة. لم يتصوّر أنّه سيعُودُ ليقبض على السلاح، وانتظر أن يقضي ما تبقى له من أسابيع في الخدمة في مهمّة مكتبيّة أو أن يعودَ إلى القرية. حملوه إلى سايغون في إجازة ليومين وبأوامر قاطعة بأن يستغلَّ الساعات الثمانية والأربعين لينتصبَ جيِّداً على قدميه. استغلَّ تلك الساعات في البحث عن تهوي، خطيبة خوان خوسِه مورالِس، استطاعَ بواسطة إرشادات صديقه ليو غالوبّي، الذي لا أسرار في العالم بالنسبة إليه، أن يعرف مكانها بالهاتف، تواعدا في مطعمٍ متواضِع. انتظرها غريغوري متضايقاً، لا يعرف كيف سيخفِّفُ من هوْل صدمة إخبارها بما حدثَ. أعلنت تهوي أنَّها سترتدي لباساً أزرق مع طوق أبيض الحبّات كي يتعرّفها. رآها ريفز تدخلُ المحلَّ ومنح نفسه عدّة ثوانٍ قبل أن يقترب منها ليتفحَّصها عن بعدٍ ويروِّضَ خفقات قلبه المتسارعةَ. لم تكن المرأة حلوةً، لا نور في جلدها، كأنّها مريضة، مفلطحة الأنف، قصيرة الساقين، أبرزُ ما فيها عيناها المتباعدتان والمنحرفتان، لوزتان سوداوان

وتامّتان. مدّت له يداً صغيرةً، اختفت في يده، حيّته همساً دون أن تنظر إلى وجهه. جلسا أمام طاولة عليها أطقم طعام بلاستيكيّة. كانت تنتظر متجهمة، يداها على تنّورتِها خافضة النظرة، بينما هو يفحصُ صحنَ اليوم باهتمام غير معقول، متسائلاً لأجلِ أيٍّ شياطين هتفتُ لها، كان في ورطة وكلُّ ما يرغب فيه هو الهرب من هناك. جاءهما النادلُ ببيرة وصحن مفروماتٍ يصعب تحديد ماهيته، لكنّه قاتلٌ دون شكّ لناقهٍ من التهاباتٍ معويّةٍ. صار الصمت مزعجاً، وغريغوري يتلمّس وشاح عذراء غوادلوب تحت القميص. رفعت تهوي أخيراً عينيها ونظرت إليه مصممةً.

ـ أعرف ـ قالتها له بإنكليزيّتها المحطّمة.

ـ ماذا؟ ـ وعلى الفور أسف لسؤاله لها.

ـ موضوع خوان خوسِه. أعرفه.

ـ آسفٌ. لا أعرفُ ما أقولُ لك، فأنا أخرق في مثل هذه الأمور... أعرف أنّ كلاً منكما كان يحبّ الآخر كثيراً. أنا كنتُ أودُّه أيضاً ـ تلعثم غريغوري وقطع عليه الحزن خطابه وشعر بروحه ملأى بالدموع محالةِ الانهمار، بينما كان يضرب بقبضته على الطاولة.

ـ ماذا أستطيعُ أن أفعلَ لأجلكَ؟ ـ أرادت أن تعرف.

ـ أنا من عليه أن يسألك هذا. لذلك تماماً هتفتُ لك. اعذريني، لا بدّ أنّني أبدو لك حشريّاً... هل حدّثكِ خوان خوسِه عنّي؟

ـ حدّثني عن أسرته وبلده. أنت أخوه أليس كذلك؟

ـ لنفترض ذلك. هو أيضاً كلّمني عنكِ، يا تهوي، قال لي إنّه عشق للمرّة الأولى في حياته، وإنّك امرأة عذبة جدّاً وستتزوّجان حين انتهاء الحرب وسيحملك معه إلى أمريكا.

ـ نعم.

ـ هل أنت بحاجةٍ لشيء؟ يحبُّ خوان خوسِه لو أنّني...

ـ لا شيء، شكراً.

ـ نقود؟

ـ لا.

بقيا برهةً طويلةً ليس عندهما ما يقولانه وأخيراً أعلنت أنّ عليها أن تعودَ إلى عملها ونهضت. لم يكن رأسها يعلو إلا عدّة سنتيمترات فوق رأس غريغوري الذي كان ما يزالُ جالساً. وضعت يدها الطفلية على كتفه

وابتسمت ابتسامة واهنة وشقيّة إلى حدٍّ ما، أظهرت طبيعتها الشيطانيّة.

ـ لا تهتمّ، ـ قالت ـ فخوان خوسيه تركَ لي كلَّ ما أحتاجه.

خوف. ذعر. إنَّني أختنقُ خوفاً. شيء لم أشعر به في الأشهر السابقة، شيءٌ جديد. كنتُ في السابق معدّاً لهذه المخرأة، أعرفُ ما أفعلُ، لا يخونني الجسدُ، مستنفراً دائماً، مشدوداً، جنديّاً حقيقيّاً. والآن صرتُ عنصراً مسكيناً، مريضاً، منكمشاً، عاجزاً، كيساً من الخرق. كثيرون يموتون في الأيّام الأخيرة من خدمتهم لأنَّهم يسترخون أو يخافون. يتملّكني خوفٌ من الموت بغتةً دون أن يكون أمامي متّسعٌ من الوقت لأتودَّعَ من النور وخوفٌ آخر أسوأ، خوفٌ من الموت البطيء. خوفٌ من الدم، من دمي ذاته يتسرَّبُ مثل نبع، من الألم، من النجاة والبقاء حيّاً معاقاً، من أن أجنَّ، من الزهري والأوبئة الأخرى التي ينقلونها إلينا، أن أقعَ أسيراً وأنتهي إلى التعذيب في قفصِ قردة، تبتلعني الأدغال، خوفٌ من أن أنام وأحلمَ، أعتادَ على القتل، على العنفِ، على المخدِّرات، القذارةِ، العاهراتِ، الطاعة التافهة، الصراخِ، وبعد ذلك ـ إذا كان هناك بعد ذلك ـ ألاّ أستطيع السير في الشارع كشخصٍ عاديٍّ وأنتهي إلى اغتصاب العجائزِ في الحدائق أو إلى التسديد على الأطفال في فناء مدرسة. بي خوفٌ من كلِّ ما ينتظرني. شجاعٌ من يستطيع أن يحافظ على بأسه أمام الخطر، علَّمْتَهُ لي في الكتابِ، يا سايروس، كنتَ تقولُ لي: لا تكنْ جباناً، فالرجلُ النبيلُ لا ينهارُ وينتصرُ على الخوف، لكنَّ هذا مختلفٌ، وليس أخطاراً وهميّةً، ليس أشباحاً ولا مسوخاً من بناتِ خيالي، إنَّه نارُ نهاية العالم، يا سايروس.

وحنق. لا بدَّ أنّني أشعر بالكراهية، لكن وعلى الرغم من الدعاية وممّا أراه ويحكونه لي لا أستطيع أن أشعر بالكراهية الضروريّة؛ ربّما الذنبُ ذنبُ أمّي، التي حشتْ رأسي بالأفكار البهائيّة أو ذنبُ أصدقائي في الضيعة، الذين علّموني أن أرى التماثلات وأنسى الاختلافات. لا شيء من الكراهية، لكن كثيراً من الحنق، من الغضب من الجميع، من العدوّ، من هؤلاء الديوثين الذين يتحرَّكون تحتَ الأرضِ مثل النواجذ ويتكاثرون بالسرعة ذاتها التي نقضي عليهم فيها، شبيهون بالرجال والنساء الذين كانوا يدعونني لتناول الطعام في بيوتهم في الضيعة. غيظ من كلِّ واحدٍ من المنحرفين، أولاد الزنى الذين يثْرون بالحرب، من السياسيّين والجنرالات، من خرائطهم ومن حاسوباتهم، من قهوتهم الحارّة وأخطائهم القاتلة وعجرفتهم التي لا حدود لها، من البيروقراطيين ولوائح القتلى،الأرقام في أعمدة طويلة، صفوف الأكياس البلاستيكيّة، من

الذين بقوا في بيوتهم ويحرقون بطاقات الاحتياط العام، أيضاً من الذين يلوِّحون بالأعلام ويصفِّقون لنا حين نظهرُ في التلفزيون ولا يعرفون لماذا يقتلُ بعضُنا بعضاً. أولاد العاهرة يُسمّوننا لحم المدفع أو المدافعين الأبطال عنِ الحرِّيّة، ما من واحدٍ منهم يستطيع أن يلفظَ أسماء الأماكن التي نسقط فيها، لكنّ الجميع يدلون بآرائهم ولهم أفكارهم بهذا الخصوص. أفكار! هذا أقلّ ما نحتاجه هنا، اللعنة على الأفكار. وغضب من هذه الشلّالات المائيّة، المطرِ الذي يبلّل ويفسدُ كلَّ شيء؛ من هذا الطقس الذي لكوكبٍ آخر حيثُ نتجمَّدُ ونغلي بالتناوب، من هذا البلد الممحوق وأدغاله المُتحدِّية. نحن نربحُ طبعاً، هذا ما يقوله لي ليو غالوبّي، ملك السوق السوداء، الذي أنهى عامَيْه ثمَّ عادَ ولا يفكرُ بالرحيل أبداً فهذه المخرأة تسحره، ثمَّ إنه يصيرُ مليونيراً ببيعنا عاجهم مهرَّباً وببيعِهم جواربنا ومزيلات تعرّقنا. في كلِّ معركةٍ تافهة نخرجُ منتصرين، بحسبِ غالوبّي، فلا أدري لماذا هذا الإحساسُ بالهزيمة عندنا. الخير ينتصرُ دائماً، كما في السينما، ونحن الخيّرون، أليس كذلك؟ فنحن الذين نتحكَّمُ بالسماء والبحر، ونستطيع أن نحوِّلَ هذا البلد إلى رماد، أن نجعله على الخارطة مجرَّدَ فوّهة بركان، محرقة جثث هائلة حيث لن ينمو شيء في مليون عام، إنّها مسألة ضغط الزر الشهير، أسهل من هيروشيما، هل ما زلتِ تتذكَّرين، يا أمّاه، أم أنَّكِ نسيتِ؟ لم تتذكريها منذ سنوات، أيّتها العجوز، عمّ تتكلّمين الآن مع شبح والدي؟ فهذه القنابل مضت تقليعتُها وعندنا أخرى تقتلُ أكثر وأفضلَ، ما رأيك، هِهْ؟ لكنَّ الحروب لا تكسب في الجوِّ ولا في الماء، تكسب في البرّ، وشبراً فشبراً، رجلاً فرجلاً. أقصى درجات الوحشيّة. لماذا لا نقوم بهجومٍ نوويٍّ، ونرى ما إذا كانَ باستطاعتنا أن نعود إلى بيوتنا مرّةً واحدةً وللأبد، هذا ما يقوله رجالُ البحريّة بعد كأس البيرة الثاني. لا أريد أن أكون في هذه المنطقة حين نفعلُ ذلك. عليَّ ألاّ أفكرَ بالأصدقاء الذين اختفوا، نفقوا، بالبيوت التي تشتعلُ فيها النيران، أفواج اللاجيئن، الرهبان الملتهبين بالبنزين؛ ولا بخوان خوسِه مورالِس، الفتى الكنساسي المسكين، أو بابنتي في كلِّ مرَّةٍ أرى فيها تلك المخلوقات الصغيرة مليئة بالندوب، العمياء، المحروقة. الشيء الوحيد الذي يجبُ أن أُفكِّر به هو الخروج حيّاً من هنا، لا مكان للعواطف، لا شيء غيرالخروج حيّاً. لا أستطيعُ أن أنظرَ إلى عينيَّ أحد، فالموتُ علَّمنا، ترعبني عيون هؤلاء الفتيان، أولاد الثامنة عشرة، الفارغة. في نظراتهم جميعاً هوّات سوداء. يحاصروننا، يعرفون أدنى نوايانا، يصغون إلى همسنا، يشتمُّوننا، يلحقون بنا، يراقبوننا،

ينتظروننا. ليس أمامهم خيار: يربحون أو يموتون، لا يتساءلون أيّ خراء يفعلون هنا.

على هذه الأرض ولدوا منذُ آلاف السنين وعليها يقاتلون منذُ مئةِ سنة على الأقلّ. الصغير الذي يبيعنا فاكهة، المرأة التي بلا أذنين وتدلّنا على المواخير، العجوز الذي يحرقُ القمامةَ، جميعهم أعداء. أو ربّما ما من واحدٍ هو كذلك. خلال أشهري الثلاثة في القرية عدت إنساناً، وليس محارباً، إنساناً، لكنّني الآن مرّة أخرى حيوان محاصر. ماذا لو كان هذا كابوساً؟ كابوس...سأستيقظُ فوراً في صحراء نظيفة، أمسكُ بيد أبي، أتأمّلُ الغروب؛ السماواتُ هنا مريعة، الشيء الوحيد الذي لم تمحقهُ الحربُ بعد. الغروب طويلٌ والشمسُ تتحرّكُ ببطء، برتقاليّة، مرجانيّة، صفراء، الشمسُ قرصٌ هائلٌ من الذهب الخالص.

لم أفكِّر قط بأنّهم سيرسلونني مرّةً أخرى إلى هذا الجحيم. لم يبق لي غير شهر، أقلّ من شهر، خمسة وعشرون يوماً بالضبط. لا أريدُ أن أموتَ، ستكون نهاية تافهة، ليس من المعقول أن أكون نجوتُ من رفس قطّاع طريقِ الحيّ، الجري باتجاه القطار السائر، ومجزرةِ الجبل وثلاثة عشر شهراً تحت النيران لأنتهي دون حزن ولا مجدٍ إلى كيسٍ بلاستيكيٍّ، مقتولاً في اللحظة الأخيرة كأبله. لا يمكن. ربّما كانت أولغا على حقّ، ربّما كنتُ مختلفاً عن الآخرين ولذلك خرجت سالماً معافى من الجبل، أنا قابلٌ للهزيمة وفانٍ، حظّ، تقمّص، قدر... حذارِ من هذه الكلمات، فأنا أستخدمها أكثرَ من اللازم، لا يوجدُ شيءٌ من هذا، إنّها من أكاذيب والدي وأولغا للإيقاع بالجهلة. فالقدرُ يخلقه الواحد بالمواظبة والعمل، وسأفعل بحياتي ما يحلو لي...إذا ما خرجتُ حيّاً وعدتُ إلى البيت. وماذا لو لم يكن هذا حظاً؟ العودة لا تتعلّقُ بي؟ لا شيء ممّا أفعلُ أو لا أفعلُ يستطيع أن يؤكِّدَ لي أنّني لن أفقدَ ساقيَّ أو ذراعيَّ أو حياتي في هذه الأيّام الخمسة والعشرين.

أدركت إنماكولادا مورالِس بأنّ زوجها في حالةٍ سيّئة قبل النوبة الأولى، كانت تعرفه جيّداً ولاحظت التغيُّرات التي لم يشعر بها. كان بيدرو يتمتّع بصحّةٍ رائعة، والعلاج الوحيد الأكيد الذي استخدمه هو خلاصة الكينا لتدليك الظهر المنهك من فرط العمل، والمرّة الوحيدة التي خدّروه فيها كان يوم استبدلوا له أسنانه السليمة بأخرى ذهبيّة. لم يكن يُعرفُ عمره بالضبط وعهد بمهمّة الحصول على بيان ولادة لأحد المزوِّرين من

تيخوانا، حين حانت لحظة التصديق على شرعيّة أوراق الهجرة واختار تاريخاً على عماها. كانت زوجته تقدّر عمره بخمسين أو خمس وخمسين سنة في المرحلة التي غادرت فيها كارمن البيت. بعدها لم يعد بيدرو نفسه، صارَ رجلاً عنيداً، يابس الرأس، جامد التقاسيم، والحياة معه صعبة. لم يناقش الأولادُ سلطته قط، لم يكن ليخطر لهم أن يتحدّوه أو يطلبوا منه توضيحات. لانت طبيعته بعد زمن حين تزوّج أولاده الكبار وجاؤوه بأحفاده، صار يبتسم حين يرى الأطفال يتلعثمون بنصف لسان، يزحفون عند قدميه مثل الصراصير كما في الأزمنة الطيّبة. لم تستطع إنماكولاد أن تُكلّمه عن كارمن قط. حاولت ذلك مرّةً فأوشك أن يضربها، انظري ما تجبرينني على فعله، يا امرأة! زمجر عندما رأى ذراعه في الهواء. كان على عكس الكثير من رجال الحيِّ يعتبرُ ضربَ الرفيقة عملاً جباناً، أمّا البنات فشيء مختلف، كان يقول، يجب تربيتهن. وعلى الرغم من جهامته التي صارت قديمة كانت إنماكولادا تعرف كم هو بحاجةٍ إلى كارمن، فخطرت لها طريقة لوضعه في صورة أخبارها. شرعت بمراسلة متباعدة مع غريغوري ريفز موضوعها الوحيد الفتاة الغائبة. هي ترسل إليه بطاقاتٍ عليها أزهار وحمائم لتخبره عن العائلة وابنها الغرينغو يردُّ عليها معلّقاً على آخر محادثة هاتفيّة له مع كارمن، وهكذا عرف تفاصيلَ حياة ابنته ووجودها في المكسيك، سفرها إلى أوروبا، غراميّاتها، عملها. كانت تترك الرسائل منسيّة حيث يستطيعُ الوالدُ قراءتها دون أن تحرجَ كبرياءه. في تلك السنوات تبدّلت العادات بشكلٍ مأساويٍّ وعثرةُ كارمن صارت حدثاً يوميّاً، صار من الصعب جدّاً الاستمرار بتجريمها كما لو كانت من صلب الشيطان. الحمل خارج حظيرة الزوجيّة صار الموضوع المفضّل للأفلام والمسلسلات التلفزيونيّة والروايات، وفي الحياة الواقعيّة كان للممثلات الشهيرات أولادٌ لا تُعرف هويّة آبائهم، ونصيرات المرأة يطالبن بحق الإجهاض والهيبيّون يمارسون الجنس في الحدائق العامّة على مرأى ممّن يريدُ أن يراقبهم، بطريقة جعلت حتى الأبَ لارّاغيبِل الصارم يستغرب تشدُّد بيدرو مورالِس.

في ذلك الأربعاء الأرعن مثُلَ ضابطان شابّان في بيت آل مورالِس، اثنان من الشبّان خائفان يحاولان أن يخفيا اضطرابهما وراء تيبّس الجنود التافه ورسميّةِ خطابٍ كُرِّرَ مرّاتٍ كثيرةً. جاءا بخبر مقتل خوان خوسِه. قالا إنّهم سيقيمون قدّاساً جنائزيّاً، إذا وافقت الأسرة، وإنّ جثمانه سيوارى التراب خلالَ أسبوعٍ في المقبرة العسكريّة، وسلّما الأبوين الميداليّات التي حصل عليها ولدهما في أعمالٍ بطوليّةٍ تتخطى القيام

بالواجب. تعرّض بيدرو مورالِس ليلاً للنوبة الثالثة. شعر بوهنٍ مفاجئٍ في عظامه، وكأن جسده صار من شمعٍ لدنٍ، انهار منهكاً عند قدمي زوجته، التي لم تستطع رفعه لوضعه في السرير ولم تجرؤ على تركه وحيداً لتطلب مساعدة، وحين وجدت أنّه لا يتنفّس سكبت ماءً بارداً على وجهه، لكنّ هذا العلاج لم يُجد نفعاً معه، وعندئذٍ تذكرت برنامجاً تلفزيونيّاً وراحت تمنحه الهواء فماً لفم وتضرب على صدره بقبضتيها. لحظةً واستيقظ زوجها مبلّلاً مثل بطّة وما إن ذهب عنه الدوار حتى تناول كأسين من التكيلا والتهم نصف فطيرة تفّاح. رفض الذهابَ إلى المشفى، واثقاً من أنّها مجرّد حالة عصبيّة، والشعور بالمرض سيزول بالنوم، قالَ ذلك وذهب. استيقظ في اليوم التالي باكراً كما هي العادة، فتح الورشة ثمّ ذهبَ بعد أن أعطى توجيهاته للميكانيكيين، ليشتري بدلةً سوداء لجنازة ابنه. لم يبق عنده من الدوار غير ألم شديد في أضلاعه، التي حطّمتها زوجته بلكماتها. أمام استحالة حمله إلىّ الطبيب قرّرت إنماكولادا أن تستشيرَ أولغا، التي صالحتها بعد حادث كارمن المأساوي، لأنّها أدركت أنَّ الطبيبةَ الشعبية لم تبغِ إلاّ مساعدتها. كانت تعرف تجربتها الطويلة، وأنها ما كانت لتخاطَر بالقيام بعمليّة إجهاضٍ لو لم يكن الأمرُ يتعلّقُ بالفتاة التي كانت تُحبُّها مثل ابنة أخٍ لها. لكنّ النتيجة جاءت سيّئة، وهي تفكّر أنّها لم تكن خطيئتها بل إرادةُ الله. كانت أولغا قد علمت بموت خوان خوسِه وتستعدُّ مثل جميع أهلِ الحيّ لحضور قدّاس وجناز الأب لارّغيبِل. تعانقت المرأتان طويلاً وجلستا لتناول القهوة والكلام عن هزال بيدرو مورالِس.

ـ ليس كما كان دائماً. إنّه ينحل. يتناول ليتراتٍ من العصير ولا بدَّ أن تجاويف حدثت في كرشه من كثرة الليمون. ليس عنده من القوّة ما يكفي لتوبيخي، يكفي أن أقول لك إنّه لا يذهب في بعض الأيّام إلى الورشة.

ـ هل من شيءٍ آخر؟

ـ يبكي في نومه.

ـ دون بيدرو فحلٌ تماماً، لذلك لا يستطيع أن يبكي في يقظته. قلبه مليء بالدموع من موت ابنه، شيءٌ طبيعيٌ أن تخرج في نومه.

ـ بدأ هذا قبل موت خوان خوسِه، أسكنه الله فسيحَ جنانه.

ـ واحدٌ من أمرين: إمّا أنَّ دمه تحلّل أو أنّه مَكروب.

ـ أنا أظنُّ أنّه مريض جداً. هذا ما حدثَ لأمّي، هل تتذكّرينها؟

أولغا تتذكّرها جيّداً، صارت تاريخاً حين ظهرت على شاشة

التلفزيون بمناسبة إتمامها المئة عام. المرأة المخبولة التي كانت في العادة امرأة فرحة استيقظت ذات صباح مبلّلة بدموعها ولم يجدوا وسيلة لمواساتها، كانت ستموت ويؤسفها أن تذهب وحيدةً، كانت تسرّها رفقة أسرتها وتظنُّ أنّها ما تزال في قريتها تاكاتِكاس. لم تدر قط أنّها عاشت ثلاثين عاماً في الولايات المتحدة، وأن أحفادها تشيكانيون والناس يتكلّمون الإنكليزيّة فيما وراء حدود حيّها. كوت أفضل ثوبٍ عندها لأنّها تريد أن تُوارى الترابَ بحشمة، جعلتهم يقودونها إلى المقبرة لتحُددَ قبور أسلافها. فأوصى أبناء مورالس في الحال على شاهدة بأسماء والدي السيّدة ووضعوها في مكان استراتيجيّ كي تستطيع رؤيتها بأُمّ عينها. آه كيف يتكاثر الموتى! ذلك كان تعليقها الوحيد حين رأت حجم مقبرة الإقطاعة. قضت الأسابيع التالية تبكي مسبقاً مغادرتها ذاتها حتى تلاشت مثل شمعة وصارت بلا نور.

ـ سأتركُ له بعض شراب المجدليّة، إنّه رائع لمثل هذه الحالات. وإذا لم يتحسّن دون بيدرو وجبَ حمله إلى طبيب ـ نصحت أولغا ـ عذراً على تدخّلي، يا سيّدة، لكنّ ممارسة الحبّ جيّدة للجسد والروح. أنصحكِ أن تكوني ودودةً معه.

خجلت إنماكولادا، فهذا موضوع لا تستطيع أبداً أن تُناقشه مع أحد.

ـ ولو كنتُ مكانك لهتفتُ أيضاً لكارمن كي تعودَ. مضى وقت طويل وأبوها بحاجةٍ إليها. حان وقت المصالحة.

ـ لن يغفر لي زوجي هذا، يا دونيا أولغا.

ـ دون بيدرو فقد توّاً واحداً من أولاده، ألن يبدو له عزاءً جيّداً أن تنبعث ابنة له كانت بحكم الميّتة؟ وكارمن كانت دائماً المفضّله لديه.

حملت إنماكولاد شراب المجدليّة كي لا تقع في الجحود. لم تكن ثقتها كبيرة بشرابات العرّافة المنفّرة، لكنّها كانت تثق ثقةً عمياء بنظرتها الصائبة كناصحة. وحين وصلت إلى البيت رمت بالعبوةَ إلى القمامة وبحثت في علبة الصفيح التي تخبّئ فيها بطاقات غريغوري ريفز حتى وجدت آخر عناوين ابنتها.

عاشت كارمن مورالِس أربع سنوات في مدينة مكسيكو. كانت السنتان الأوليّتان من الوحشة والظلمة بحيث اعتادت على القراءة، وهو ما لم تكن تتصوّر أنّه ممكن. كان غريغوري يرسلُ إليها في البداية روايات

بالإنكليزيّة، لكنّها اكتتبت فيما بعد في إحدى المكتبات العامّة وشرعت تقرأ بالإسبانيّة. تعرّفت هناك على عالِم أجناس يكبرها بعشرين سنة، وقد أدخلها إلى دراسة ثقافاتٍ أخرى واحترام موروثها البلديّ. كان مسحوراً بجيد الفتاة كما سُحرت هي بمعارف صديقها الجديد. ارتعبت كارمن بدايةً من الماضي العنيف والدامي لهذه القارّة، لم تجد ما يعجبها في كهنة يعلوهم الدم الجافّ، يشغلهم انتزاع قلوب ضحايا نذرهم، لكنّ عالم الأجناس جعلها ترى معنى تلك الطقوس، حكى لها أساطير قديمة، علّمها فكّ الرموز الهيروغليفيّة، أخذها إلى المتاحف وأراها الكثير من كتب الفن، معاطف الريش، والسجاد، والنحت البارز والتماثيل، فصارت تُقدّر ذلك الجمال الضاري. أعظم اهتماماتها كانت التصاميم وألوان الأقمشة، الرسم، الفخّار والزخارف، تقضي الساعات في الرسم على الدفاتر لتطبّقها في صنع مجوهراتها. ومن كثرة ما طاف عالِم الأجناس وتلميذته وهما يتأملان المومياءات والتماثيل الأزتيكيّة المرعبة تحوّلا إلى حبيبين. طلبَ منها أن يعيشا معاً ليتقاسما الحبّ والمصاريف، فتركت غرفتها الحقيرة والموبوءة حيث قاومت وعاشت حتى ذلك الوقت وانتقلت إلى شقّة عشيقها في وسط المدينة. كان تلوثُ الجوّ مقلقاً، فالطيور تسقط ميتةً من السماء، لكنّها على الأقلّ تتمتّع بحمّام ماءٍ ساخن وغرفة مشمسة أقامت فيها ورشةَ صياغتها. ظنّت أنّها وجدت السعادة وتصوّرت أنّها تستطيع أن تحصل على المعرفة من خلال العلاقة الجسديّة، كانت متلهّفة للتعلّم، وتعيش في حالة دهشة ومفاجأة متواصلة أمام عشيقها، فكلُّ نتفة معرفة كانت تسقطُ في تربةٍ خصبة. كانت مقابل دروس عالِم الأجناس الرائعة مستعدة لأن تخدمه، تغسل ثيابه، تنظف البيتَ وتحضِّرَ الطعامَ بل وحتى تُقلِّمَ أظافره وتقصّ له شعره، إضافة لأن تسلّمه كلَّ ما كانت تكسبه من بيع أدوات زينتها الفضّيّة إلى السيّاح. لم يكن الرجلُ عالماً بالهنود الشبحيين ومقابر الجرار القديمة وحسب، بل كان خبيراً أيضاً بالأفلام والكتب والمطاعم، ويقرّرُ طريقتها في اللباسِ والكلام بل وحتى في التفكير. دام خضوع الشابة أكثر ممّا كان يُنتظرُ من شخص له مزاجها، فقد أطاعته خلال سنتين بتبجيل، وتحمّلت ليس فقط أن يكون له علاقة مع نساء أخريات وينهال عليها بكمٍّ هائل من المعلومات الصعبة، « لأنّه يجب ألاّ يكون بيننا أسرار»، بل أن يصفعها من حينٍ لآخر، عندما كان يشرب بعض الكؤوس الزائدة. بعدَ كلِّ مشهدِ عنفٍ كان يأتي رفيقها العالمُ إلى البيت مع بعض الأزهار ويرتمي في حضنها باكياً وطالباً تفهّمه ـ فالشيطان قد تمكّن منه ـ ويقسم أنّه لن يعود لمثل تلك الفعلة. وكارمن

تعفو، لكنّها لا تنسى وخلال ذلك تمتصُّ المعلومات كالإسفنجة. كانت تخجل من قبول تلك الضربات وتشعر بالإهانة، ثم لا تلبث أن تظنّ أنّها تستحقّها، ربّما كان ذلك عاديّاً، ألم يضربها والدها مرّاتٍ كثيرةً؟ أخيراً تجرّأت ذات مرّةٍ على البوح بذلك إلى غريغوري ريفز في واحدة من مكالمات أيّام الإثنين السريّة، فوصل صراخ صديقها إلى السماء. عاملها كحمقاء وأزعجها ببعض الإحصاءات الكاذبة وأقنعها بأنَّ الرجل لن يتبدّل، على العكس، فالعسف سيزداد إلى أن يدرك حدوداً لا أحد يعرفها. بعد عشرة أيّام تلقّت من غريغوري حوالة مصرفيّة لتذكرة سفر ورسالة يعرض فيها مساعدته ويرجوها أن تعودَ إلى الولايات المتّحدة. وصلت الهديّة في اليوم التالي من مشاجرة أفرغ فيها عالم الأجناس بحركة يدٍ قدر الحساء المغلي فوقها. كان حادثاً غير مقصود، اعترف الاثنان، لكنّها أمضت يومين وهي تضع الحليب وزيت الزيتون على صدرها، وما أن تمكّنت من ارتداء قميصها حتى توجّهت إلى وكالة للسفر بهدف أن تطيرَ إلى بيتها، لكنّها تذكرت وهي تتصفّح بعض النشرات ضراوةَ والدها وقرّرت عدم قدرتها على مواجهته. وبقفزة خيال غيّرت اتجاه البوصلة واشترت تذكرةً إلى أمستردام. رحلت مرتاحة دون أن تودّع عشيقها، كان في نيَّتها أن تتركَ له رسالةً، لكن انشغالها بترتيب الحقائب أنساها الأمر، كانت تحمل كيساً فيه معدّاتها ومواد عملها وعبوتي حليب مكثّف لتخفّفَ من مرارات الطريق.

بهرتها أوروبا. جابتها كاملة بحقيبة على ظهرها، تكسب عيشها دونما صعوبة كبيرة، تُعلّمُ الإنكليزيّة، تبيع مجوهراتها حين تتمكّن من صناعتها وإذا ما هدّدها الجوع لجأت إلى غريغوري تطلبُ مساعدته. لم تترك كاتدرائيّةً أو قلعة أو متحفاً لم تزره، إلى أن بلغت حدَّ الإشباع فوعدت ألا تعود وتضع قدماً في معابد السيّاح، فالأفضل أن تسير في الشوارع تستمتع بالحياة. وذات صيف دخلت إلى برشلونة وما إن نزلت من القطار حتى أحاطت بها مجموعة من الغجريّات الصارخات المصرّات على أن يُبصّرنَ لها ويبعنها بعضَ التمائم. راقبتهنَّ مندهشة وقرّرت أن هذا هو الأسلوب الأكثر ملاءمة لها، ليس من ناحية مهنتها كصائغة، بل من ناحية لباسها. ثمَّ اكتشفت تأثيرَ الموريسكيين في جنوب إسبانيا وألوان شمال أفريقيا، وتبنّتها في مزج سعيد. أقامت في نزل في الحيّ القوطي، خالٍ من أي شعاع نور طبيعي تئنُّ فيه قساطل المياه بلا انقطاع، لكنَّ غرفتها كانت واسعة، عالية السقف المزخرف وفيها طاولة كبيرة للعمل. بعد أيّام قليلة كانت قد خاطت تنوراتٍ بكشاكش تذكّرُ بملابس أولغا في

سنوات صباها وبأقنعتها أيام بلهوانيّاتها في ساحة بِرْشينغ. عليها ألاّ تخلع هذا النوعَ من الملابس بعد الآن، هذّبتها في السنوات اللاحقة حتى بلغت بها حدَّ الكمال نتيجة المتعة باستخدامها، دون أن تدري أنَّها ستجعلُها في المستقبل شهيرةً وثريّة.

بعد أن جالت من أوسلو حتى أثينا بمتاعها على ظهرها ودون نقودٍ تقريباً، اعتبرت أنّه يكفيها تسكّعاً، فقد حانت ساعة أن تريح رأسها. كانت مقتنعة بأنّ المهنة الوحيدة التي تناسبها هي الصياغة، لكنّ التنافس في هذا المجال كان لا يرحم، فلا يكفي كي تنطلق أن يكون عندها تصميمات أصيلة، بل عليها قبل أيّ شيءٍ أن تكتشفَ أسرار المهنة. كانت برشلونة المكان المثالي لها. سجّلت في دوراتٍ مختلفة تعلّمت فيها تقنيّات عريقة في القدم وشيئاً فشيئاً ولد أسلوبها الفريد، مركب من المهارة القديمة الراسخة وصِبغة غجريّة جريئة مع لمسات أفريقيّة وأمريكيّة لاتينيّة بل وشيء من الهند أيضاً، التي كانت في أوج موضتها في ذلك العقد. كانت دائماً أكثر طلاّب الصفّ أصالةً، واختراعاتها تباع بسرعة لا تسمح لها بتلبية الطلبات، كلُّ شيء كان يسير بأفضل مما كان منتظراً، إلى أن عبر بها شابٌ يابانيٌّ، أصغر منها بقليل، يعمل صائغاً أيضاً. كانت كارمن قد تمكّنت من عرضِ مجوهراتها في حوانيت رفيعة الشأن، بينما يعرض هو مجوهراته بقليلٍ من النجاح في الشوارع العريضة، الاختلاف الذي كان يهينه، ولكي تواسيه عادت لتبيع في الشارع بحجّة أنَّ روحَ المدينة توجد هناك. أقاما معاً في نزل كارمن الغروبي وسرعان ما رجحت كفّة ميزان الاختلافات الثقافيّة على الجاذبية المشتركة، لكنّ حاجتها إلى الرفقة كانت من القوّة بحيث أنّها جهلت الأعراض. لم يتنازل الياباني عن عادات أسلافه، يدخلُ أوّلاً وينتظر أن يُخْدَم. يبلّل نفسه لساعاتٍ في الحوض الساخن ثمَّ يفسحُ لها المجال بالماء الذي صار بارداً. الشيء ذاته كان يحدثُ مع الطعام، السرير، المعدّات ومواد العمل، في الشارع يسيرُ أمامها وعليها أن تتبعه على بعد خطوتين. إذا كان هناك شمس يخرجُ الشابّ ليبيع أشياءه وتبقى كارمن تعملُ في الغرفة المظلمة، لكن إذا ما أصبحت ممطرةً، يكون عليها أن تقضي النهار في العراء، لأنَّ عشيقها كان يعاني من آلام رثويّة تناسبها وتخففها حرارة الجوّ. في البداية بدت لها تلك الغراباتُ ظريفةً، قالت بمزاج رائق أشياءَ تتعلّق بالشرقيين، لكنَّ صبرها نفدَ بعد أن تحمّلتها زمناً وبدأت الخلافات. لم يفقد الرجل قط أعصابه. كان يردّ على توبيخاتها بصمتٍ جليديٍّ، فتشعر هي بالفراغ حولها كأنّه حصار ضاغط، لكنّها لا تشكو فهذا على الأقلّ يمتنع عن صفعها أو رميها

بالحساء المغلي. أخيراً أذعنت لقرارها بألاّ تبقى وحيدة، ثمّ إن رفيقها يسحرها، يجذبها شعره الطويل الأسود، جسده الصغير، الذي كان كلّه عضلات، نبرته الغريبة، دقّة حركاته، تقتربُ منه خجلى، تهزّ له برهة فتتمكّن عامّة من تليينه، فيتصالحانِ في الفراش، حيث كان خبيراً.كان باستطاعتهما أن يستمرّا معا نظراً لكسلها، لكنّ برقيّة من إنماكولادا تدخّلت معلنة مرضَ بيدرو موراليس وطالبة بحبِّ الله عودتها، لأنّها الوحيدة القادرة على إنقاذ أبيها، الذي كان يذيبه الحزن. وعندئذٍ عرفت كم كانت تحبُّ ذلك العجوز العنيد، كم تتلهّف لأنِ تغوصَ برأسها في حضن أمّها الساحر وتعود ولو للحظات الطفلةَ المدلّلة. حملت معها فقط ثيابها التي لا غنى لها عنها دافعة بها بسرعة في كيس، مفكّرة أن رحلتها ستكون لأسبوعين فقط. رافقها اليابانيُّ إلى المطار تمنى لها حظّاً طيّباً وودّعها بانحناءةٍ خفيفةٍ، فهو لم يلمسها قط في مكانٍ عام.

من كثرة ما رأيتُ وجهَ الموت تعلّمتُ قيمة الحياة. الشيءُ الوحيدُ الذي نملكه هو الحياة، وما من واحدة أكثر قيمة من الأخرى. فحياةُ خوان خوسِه ليست أهمّ من حياة الرجال الذين قتلتهم، ومع ذلك فالموتى لا يثقلون عليَّ، يمضون معي دائماً، إنّهم رفاقي. إمّا أن تَقْتُلَ أو تُقْتَلَ، بهذه البساطة، ليست مسألة أخلاقيّة بالنسبة إليّ، التردّد والاختلاطات من طبيعة أخرى. أنا واحدٌ من المحظوظين الذين خرجوا من الحرب دون أن يُخدَشوا.

حين عدتُ ذهبت من المطار إلى أحد المنتجعات، لم أُخبر أحداً. كانت سان فرانسيسكو غائمةً، وتهبُّ عليها رياح شتويّة، كما يحدثُ دائماً في الصيف، قرّرتُ أن أنتظر طلوعَ الشمس لأهتف لسمانثا، لا أدري لماذا خطر لي بأنّ الطقس يمكن أن يجعل لقاءنا ألطف، الحقيقة أنّنا افترقنا ونحن على استعدادٍ للطلاق، لم نتراسل قط، كان واضحاً يوم هتفتُ لها من هاواي أنّه لم يكن عندنا ما نقوله الواحد للآخر. كنت أشعر بنفسي تعباً، بلا رغبة بالنقاشات والعتابات وخاصّة أن أحكي لها أو لغيرها عن تجاربي في الحرب. طبعاً كنتُ أريدُ أن أرى مرغريت، لكن ربّما لن تتعرّفني ابنتي، ففي هذا العمر ينسى الأطفال بعد أيّام قليلة وهي لم ترني منذ شهور. تركت أشيائي في الغرفة وخرجت بحثاً عنْ مقهى، كنتُ بحاجة لفنجان من قهوة سان فرانسيسكو الجيّدة، إنّها الأفضلُ في العالم. سرتُ في هذا الهذيان المديني حيث نادراً ما يُشاهد البحر، خطوط مستقيمة

تصعد وتهبطُ بحسب مخطّطٍ هندسيٍّ غير آبهٍ بطبيعة الأرض ذات الهضاب الإحدى عشرة. بحثتُ عن زواياي المعروفة، لكنّ الضباب كان قد شوّهَ كلّ شيء. بدت لي مكاناً غريباً، لم أعرف المباني ورحت أدورُ فاقداً الاتجاه في مدينة التناقضات والشذى، الفاسقة ككلّ الموانئ، الشقيّة كفتاة خفيفة الثياب. لا أعرف تفسيراً لطابع أناقة سان فرانسيسكو، ومهما يكن فإنّ عصبة من المغامرين المصابين بحمّى الذهب السهل والعاهرات وقطّاع الطرق أسّسوها. لامس صينيٌّ ذراعي فقفزت كما لو أنَّ عقرباً لسعني، شادّاً على قبضتيَّ، متلمّساً السلاح الذي لا أحمله. ابتسم الرجلُ وقال لي وهويبتعد: نهارك سعيد، فبقيت مشلولاً، شاعراً بالنظرات الغريبة، على الرغم من أنّه لم يكن هناك في الحقيقة من يمعنُ النظر فيَّ، بينما راحت تمرُّ الحافلاتُ الكهربائيّة بإعلان نواقيسها. طلاّبُ المدارس، السكرتيرات، السيّاح الذين لا يخلو منهم المكان، العمّال اللاتينيّون، التجار الآسيويّون، الهيبيّون، العاهرات الزنجيّات بشعرهنّ المفضّض المستعار، اللواطيون وهم يمسكون بعضهم بأيدي بعض، جميعهم مثل ممثّلين في فيلم مضاءٍ بنورٍ اصطناعيٍّ، بينما أنا باقٍ على هذا الجانب من الشاشة، لا أفهمُ شيئاً، مهمَّشاً كليَّاً، على بعد آلاف السنين منهم. سرتُ في الحي الإيطالي، في الحي الصيني، في شوارع البحّارة حيث يبيعون المشروبات الكحوليّة، المخدِّرات، والصور الداعرة - النعجات القابلة للنفخ وهي آخر المستجدّات - إلى جانب ميدالات سان كريستوبال للوقاية من مصادفات الإبحار. عدت إلى النزل، تناولت عدّة منوِّمات ولم أعرف عن نفسي شيئاً إلا بعد عشرين ساعة، حين أيقظتني شمسٌ مشعّة في النافذة. أخذتُ الهاتف لأتصل بسمانثا، لكنّني لم أتذكر رقمَ بيتي ، قررتُ الانتظارَ قليلاً، منحَ نفسي يومين من الانفراد كي أستجمع قليلاً جسدي وروحي قليلاً، فأنا بحاجة لأن أغتسل من الخارج ومن الداخلِ من كثرة الآثام والذكريات الفظيعة. كنتُ أشعر بنفسي ملوّثاً، وسخاً، ميتاً من التعب. أيضاً لم أهتف لآل مورالِس، كان عليّ أن أذهب فوراً إلى لوس أنجلوس، لكنّ الهمّة تنقصني، لم يكن باستطاعتي بعدُ أن أحكي عن خوان خوسِه، أن أنظر إلى عيني إنماكولادا أو بيدرو وأؤكد لهم أنَّ ابنهم مات من أجل الوطن، كبطلٍ، معترفاً ودون ألم، دون أن ينتبه تقريباً، بينما في الحقيقة مات وهو يعوي ولم يقبروا سوى نصف جسده. لم يكن باستطاعتي أن أقولَ لهم إن آخر كلماته كانت رسالة لهم، شدّ على يدِ القسّ وقال له اسندني، يا أبتي، فإنّني أسقط عميقاً. لا شيء كما في السينما ولا حتى الموت، لا نموت بنظافة بل مرعوبين في بركة من الدم والخراء. لا أحدَ يموت في السينما حقيقةً، كما

لا أحد يعيش الحرب حقيقة. في ڤييتنام كنتُ أتصوّرُ أنوار الصالة ستضاء بسرعة وسأخرج إلى الشارع بتؤدة لأتناول فنجان قهوة لكن سرعان ما نسيت كلّ شيء. الآن وعندما تعلّمت على العيش بمزقِ الذاكرة الجيّدة، ما عدتُ ألعبُ لعبةَ أنَّ الحياة مثل حكاية، بل أقبلها بكل الألم الذي تأتي به.

تباعدنا أنا وأختي كثيراً، فمنذُ ولادة مرغريت ما عدنا نلتقي، لم أبغ أن أهتف لها أو لأمّي، عمَّ كنّا سنتكلّم؟ كانت تعارض الحرب وتعتبر أن الفرارَ أكثرَ حشمةً من القتل، كلّ أشكال العنف مشينة ومنحرفة، تذكَّرْ غاندي، كانت تقول لي، لا نستطيعِ أن ندعم ثقافة السلاح، نحن في هذا العالم كي نحتفل بالحياة ونحضّ على الرحمة والعدالة. مسكينة تلك العجوز، كانت تهيم وراء أبي شبه المجنون في عوالم *الخطّة اللانهائية* بعيدةً عن الواقع، لكنّها نبيهة بما لا يدع مجالاً للجدل في هذياناتها. ذهبتُ إلى ڤييتنام دون أن أودّعها لأنّني لم أبغ جرحها، فالمسألة كانت بالنسبة إليها مسألة مبادئ، ولا علاقة لها بأمني الشخصي. أظنُّ أنّها كانت تحبّني بطريقتها، لكن دائما كان هناك هوّة بين الإثنين. بماذا كان سينصحني والدي؟ لم يكن ليقول لي قط أن أذهب إلى السجن أو المنفى، ربّما كان سيدعوني إلى الصيدِ ويربت على كتفي في صمت الفجر القارس ونحن نترصّد البط، ونتفاهم دون حاجة للكلام، كما نتفاهم فيما بيننا نحن الرجال أحياناً.

قضيتُ الأيّامَ الثلاثةَ الأولى في النزل أمام التلفزيون وإلى جانبي عدد من صناديق البيرة وقناني الوسكي، ثمّ ذهبتُ ومعي كيسي لأنام على الشاطئ. أمضيت أسبوعين أنظر إلى البحر، أدخنُ الريبا وأدردش مع طيف خوان خوسِه. كانت المياه باردةً، ومع ذلك كنتُ أسبح حتى أشعر بدمي متجمّداً في عروقي ودماغي أبيضَ مشلولاً، بلا ذكريات. البحر هناك دافىء، على الرملِ يدبُّ الجنودُ، ثلاثة أيّام من اللعب، البيرة والروك كي أعوّض أشهراً من القتال. أسبوعان لم أقل فيهما جملةً واحدة كاملة لأحد، لا أكادُ أصدرُ دمدمةً طلباً لبيتزا أو همبرغر، أظنُّ أنّني في أعماقي كنتُ أرغبُ بالعودةِ إلى ڤييتنام، على الأقل كان لي رفاقٌ هناك وعملٌ أقومُ به، وهنا كنتُ بلا أصدقاء، وحيداً، لا أنتمي إلى مكان. في الحياة المدنيّة لا أحد كان يتكلّم بلُغَةِ الحرب، لم يكن هناك مفردات لأحكي بها عن تجارب ميدان المعركة، لكن حتى ولو وجدت، فلا أحد يرغب بأن يسمعَ قِصّتي، لا أحد يهتمّ بالأخبار السيّئة. لا أشعر بالثقة إلا بين مقاتلين سابقين وأتكلّم عن تلك الأشياء التي لن أقولها أبداً لمدنيٍّ، فهم يفهمون لماذا ينطوي المرءُ على عاطفته ويخاف الاقتراب، يعرفون أن الشجاعة الماديّة أسهل

بكثيرٍمن العاطفيّة، لأنّهم فقدوا بدورهم أصدقاءَ بمعزّة الأخوة، وقرّروا أنْ يُوَفِّروا على أنفسهم هذا الألمَ الذي لا يحتمل في المستقبل، من الأفضل ألاّ يُحبَّ الواحد بكثافةٍ شديدة. بدأتُ أتدحرج دون أنْ أنتبه في هذه الهوّة التي طالما ضاع فيها الكثيرون، وأرى الجانب الجذّابَ في العنف، أفكرُ أنَّ شيئاً جيّاشاً كهذا لن يحدثَ أبداً، وأنَّ بقيّة حياتي ستكون صحراء رماديّة.

أعتقدُ أنَّني اكتشفتُ السرَّ الذي يفسِّرُ استمرارَ الحرب. جون وسوزان تؤكّدان أنَّها من اختراع الفحوليّين الشيوخ للقضاء على الشباب الذين يكرهونهم، يخافونهم، لا يريدون أنْ يقاسموهم شيئاً، النساء، السلطة أو المال، يعرفون أنّهم عاجلاً أو آجلاً سوف يحرمونهم من كلِّ شيء، لذلك يرسلونهم إلى الموت، حتى ولو كانوا أبناءهم بالذات. هناك سببٌ منطقيٌّ بالنسبة إلى العجائز، لكن لماذا يقوم بها الشباب؟ كيف لم يتمرَّدوا خلال هذه الآلاف من السنين على هذه المذابح الطقسيّة؟ عندي جواب. هناك ما هو أكثر من غريزة القتال الأساسيّة ودوار الدم: اللذة. اكتشفتها في الجبل. لا أجرؤ على لفظ هذه الكلمة بصوتٍ عالٍ، ستأتيني بسوء الطالع، لكنَّني أردِّدُها بصمت، لذّة، لذّة. وهي أكثف ما يستطيعُ المرءُ أن يجرِّبه، أكثر من الجنس، هي الظمأُ المروي، الحبُّ الأوَّل المستجابُ، أو الوحي المقدَّس، كما يقولُ من يعرفون هذا.

في ليلة الجبل تلك كنتُ على بعد جزءٍ من الثانية عن الموت. مرَّت الطلقةُ ملامسةً خدِّي وأصابت الجندي الذي كان خلفي في منتصف جبهته. شلَّني الذعر لثانيةٍ، بقيتُ مُعلَّقاً ذاهلاً من ذعري، ثم حدث تمزّقٌ في ضميري ورحتُ أطلق النار بجنون وأصرخُ لاعناً، غير قادرٍ على التوقُّفِ أو التفكير، بينما الرصاص يئزُّ، والنيران تضطرمُ وينفجرُ العالم انفجاراً كارثيّاً هائلاً. لفّني الحرُّ، الدخانُ وفراغُ الأوكسجين الرهيب الممتصّ في كلِّ حريق من تلك الحرائق، لا أذكرُ كم دامَ كلُّ هذا أو ما فعلت أو لماذا فعلته، لا أذكرُ إلاّ مُعجِزة أنَّني وجدتُ نفسي حيّاً، وشحنة الأدرينالين والألم تتفرّغ في كلِّ جسدي. ألم حسّيّ، لذّة كاسحة، مختلفة عن اللذات الأخرى المعروفة، أفظع من أطول رعشة جنسيّة، لذّة اجتاحتني كاملاً، فصار دمي كرميلا وعظامي رملاً، أدخلتني أخيراً في فراغٍ أسود.

كان قد مضى عليَّ أسبوعان تقريباً في النزل حين استيقظتُ ذات ليلة وأنا أصرخُ. في الكابوس كنتُ وحيداً على الجبل عند الفجر، أرى الجثث عند قدميَّ وأشباح رجال العصابات يتسلّقونه في الضباب باتجاهي.

كانوا يقتربون. كل شيءٍ كان في غاية البطءِ والصمت، فيلماً صامتاً. سلاحي يُطلق النار، كنتُ أشعر به يرتدُّ، تؤلمني يداي، أرى الشررَ، لكن ما من صوت. كانت الطلقاتُ تخترقُ الأعداءَ دون أن توقفَهُم، فرجالُ العصابات شفّافون كالرسم على البلور، يتقدّمون بلا رحمة، يحاصرونني. أفتحُ فمي لأصرخ، لكنَّ الذعر كان قد اجتاحني في داخلي وما يخرج لم يكن صوتاً بل قطع جليد. لا أستطيعُ العودةَ إلى النوم، يعوقني خفقُ قلبي ذاته. نهضتُ، أخذتُ سترتي وخرجتُ أسيرُ على الشاطئِ. كفى انتحاباً، أعلنتُ للنوارس عند الفجر.

لم تتجرَّأ كارمن مورالِس على الذهاب مباشرةً إلى بيت أسرتها، لأنّها لم تكن تدري كيف سيستقبلها والدُها، الذي لم تره منذ سبع سنوات. في المطار أخذت سيّارة أجرة إلى بيت آل ريفز. فوجئت عند المرور بشوارع حيِّها بالتحوُّلات: فهو يبدو أقلَّ فقراً وأكثرَ نظافةً وتنظيماً وأصغر مما كانت تتذكّرُه بكثير. إضافةً إلى التبدلات الحقيقيّة. كانت تضغطُ على دماغها مقارنتها له بأحياء مكسيكو الهامشيّة الهائلة. ابتسمت حين فكّرت أنَّ مجموع هذه الشوارع كانت عالمها لسنوات طويلة وأنّها هربت من هناك كمنفيّة، تبكي أسرتها والأرض المفقودة. والآن تشعر أنّها غريبة. كان السائقُ ينظرُ إليها في المرآة العاكسة بفضولٍ، لم يستطع مقاومة سؤالها من أين هي. لم يرَ قط أحداً مثل هذه المرأة ذات التنورة متعدّدة الألوان والأساور الضاجّة، كما أنَّها لاتشبه هؤلاء الهيبيين المرويصين الملفّعين بالخرق المشابهة، فهذه لها وضعيّة رجلِ أعمال واضحة.

ـ أنا غجريّة ـ قالت له كارمن بكلّ جدّيّة العالم.

ـ وأين هذا؟

ـ نحنُ الغجر في كلِّ مكانٍ، لا وطن لنا.

ـ تتكلّمين الإنكليزيّة جيّداً ـ أبدى الرجل.

كلَّفها جهداً كبيراً تحديدُ موقع كوخ آل ريفز، فخلال تلك السنوات نمت الأعشاب وابتلعت الحديقة والصفصافة تغطّي مشهدَ البيت. راحت تسير في الدرب عبر الفناء. تعرّفت على المكان الذي قبرت فيه *أوليفر* متبعةً تعليمات غريغوري، الذي كان يرغب بأن ترتاح رفاة صديق طفولته في بيت الأسرة بدلَ أن تنتهي إلى القمامة كبقيّة رفاة أيِّ كلبٍ آخر لا تاريخ

له. وجدت نورا ريفز جالسةً في كرسيٍّ خيزرانها المضعضع ذاته في الراوق حيث كانت تراها دائماً. كانت قد صارت عجوزاً ضامرة، جمعت شعرها على شكل مِرِنْغٍ[1] بمئزرٍ حائل اللون تماماً كبقيّة شخصها. نهضتْ متردِّدةً وسلّمت على كارمن بتهذيبٍ دون أن تعرفها.

ـ هذه أنا، يا دونيا نورا، كارمن، ابنة بيدرو وإنماكولادا موراليس.

تأخّرت دقيقةً تقريباً في معرفة هويّة الواصلة توّاً على خارطة ذاكرتها المبلبلة، بقيت تنظرُ إليها فاغرةَ الفم، دون أن تستطيع أن تربط بين صورة الفتاة ذات الضفائر السوداء التي كانت تلعبُ مع ابنها وهذه الهيئة الهاربة من حريم أحد الشيوخ. أخيراً مدّت لها ذراعيها وعانقتها مرتعشةً. جلستا لتحتسيا الشاي في كأسين بلّوريين. استرجعتا أخبار الماضي، وبعد قليل اندفع أولاد جودي العائدون من المدرسة بصخب. أربعة صغار بعمرٍ واحدٍ، اثنان أحمرا الشعر الغزير واثنان لاتينيا المظهر. وضّحت لها نورا أنَّ الإثنين الأوّلين لجودي والآخرَيْن يعيشان معها، على الرغم من أنّهما ابنان لزوجها الثاني. قدّمت لهم الجدّةُ الحليبَ والخبزَ مع المربّى.

ـ هل جميعهم يعيشون هنا؟ ـ سألت كارمن دَهِشَةً.

ـ لا. أنا أعتني بهم بعد المدرسة حتى تأتي أمُّهم في طلبهم ليلاً.

فيما يقارب السابعة ظهرت جودي، التي لم تعرف بدورها صديقتَها.صحيحٌ أنَّ كارمن تتذكرها هائلة، لكنّها لم تتصوّر أنّه من الممكن أن تستمرّ بالزيادة في وزنها لتبلغ مثل تلك الأبعاد، لم يكن هناك كرسيٌّ موجودٌ يتسعُ لها. ارتمت بصعوبة على درجات الرواق، تاركة انطباعاً بأنّها ستحتاج إلى رافعة كي تحرّكها. ومع ذلك كانت تبدو مشعّةً.

ـ ليس هذا كلّه شحماً، أنا حامل مرّةً أخرى ـ أعلنت بفخار.

جرى الأولادُ، سواء منهم ولداها أم الغريبان ليتسلّقوا إنسانيّة أمّهم المحبّبة، التي تلقّفتهم بالضحكات وتدبّرت راحتهم بين ثناياها بمهارة ناتجة عن الممارسة والحنان في الوقت الذي راحت توزّعُ عليهم حلوى البونيولوس، وتدفع بالمناسبة بعددٍ منها في فمها. عندما رأتها تلعب مع الصغار أدركت كارمن أنَّ الأمومة هي الحالة الطبيعيّة لصديقتها، ولم تستطع منع وخزة غيرة عندها.

---

(1) مِرِنْغ : نوع من الحلوى، يصنع من بياض البيض والسكّر.

ـ سأرافقكِ بعد العشاء إلى بيتكِ، لكنّنا سنهتف قبل ذلك لإنماكولادا، كي تحضِّر نفسيّة أبيكِ. أليس لديك ثياب أكثر عاديّة؟ تذكّري أنَّ العجوزَ لا يقبل شططاً عند النساء. ـ سألت جودي دون أيّ ظلٍّ للسخرية ـ أهكذا هي الموضة في أوروبا؟.

كان بيدرو مورالِس ينتظرُ ابنته في بدلة الحداد، لكنّه احتفل بها بربطة عنقٍ حمراء وقرنفلة من صحنٍ داره في العروة. زفّت إنماكولادا إليه الخبرَ بكثيرٍ من الحذر، متوقِّعةً ردّةَ فعلٍ عنيفة، وفوجئت بوجهِ زوجها يتوهج كما لو أنّهم أزاحوا عن كاهله عشرين عاماً.

ـ انفضي لي ثيابي، يا امرأة ـ كان هذا هو الشيء الوحيد الذي اهتدى لقوله بينما راح ينظّف أنفه بالمنديل ليخفي تأثُّرَه.

ـ لا بدَّ أن الصغيرة قد تغيَّرت كثيراً، بحقِّ الله عليك... ـ حذَّرته إنماكولادا.

ـ لا تنشغلي، يا عجوزي. سأعرفها حتى ولو جاءت بشعرٍ مصبوغٍ بالأزرق.

ومع ذلك لم يكن مُعدّاً لتلك المرأة التي دخلت بعدَ نصف ساعة إلى البيت، وتأخّر، كما حدث مع نورا وجودي، لحظات حتى أغلقَ فمَه. ظنَّ أنَّ كارمن قد كبرت، لكنّه لاحظ بعد ذلك خفَّ الكعب العالي وكومة الشعر الأشعث، المتداخل فوق الرأس، اللذين أضافا شبراً لطولها. وقد وضعت من الحلي ما جعلها مثل تمثال إله، وطلت عينيها بخطوطٍ سوداء وموّهتهما بشيءٍ ذكّره بملصق سياحي من مراكش على جدار بار «الأصدقاء الثلاثة». على كل الأحوال بدت له ابنته جميلة جدّاً. تعانقا طويلاً وبكيا معاً على خوان خوسِه وسنوات الغياب السبعة. بعدها جلست القرفصاء بجانبه لتحكي له بعضاً من مغامراتها، حاذفة ما هو ضروري كيلا تثير فضيحة عنده. في هذه الأثناء كانت إنماكولادا منهمكة في المطبخ، مردِّدة: شكراً للربِّ المبارك، شكراً للرب المبارك. وجودي عالقة إلى الهاتف تهتف للأخوة مورالِس وللأصدقاء لتعلن لهم أنَّ كارمن عادت وقد صارت زنغريّة[1] مهملة، طويلة الشعر، لكنّها ما زالت في أعماقها هي نفسها، فليأتوا بالبيرة والقيثارات، لأنَّ إنماكولادا تعد تاكوس للاحتفال بعودتها.

(1) زنغرية : أحد الشعوب الغجرية في أواسط أوروبا .

أعاد حضورُ الابنةِ المزاجَ الحسن إلى بيدرو مورالِس. أمام ترّهات كارمن وبقيّة العائلة قبل أخيراً أن يرى طبيباً، شخّص الحالة بالسكّر المتقدّم. ما من أحدٍ من أسلافي كان عنده مثل هذا، إنّه شيءٌ أمريكي جديد، لا أفكّر بأن أُوخَزَ كلَّ برهة كمنتنٍ، هذا الطبيبُ لا يعرف ما يقول، فهم في المخابر يبدّلون العيّنات ويرتكبون أخطاءً فظيعة، كان المريض المهان يدمدم، لكنَّ إنماكولادا فرضت نفسها مرّة ثانية، أجبرته على التزام الحميةِ وأخذت على عاتقها أمر إعطائه الدواء في الساعات الدقيقة. أُفضِّل أن أتجادلَ معك كلَّ يوم على أن أترمّل،ثمَّ حسمت الأمرَ قائلةً: الخضوع لزوجٍ آخر يحتاج لجُهدٍ كبير. لم يدخل بعقله أنَّه يمكنُ أن يُشتَبْدَلَ في قلبِ زوجته غيرالمحدود ظاهريّاً وذهب الإرباك برغبته للاستمرار في النقاش. لم يقبل المرضَ قط، لكنَّهُ أذعنَ للعلاج «كي أرضي هذه المجنونة»، كما كان يقول.

سرعان ما ضاقَ الحيُّ بكارمن مورالِس، فبعد أسابيع عاشتها مع والديها ذابت اختناقاً. خلال غيابها جمّلت الماضي، كانت تحنُّ في لحظات العزلة الهائلة لرقّةِ أمِّها، حمايةِ والدها، ورفقةِ ذويها، لكنَّها نسيت ضيقَ المكان الذي ولدت فيه. تغيَّرت خلال تلك السنوات. غبار عالم واسع تراكم على حذائها. تسير في البيت مثل فهدٍ في قفص، مالئة الفراغ، مصخبةً السلام بإعصار تنُّورتها، وجلبة أساورها وقلقها. في الشارع يحوم الناس حولها لينظروا إليها والأطفالُ يقتربون ليلمسوها. من المحال أن تتجاهل تناول الناس لها ولمزهم عليها من وراء ظهرها، انظر كيف تلبس بنت مورالِس الصغرى، يقولون، لم يدخل في هذا الرأس مشط منذ قرون، من المؤكّد أنّها صارت هيبّيّة أو عاهرة. ثمَّ إنّه لم يكن لها عمل، ولم تكن على استعدادٍ لأن تعمل في معملٍ مثل جودي ريفز، ولا سوق لمجوهراتها في الحي. النساء يستخدمن ذهباً مطليّاً، وماساً مزيّفاً، ما من واحدة يمكن أن تضع حِلقَها البلديّة، افترضت أنَّه لن يكون من الصعب وضعها في واحدٍ من حوانيت المركز، حيث تشتري الممثلات، والسيِّدات المتصنِّعات والسيّاح، لكن انغلاقها على نفسها في بيت والديها أفقدها أيَّ باعث على الإبداع، فقد كانت أفكارها ورغبتها بالعمل تجفّ. تدور في الغرف المكتظة بالتماثيل الخزفيّة وأزهار الحرير وصور الأسرة، وأثاث المخمل المنجّد بغطاء بلاستيكي، رمز أناقة آل مورالِس الجديدة. تلك التزيينات، خيلاء أمّها، تسبِّبُ لها الكوابيس، فهي تفضِّلُ ألف مرّة مسكن الطفولة، حيث ترعرعت مع أخوتها في أعلى درجات التواضع. لم تكن تتحمَّلُ برامج الإذاعة والتلفزيون التي تضرُّ بصوتٍ عالٍ، ليلاً نهاراً،

بالروايات الرومانسيّة والمأساويّة وإعلانات مختلف أنواع الصابون، ومبيع السيّارات وألعاب الحظّ. والأسوأ هي تلك النزعة العامّة للّمز، فالجميع يعيشون مترصدين البقيّة، لا تتحرَّك شعرة في الجوار إلا وتثير التعليقات. كانت تشعرُ بنفسها مثل مرِّيخيَّةٍ زائرة، فتواسي نفسها بأطباقِ أمِّها، التي التزمت بحمية زوجها الصارمة، دون أن تفقد شيئاً من طعم وصفاتها وتقضي ساعاتٍ بين أوانيها، تلفّها نكهات صلصاتها وبهاراتها اللذيذة. كانت كارمن تصابُ بالضجر، إذ لم يكن عندها تسلياتٌ أخرى غير لعب الطاولة مع والدها والمساهمة في أعمال البيت والاهتمام بالأقرباء أيّام الآحاد، حين كانت تجتمع الأسرة لتناول العشاء. فكَّرت بالعودة إلى إسبانيا، لكنّها أيضا لاتنتمي إليها، ثمّ إنّها لم تشعر في البعد بجاذبيةٍ مشابهة تجاه عشيقها، الذي كتبت له وهتفت وكانت أجوبته جامدة. بعيداً عن عضلاته البندقيّةِ اللون وشعره الطويل الأسود كانت تتذكّرُ بقشعريرةٍ الحمّامَ الباردَ وبقيّة الإهانات، وتشعر بالانزعاج من فكرة العودة إليه. أولغا هي التي نصحتها بسبرِ بيركلي، لأنّه وبقليلٍ من الحظِّ قد يعودُ غريغوري ريفز في مستقبلٍ ليس ببعيد ويستطيعُ أن يُساعدها، فهي مكان مناسبٌ تماماً بالنسبة إلى شخصٍ عنده كلّ تلك الأصالة مثلها، هذا إذا ما حكمنا عليها من خلال أخبار الصحافة حيث يتكلّمون في كلِّ أسبوع عن فضيحة جديدةٍ في حدائق الجامعة. وافقت كارمن على أنَّ الإنسان لا يخسر بالتجريب شيئاً. هتفت لحبيبها تطلب منه وفوراتها ومعدّاتِ صياغتها، فوعد بذلك حين يسمح له الوقت بذلك، لكنَّ أسابيع عدّة مرّت وخمس هواتف دونما خبر عن الإرساليّة، وعندئذٍ أدركت كم هو مشغول فلم تلحّ أكثر. قرَّرت أن تنطلق بالمغامرة بأدنى الإمكانيّات، كما كانت قد فعلت مرّاتٍ كثيرةً، لكن عندما علم بيدرو مورالِس بمخطّطاتها، أمدَّها، دون أن يعترض، بشيكٍ ودفع لها تذكرة السفر. كان سعيداً لأنَّه استعاد ابنته، لكنّه لم يكن أعمى أمام حاجاتها وكان يحزن لرؤيتها تتشظّى على جدران البيت مثل طائرٍ مكسور الجناحين.

ازدهت كارمن في بيركلي كما لو أنَّ المدينة خلقت لتكون إطارها. لم تسترعِ ثيابها انتباه أحدٍ في زحمة الشارع، ولم يثر محتوى بلوزتها صفيراً وقحاً كما حدثَ في الحيِّ اللاتيني. وجدت هناك تحدِّيات كالتي أذهلتها في أوروبا وحرِّيّة مجهولة حتى ذلك الوقت. كذلك كانت طبيعة الماء والتلال كأنّها خلقت على مقاسها. قدَّرت أنّها إذا ما أخذت حذرها

تستطيع أن تسدّ حاجاتها شهوراً بهديّة والدها، لكنَّها قرّرت البحث عن عملٍ لأنّها خطّطت لصناعة المجوهرات وتحتاج إلى معدّاتٍ وموادّ. لا شكّ أن غريغوري كان سيقدّم لها كنبةً في بيته لتقيم بعضَ الوقت، الكرم الذي لم تحلم به من جانب سمانثا. لم تعرف زوجة صديقها، لكنَّها تكهّنت بأنّها ستستقبلها دون حماس، خاصّة وأنّها في طور الطلاق. أخذت موعداً بالهاتف لتتعرّف على الصغيرة مرغريت، التي كان عندها عدد من صورها أرسلها لها غريغوري، وحين وصلت لم تكن سمانثا هناك ففتحت لها البابَ طفلةٌ هي من الرقة والهشاشة بحيث يصعب على المرء أن يتخيّلها ابنةً لغزيغوري ريفز وأمّها الرياضيّة. ذكّرتها بأولاد أخوتها الذين لهم عمرها فبدت لها مخلوقة غريبة، منمنمةً امرأةٍ جميلة وحزينة. أدخلتها مرغريت معلنة لها بنبرة متأثرة أنَّ أمّها تلعب التنس وستعود حالاً. في اللحظة الأولى اهتمت بشرودٍ بأساورِ كارمن، ثم جلست بصمتٍ كامل متقاطعة الساقين ويداها على تنّورتها. كان من غير المجد نزع كلمة منها، وانتهيتا للجلوس الواحدة أمام الأخرى دون أن تتبادلا النظر. مثل غريبتين في صالة انتظار. أخيراً دخلت سمانثا، المضرب بيد وشريحة الخبز الفرنسي بيد واستقبلتها، تماماً كما توقّعت، ببرودة. نظرت الواحدة إلى الآخرى دون مواربة، كلّ واحدة عندها صورة عن الأخرى من خلال وصف غريغوري، شعرتا بالراحة لأنَّ توهّماتهما عن الواقع كانت مختلفة. أمِلتْ كارمن أن ترى امرأة أجمل، وليس هذا النوع من الفتى الجهم الذي شقّقت الشمسُ جلدَه، كيف ستصير بعد سنواتٍ قليلة، قالت لنفسها، الغرينغات يشخن بشكلٍ سيّئ. سَعِدَتْ سمانثا من جانبها لأنّ الأخرى ترتدي تلك الخرق المرخيّة. بدت لها مرعبة، لا بدَّ أنّها تخفي عدّة كيلوغرامات بين أضلاعها، ثم إنّه من الواضح أنّها لم تمارس تمريناً رياضيّاً واحداً في حياتها، إذا استمرّت على هذا النحو ستصبح سيِّدة مكوّرة، فكّرت برضى، اللاتينيّات يشخن سريعاً. عرفت الاثنتان على الفور أنَّهما لا يمكن أن تصبحا صديقتين أبداً وكانت الزيارة قصيرة جداً. سرّت كارمن عند خروجها لأن أفضل أصدقائها يقوم بإجراءات الطلاق من بطلة التنس تلك وسمانثا تساءلت عما إذا كان غريغوري عندما يعودُ، هذا إذا عاد،سيصبح عشيقاً لتلك الحشرة البدينة، هذه الفكرة التي بقيت في قلب كلٍّ منهما لسنواتٍ طويلة. صحّة وهناء، دمدمت، دون أن تدري لماذا كان هذا الاحتمال يثير حنقها.

لم يكن باستطاعة كارمن أن تدفع طويلاً أجرة غرفةَ النزل الذي وصلته، فقرّرت البحثَ عن عملٍ ومكانٍ تعيش فيه. جلست في مقهى قريبٍ

من الجامعة تراجع صحيفة وبين إعلانات المسادات الشرقيّة والعطور العلاجيّة والزجاج السحري ومثلّثات النحاس لتحسين لون الهالة، ومستجدّاتٍ أخرى كانت ستفتن أولغا، اكتشفت عروضاً لأعمالٍ متنوّعة. هتفت لعددٍ منها إلى أن أخذت موعداً في مطعم في اليوم التالي، على أن تحضر معها بطاقة الضمان الاجتماعي ورسالة توصية، الشيئين اللذين لم يكونا بحوزتها. الأوّل لم يكن صعباً، فقط تقصّت أين يتم التسجيل، ملأت بياناً وأعطوها رقماً، لكنّها لم تكن تعرف كيف تحصل على الثاني. فكّرت أن ريفز كان سيساعدها دون تردّدٍ، من المؤسف أنّه بعيدٌ جدّاً، لكنّه عائق يمكن تداركه. حدّدت كشكاً يؤجرون فيه آلاتٍ كاتبةً فحرّرت رسالةً أكّدت فيها أهليّتها لرعاية الأطفال وحشمتّها وحسنَ معاملتها مع الجمهور. خرجت الرسالة مبهّرة قليلاً، لكن العين التي لا ترى قلبٌ لايحزن، كما تقولُ أمُّها. ليس من الضروري أن يعلم غريغوري بالتفاصيل. تعرف توقيعَ صديقها عن ظهر قلب، فليس عبثاً أنّهما تكاتبا لسنوات. تقدّمت في اليوم التالي إلى العمل، الذي كان بالنتيجة بيتاً قديماً مزيّناً بالنباتات وجدائل الثوم. استقبلتها امرأة شائبة الشعر وفرحة الوجه ترتدي بنطلوناً كثير الجيوب وحذاءَ راهبٍ فرانسيسكي.

ـ شيء مهم ـ قالت حين قرأت رسالةَ التوصية ـ مهمٌّ جدّاً... هكذا إذن أنت تعرفين غريغوري ريفز؟

ـ عملتُ لصالحه ـ احمرّت كارمن خجلاً.

ـ بحسب ما أعلم هو في ڤييتنام منذُ أكثر من عام. كيف تفسّرين أنّ هذه الرسالة تحمل تاريخ البارحة؟

تلك كانت جون ، صديقة غريغوري وذاك هو المطعم الطبيعي، الذي طالما ذهب إليه ليأكل همبرغر نباتي ويبحث عن عزاء. اعترفت كارمن بفرائص ترتعد وقبلت بخيطٍ من صوتٍ بخديعتها وحكت علاقتها مع ريفز بجملٍ قليلةٍ.

ـ حسنٌ، يبدو أنّك شخصٌ يملك إمكانيّات ـ ضحكت جون ـ . غريغوري مثل ابني، على الرغم من أنّني لستُ عجوزاً إلى حدٍّ أن أصبحَ أمّهُ، لا يخدعكِ شيبي. على كنبة صالتي نام آخرَ ليلة له قبل أن يذهب إلى الحرب. ما أفظعَ الحماقة التي ارتكبها! تعبنا أنا وسوزان من كثرة ما قلنا له ألاّ يفعلَ ذلك، لكن عبثاً فعلنا. آمل أن يعودَ بالسرعة التي ذهب بها، خسارةٌ أن يحدثَ له شيء، فقد بدا لي دائما رجلاً فاخراً. إذا كنتِ صديقته فستكونين صديقتنا أيضاً. تستطيعين أن تبدئي اليوم ذاته. ضعي قمطةً

على رأسكِ كيلا تدخلي شعركِ في صحون الزبائن واذهبي إلى المطبخ لتشرح لك سوزان عملكِ.

لم تخدم كارمن مورالِس بعد قليل الطاولات وحسب بل ساعدت في أعمال المطبخ لأنَّ لها يدين ماهرتين للتبهير. وكانت تخطر لها تركيباتٍ جديدة لتنويع صحن اليوم. توطّدت صداقتها مع جون وسوزان بحيث أجّرتاها عليّة البيت، غرفة واسعة مليئة بالعفش، لكن ما أن فُرِّغَتْ ونُظِّفَتْ حتّى أصبحت ملاذاً مثاليّاً. كان لها نافذتان تطلاّن على الخليج من منظور الهضاب الشموخة، ومنور في السقف لمتابعة حركات النجوم. كانت كارمن تتمتّعُ نهاراً بالنور الطبيعيِّ وليلاً بثريّتين فيكتوريّتين كبيرتين أنقذتا من سوق الخرداوات. كانت تعمل مساءً وجزءاً من الليل في المطعم وفي الصباح تتمتّع بوقت فراغها. حصلت على معدّات وموادّ فعادت في وقت فراغها إلى مهنتها مبرهنةً على أنّها لم تفقد الحافز أو الرغبة بالعمل. الأقراط الأولى كانت لمعلّمتيها، اللتين اضطرّت لأن تفتح لهما ثقوباً في آذانهما لتستطيعا استعمالها. تألمتا قليلاً، ومع ذلك كانتا لا تنزعانها إلاّ عندَ النوم، حذراتٍ من أن تبرز شخصيّتيهما، فهما من حركة أنصار المرأة، لكنّهما أيضا أُنثيان. كانتا تضحكان، اعتبرتا كارمن أفضل معاونة ملكتاها، لكنّهما نصحتاها بألاَّ تضيِّعَ موهبتها في خدمة الطاولات وتحريك القدور، عليها أن تخصِّصَ كامل وقتها للمجوهرات.

ـ الشيءُ الوحيد الذي يناسبُكِ. كلُّ شخص يولدُ ومعه نعمة واحدة فقط والسعادةُ تكمن في اكتشافها في الوقت المناسب ـ كانتا تقولان لها حين كنّ يجلسن لتناول شاي المانغا، ورواية حياتهنّ.

ـ لا تنشغلا فأنا سعيدة ـ كانت كارمن تردُّ بقناعةٍ تامّة. كان قلبُها يحدِّثُها بأنَّ العوزَ صار من الماضي والآن بدأت أفضلُ مرحلة من حياتها.

جمعَ غريغوري ريفز، بعد أن عاد إلى عالم الأحياء، ذكرياتِهِ عن الحرب ـ صوراً ورسائلَ وأشرطة موسيقي، وثياباً وميداليّة بطولة ـ رشّها بالبنزين وأضرمَ فيها النار. لم يحتفظ إلاّ بالتنين الخشبي المطلي كذكرى من أصدقاء الضيعة وتميمة خوان خوسِه، التي نوى أن يعيدها إلى إنماكولادا مورالِس ما إن يكتشف طريقة لنزع الدم الجاف عنها. أقسم ألاّ يتصرَّف مثل المحاربين المحنّكين العالقين للأبد بشرك الحنين للزمن الوحيد العظيم من حياتهم، العاجزين روحيّاً، غير القادرين على التأقلم مع الحياة العاديّة أو التخلّصِ من تبعات الحرب. كان يتفادى أخبارَ الصحفِ،

احتجاجات الشارع، أصدقاء ذلك الوقت الذين عادوا وراحوا يجتمعون ليعيشوا من جديد المغامرات ورفاقيّة ڤييتنام. كما أنّه لم يبغِ أن يعرفَ شيئاً عن الآخرين، في الكراسي المتحرِّكة أو شبه المَجانين أو المنتحرين. في الأيّام الأولى كان يشكر كلَّ تفصيلٍ يوميٍّ: الهمبرغر مع البطاطا المقليّة، ماءَ الحمّامِ الساخن، السرير مع الملاحف، حالةَ الراحة في اللباسِ المدني، أحاديثَ الناسِ في الشارع، الصمتَ وحميميَّةَ غرفته، لكنّه أدركَ حالاً أنَّ هذا ينطوي على خطر.لا، عليه ألاّ يفرحَ بشيء، ولا حتى بأنَّ جسده سليم. الماضي كان وراءه، لكنه لو يستطيع فقط أن يمحو ذاكرته. في النهار يستطيع أن ينسى تماماً، لكنَّه في الليل يعاني من الكوابيس، ويستيقظ مبلَّلاً بالعرق ودويُّ أسلحةٍ تنفجرُ في داخله ورؤى حمراء تهاجمه بلا هوادة. كان يحلم بطفل ضائع في الحديقة وهو الطفلُ، وأكثر ما يحلم بالجبل، حيث يرمي على أشباحٍ شفافة. يمدُّ يده بحثاً عن الحبوب أو اليربا، يتلمَّس الطاولة، يشعلُ النورَ شبهَ مضطرب، دون أن يدري أينَ هو. كان يبقي على الوسكي في المطبخ ليترك لنفسه مجالاً للتفكير قبلَ أن يتناول جرعةً؛ يبدعُ معوّقات ليساعدَ نفسه: لا كحولَ قبل أن أرتدي ملابسي وأتناول بعض الطعام، لن أشرب إذا كان اليوم مفرداً أو لم تطلع الشمسُ بعد، سأعملُ أوّلاً عشرين تمرين للصدر وسأسمع كونشيرتو كاملاً. وهكذا كان يؤخِّرُ قراره بفتح الخزانة التي يخبِّئُ فيها القنينة وجميع ما كان يتحكَّم بنفسه. لكنّه لم يقرِّر التخلّصَ من الكحول، فدائماً كان في متناول يده شيء للطوارئ. حين أخبر سمانثا أخيراً أخفى عنها أنَّه منذ أسبوعين على بعد عشرين ميلاً فقط عن البيت، جعلها تعتقد أنَّه وصل توّاً وطلبَ منها أن تأخذه من المطار، حيث انتظرها، مستحمّاً، حالقاً ذقنه وشامخاً في ثيابٍ مدنيَّة. فوجئ عندما رأى كم كبرت مرغريت وكم صارت جميلة، كانت تبدو واحدةً من تلك الأميرات المصوّرات بالريشةِ في القصص القديمة، بعينين بحريّتي الزرقة وشعرٍ جعدٍ أشقرَ ووجهٍ مثلثي رقيقِ الملامح. كما لاحظ ما أقل ما تغيَّرت زوجته، حتى أنّها كانت ترتدي البنطلون الأبيض ذاته الذي رآها فيه آخر مرّة. مدَّت له مرغريت يداً هزيلة دون أن تبتسم ورفضت أن تمنحه قبلة. كانت لها حركات غنج منسوخة عن نساء المسلسلات التلفزيونيّة وتسيرُ محرِّكة خلفيّتها الصغيرة. شعر غريغوري بالانزعاج معها، لم يتمكّن من رؤية الطفلة التي كانتها في الحقيقة بل المهزلة الوقحة لامرأة مشؤومة وخجل من نفسه، بعد كلِّ شيء ربمّا كانت جودي على حقٍّ، فطبيعة أبيه المنحرفة نابضة في دمه كلعنة وراثيّة. أهّلت به سمانثا تأهيلاً فاتراً، وسرَّت لرؤيته

في حالةٍ جيّدة، كان أكثر نحفاً لكنّه أقوى، يليق به اللون البرونزي، قالت، واضح أنَّ الحرب لم تُثْخِن عليه كثيراً، بينما لم تكن هي في وضع جيّدٍ تماماً، يؤسفها أن تقوله له، فالحالة الاقتصاديّة مزرية، انتهت وفوراتها، كان من المحال عليها بالنتيجة أن تعيش براتب جنديٍّ، طبعاً هي لا تتذمّر، وتتفهَّم الظروف لكنّها لم تعتد أن تمرَّ بفاقة وكذلك مرغريت. لا، لم تستطع الاستمرار في عمل روضة الأطفال، فقد كان عملاً ثقيلاً ومضجراً، ثمَّ إنَّه كان عليها أن تعتني بابنتها، أليس كذلك؟ وعند صعودهم إلى الباص أخبرته بنعومةٍ أنَّها حجزت له غرفةً في فندقٍ، لكن لم يكن عندها مانع من أن يحفظ أشياءه في المرآب إلى أن يحصل على مكان إقامة أفضل. إذا كان غريغوري توهّم قليلاً إمكانيّة المصالحة فقد كفته هذه الجمل القليلة لرؤية الهوّة التي تفصل بينهما. لم تفقد سَمَانتا تهذيبها المعتاد، فهي تتحكّم بشكل مدهش بعواطفها وتستطيع أن تقيم حواراً لزمن لا نهائيٍّ دون أن تقول شيئاً. لم توجّه إليه أسئلة، لم ترغب بمعرفة شيءٍ عن حالاتٍ مزعجة، فقد استطاعت بجهدٍ هائلٍ الاستمرار في عالم الخيال، حيث لا مكان للألم أو البشاعة، وفيّة لنفسها. حاولت أن تتجاهل الحربَ، الطلاقَ، وتحطيم الأسرة وكل ما يمكن أن يعكّرَ برنامجَ التنس. فكَّر غريغوري بشيءٍ من الراحة أنَّ زوجته صفحة بيضاء ولن يندمَ إذا ما بدأ حياةً جديدةً دونها. في بقيّة الطريق حاول أن يتواصلَ مع مرغريت، لكنَّ ابنته لم تكن على استعدادٍ لمنحه أيَّة تسهيلات. جالسةً في المقعد الخلفي راحت تعضُّ أظافرها المطليّة بالأحمر، تلعب بخصلة الشعر وتنظر إلى نفسها في المرآة العاكسة، تردُّ بمقاطع أحاديّة إذا ما كلّمتها أمُّها، لكنّها صامتة بعناد إذا كان الفاعل هو.

استأجرَ بيتاً على الطرفِ الآخر من الخليج، جاذبيّته الأساسيّة هو المرفأ الخرب عمليّاً. كان يفكّر بشراء مركبٍ في المستقبل، للفخفخة أكثر ممّا لمتعة الإبحار، في كل مرّة كان يخرج فيها في سفينة تيموثي دوان كان ينتهي إلى القناعة بأن كل ذلك العمل لا يُبَرَّرُ أبداً بالتسلية بل بإنقاذ الحياة من حادث غرق، بهذه الوجهة من النظر حصل على «بُورش» كان يأملُ أن يثير إعجاب الرجالِ ويلفتَ انتباهَ النساء. السيّارات رمز الذكوريّة، سخرت كارمن عندما علمت بذلك، لا أدري لماذا سيّارتك صغيرة، ضيّقة، فطساء ورعشاء. على الأقل ملك وجهة نظرٍ صائبة فلم يشتر أثاثاً قبل أن يحصل على عمل مضمون، ورضي بسريرٍ بحجم رنغ الملاكمة وطاولة متعدِّدة الوظائف وكرسيين. وما إن استقرَّ حتى انطلق إلى لوس أنجلوس، التي لم يذهب إليها منذ سنواتٍ حين حمل معه

مرغريت ليقدّمها إلى أسرة موراليس.

استقبلته نورا ريفز بطبيعيّة، كما لو أنّها رأته البارحة، قدّمت له فنجانَ شاي وحكت له أخبارَ الحيِّ وأبيه، الذي ما يزالُ يتواصلُ معها كلَّ أسبوعٍ ليحيطها علماً بمسيرة *الخطة اللانهائية*. لم تُشِرْ إلى الحرب فقارن غريغوري لأوّل مرّة التشابهات بين سَمَانثا وأمّه، البرودة ذاتها، الكسل والتهذيب، قرار مطابق لتجاهل الواقع، على الرغم من أن هذا الأخير كان بالنسبة إلى أمّه أصعبَ لأنّ حياتها كانت أقسى بكثير.لم تكن تكفي بالنسبة إلى نورا ريفز اللامبالاة، بل تحتاج إلى إرادة راسخة كيلا تلامسها المشاكل. وجد جودي في السرير تحمل بين ذراعيها مولوداً جديداً وحولها صبية آخرون يلعبون.أخفت سمنتها بأن تغطّت بالملحفة، كانت تبدو مثل عذراوات عصر النهضة الممتلئات، لم يخطر لها وهي المنشغلة بشؤون التربية أن تسأله كيف حاله، فمن المفروغ منه طالما أنّه كامل ظاهريّاً أمام عينيها ألّا جديد عنده. صادف أنَّ زوجَ أُخته الثاني كان صاحب سيّارة أجرة، أرملاً، وأباً للأولاد الكبار والرضيع. كان لاتينيّاً مولوداً في البلد، واحداً من أولئك التشيكانيين، الذين يتكلّمونُ الإسبانيّة بشكلٍ سيِّئ، لكنَّ طابع أسلافهم الأصلي الذي لا يخطئ جليّ، كان صغير الحجم، رقيقاً، بشارب طويل منسدل كمحارب منغوليّ، وإذا ما قورن بسابقه العملاق جيم مورغان، بدا بائساً سيِّئ التغذية. لم يدرِ غريغوري ما إذا كان الرجل يحبُّ جودي أكثر ممّا يخافها، تصوّر شجاراً بينهما فلم يتمكّن من تفادي الابتسامة، فأخته كانت قادرة على أن تحطّم جمجمةَ زوجها بيدٍ واحدة، تماماً كما تكسر البيض لطعام الإفطار. تساءل غريغوري مندهشاً كيف يمارسان الحبَّ.

استقبله آل موراليس كما لم يستقبله أحدٌ حتى تلك اللحظة، عانقوه لدقائقَ باكين. كان غريغوري مأخوذاً بالتفكير بأنّهم يأسفون لأنّه هو العائد سليماً وليس ابنهم خوان خوسيه، لكنَّ سعادةَ أصدقائه القدامى أزاحت عنه شكوكه الداخليّة البائسة. رفعوا الغمد البلاستيكي عن إحدى الكنبات وأجلسوه عليها ليسألوه بالتفصيل عن الحرب. كان قد عزم ألا يتكلّم عن الموضوع، لكنّه فوجئ أنّه يقصُّ عليهم ما أرادوا معرفته. فهم أنَّ ذلك كان جزءاً من الحداد، فقد كان الثلاثة قد واروا خوان خوسيه التراب. نسيت إنماكولادا أن تُشعلَ النور وتقدِّم له الطعام، لم يتحرَّك أحدٌ إلى أن عتمت العينُ جيّداً، آن ذهب بيدرو إلى المطبخ طلباً لبعضِ البيرة. وحين انفرد غريغوري بإنماكولادا نزع الوشاح عن عنقه وسلّمه إليها. كان قد أبعدَ فكرة غسله لأنّه خاف أن يتفتّت، ولم يجد نفسه مضطرّاً

لتوضيح أصل البقع الداكنة. تلقّته دون أن تنظرَ إليه وخبّأته تحت قميصها.

- من الخطيئة رميه في القمامة، لأنَّ مطراناً باركه، لكنَّه طالما لم يستطع أن يحمي ابني فلا فائدة منه - تنهّدتْ.

وعندئذٍ استطاعوا أن يتحدَّثوا عن لحظات خوان خوسِه الأخيرة. الأبوان يجلسان بجانب بعضهما على الكنبة المربعة ياقوتيّةِ اللون، يمسك بيدها لأوَّل مرَّةٍ بحضور أحد، يصغيان مرتعشين لذلك الذي أقسم غريغوري ألاّ يقولَه لهما، ولم يستطع كتمانه، حكى لهما شهرته في الحظ والشجاعة، وكيف التقاهُ في مصادفةٍ عجيبةٍ على الشاطئ وكم كان بودِّه أن يدفع مقابل أن يكون هو دون أيِّ شخصٍ آخر بجانبه ليأخذه بين ذراعيه حين سقط، يا أبتي، اسندني فإنَّني أسقط في هاوية سحيقة.

- هل ملك الوقت ليذكرَ الله؟ - أرادت الأمُّ أن تعرفَ.

- كان مع القسّ.

- هل تعذَّبَ كثيراً؟ - سألَ بيدرو مورالِس.

- لا أدري، حدث هذا سريعاً...

- هل كان خائفاً؟ يائساً؟ هل كان يصرخ؟

- لا، قالوا لي إنَّه كان هادئاً.

- على الأقل عدتَ أنتَ، مباركٌ الربُّ - قالت إنماكولادا، وشعر غريغوري بأنَّه غفر له للحظة، تحرَّرَ من الضيق، بمنأى عن ذكرياته السيِّئة وهزَّته كاملاً موجةٌ من الامتنان. لم يسمح له الأبوان مورالِس أن يبيت تلك الليلة في الفندق، أجبراه على البقاء معهما، ورتَّبا له سريرَ عزوبيَّة خوان خوسِه. وجد في كومودينة السرير دفتراً مدرسيّاً فيه قصائد كتبها صديقه بقلم رصاص. كانت أشعار حبٍّ.

زار أُولغا قبلَ أن يأخذ طائرةَ العودة. لقد انهالت عليها السنون، لم يبقَ عندها شيءٌ من مظهر الببّغاء، وتحوَّلت إلى ساحرة مرعبةٍ، لكنَّ طاقتها كطبيبةٍ شعبيّة وعرَّافة لم تنقص. اقتنعت تماماً في هذا المرحلة المتقدِّمة من حياتها بتفاحة الإنسان، واثقة أكثر بسحرها أكثرَ ممّا بأعشابها الطبيَّة، لأنَّه يرضي صدقيّة الآخر بعيدةَ الغور. كلُّ شيءٍ في العقل، كانت تؤكِّدُ، الخيال يعملُ المعجزات. بيتها أيضاً كان يظهرُ تآكلاً، كأنَّه بازارُ أيقونات، يكتظ بأدواتِ السحر المغبّرة، بفوضى أكثر وألوان أقلّ من الماضي، ما تزال تُعلَّقُ في السقف أغصاناً جافَّةً، لحاءات

وجذوراً، وتضاعفت الرفوف وقواريرها، واختفت رائحة بخور حوانيت الباكستانيين القديمةُ، التي طغت عليها روائح أقوى. كثيرة كانت الحُقَقُ التي ما تزالُ تحتفظ بأسماء موحية: لا ـ تنسـ ـ ني، تجارة ـ أكيدة، سالب القلوب ـ الذي لايقاوَم، انتقام ـ موارب، متعة ـ عنيفة، انزع عنه ـ كلّ شيء. لاحظت بعينها المتمرّسة على اكتشاف ما يخفى في الحال التغيُّرات عند غريغوري، الدائرة محالةَ الاقتحام من حوله، النظرةَ القاسية، الضحكة المدوِّية، الخالية من الفرح، الصوت وقد صار أكثر جفافاً وتلك اللمصة الجديدة في فمه، التي لو أنّها على شفتين أرقّ لكانت مزدرية، لكنّها على شفتيه أقرب إلى السخرية. كان يشعُّ قوّة حيوانيّة مسعورة، لكنَّها ميَّزت تحت القشرة نتفَ الروح المحطمة. قدَّرت أنَّها ليس لحظة مناسبة لتقدِّمَ إليه خبرتها الواسعة في النصيحة لأنَّه كان كتيماً، وفضَّلت أن تُحدِّثَهُ عن نفسها.

ـ عندي أعداء كثرٌ، يا غريغوري ـ اعترفت ـ تحاول الواحدةُ أن تعملَ الخيرَ، لكنّهم يكافئونك بالحسد والضغينة. يقولون الآن هنا وهناك بأنَّني على علاقة بالشيطان.

ـ أتصوَّره قاتلاً بالنسبة للعمل...

ـ لا تصدِّق، فطالما هناك ناس خائفون أو متألِّمون لن يقلّ ـ أجابت أولغا بغمزة خبيثة ـ بالمناسبة. هل من شئ أستطيعُ أن أفعله لأجلك؟

ـ لا أظنُّ، يا أُولغا، ما بي لا يعالجُ بالتعازيم.

أعطى الأبوان موراليس غريغوري عنوانَ كارمن. كان يظنُّها ما تزال في أوروبّا، وكلَّفه جهدٌ أن يُصدِّق أنَّهما يعيشانِ على بعدِ جسر. مكالمات أيّام الإثنين انقطعت والمراسلات عانت من تأخُّرٍ هائلٍ في ڤييتنام. آخرُ اتصالٍ كانت بطاقة من برشلونة تحكي فيها عن عشيقها الياباني. استغرب أن تكون صديقته قد أقامت في بيت جون وسوزان، فالواقع يبدو أحياناً محالاً مثل المسلسلات التلفزيونيَّة التي تتابعها إنماكولادا بحذافيرها.

كثيراً ما تساءل غريغوري ريفز على امتداد قدره المُغامِر، خاصَّة حين كان يشعر بنفسه محاصراً بالوحشة بعد أن تورَّط مع امرأة جديدة واكتشف أنّها أيضاً لم تكن المرأة التي يبحثُ عنها، لماذا لم يستطع هو وكارمن أن يكونا عشيقين. وحين تجرَّأ على الكلام معها أجابته أنّه كان في ذلك الوقت منغلِقاً أمام النوع الوحيد من الحبِّ الذي يمكن أن

يتقاسماه، كان يحمي نفسه بغطاءٍ من الكلبيّةِ لم يفده كثيراً بعد كل حساب، ذلك أنَّ أدنى نسمة كانت تتركه عارياً أمام قوى الطبيعة، وكانت كافية لعزلِ روحه.

ـ في تلك المرحلة كنتَ مصمِّماً على المالِ والجنس، كان نوعاً من الهوس. لنضعَ الحقَّ على الحرب، مع أنَّني أتوقَّعُ أسباباً أخرى، فقد كنت تجرجر معك أشياء كثيرة من طفولتك ـ قالت كارمن بعد سنواتٍ كثيرة، بعد أن جابَ كلٌّ منهما متاهاته الخاصّة واستطاعا أن يلتقيا عند المخرج ـ الغريب أنّه كان يكفي كشط السطح قليلاً ليكتشف المرء أنّك تطلب المساعدة من وراء دفاعاتكَ. لكنَّني أيضاً لم أكن جاهزة لعلاقة جيِّدة، لم أكن قد نضجتُ لأستطيعَ أن أمنحكَ الحبَّ الذي كنتَ تحتاجه.

أجَّل غريغوري بعد لقائه آلَ مورالِس لقاءه مع صديقته بذرائع متجدِّدة. كانت تخيفه فكرة رؤيتها، يخاف أن يكونا قد تبدَّلا ولن يتصالحا أو بالأحرى ألّا يعجب الواحد بالآخر. أخيراً صار من المحال عليه ابتداع حجج جديدة فذهب بعد أسبوعين لزيارتها. فضَّل أن يفاجئها، مَثَلَ في المطعم دونما إعلام مسبق، لكنَّه علم هناك أنَّها تركت العملَ منذُ أيّام. استقبلته جون وسوزان مُهَلّلتين، تفحَّصتاه من قدميه إلى رأسه لتتأكدا أنّه كاملٌ، انهالتا عليه بالطبيخ النباتي وحلويّات الفستق الحلبي مع العسل ودلَّتاه أخيراً على الشارع الذي من الممكن أن يجد كارمن فيه. لاحظ التحوّل في مظهر المرأتين، كانتا تضعان أقراطاً تُرى عن بعدٍ. قصَّتا شعرهما وجون تضع على خديها صباغاً يُظْهِرُ خجلُها أنّه غير مبرَّر. وضَّحتا له ضاحكاتٍ أنّه لم يكن منَ الممكنِ أن تستمرَّا في استخدام الضفائر الجلديّة الحمراء أو قمطة الجدَّة فأقراطُ تامار تتطلَّبُ شيئاً من الغنج، وليس في هذا أيّ سوء، بحسب ما اكتشفتا متأخرتين قليلاً، هذا صحيح، لكنّهما تفكِّران باستعادة الزمن الضائع. يمكن أن تكون الواحدة مناصرةً للمرأة وتستعمل هذه الأدوات في الأذنين إضافة إلى بعض الأشياء على الخدَّين: لا ترتعب يا رجل، أكدتا له، لم نتخلَّ عن أيٍّ من مسلّماتنا. أرادَ غريغوري أن يعرف من يكون تامار فسارعتا لتوضِّحا له بأنَّ كارمن قد بدَّلت اسمها لأنّها خصَّصت كامل وقتها لصناعة المجوهرات، فهي تريد أن تفرضَ أسلوباً واسماً، واسمها بدا لها قليل الجاذبيّة. تنتقل كلَّ صباحٍ إلى شارع الهيبّيّين تعرض بضاعتها على صينيّة بأرجلٍ. أماكن العرْض يُقْتَرَعُ عليها بيانصيبٍ يوميٍّ، هذا النظام الذي كان يمنع مشاجرات أيّام زمان حين كان الباعةُ الجوّالون يدافعون عن بقعة الأرضِ التي يفضّلونها بالضرب. وكان عليها للحصول على موقع

جيّدٍ بأن تستيقظ باكراً، فهي مهذّبة جدّاً وبالتأكيد سوف يلقاها في الزاوية الأولى، قالت جون وسوزان، أكثر الأماكن طلباً، لأنّه قريبٌ من الجامعة، حيث يستطيعون أن يستخدموا مراحيض الجامعة.

على الجانبين كان يسير تجّار وصنّاع يدويّون يكسبون خبزهم من بيعهم اليومي ويعيشون على الأوهام الماورائيّة، السذاجاتِ السياسيّةِ والمخدِّرات. ينبعثُ بينهم بعضُ المجاذيب، يشدُّهم، لا أحد يدري، أيُّ مغناطيس. كانت الحكومةُ قد قلّصت أرصدةَ الخدمات الطبيّة، تاركة المشافي النفسيّة المُفقرة بلا موارد ليجد هؤلاء أنفسهم مضطرِّين لإطلاق سراح المرضى. كان المرضى يتدبَّرون أمرهم من خلال صدقات الآخرين في الصيف وفي الشتاء يلتقطونهم ليتفادوا عارَ الجثث المتجمِّدة في الطريق العام. كانت الشرطة تغضّ الطرف عن هؤلاء المجانين المساكين، ما لم يكونوا عدوانيّين. والجيران عرفوهم فما عادوا يخافونهم، ولم يكن عندهم مانع من إطعامهم، حين يبدؤون يتضوَّرون جوعاً. كثيراً ما كانوا لا يُميِّزونهم عن الهيبّيين متعاطي المخدِّرات، لكنَّ بعضهم كان متميِّزاً ومشهوراً، كذاك الراقص مرتدي الزرد الشفّاف مع جناحي ملاكٍ هابطين والذي كان يطفو على رؤوس قدميه مفزِعاً المارّة الشاردين. بين مشاهيرهم كان ذلك العرَّاف الشقيُّ الذي يقرأ الحظَّ بورقٍ من اختراعه يمضي آنّاً من أهوال العالم، قانطاً من حجم الشرِّ والجشعِ، وذات يوم لم يستطع أن يتحمَّل أكثر فانتزع عينيه بملعقة وسط الشارع العام. سحَبته سيَّارةُ إسعافٍ لكنّه عادَ بعدَ قليلٍ، صامتاً، مبتسماً لأنّه لم يعد يرى فظاعةَ الواقع. ثقبَ أحد ما له الورقَ كي يميِّزَه فاستمرَّ يقرأ الحظ للمارَّة بنجاح أكبر لأنَّه صار أسطورةً. بين هؤلاء بحث غريغوري عن صديقته. شق طريقه في زحام وصخب الشارع دون أن يراها. كان ذلك في فترة عيد الميلاد وحشودٌ صاخبة تشغل الأرصفة منهمكة في مشترياتها الأخيرة. وحين عثرَ عليها أخيراً تأخَّرَ قليلاً في مطابقة تلك الصورة مع الصورة التي كان يحتفظ بها بين ذكرياته. كانت تجلسُ على مقعدٍ صغيرٍ خلف طاولة محمولة، تعرضُ عليها أعمالها في خطوطٍ لألاءة. كان شعرها منسدلاً بلا انتظام على كتفيها، وترتدي صدَّارةَ جاريةٍ مطرَّزة بزخارف عربيّة، ولباساً قطنيّاً داكناً مشدوداً إلى خصرها بسلسلةٍ من النقود الفضّيّة والنحاسيّة، مثل عباءة وذراعاها مغطّاتان بالأساور. كانت مشغولة مع زوج من السيّاح، لا شكَّ أنَّهما سافرا من مزرعتهما في الوسط الشرقي ليشاهدا عن قربٍ أهوالَ بيركلي التي لمحوها في التلفزيون. لم تنتبه إلى وجود غريغوري، الذي بقي على بعدٍ عنها يراقبها تخفيه حركة

الناس. تذكرَ في تلك اللحظة كم من الأشياء تقاسمها معها: أحلام المراهقة الحارّة، الأوهام التي بعثتها عنده، فظنَّ أنّه أحبّها منذ الفترة القصيَّة التي ناما فيها معاً في سريرٍ واحدٍ، يومَ مات والده. بدتْ له متغيرة جدّاً، هناك ثقة ولطف في تصرّفاتها، ملامحها اللاتينيّة برزت: العينان أكثر سواداً، والحركاتُ أكثر بهرجةً، والضحكةُ أجرأ. لقد أرهفت الأسفارُ بديهة صديقته، وجعلتها أكثر مكراً، من هنا جاء تبديل اسمها وأسلوبها. في تلك المرحلة كانت قد سُكّت كلمة «العرقي» للإشارة إلى ما يصدرُ عن أماكن لا أحد يستطيعُ تحديدها على الخارطة، فتبنّتها لأنّها تكهّنت أنّه ما من أحدٍ في ذلك الوسط سيتزيّن بافتخار بمجوهراتٍ تشيكانيّة متواضعة. على طاولتها لافتة تعلن: *«تامار، مجوهرات عرقيّة»*. سمع غريغوري من المكان الذي كان فيه حديثها مع الزبونين، كانت تقولُ لهما بأنّها غجريّة وهما يتردّدان، خائفين أن تغشهما في الصفقة. كانت تتكلّم بنبرةٍ خفيفة لم تكن لها. كان غريغوري يعرف أنّها غير قادرة على التظاهر بها تكلفاً، لكنْ من الممكن أن تكونَ قد تبنّتها شقاوةً، كما كانت تبتدعُ ماضياً غامضاً حبّاً بالمزاح أكثر ممّا بميولٍ للكذب. ولو أنَّ أحداً ذكّرها بأنّها الابنة المكروهة لمهاجرين غير شرعيين من ثاكاتِكاس، لفوجئت. كانت تحكي له في رسائلها شَطَطَ سيرتها الذاتيّة التي راحت تبتدعها في فصول، مثل مسلسلٍ تلفزيونيٍّ، وحذّرها في أكثر من مناسبة ، لأنّها لكثرة ما تردّدُ تلك الأكاذيب ستنتهي بتصديقها. والآن على بعد أمتارٍ قليلة أدرك أنَّ كارمن قد تحوّلت إلى بطلة روايتها ذاتها، وأنَّ تامار يناسب أكثر بائعةَ خرز البلّور الغريبة. رفعت نظرها في اللحظة وحين رأته أفلتت منها صرخة.

تعانقا طويلاً مثلَ طفلين ضائعين وأخيراً بحث كلٌّ منهما عن فم الآخر وغابا في قبلة مرتعشين من عاطفةٍ مارساها في سنوات التخيُّلات السرّيّة. لملمت كارمن كلَّ شيءٍ بسرعة، طوت طاولتها وانطلقا يدفعان عربةَ سوقٍ صغيرةً، حيث علب المجوهرات، ينظرُ الواحد منهما إلى الآخر بنهم، بحثاً عن مكانٍ يمارسان فيه الحبَّ. كانا من العجلة بحيث لم يكن هناك وقت للكلام عن شيء، كانا بحاجة لأن يلمس واحدهما الآخر ويسبره ويتأكّد من أنه تماماً كما تخيّله. لم تبغِ أن تتقاسم غريغوري مع جون وسوزان، خافت إذا ماذهبا إلى بيتها أن يكون اللقاء حتميّاً فيصعب تفادي رفقتهما مهما كانتا محتشمتين. فكّرَ هو بالشيء نفسه فقادها دون أن يستشيرها إلى نزلٍ فقيرٍ لا ميّزة له سوى القرب. هناك تعرّيا على عجلة، وتدحرجا على السرير ذاهلين رغبةً، جائعين. كان العناقُ الأوّل كثيفاً وعنيفاً واندفعا دونما مقدّمات في صخب اللهاث والملاحف

وتطاحنا دون هوادةٍ ثم سقطا منهكين في وسنٍ عميق دام دقائق. استيقظت كارمن أوّلاً ونهضت لتراقب ذلك الرجل الذي ترعرعت معه ويبدو لها الآنَ غريباً. حلمت به مرّاتٍ لا حصر لها وها هو الآن عارٍ أمام شفتيها. لقد نحتته الحربُ بطرّقها، فهو أكثرُ نحولاً وعضلاتٍ وأربطة عضلاته تبرزُ كالأوتار تحت الجلد، الشرايين في إحدى ساقيه معلّمَة وزرقاء، من آثار حادث الزمن الذي كان فيه عاملاً بسيطاً. مع أنّه نائمٌ كان مشدوداً. قبّلته بحزن، فقد تصوّرت لقاءً مختلفاً جدّاً وليس هذا النوع من الاغتصاب المتبادل، هذه الحرب الطاحنة. لم يمارسا الحبَّ، بل شيئاً خلّف عندها طعمَ الخطيئة. بدا لها أنّه لم يكن بكامله معها هناك، روحه كانت غائبة، لم يعانقها هي بل ما يعرف أنّه شبحٌ من ماضيه أو كوابيسه، غابت الرِّقّة، التواطؤ، المزاج الحسن. لم تسمعه يهمس باسمها كما لم ينظر إلى عينيها. هي أيضاً لم تكن في أفضلِ أيّامِها، لكنّها لم تعرف ما الذي فشلت فيه، غريغوري حدَّدَ الإيقاع فحدثَ كل شيء بلهفةٍ أضاعتها في دغلة مظلمة، والآن تطفو ملتهبةً، رطبةً، موجوعةً قليلاً وحزينة. الفشلُ في الحبِّ لم يخرِّب قدرتها على الرِّقة. بانفتاحها لاستقباله ارتطمت بالمقاومة العنيدة لهذا الصديق، الذي انتظرته منذ طفولتها، لكنّها عزته لحرمانات الحرب ولم تفقد الأملَ في أن تجدَ فجوةً تدخلُ منها إلى روحه. انحنت لتُقَبِّلَه مرّةً أخرى فاستيقظ مذعوراً، في وضعيّة الدفاع، لكنّه ما إن عرفها حتى ابتسمَ، فبدا لأوّلِ مرّة مرخي الأعصاب. أخذها من كتفيها وجذبها إليه.

ـ أنت وحيدٌ ومشاجر مثل راعي بقرٍ في فيلم، يا غريغ.

ـ لم أمتطِ جواداً في حياتي، يا كارمن.

لم يعرف كم كان مصيباً تشخيص صديقته ولا كم كان نبوئيّاً. فالوحدة والصراعُ حدّدا مصيرَهُ. عادت إليه الذكريات زرافاتٍ، حاولَ أن يبقيها على الخط فشعر بمرارةٍ عميقةٍ، محالٌ مشاطرتها مع أحدٍ، ولا حتى معها في تلك اللحظة من الحميميّة. كانت قد نمت مثل الأعشاب الضارّة في صحن دارهم، بلا ماء أو بستانيٍّ، بين هذيانات والده الماورائيّة وصمت أمِّه القاسي، وضغينة أخته المستعصية، عنف الحيِّ، متحمِّلاً الاعتداءات بسبب لونِ جلده وغرابة أسرته، مشتتاً دائما بين نداءات القلب العاطفيِّ وهذه الحميّا الصراعيّة، الطاقة الوحشيَّة التي تلهب دمه وتفقده رأسه. طرف يحنيه أمام الرأفة وآخرُ يدفعه إلى الجموح. كان يعيشُ أسيرَ تردُّدِ هذه القوى المتعارضة التي تشطره نصفين متضاربين، براثن تمزّقه في

داخله، تعزله عن الآخرين. كان يشعر بنفسه مداناً بالوحدة. اقبلها وخلِّصنا، يا غريغوري، فنحنُ نولدُ ونعيش ونموت وحيدين، كان قد أكَّدَ له سايروس، الحياة فوضى ومعاناة، لكنّها وحشة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. هناك تفسيرات فلسفيَّة، لكن إذا كنتَ تُفَضِّلُ قصَّةَ جنَّة عدن فاعتبر أنَّ هذا هو عقاب الجنس البشريّ لأنَّه قضم ثمرةَ المعرفة. كانت هذه الفكرة تثير عند غريغوري صلاءً من التمرُّد. لم يتنازل عن أوهام طفولته، حين كان يأملُ أن يتلاشى الضيق من الحياة بالسحر. في تلك السنوات حين كان يختبئُ في كهف بيته أسيرَ خوفٍ غير عقلاني، كان يتصوَّرُ أنَّه سيستيقظُ ذات يوم وقد تخلَّصَ للأبد من ذلك الألم الأصمّ وسط جسده، كلُّ شيءٍ كان يتعلق بالتطابق مع مبادىء وقواعد الحشمة. ومع ذلك لم يكن كذلك. مرَّ بطقوس الابتداء ومراحل الطريق إلى الرجولة المتتالية، وتشكَّل بمفرده، بتحمّلٍ صامت للضربات والصفعات، أميناً للأسطورة الوطنيَّة، للفرد المستقل، الأبيِّ والحر. كان يعتبرُ نفسه مواطناً صالحاً مستعدّاً لدفع ضرائبه والدفاع عن وطنه، لكن في مكانٍ ما كانت توجدُ مكيدةٌ غادرة وبدل أن يلقى المكافأة ما يزال متورِّطاً. لم يكفِ أن يفي ويفي، فالحياة كانت خطيبة لا تشبع، وتتطلَّبُ مزيداً من الجهود والبأس. في ڤييتنام تعلَّم أنَّه كي يستمر في الحياة عليه أن يخرق الكثيرَ من القواعد، فالعالم لم يكن للهيَّابين بل للمقدامين. في الحياة الواقعيّة كانت الأمور تجري لصالح الوغد أكثر مما لصالح البطل. لم يكن هناك في الحرب قرارٌ أخلاقيّ، كما لم يكن هناك منتصرون، والجميعُ يشكّلون جزءاً من الهزيمة الهائلة ذاتها، والآن في الحياة المدنيّة بدت له الأمور كذلك، لكنَّه كان عازماً على الخلاص من هذه اللعنة. سأتسلّق إلى أعلى قضبان هذا القنّ، حتى ولو اضطُرِرْتُ أن أمرَّ فوق أمِّي نفسها، كثيراً ما كان يقول حين يحلقُ ذقنه أمام مرآة الحمَّام، ليرى ما إذا كان لكثرة ترديده يستطيع أن يتخطّى الإحساس بالاكتئاب الذي يستيقظُ عليه كلَّ صباح. لم يكن مستعدّاً لأن يتكلّم عن هذه الأمور مع أحد، ولا حتى مع كارمن. شعر بشعرها يلامس فمه، استنشق منه رائحة عروس بحرٍ حسنة وأسلم نفسه من جديد لنداءات الرغبة. رأى جسدها المنثني في ظلّ الستائر. سمع ضحكتها وأنينها، شعر بنبض حلمتيها في يديه فظنّ للحظة قصيرةٍ جدّاً أنّه متخلّص من لعنة الوحدة، لكن سرعان ما قضت خفقات بطنه المتسارعة وطبل قلبه الفوضوي على هذا الوهم وغاص أعمقَ فأعمق في هوَّة اللذّة المطلقة. آخر وأعمق عزلة.

ارتديا ملابسهما بعد ذلك بكثير، حين أعادت إليهما الحاجة

لاستنشاق هواء رطبٍ وتناول شيءٍ غير البيتزا الباردة والبيرة الفاترة، خدمة الفندق الوحيدة، الإحساسَ بالواقع. كان عندهما وقت للمداعبة بهدوء واسترجاع الماضي، لإنهاء الأحاديث التي بدئت في المكالمات الهاتفيّة خلال سنوات، واستحضار ذكرى خوان خوسِه، للكلام عن الأحلام المكسورة، الحبّ الفاشل، المشاريع غيرِ المنتهية. في تلك الساعات تأكّدت كارمن من أنَّ غريغوري لم يتغيّر جسديّاً وحسب بل روحيّاً أيضاً، لكنّها افترضت أنَّ الزمنَ كفيلٌ بمحو الذكريات السيِّئة والعودة ليصير ما كان من قبل، الصديق العاطفي والمرح الذي ربحت معه مسابقات *الروك أندرول*، النجيّ والأخ. لا، لن يعود أخاً أبداً، قالت لنفسها محزونة. عندما انتهى فضول السبر المتبادل، ارتديا ملابسهما وخرجا إلى الشارع، تاركَيْنِ الغُرَيْبة ومجوهراتها التقليديّة في الغرفة. نظر واحدهما إلى الآخر، جالسين أمام القهوة التي يتصاعد بخارها والخبز المحمّص المطقطق، في نور المساء الضارب للحمرة، فشعرا بعدم الراحة. لم يعرف ما ذلك الظل المنتصب بينهما، لكنَّ أحداً منهما لم يستطع أن يتجاهل أثرَهُ الوبيل. أرضيا إلحاحات الرغبة، لكن لم يحدث لقاء حقيقيٌّ، لم ينصهرا في روح واحدة، ولم يتكشّف لهما حبٌّ قادرٌ على أن يقلبُ حياتهما، كما قد تصوَّرا. ما إن ارتديا ملابسهما وهدأا حتى أدركا كم هي مختلفة طرقهما، كانت الأشياء المشتركة قليلة، اهتماماتهما متباينة ولا يتشاطران الخطط ولا القيم. عندما عرض لها غريغوري طموحاته في أن يصبحَ محامياً ناجحاً ويحقق ثروة، ظنّت أنّه يمزح فهذا الجَشَع لا ينسجم معه أبداً. أين أضحت المبادئ، الكتب المتمثّلة وخطابات سايروس التي طالما أضجرها بها في المراهقة والتي كانت تسخر منها لتزعجه وتبنتها أخيراً. حسبت نفسها أكثر طيشاً واعتبرته دليلَها، والآن تشعر أنّها خُدِعت. من جهته لم يمهل غريغوري نفسه كي يسمع آراءَ كارمن حول أيِّ موضوعٍ مهمٍّ، من الحرب وحتى الهيبيّين، فقد بدت له ترهات فتاةٍ مدَلّلة وبوهيمية لم تعش قط حاجة حقيقيّة. إنَّ شعورها بأنّها تحقّقُ ذاتها تماماً ببيع تلك الأشياء في الشارع وتفكرُ بقضاء بقيّة حياتها كمتشرِّدة تدفع غُرَيِّبتها وتعيش من الهواء، كتفاً إلى كتف مع المجاذيب والفاشلين برهانٌ كافٍ على عدم نضجها.

ـ تحوّلتَ إلى رأسمالي ـ اتهمته كارمن مذعورةً.

ـ ولماذا لا؟ ليس عندكِ أدنى فكرة عن ماهية الرأسمالي! ـ ردَّ غريغوري فلم تستطع أن توضِّح ما كان يخترقُ صدرها وتورَّطت في شروداتٍ لها نبض المراهقة.

كان قد دفع أجرة غرفة الفندق لليلةٍ أخرى، لكن وبعد فنجان القهوة الثالث وانعزال كلٍّ واحدٍ مع أفكاره والتنزّه برهة ينظران إلى مشهد الشارع عند حلول الليل، أعلنت هي أنَّ عليها أن تأخذَ أشياءها من الفندق وتعودَ إلى بيتها، لأنّ عندها أعمالاً كثيرة عالقة. فجنّبَ هذا ريفزاللحظة السيّئة لابتداع ذريعة. انفصلا بقبلة سريعةٍ على الشفاه والوعد الغامض بتبادل الزيارات قريباً جدّاً. لم يعودا للتواصل إلا بعد عامين تقريباً عندما هتفت له كارمن مورالِس تطلب مساعدته. كان عليه أن يُنقذ طفلاً من الطرف الآخر من العالم.

دعا تيموثي دوان غريغوري ريفز لتناول عشاءٍ في بيت أبويه فدفعه دون قصدٍ الدفعة التي كان يحتاجها ليصعد. كان دوان قد استقبل صديقه بالشدِّ المعتادِ على يديه، كما لو أنّه وصلَ توّاً من إجازة قصيرة، وحده بريق عينيه فضح العاطفة التي شعر بها عندما رآه، لكنّه كالآخرين رفضَ أن يعرفَ تفاصيلَ عن الحرب. كان قد تولّدَ عند غريغوري انطباعٌ بأنّه ارتكب عملاً شائناً، فالعودة من ڤييتنام توازي الخروج من السجن بعد حكم طويل، يتظاهرُ الناسُ بأن شيئاً لم يحدث ويعاملونه بتهذيبٍ مفرطٍ، أو يُتجاهلونه كليّاً، ما من مكان للمقاتلين خارج ميدان المعركة. كان العشاء في بيتِ آل دوان مُملاً ورسميّاً. فتحت له البابَ زنجيّةٌ عجوزٌ جميلة قشيبةَ اللباس الموحّد وقادته إلى الصالة. تيقّنَ مندهشاً أنّه لم يكن هناك سنتيمتر مربّع واحد في الجدران أو الأرض دون زينة، فوفرة اللوحات والمزركشات والمنحوتات والأثاث والسجّاد والنباتات لا تترك مكاناً للصفاء وإراحة النظر، كان هناك طاولات معشّقة بالصدف وصياغات ذهبيّة تخريميّة، كِراس من خشب الأبنوس مع تُكآتٍ من الحرير، أقفاص فضّيّة للطيور المحنّطة، ومجموعة من الخزف والزجاج الجديرة بمتحف. خرجَ تيموثي للقائه.

ـ يا للأبهة ـ فلتت من ريفز نوعاً من التحيّة.

ـ إنّها الترف الوحيد في هذا البيت. أُقدّمُ لك بِل بنيديكت ـ أجابَ الصديقُ مشيراً إلى الخادمة، التي كانت تبدو فعلاً منحوتة أفريقيّة. تعرَّف غريغوري أخيراً علي والد صديقه، الذى طالما سمع ابنه يتكلّمُ عنه. بطريرك متفخّم وجاف، غير قادر على أن يتبادل جملتين مع أحد دون أن يبرهن عن سلطته. كان من الممكن لتلك الليلة أن تكون بالنسبة إلى غريغوري بغيضةً لولا السحلبيات التي فتحت الأبواب أمامه كمحام، فقد

كان صديقه بالسيسكو قد أدخله في هوس النباتات دخولاً لا رجعة منه، بدأ بشغفه بالورد وامتد مع السنين ليشمل أنواعاً أخرى. أكثر ما لفت انتباهه في ذلك القصر المتخم بالأشياء الثمينة كانت سحلبيات أمّ تيموثي. كان يوجد منها ألف لون وشكل، مزروعة في أصص، متدلّية من السقف في لحاء شجر وتنمو مثل غابة في حديقة داخليّة حيث أوجدت السيّدة طقساً أمازونيّاً. وبينما كان البقيّة يشربون القهوة انسلّ غريغوري إلى الحديقة يتأمّلها فوجد هناك عجوزاً بحاجبين شيطانيّينْ وصورة ثابتة، متحمّساً مثله للأزهار. تناقشا حول النباتات فدُهشَ كلّ منهما بمعارفِ الآخر. صادف أن الرجلَ كان أحد أشهر محامي البلد، أخطبوطاً تطال مجسّاته الغربَ كله، وحين علم أنّه يبحثُ عن عمل أعطاه بطاقته ودعاه للحوار معه. بعد أسبوع تعاقد معه.

غريغوري كان واحداً من ستين مهنيٍّ، جميعهم طموحون، لكنّهم لم يكونوا جميعاً أصحاب عزيمة، تحت إمرة المؤسّسين الثلاثة الذين أصبحوا مليونيريين من خلال فجائع الآخرين. كان المكتبُ يشغل ثلاثة طوابق من أحد أبراج المركز، حيثُ يُطِلُّ على الخليج مؤطّراً بالفولاذ والزجاج. لم يكن فتح النوافذِ ممكِناً، ويُستنشق هواءُ آلاتٍ، وكان نظام الإنارةِ المموّهة في السقوف يخلق وهمَ يوم قطبيٍّ أبديٍّ. وكان عددُ نوافذ كل مكتب يحدّدُ أهميّة شاغله، لم يكن له في البداية أيّة نافذة وعندما تقاعد بعد سبع سنوات صار باستطاعته أن يتفاخر بنافذتين في زاويتين حيث لا يكاد يُلْمَحُ البناء المواجِهُ وقطعة تافهة من السماء، لكنه مثّل ارتقاءً في المؤسّسة وفي السلّم الاجتماعي، أيضاً كان هناك عددٌ من أصص النباتات وكنبة فاخرة من الجلد الإنكليزي، قادرة على تحملّ سوءَ الاستخدام دون أن تفقدَ بهاءها. مرَّ على هذا الأثاث عددٌ من الزملاء وعدد لا يحصى من السكريترات والأصدقاء والزبونات اللواتي جعلن قضايا الإرث والضمانات والضرائب التي كان عليهم حلّها محتملة. بعد وقتٍ قصير زاره رئيسه بحجّة تبادل المعلومات حول تشكيلة غريبةٍ من السرخس، ثمّ دعاه مرّتين لتناول الغداء. عندما راقبه عن بعدٍ اكتشف في موظّفه الجديد العدوانيّة والطاقة فأرسل إليه في الحال حالاتٍ أهمّ ليختبر براثنه. كان يهنّئه بين الفينة والأخرى ويقول: رائع، يا ريفز، تابع في هذا الطريق فربّما أصبحت قبل ما هو متوقّع شريكي. توقّع غريغوري بأنّه يقول الشيءَ نفسه لموظّفين آخرين، لكنّ قليلين هم من أدركوا خلال خمس وعشرين سنة موقعه في المؤسّسة. لم يكن عنده آمال فارغة بترقية هامةً، كان يعرفُ أنّهم يستغلّونه، يعمل من عشر إلى خمسة عشر ساعة يوميّاً،

لكنّه كان يعتبره نوعاً من التدريب ليطير وحده ذات يوم ولم يكن يشكو. كان القانون شبكة عنكبوت من العلاقات البيروقراطيّة، المهارة تكمن في أن يكون المرءُ عنكبوتاً وليس ذبابة. فالنظام العدلي قد تحوَّلَ إلى مجموعة من اللوائح المتداخلة التي لم تعد تجدِ لما وُجِدَتْ لأجله، وبعيداً عن تحقيق العدالة كانوا يعقّدونها حتى الجنون. لم يكن هدفه البحث عن الحقيقة، ومعاقبة المذنبين، أو تعويض الضحايا، كما علمّوه في الجامعة، بل كسب القضيَّة بأيَّة وسيلة متوافرة لديه، ولكي ينجح عليه أن يعرفَ كلَّ الفجوات الشرعية التي لاتقال ويستخدِمَها لصالحه. كان إخفاء الوثائق، بلبلة الشهود، وتزييف المعلومات، ممارسات عاديّة، التحدي يكمن في عمل ذلك بفعاليّة وحشمة. وهراوة القانون يجب ألاّ تقع أبداً على الزبائن القادرين على الدفع للمحامين المحتالين أصحاب الشهرة. اتخذت حياته طريقاً كان سيرعب أمَّه وسايروس لو علما به. فقد كثيراً من حلمه بالعمل، صار يعتبره مجرّد سلّم للتسلق. أيضا لم يكن في بقيّة حياته من حلم وعلى الأخص في الحبِّ والأسرة. انتهى الطلاقُ من سمانثا دون اعتداءات غير ضروريّة، بتسوية اتفقا عليها في مطعم إيطاليّ بين كأسين من نبيذ الشيانتي. لم يكن عندهما ما هو ذو قيمة لتقاسمه، قبلَ غريغوري أن يدفع لها نفقة وأن تجري نفقات مرغريت على حسابه. عندما ودّعها سألها ما إذا كان يستطيع أن يحمل معه براميل الورد، التي من طول الإهمال تحوّلت إلى عيدانٍ جافّة، لكنّه يشعر بواجب إعادة الحياة إليها. لم يكن عندها مانع وقدَّمت له أيضاً حوضَ خشب الولادة الفاشلة، فربّما تمكن من زراعة غابة بيتيّة. في البداية كان غريغوري يسافر أسبوعيّاً لرؤية ابنته، لكن سرعان ما تباعدت الزيارات، والصغيرة تنتظره بلائحة من الأشياء ليشتريها لها وما إن تُرضى نزواتها حتى تتجاهله وتبدو منزعجة من حضوره. لم يتصل بجودي أو بأمِّه، ولزمنٍ طويل لم يتصل بكارمن، وكان يبرّرُ ذلك قائلاً بأنّه مشغولٌ جدّاً بعمله.

كانت العلاقاتُ الاجتماعيّة تشكّلُ جزءاً أساسيّاً من النجاح في المهنة، والصداقات تفيدُ في فتح الأبواب، هذا ما قاله له زملاؤه في المكتب. يجب أن يتواجد في المكان الدقيق واللحظة المناسبة ومع الناس الملائمين. كان القضاة يتقاسمون النادي مع المحامين الذين يستقبلونهم فيما بعد في المحاكم، ويتفاهمون كأصدقاء. لم تكن الرياضات ميدانه، لكنَّه اضطُرَّ لأن يلعبَ الغولف فهو يتيح له الفرصةَ لأن يحتكَّ بالناس. حصل وكما كان قد خطَّطَ على زورقٍ بهدف أن يرتدي الأبيضَ ويبحرَ مع زملائه الحسودين والنساء المرغوبِ بهنَّ، لكنَّه لم يفهم قط نزوات الريح

ولا سرَّ الأشرعة، كل نزهةٍ في الخليج كانت كارثة فمات الزورقُ مهجوراً في المرفأ وبنت النوارس أعشاشها على الصاريات وصار السطحُ شعراً مسترسلاً من الطحالب المتفسّخة. عاش غريغوري طفولةً من الفقر وشباباً من العوز، لكنّه تغذّى على الأفلام التي تركت في فمه طعم حياة الرفاهية. رأى في صالات سينما حيِّه رجالاً يرتدون السموكنغ، ونساء يرتدين اللاميه وطاولات بأربعة شمعدانات، يقوم عليها خدمٌ بلباسٍ موحّدٍ. وعلى الرغم من أنَّ كلَّ ذلك يعود إلى ماضٍ افتراضيٍّ في هوليوود وليس له تطبيق عمليٌّ على أرض الواقع، فقد فتنه. ربّما لهذا السبب عشقَ سَمَانثا، فقد كانَ من السهل تصوُّرها في دورِ شقراء جامدة ومتميِّزة في السينما. كان يكلِّف خيّاطاً صينيّاً بأطقم لباسه، وهو أغلى مَنْ في المدينة، نفسه الذي كانَ يخيط لعجوز السحلبيات والأقطاب الآخرين، يشتري قمصاناً حريريّةً ويستعمل أزراراً ذهبيّة عليها الأحرف الأولى من اسمه. حصل أن الخيّاط كان ناصحاً جيّداً له، منعه من انتعال حذاءٍ بلونين، ربطات عنق بخِيلان، بنطلونات بمربّعات وإغواءاتٍ أخرى، إلى أن هذّبَ ريفز ذوقه في اللباس. كذلك بالنسبة لبيته كان له مهارة فعّالة. في البداية اشترى كلَّ ما لفت انتباهه من زينات، فكلّما كان أكبر وأكثر صنعة كان أفضل، حاول أن يعيدَ انتاج بيت والدي تيموثي دوان على مستوى أصغرَ، لأنّه ظنَّ بأن الأثرياء يعيشون هكذا، لكنّه على الرغم من كلِّ استداناته لم يتمكّن من تمويل مثل تلك الغرابات. بدأ بجمع أثاثٍ قديم مستعمل: ثريّاتٍ دامعة، خابيات بل وزوج من الأحباش البرونزيين بالحجم الطبيعي والعمامة والبابوج. كان بيته في طريقه لأن يتحوّل إلى بازارٍ تركيٍّ حين عبرت قدره مهندسة ديكور شابة أنقذته من نتائج الذوق السيّئ. تعرّف عليها في حفل فبدأا في الليلة ذاتها علاقة متأجّجة وسريعة هامّة بالنسبة لغريغوري، لأنّه لم ينسَ قط دروس تلك المرأة. علمّته أن الزينة عدوّة الأناقة، الفكرة المناقضة تماماً لمباديءِ الحيِّ اللاتيني، وما كانت لتخطر له أبداً وشرع دون تبصّرٍ في إلغاء كلِّ محتوى البيت تقريباً، بما فيه الحبشيَّين، اللذين باعهما بسعرٍ باهظٍ لفندق سان فرانسيس، حيث يمكن مشاهدتهما حتى يومنا هذا في مدخل البار. لم يبقِ إلاّ على السرير الإمبراطوري وبراميل الورد وحوض الولادة الذي تحوّل إلى مشتلٍ للنباتات. خلالَ الأسابيع الخمسة المشتركة حوّلت البيت وأضفت عليه جوّاً بسيطاً وعمليّاً. أمرَت بدهن الجدران بالأبيض وفرش الأرضِ بلون الرمل ورافقت غريغوري على الفور لشراء بعض الأثاث الحديث. كانت متشدِّدة في تعليماتها: قليل لكن حسن، ألوان محايدة، الحدّ الأدنى من الزينة، وفي

حال الشك، توقَّفْ. اكتسب البيت بفضل نصائحها صرامةَ الدير، وبقي على هذه الحال إلى أن تزوَّج صاحبه بعد سنوات.

لم يكن ريفز يتكلَّم أبداً عن تجربته في ڤييتنام، من ناحية لأنَّ أحداً لم يبغ سماعه، ومن ناحيّة أخرى على الأخصّ لأنَّه كان يعتقدُ أنَّ الصمت سيشفيه أخيراً من ذكرياته. ذهب مستعدّاً للدفاع عن مصالح الوطن حاملاً صورة الأبطال في عقله فعادَ مهزوماً، لماذا يموت أبناء بلده بالآلاف ويقتلون دون ندم في بلادٍ غريبة؟ آنذاك كانت الحربُ التي لقيت في البداية دعم الرأي العام المنعش قد تحوَّلت إلى كابوس وطنيٍّ واحتجاجات أنصار السلام انتشرت متحدِّيةً الحكومة. لا أحد يفهم كيف يمكن إرسال ركَّاب إلى الفضاء ولا توجدُ طريقةٌ لإنهاء هذا الصراع الذي لانهاية له. كان الجنودُ عند العودة يواجهون عدوانيّة أكثر شراسة من عدوانيّة أعدائهم، بدلَ الاحترام والإعجاب اللذين وُعِدوا بهما عندما جُنِّدوا. كان يشارُ إليهم كقتلة، ولا تهمُّ معاناتهم أحداً. كثيرون ممن تحمَّلوا جهامة المعركة تحطَّموا عندما عادوا وتأكَّدوا أنَّه لم يكن لهم مكان بينهم.

ـ هذا بلد المنتصرين، يا غريغ، الشيء الوحيد الذي لا أحد يغفره هو الفشل ـ قال له تيموثي دوان ـ . ليست أخلاقيَّةُ أو عدالة هذه الحرب هي ما نتجادل حوله، فلا أحد يريدُ أن يعرف عن موتاه شيئاً فكيف عن موتى الآخرين، ما يخوزقنا هو أنَّنا لم نربح الحرب وسنخرج من هناك وقد طوينا ذيلنا بين ساقينا.

ـ قليلون هم من يعرفون هنا ما هي الحرب فعلاً، يا تيم. ما غزانا العدوُّ قط أو قذفنا بالقنابل، منذ قرن ونحن نقاتل، لكن منذ الحرب الأهليّة لم تُسمع طلقة مدفع على أرضنا. الناس لا يعون ما معنى المدينة تحت النيران. سيبدِّلون وجهة نظرهم لو أنَّ أولادهم نفقوا في انفجار، لو أنَّ بيوتهم صارت رماداً ولم يجدوا ما يضعونه في أفواههم ـ أجاب ريفز في المناسبة الوحيدة التي تكلم فيها مع صديقه عن الموضوع.

لم يستهلك طاقة في التأسّف المجاني، وبالعزيمة ذاتها التي استخدمها للخروج حيّاً من ڤييتنام، صمّم على تجاوز العراقيل المزروعة في طريقه. لم يزِحْ قيد شعرة عن قراره الذي اتخذه في سرير أحد مشافي هاواي، بالنجاح، وكان من الدقّة في تحقيق ذلك بحيث أنّه ما إن انتهت الحربُ، بعد بضع سنوات، حتى صار مَثَلَ رجل النجاح، ويتصرَّف بحياته ببهلوانية كارمن الجريئة أيام كانت تبقي خمس سكاكين قصابة عالقة في الهواء. كان آنئذٍ قد حقَّقَ كل طموحاته، ويملك تحت تصرُّفه من المال

والنساء والمكانة ما لم يحلم به قط، لكنّه لم يكن مرتاحاً. لا أحد كان يعرف شيئاً عن الضيق الذي يثقل كاهله مثل كيس من حجارة، لأنّ له طلعة بهلوان تبجّحيّة وظريفة، باستثناء كارمن التي كان لا يستطيع أبداً أن يخفيها عنها، لكنّها أيضاً لم تستطع مساعدته.

- ما يحدثُ لك هو أنّك على رمل ساحة مصارعة ثيران، لكن ليس عندك غريزة قاتل - كانت تقول له.

ما الذي كنت أبحثُ عنه في النساء؟ حتى الآن لا أدري. لم يكن الأمرُ يتعلّقُ بالعثور على النصف الآخر من روحي كي أشعر بنفسي كاملاً، ولا عن أيّ شيء يشبه ذلك. لم أكن ناضجاً لمثل هذه الإمكانيّة في ذلك الوقت، كنتُ أجري خلف شيء هو دائماً دنيويّ. كنتُ أطالب رفاقي بشيءٍ أنا نفسي لا أعرف تسميته، وحين لا أحقّقه أبقى حزيناً. كان الطلاق والحرب والعمر كفيلين بأن يشفوا أيّ شخص آخر من التطلّعات الرومانسيّة، ولم تكن هذه حالتي. فمن جهةٍ كنتُ أحاول أن أحمل كلّ النساء تقريباً إلى فراشي بمحض حميّة جنسيّة، ومن جهة أخرى أتبرّم حيث لم يكنّ يستجبن لمتطلّباتي العاطفيّة السريّة. بلبلة، محضُ بلبلة. عقودٌ عدّة شعرت بالخيبة فيها، فبعد كلّ حالة جماع يجتاحني حزن غضوب، رغبة بالابتعاد فوراً. حتى مع كارمن حدث ذلك، وهي على حقّ حين لم تبغِ رؤيتي لعامين، لا بدَّ أنّها كرهتني. النساء عناكب ملتهمة، كنتُ أحذرُ نفسي، وإذا لم تتحرّر منهن لن تستطيع أبداً أن تكونَ أنت نفسك وستعيش لمجرّد إرضائهنّ.هكذا كان يحذّرني تيموثي دوان، الذي كان يجتمعُ كلَّ أسبوع مع مجموعة من الرجال للحديث عن الذكوريّة المُهدَّدة بنصيرات المرأة المرعبات. لم أولِهِ قط اهتمامي، فصديقي ليس مثالاً جيّداً في هذا الموضوع. لم تكن لي في شبابي رباطة الجأش أو المعرفة لملاحقة الفتيات بطريقة ما، فعلتُ ذلك بطيش جروٍ وكانت النتائج غير موفّقة. بقيتُ مخلصاً لسمانثا حتى تلك الليلة التي كانَ من نصيبي أن أخلع دثار بوظة القرين عن مدرّسة الرياضيّات التي لم أرغب بها، لكنّني لستُ فخوراً بهذا الوفاء الذي لم تكافئه، على العكس كنت غبيّاً بتصرُّفي، إضافة إلى كوني مقروناً. وعندما وجدتُ نفسي عازباً من جديد تهيّأتُ للاستفادة من ميّزات الثورة في العادات، كانت قد اختفت استراتيجيّاتُ كسب المرأةِ القديمةُ، فلا أحد يخاف الشيطان، ألسنةَ السوءِ، أو الحملَ غير المناسب، فوضعتُ في التجربة سريرَ بيتي، أسرّةَ الفنادق، بل وحتى نوابض كنبة مكتبي

البريطانيّة. حذّرني رئيسي بجفاف بأنّني سأفقد موقعي حالاً إذا ما تلقى شكاوى من الموظّفات. لم أُبالِ به، لكنّني خطِطتُ لأنّ أحداً لم يطالِب بشيءٍ، أو بالأحرى لم تصل أذنيهِ التقوُّلات. كنا نحجزُ أنا وتيموثي دوان ليالٍ محدَّدة في الأسبوع لنخرج في جولة ليليّة نتبادل المعلومات ونضعُ قوائم بأسماء المرشَّحات، وكان هذا بالنسبةِ إليه رياضةً وبالنسبةِ إليَّ هذياناً. كان صديقي فتىً وسيماً، مُغازِلاً وغنيّاً، لكنّني أرقصُ أفضلَ منه، أستطيعُ أن أعزف سماعياً على عدد من الآلات وأتقِنُ الطبخَ. الغباوات التي تلفتُ انتباهَ بعض النساء. معاً كنّا نعتقد أنّنا لا نُقاوَم، لكنّني أعتقد أنّنا كنّا كذلك لأنّنا نبحثُ عن الكم لا عن النوع، نخرجُ مع أيّةٍ واحدة تقبل دعوتنا، لا أستطيعُ أن أقولَ أنّنا كنّا انتقائيِّين. نعشق في اليوم ذاته فيليبّينيّةً مرحةً وجشعة، نحاصرها باهتماماتنا في سباق سريعٍ لنرى من يكسبُ قلبها وتكون هي متقدِّمة علينا كثيراً فتعلن دونما خجل أنّها تفكّرُ بممارسته مع الإثنين. فشل ذلك الاتفاق السُّلَيماني من المحاولة الأولى، لم نستطع تحمُّل المُنافسة. منذ ذلك الوقت صرنا نتقاسم الفتيات بطريقة مبتذلة، لو عرفن بها ما قبلننا قط. كان عندي في دفتر هواتفي عدد من الأسماء أهتف لهنَّ عادةً، وما من واحدة ثابتة أو موعودة، التدبير الذي كان مريحاً، لكنّه لا يكفيني، إذ ما إن تعبر بي أخرى أهم أو أقل أهميّة حتى أنطلقَ خلفها بالسرعة ذاتها التي سأتخلى فيما بعد عنها. أعتقد أنّني مدفوع بوهم أن أقعَ ذات يوم على الرفيقة المثاليّة، التي قد تبرِّرُ البحثَ، وكما أشربُ النبيذ، على الرغم من أنّه يبلبلُ فرحي، بانتظار الوقوع على القنينة التامّة، أو كما أسوحُ في الصيف، جارياً من مدينةٍ إلى أخرى، في ملاحقةٍ منهكة للوصول إلى المكان الرائع الذي سأكون فيه في غاية الراحة. أبحثُ، وأبحث، لكنّني دائماً أبحثُ خارجَ نفسي.

كان الجنس في تلك المرحلة من حياتي يعادل عنفَ الحرب، كان شكلاً خبيثاً من أشكال المعاشرة، يخلّف عندي بعد كلِّ حساب فراغاً رهيباً. لم أكن أدري وقتذاك أنّني من كلِّ لقاء كنتُ أتعلّمُ شيئاً، وأنّني لا أسير كالأعمى في دوائر، بل في خط حلزونيٍّ صاعد. كنتُ أنضجُ بجهدٍ جبّارٍ، تماماً كما تنبّأت لي أولغا. أنتَ حيوانٌ قويٌّ جدّاً وعنيد، لن تكون لك حياةٌ سهلة، سيكون عليك تحمُّل ضربات كثيرة. هي كانت معلّمتي الأولى فيما سيحدِّد قسماً كبيراً من طبيعتي. فهي لم تجعلني أُمارس في السادسة عشرة من عمري مغامرات جنسيّة وحسب، بل إنّ أهمَّ درس لها كان حول أسس المثنى الحقيقي. علّمتني أن الاثنين في الحبِّ ينفتحان، يقبلان بعضهما بعضاً، ويذعنان. كنتُ محظوظاً، فقليلون هم من يملكون

فرصة تعلّم هذا في الشباب، لكنّني لم أعرف كيف أفهمه فنسيته سريعاً. الحبُّ هو الموسيقى والجنس ليس إلاّ الأداة، هكذا كانت تقول لي أولغا، لكنّني تأخرتُ أكثر من نصف حياتي في العثور على مركزي، ولذلك عانيتُ كثيراً في تعلّم عزف الموسيقى. لاحقتُ الحبَّ بعناءٍ حيث كان باستطاعتي العثور عليه وفي الفرص المعدودة التي ملكته أمام عينيَّ لم أقدر على رؤيته. علاقاتي كانت حانقة وسريعة، لم يكن باستطاعتي أن أذعن لامرأةٍ وأقبلها. هكذا حدست كارمن في المرّة الوحيدة التي تقاسمنا فيها الفراش، لكنّها نفسها لم تكن قد عاشت علاقة كاملة، وكانت جاهلة مثلي، ما من واحدٍ منّا كان بمقدوره أن يقودَ الآخر على دروب الحبّ. هي أيضاً لم تكن قد جرّبت الحميميّةَ المُطْلَقة، فجميعُ أصدقائها أهانوها أو هجروها، لم تكن تثق بأحدٍ وعندما حاولت ذلك معي خيّبْتُها. أنا مقتنعٌ بأنّها حاولت من قلبها أن تستقبلني في روحها كما في جسدها. كارمن حنانٌ، غريزةٌ ورحمة خالصة، لا تكلّفها الرقّةُ شيئاً، لكنني لم أكن مُهيَّأً، وعندما أردت فيما بعد التقرُّبَ منها، كان الوقت قد تأخر كثيراً. من غير المجدي البكاء على الحليبِ المسفوح، كما تقولُ دونيا إنماكولادا، فالحياة تقدِّمُ لنا الكثيرَ من المُفاجآت، وعلى ضوء ما جرى لي ربّما كان هذا هو الأفضل. في تلك المرحلة كانت النساء، كما الثياب أو السيّارة رمز القوّة، تُبدَّلُ دون أن تتركَ أثراً، مثل حباحب هذيانٍ طويلٍ وغير مجدٍ. إذا كانت قد بكت إحدى صديقاتي سرّاً أمام استحالة شدّي باتجاه علاقة عميقة، فهي ليست في ذاكرتي، كما لا أملك قائمة بالرفيقات العرضيّات. لا أحاولُ استحضار وجوه عشيقات زمن الجموح، لكنّني لو أردتُ لما وجدتُ غير الصفحات البيضاء.

تلقّى آلُ مورالِس الرسالةَ التي ستبدِّلُ مجرى حياة كارمن وقرؤوها لها على الهاتف: *آنسة كارمن، أكلِّفك بابني، لأنّ أخاك خوان خوسِه كان يريدُه أن يتربّى في الولايات المتحدة. اسمُ الصغير داي مورالِس، عمره سنة وتسعة أشهر، إنّه صحيح البنية تماماً. سيكون ابناً جيّداً لك وحفيداً جيّداً لجدّيه الكريمين. الرجاء الحضور في لأخذه قريباً. أنا مريضة ولن أعيش كثيراً. تحييك باحترام. تهوي نيغوين.*

ـ هل كنتِ تعرفين أنّه كان لخوان امرأة هناك بعيداً؟ ـ سأل بيدرو مورالِس بصوت متهدِّجٍ نتيجة الجهد للحفاظ على رزانته، بينما إنماكولادا

تعصر منديلاً في المطبخ متردّدة بين الفرح بمعرفة أنّ لها حفيداً آخر والشك الذي زرعه زوجها بأنّه يُشْتَمُّ في ذلك احتيال.

ـ نعم، وكنت أعرف بالابن أيضاً ـ كذبت كارمن، التي لم تتأخّر خمس عشرة ثانية في تبنّي الطفل في قلبها.

ـ ليس لدينا ما يُثبت أن خوان خوسِه هو الأب.

ـ أخي قاله لي على الهاتف.

ـ يمكن للمرأة أن تكون قد خدعته. لن تكون المرّة الأولى التي يتلبّسون فيها عسكريّاً بهذه القصّة. دائماً تُعْرَفُ الأمُّ، لكن لا أحد يستطيع أن يكون متأكّداً من الأب.

ـ إذاً أنت أيضاً لا تستطيع أن تكون متأكّداً من أنّني ابنتك، يا أبتي.

ـ لا تقلّي أدباً معي! وإذا كنتِ تعرفين فلماذا لم تخبرينا؟

ـ لم أبغ أن أشغلكم. اعتقدت أنّنا لن نتعرّف أبداً على الطفل. سأذهب بحثاً عن الصغير داي.

ـ لن يكون سهلاً، يا كارمن. في هذه الحال لن نستطيع أن نجتاز به الحدود مخبّأً في كومة من الخس، كما فعل بعضُ الأصدقاء المكسيكيين مع أبنائهم.

ـ سأحضره، يا أبتي، تستطيع أن تطمئنّ.

أخذت الهاتفَ وهتفت لغريغوري ريفز، الذي لم تتّصل به منذُ زمنٍ طويل، وحكت له القصّة دون مقدّمات، وهي في غاية التأثر والحماس لفكرة أن تصبحَ أمّاً متبنِّيَة، حتى أنّها نسيت أن تظهرَ أيّةَ علامة شفقةٍ على المرأة المحتَضَرَة أو أن تسألَ صديقها كيف سارت أموره خلال كلِّ ذلك الزمن دون اتصال. بعد ستِّ ساعات أعلن عن زيارته لها ليضعها في تفاصيل الأمر، قام خلالها ببعض الاستقصاءات، وكان بيدرو على حقّ، سيكون من الصعب جداً إدخال الطفلِ إلى البلد. التقيا في مطعم جون وسوزان، الذي صار مشهوراً بحيث يظهر اسمه في أدلّة السياحة. لم يتبدَّل الطعام، لكنّهما تعلّقان إلى الجدران بدلَ جدائل الثوم ملصقاتٍ مناصرة للمرأة وصوراً موقّعة من مُنظّرات الحركة النسائية وكاريكاتيرات حول الموضوع، وفي زاويةِ شرفِ الحمّالةَ الشهيرة مدخلة في عصا مكنسة حوّلتها صاحبتا المحل بعدَ سنواتٍ إلى رمزٍ للمحل. وكانت المرأتان قد انتفجتا بنجاحهما المالي وتحافظان دون أيّ تبديلٍ على سلوكهما. كانت

جون على علاقة غراميّة مع الغورو[1] الأكثر طلباً في المدينة، الروماني بالسيسكو، الذي ما عاد يخطب في الحديقة بل في أكاديميّته ذاتها وسوزان ورثت عن أبيها قطعةَ أرضٍ صاروا يزرعون الخضار العضويّ فيها ويربّون بعض الفراريج السعيدة، التي كانت بدل أن تكبر كلّ أربعة في قفصٍ وتتغذّى على المنتجات الكيميائيّة، تدور بحرّيّة تامّةٍ تنقرُ الحبوب الحقيقيّة إلى أن تُنتف لأطباق المطعم. في المكان ذاته يزرع بالسيسكو الماريغوانا دون تربة، ويبيعها كالخبز الساخن، خاصّة في فترة عيد الميلاد. جالسان إلى أفضل طاولة في المطعم بجانب حديقة وحشيّة، كرّرت كارمن على صديقها أنّها ستتبنّى ابنَ أخيها حتى ولو قضت بقيّة حياتها في زراعة الأرز في جنوب شرقي آسيا. لن يكون لي ابن منّي أبداً، لكنَّ هذا الطفل كأنّه كذلك لأنّه يحمل دمَ أخي خوان خوسيه، قالت، وما من مصلحة هجرة في العالم تستطيع أن تمنعني من ذلك. وضّح لها غريغوري بصبرٍ أنَّ التأشيرةَ ليست هي العائق الوحيد، فالاجراءات تمرُّ عبر وكالة تبنٍّ ستفحص حياتها لتتأكّدَ ممّا إذا كانت أمّاً مؤاتية وما إذا كانت تستطيع أن توفّرَ للصغير بيتاً ثابتاً.

ـ سيسألونك أسئلة مزعجة. لن يوافقوا على أن تقضي النهار في الشارع بين الهيبّيين ومتعاطي المخدّرات والمجاذيب والمتسوّلين، وألا يكون عندك دخلٌ ثابتٌ، ضمانٌ صحّيٌ، احتياط اجتماعي وساعات عمل طبيعيّة. أين تعيشين الآن؟

ـ حسناً، أنامُ مؤقّتاً في سيّارتي في صحن دار أحد الأصدقاء. اشتريت «كاديلاك» صفراء من العام 49 تحفة حقيقيّة، يجب أن تراها.

ـ تمام. سيسرّ هذا وكالة التبنّي!

ـ أنها حالة مؤقّتة، يا غريغ. إنّني أبحثُ الآن عن شقّة.

ـ هل أنت بحاجة إلى مال؟

ـ لا. تسيرُ أمور البيع بشكلٍ ممتاز، أربح أكثر من أيِّ شخصٍ آخر في الشارع، وأنفقُ قليلاً. عندي بعضُ التوفيرات في المصرف؟

ـ إذن لماذا تعيشين كالمتسوّلة؟ بصراحة أشكُّ في أنّهم سيعطونك الطفلَ، يا كارمن.

ـ هل تستطيع أن تناديني تامار؟ هذا هو اسمي الآن.

---

(1) الغورو: كلمة سنسكريتية تعني المعلم الروحي الذي يعلم العقيدة الهندوسية.

- سأحاول، لكنّه سيكلّفني جهداً، ستبقين دائماً كارمن بالنسبةِ إليَّ. سيسألون أيضاً عمّا إذا كان عندك زوج، يفضلون الزوجين.

- هل تعرف أنَّهم يعاملون أولادَ الأمريكيين من نساءٍ ڤييتناميات هناك كما يعاملون الكلاب؟ لا يحبّون دمنا. وداي سيكون معي أفضلَ بكثير ممّا في مأوى أيتام.

- نعم. لكن لستُ من يجب أن تُقنعيه. سيكون عليك أن تملئي أوراقاً، تجيبي على أسئلة وتثبتي أن الأمر يتعلّق بابن أخٍ فعلاً. أحذِّرك من أن هذا يستغرقُ شهوراً، وربّما أعواماً.

- لا نستطيع أن ننتظر كلَّ هذا الوقت، فأنا لسببٍ ما هتفتُ لك، ياغريغوري. أنت تعرف القانون.

- لكنّي لا أستطيع أن أقومَ بالمعجزات.

- لا أطلبُ منك معجزات، بل بعض الحيل غير المؤذية لقضيّةٍ صالحة.

وضعا خطّةً. كارمن تخصّص جزءاً من وفوراتها لتقيمَ في شقّة في حيٍّ مُحتشم، وتحاول أن تتخلّى عن البيع في الشارع وتختار الأصدقاء والمعارف كي تلبّي استقصاءات السلطات المخادعة. سألت غريغوري ما إذا كان يتزوّجُ منها في حال كان الزوجُ مطلباً لا غنى عنه، لكنّه أكّد لها مرحاً بأنَّ القوانين ليست قاسيةً إلى هذا الحدّ وأنّه بقليلٍ من الحظّ لن يكون ضروريّاً الذهاب بعيداً. عرضَ بالمقابل مساعدتها بالمال لأنَّ هذه المغامرة ستكون مكلفة.

- قلتُ لك عندي بعض الوفورات. شكراً على كلِّ حال.

- احتفظي بها لإعالة الطفل، هذا إذا تمكّنت من جلبه. سأدفع تذاكر السفر وسأعطيك قليلاً للرحلة.

- ألِى هذا الحدِّ أنتَ غنيٌّ؟

- ما عندي دين، لكنّني دائماً أستطيع أن أستدين.

بعد ثلاثة شهور وإجراءات مضنية في المكاتب العامّة والقنصليّات، رافقَ غريغوري صديقته إلى المطار. تخلّصت كارمن كي تضلّلَ الارتيابات البيروقراطيّة من كل أقنعتها، كانت ترتدي بدلةَ خيّاطٍ لا ظرافة فيها وجمعت شعرها. العلامةُ الوحيدة لنارٍ لم تنطفئ كلّيّاً كان كحل العينين، الذي لم تستطع التخلّي عنه. كانت تبدو أقصر، كبيرة كفايةً في العمر وقبيحة تقريباً. الثديان مرحان، جذّابان تحت بلوزتها الغجريّة، يبدوان

شرفةً تحت السترة الداكنة. لا بدَّ أنَّ غريغوري قَبِلَ أنَّ الشخصيّة الغريبة التي ابتدعتها تفوق كثيراً الصورة الأصيلة ووعد نفسه ألاّ يعودَ ليقترحَ تغييرات في الأسلوب. لا تخف، ما إن أملك صغيري معي حتى أعودَ لأصبح نفسي، قالت له كارمن خجلى. كانت تنظرُ إلى نفسها في المرآة فلا تتمكّن من العثور على نفسها. كانت تحمل معها في الحقيبة التنين الذي أهداه لها غريغوري في اللحظة الأخيرة،قال لها: كي يحالفك الحظ، لأنّكِ ستحتاجينه. كذلك كانت تحمل معها سلسلة من الوثائق، ثمار الإلهام والفطنة، صوراً ورسائل من أخيها خوان خوسيه، التي كانت تفكّرُ في استخدامها دون توقُّفٍ عند قواعد النزاهة. كان ريفز قد اتصل بليو غالوبّي، واثقاً من أنَّ صديقه كان يعرف كلَّ العالم ولا توجدُ عوائق يمكن أن توقفه . أكّدَ لكارمن أنّها تستطيعُ أن تثقَ بهذا الإيطالي التشيكاغي الظريف، على الرغم من الشائعات التي تشير إلى أنّه قوّاد. يتّهمونه بأنّه جمع ثروةً من السوق السوداء، لأنّه لم يعد إلى الولايات المتّحدة. الحقيقة كانت شيئاً آخر، فالرجل أنهى خدمته العسكريّة منذُ بعض الوقت ولم يبق في ڤييتنام طمعاً بالمال السهل بل حبّاً بالفوضى والريبة، فقد وُلِدَ لحياةٍ من المفاجآت وهناك كان جوُّه. لم يكن معه مال، كان لصّاً لواه قلبُه الكريم نفسه. في سنوات التجارة الخارجة على القانون كسب مالاً كثيراً، لكنَّه أنفقه على إعالة أقرباء بعيدين، ومساعدة أصدقاء في كارثة وفتح جيبه حين كان يرى محتاجاً. منحته الحرب فرصةً أن يجمع مالاً من دسائس غامضة، كانت من جهتها تجبره على إنفاقه في أعمال شفقة لا تُحصى. كان يعيش في سردابٍ تتكدَّسُ فيه صناديق بضاعته، المنتجات الأمريكيّة يبيعها للڤييتناميين، وغرائب شرقيّة يبيعها لأبناء بلده، بدءاً من زعانف سمك القرش لعلاج العجز وحتى جدائل الفتيات الطويلة لصنع الشعر المستعار، والمساحيق الصينيّة للأحلام السعيدة وتماثيل الآلهة الصغيرة المصنوعة من الذهب والعاج. أقام في زاوية موقدَ غاز، حيثُ اعتادَ أن يُحَضِّرَ وصفاتٍ صقليّة لذيذةً عزاء لحنينه ولتغذيةِ بضعة عشر طفلاً متسوّلاً يستمرُّون في العيش بفضله. أميناً لما وعدَ به غريغوري ريفز، كان بانتظار كارمن في المطار مع باقة زهر ذابلة. تأخَّر في العثور عليها، لأنّه كان ينتظر دوّامةً من التنورات والأطواق والأساور ، ووجدَ بالمقابل سيّدةً عاديَّةً أنهكها طول السفر واستنفدها الحرّ. هي أيضاً لم تعرفه لأنَّ غريغوري وصفه لها كرجلٍ مافيا لن تُخطئه، بينما بدا لها أنّها أمام تروبّادور هاربٍ من إحدى اللوحات، لكنّه كان يحمل ورقةً مقوّى عليها اسم تامار وهكذا تعارفا في الحشد: لا تهتمّي بشيء، أيتها الرائعة،

من الآن فصاعداً أنا أتحمّل مسؤوليّتك ومسؤوليّة كلّ مشاكلك، قال لها مُقبّلاً خدَّيها. وفى بكلمته. عليه أن يقسمَ أمام كاتبٍ بالعدل أنَّ تهوي نغوين ليس لها أسرة، وأن يُقلدَ خطَّ خوانٍ خوسِه موراليس في رسائلٍ مفتعلة يشيرُ فيها إلى حمل خطيبته، يركّبَ صوراً يظهران فيها آخذاً الواحد منهما الآخر من ذراعه في أماكن مختلفة، ويزوّرَ وثائقَ وخواتم، يتوسّل أمام موظّفين غير قابلين للفساد، ويرشو القابلين للرشوة،وهي الإجراءات التي كان يقوم بها بطبيعيّة من لعب دائماً في هذه المياه. كان رجلاً نجيباً، فرحاً وأنيقاً، بملامح متوسطيّة ثابتة وشعرٍ أسود طويل يربطه من الخلف على شكل ذيلٍ قصير. طلبت منه كارمن أن يرافقها لزيارة تهويّ نغوين لأوّلِ مرّةٍ، إذ لكثرة الاستعجال بتلك اللحظة والاستعداد للّقاء فقدت جرأتها المعتادة وأمام مجرَّد فكرة رؤية الطفل تخونها ركبتاها. كانت المرأةُ تعيشُ في غرفةٍ مستأجرة في بيت كبير يبدو أنّه كان يعود قبل الحرب إلى عائلة من التجار الأثرياء، لكنّه الآن مقسّمٌ إلى غرفٍ لقرابة عشرين مستأجراً. كان هناك فوضى بين الناس في أعمالهم، أطفال يحومون، مذياعات وتلفزيونات ضاجّة، بحيث أنّهما عانيا في العثور على الغرفة التي يبحثان عنها. فتحت لهما امرأة من عدم، ظلّ خفيف على رأسه منديل غير محدَّد اللون. كانت تكفي نظرة واحدة حتى يعرفا أنّ تهوي نغوين لم تكذب، كانت مريضة جدًّا. لا شكّ أنّها دائماً كانت قصيرة، لكنّ المرض قلّصها فجأة، كما لو أن هيكلها صغر دون أن يمنح الجلد وقتاً ليتماشى مع الحجم الجديد، ومن المحال تقدير عمرها لأنّ لها ملامح ألفيّة في جسد مراهقة. حيّتهما بتحفّظٍ شديد، واعتذرت لوضع الغرفة غير المريح ودعتهما للجلوس على السرير، وفي الحال عرضت عليهما الشاي ودون أن تنتظر جواباً راحت تسخّن ماءً على الموقد الصغير الموضوع على الكرسيّ الوحيد عندها. كان يشاهد في زاوية مذبح بيتيّ مع صورة لخوان خوسِه موراليس، وتقدمات أزهار، وفاكهة وبخور. سأحْضِرُ داي، أعلنت ثمَّ ابتعدت بخطواتٍ بطيئةٍ. شعرت كارمن بضربات مجذافٍ في صدرها وراحت ترتعش على الرغم من الرطوبة الحارة التي كانت تتقطّر على الجدران مغذّية زهرة ضاربة للخضرة في الزوايا. شعر ليو غالوبّي أن تلك اللحظة هي أكثف لحظات حياة تلك المرأة، وأحس بدافع لأن يسندها بين ذراعيه لكنه لم يجرؤ على لمسها.

دخل داي موراليس ممسكاً بيد أمّه. كان طفلاً ناحلاً وأسمر، طويلاً كفاية بالنسبة لسنتي عمره، أجعد الشعر مثل فرشاة، وجهه جدّيّ تماماً،

حيث العينان اللوزيتان السوداوان الخاليتان من الأهداب المرئيّة، تشكلان الملمحَ الشرقيَّ الوحيد. كان شبيهاً بالصورة التي عند إنماكولادا وبيدرو مورالِس لخوان خوسِه في العمر ذاته، إلاّ أنَّ هذا لم يكن يبتسم. حاولت كارمن أن تنتصبَ على قدميها، لكنَّ روحها خانتها فسقطت جالسةً على السرير. قرَّرت بيقينٍ جنونيٍّ أن ذلك المخلوق كان ذاك الذي ذهب في مجرور مطبخٍ أولغا قبلَ عشر سنوات. الطفل المخصَّص لها منذ بداية الأزمان. فقدت للحظة الشعور بالحاضر وتساءلت بضيق ماذا كان يفعلُ ابنها في تلك الغرفة البائسة. قالت تهوي شيئاً كان له وقع الزغردة فتقدَّم الصغير خجلاً وصافح ليو غالوبّي. صحّحت له تهوي بصوت عصفورٍ آخر فعاد باتجاه كارمن راسماً تحيّة مماثلة، فالتقت عيونهما وبقيا واحدهما يراقب الآخر لثوانٍ سرمديّة، كما لو أنّهما يتعرّفان بعضهما على بعض بعد غيابٍ طويل. أخيراً مدَّت ذراعيها، رفعته ووضعته على ركبتيها فاجّةً ساقيها. كان خفيفاً كقطٍّ. مكثَ داي ساكناً، صامتاً ينظر إليها بوقار.

ـ هي منذُ الآن أُمُّكَ ـ قالت تهوي نْغوين بالإنكليزيّة ثمّ كرَّرته بلغتها ليفهمها الطفل.

قضت كارمن مورالِس أحدَ عشر أسبوعاً تقوم بإجراءاتٍ تبنّي ابن أخيها الرسميّة وانتظار التأشيرة لتحمله معها إلى بلدها. كان باستطاعتها أن تقوم بذلك في وقتٍ أقلّ، لكنّها لم تكشف عن ذلك قط. ليو غالوبي الذي استقتل في البداية في مساعدتها لحلّ العوائق المستعصية ظاهريّاً، رتّب في الساعة الأخيرة الأمر بحيث يعقّد موضوع الأوراق ويؤخِّر الإجراءات الأخيرة، وشبكها في كذبة من الحجج والمط لم يكن هو نفسه يعرف تفسيرها. كانت المدينة أغلى من المتصوَّر، ونفدت أرصدتها. أرسل غريغوري ريفز إليها حوالةً مصرفيَّةً تبخَّرت في الرشاوى ونفقات الفندق، وحين همَّت باللجوء إلى حساب توفيراتها، اندفع غالوبّي لنجدتها. كان قد بدأ تجارةً جديدةً بالعاج، قال، وتفيض عن جيبه أوراقٌ نقديّةٌ ، ولم يكن لها أيُّ حقٍّ في رفضِ مساعدته، ذلك لأنّه يفعل ذلك لأجل خوان خوسِه مورالِس، صديق الروح، الذي طالما أحبّه ولم يستطع وداعه. في الحقيقةِ كانت تظنُّ أنَّ غالوبّي لم يسمع أحداً يتكلّم عن أخيها-قبلَ أن يطلب منه غريغوري أن يتفضَّلَ بنجدتها، لكن لم يناسبها أن تتحقَّق من الأمر. لم تبغِ أن تتركه يدفع عنها حسابَ الفندق، لكنّها قبلت أن تذهبَ لتعيش في بيته، لتقلّص النفقات. انتقلت تحمل معها حقيبةً وكيساً فيه حبات وحجارة، راحت تشتريها في لحظات فراغها، بما في ذلك

مستحاثّات حشراتٍ من العصر الحجري الحديث. لم تتصوّر أن هذا الرجل الذي رأته يستعمل سيّارة رجلٍ مهمٍّ وينفقُ ملءَ يديه، ينزل في نوعٍ من سراديب المرافئ، متاهة من الصناديق والرفوف المعدنيَّة حيث يتراكَم ما هبّ ودبَّ. بنظرة سريعةٍ رأت سريرَ ميدانٍ، صناديقَ كتب، علبَ اسطواناتٍ وأشرطة صوتيّة، وجهاز موسيقى رهيب وتلفزيون محمول مع منشر غسيل على شكل هوائيٍّ. أطلعها غالوبّي على المطبخ وبقيّة وسائل الراحة في البيت، وقدَّمها للأطفال الذين يأتون في تلك الساعة لتناول الطعام، محذِّراً إيّاها بألاّ تعطيهم نقوداً ولا تترك محفظة نقودها في متناول أيديهم الشرهة. في فوضى ذلك النوع من المخيّم كان الحمّام مفاجأة: غرفة من الخشب لا عيب فيها، مع حوضٍ ومرايا كبيرة ومناشف حمراء موبَّرة: هذا من أكثر ما مرَّ بيديّ قيمةً، لا تعرفين كم من الصعب الحصول على مناشف جيِّدة، ابتسم المضيفُ بافتخار. أخيراً قادَ كارمن إلى نهاية السردابِ الذي عزل فيه زاوية واسعة بصناديق وضع بعضها فوق بعض وحجابٍ كوروماندِيلي[1] مدهشاً بمثابة الباب. رأت كارمن في الداخل سريراً عريضاً مغطّى بناموسيّة بيضاء، مع أثاث دقيق مدهون باللك الأسود رسم عليه باليد بلشوناتٍ وأزهار كرز، رأت سجادات حريريّة، وقماشاً مطرَّزاً يغطّي الجدران وثريّات صغيرة من ورق الأرز تنشر نوراً وفيراً. كان غالوبّي قد أعدَّ غرفة إمبراطورة صينيّة. هذا سيكون ملاذك لأسابيع عدّة، لم يكن يصل إلى هناك صخب الشارع أو دويّ الحرب. كانت تتساءل أحياناً ما الذي تحتويه تلك الصناديق الغامضة التي تحيط بها، تتصوَّر أشياء نفيسة، كل شيءٍ وله قصَّته، وتشعر بالهواء مليئاً بروح الأشياء. في ذلك المكان عاشت مرتاحةً وبرفقة حسنة، لكنَّها مستنفدة بقلق الانتظار.

ـ صبراً، صبراً ـ كان ينصحها غالوبّي حين يراها مهتاجةً ـ فكِّري أنّه لو كانٍ داي ابنك لكان عليكِ أن تنتظري تسعةَ أشهر. تسعة أسابيع ليست شيئاً.

كانت كارمن في ساعات الفراغ الطويلة، التي لا تزور فيها تهوي والطفلَ، تتيه في الأسواق تشتري موادّاً لمجوهراتها، وترسم تصميماتٍ جديدةً مستلهَمَةً من تلك الرحلة الغريبة. بدا لها من غير معقولٍ أن تجوب، وسط صراع حربيٍّ له تلك الأبعاد، البازراتٍ كسائحة. وعلى الرغم من أنَّ

(1) كورماندِيلي: نسبة إلى شاطئ كورماندِيل في خليج البنغال.

قسماً كبيراً من القوّات الأمريكيّة انسحبَ كانت المعركة في أوجها. كانت تتصوّرُ المدينةَ ميداناً عسكريّاً هائلاً عليها أن تبحث فيه عن ابن أخيها زاحفة بين الجنود والخنادق، وبدلَ ذلك كانت تتنزّهُ في شوارعَ ضيّقةٍ، تساوم وسط حشودٍ مختلطة غريبةٍ ظاهريّاً عن الحرب. إذا ما تكلّمت مع الناس ستكون لك وجهة نظرٍ مختلفة، قال غالوبّي، لكن وبما أنّها لم تكن تستطيع التواصلَ إلا بالإنكليزيّة فقد كانت معزولة عن الشعب. دون أن تتقصّد الأمر انتهت إلى تجاهل الواقع وغاصت في المسألتين الوحيدتين اللتين تهمّانها: الصغير داي وعملها. بدا عقلها يأخذُ أبعاداً أخرى، فآسيا دخلت في أعماقها، غزتها، سحرتها. فكّرت أنّه ما يزال أمامها عالمٌ كثير عليها أن تعرفه، وإذا كانت ترغب بنجاحٍ حقيقيٍّ في مهنتها وشيءٍ من الضمان في المستقبل، كما كانت قد قرّرتْ منذ أن قبلت تبنّي داي، فعليها أن تسافر في كلّ عام إلى أماكنَ بعيدةٍ وغريبة بحثاً عن موادّ نادرة وأفكارٍ جديدة.

ـ سأرسلُ إليك كُرَيّاتٍ، لي اتصالاتي في كلّ مكان، أستطيع الحصول على أيّ شيءٍ ـ عرض غالوبّي الذي لم يفهم طبيعة عملها، وكان قادراً على التكهّن بإمكانيّاتها التجاريّة.

ـ عليَّ أن أختارها بنفسي. فكلُّ حجر، صدفة، قطعة خشب أو معدنٍ توحي إليَّ بشيءٍ مختلف.

ـ لن يستخدمَ أحدٌ هنا الأشياء التي ترسمينها. لم أرَ قط امرأة أنيقة بقطع من عظم وريش في أُذنَيْها.

ـ هناك يتقاتلون عليها. النساء يفضلن أن يجعن ويشترين زوجاً من الحلق كهذا، وكلّما كانت أغلى كلمّا أعجبتهن أكثر.

ـ على الأقل ما تقومين به شرعيّ ـ ضحكَ غالوبّي.

كانت الأيّامُ تبدو لها طويلة جدّاً، يستنفدها الحرُّ والرطوبةُ. لا تستخدم لباس السيّدة إلا في الاجراءات الضروريّة، لكنّها في الأوقات الأخرى ترتدي دثاراتٍ قطنية بسيطة وتنتعل نعلي فلاّحة اشترتهما من السوق. تقضي ساعات طويلة في القراءة والرسم، يرافقها دويُّ مراوح السرداب الكبيرة. يصل في الليل غالوبّي محمّلاً بأكياس المؤونة، يغتسل، يرتدي بنطلوناً قصيراً، يضع اسطوانة ويبدأ الطبخَ. وسرعان ما يظهر بعض الندماء، جميعهم أطفالٌ تقريباً، يتكاثرون ويملؤون العنبر بثرثراتهم الخفيفة وضحكاتهم وحين ينتهون من طعامهم يذهبون دون وداع. كان غالوبّي يدعو أحياناً أصدقاء أمريكيين، جنوداً أو مراسلين

صحفيّين، يمكثون حتى ساعة متأخرة يشربون ويدخّنون الماريغوانا. جميعهم قبلوا وجودَ كارمن دون أسئلة، كما لو كانت منذ البداية جزءاً من حياة غالوبّي. يدعوها أحياناً لتناول العشاء في الخارج، يرافقها في أوقات فراغه إلى المدينة، بهدف إطلاعها على مختلف الجوانب، بدءاً من قطاع الحياة الشعبية الحقيقيّة والمضاربة وحتى مناطق سكن الأوروبّيين والأمريكيين التي يعيشون فيها على المكيفّات الهوائيّة وماء الزجاجات. سنشتري لك ثوبَ ملكة، عندنا عشاء في السفارة، أعلن لها ذات يوم، وحملها إلى أكثر المراكز التجاريّة أناقة تاركاً في يدها رزمة أوراقٍ نقديّة. شعرت بالضياع، فهي لسنوات طويلة خاطت ثيابها بنفسها ولم تكنْ تظنُّ أن بدلة يمكن أن تكلف مبلغاً بهذا القدر. وعندما عاد صديقُها الجديد في طلبها بعد ثلاث ساعاتٍ وجدها جالسة على درجة الدكّان وحذاؤها في يدها، تصبُّ لعنات الخيبة.

ـ ماذا حدث؟

ـ كلُّ شيءٍ رهيب وغالٍ جدّاً. النساء اليوم ممسوحات. وهاتان البطّيختان لا تدخلان في ثوب. ـ دمدمت مشيرةً إلى ثدييها.

ـ يسعدني ذلك ـ ضحك غالوبّي ورافقها إلى الحي الهندي حيث حصلا على ساري حرير رائع جَبَسيّ اللون مطرّز بالذهب لفّت كارمن نفسها به بسهولة كبيرة، شاعرة بالسلام مع نفسها أكثر ممّا بالملابس الفرنسيّة الخاصّة بالنساء الناحلات.

حين دخلت في تلك الليلة إلى قاعة السفارة ميَّزت بين الحشود الرجلَ الذي طالما فكّرت به ولم تكن تعتقد أنّها ستعود لتراه أبداً. كان يتحدّث وكأس من الوسكي في يده، يرتدي السموكنغ، رماديّ الشعر، لكن بالوجه ذاته الذي كان له من قبل، إنّه توم كلايتون. كان الصحفيّ قد قطع مقالاته السياسيّة آنيّاً ليذهب إلى ڤييتنام ويؤلفَ كتاباً، يقضي من الوقت في الحفلات والنوادي أكثر ممّا في الجبهة، أميناً لفكرته القائلة بأنَّ الحرب تدار في الحقيقة داخل الصالونات. كان يستطيع الدخول إلى حيث لا يُرحَّبُ بأيِّ مراسلٍ صحفيٍّ، ويعرف الناس المناسبين في القيادة العسكريّة العليا، الهيئة الدبلوماسيّة، حكومة المدينة وقيادتها المدنيّة، وللسبب ذاته شدّه سحر تلك المرأة التي لم يرها من قبل. افترض نظراً للون بشرتها الزيتونيّ وزينة العينين الثقيلة والساري الباهر أنّها قادمة من الهند. لاحظ أنّها تراقبه بدورها، فبحث عن فرصة للاقتراب منها. شدّت كارمن على يده وقدّمت نفسها بالاسم الذي تستخدمه دائماً: تامار. رسمت ردّة

فعلها مرّاتٍ كثيرةً متصوّرة عودتها لرؤية ذلك الحبيب الأوّل، الحاسم في حياتها، الشيء الوحيد الذي لم تفكّر به قط هو أنّه لنّ يخطر لها ما تقوله له. كانت السنوات قد محت حنقها، اكتشفت مدهوشة أنّها لم تكن تشعر نحو ذلك الرجل المتعجرف الذي لم تتمكّن من تذكّرهِ عارياً، إلاّ باللامبالاة. سمعته يتكلّم مع غالوبّي بينما راح يتفحّصُها شزراً، ذاهلاً بلا شك وتعجّبت لكثرة ما تمنّته. لم تتساءل، كما فعلت كثيراً من المرات في وحدتها، كيف كان سيكون طفلهما، لأنّها ما عادت تتصوّر طفلاً آخر لها غير داي. تنفّست بنوعٍ من الراحة حين تأكّدت أنّه لم يعرفها، كما أحسّت باشمئزازٍ عميقٍ من الزّمن الضائع في أحزان الحبّ.

ـ لم أركِ من قبل من أين أنتِ قادمة؟ ـ سألها توم كلايتون وقد استدار نحوها.

ـ قادمة من الماضي ـ ردّت كارمن وأدارت له ظهرها لتذهب إلى الشرفة وتنظرإلى المدينة التي كانت تتلألأ تحت قدميها، وكأنّ الحرب في مكانٍ آخر.

عند العودة إلى السرداب جلست كارمن وليو غالوبّي تحت المروحة ليناقشا السهرة دون أن يشعلا الثريّا، في شبه ظل أنوار الشارع. قدّم لها جرعة فسألته ما إذا كان يوجدُ عنده بالمصادفة علبة حليبٍ مكثّف. فتح لها ثقبين برأس السكين وجلست على الأرض على بعض التكآت لتمتصّ الحلوَ، عزاء لحظات الحرج الكثيرة في حياتها. أخيراً تجرّأ وسألها عن كلايتون، قال بأنه لاحظ شيئاً غريباً في موقفها خلال لقائهما. وعندئذٍ حكت له كارمن كلّ شيءٍ دون أن تحذف أيَّ تفصيل، كانت المرّة الأولى التي تحدثت فيها عن تجربتها في مطبخ أولغا، عن الألم والخوف، عن الهذيان في المشفى والمطهر الطويل تكفيراً عن خطيئة لم ترتكبها وحدها، لكنه رفض المشاركة بها. ومن حديثٍ إلى آخر انتهت بأن كشفت له عن حياتها كاملة. طلع الفجر وهما ما يزالان يتكلّمان بنوع من التنفيس. فقد انكسر سدُّ الأسرار والبكاء الوحداني، واكتُشفت متعة فتح الروح أمام نجيٍّ محتشم. ومع آخر جرعة حليب مكثف تمدّدت متثائبة ميتةً من التعب، ثم انحنت فوق صديقها الجديد ولامست جبينه بقبلة خفيفة. أخذها غالوبّي من معصمها وشدّها إليه، لكنَّ كارمن أبعدت وجهها فضاعت الحركة في الهواء.

ـ لا أستطيع ـ قالت.

ـ ولماذا لا؟

ـ لأنّني ما عدتُ وحدي، صار عندي ولد.

في تلك الليلة استيقظت كارمن مع الفجر وتراءى لها ليو غالوبّي بجانب الحجاب الكوروماندیلي، يراقبها، لم يكن الصبح قد أضاء تماماً وقد تكون الرؤى جزءاً من حلمها. كانت غارقة في الكابوس ذاته الذي لاحقها سنوات وسنوات، لكنَّ توم كلايتون لم يكن هناك هذه المرّة والطفل الذي تمدّ له ذراعيها لم يكن رأسه مغطّى بكيس من الورق، فقد ميّزته هذه المرّة بجلاء، كان له وجه داي.

ارتاحا للتعايش في رغدٍ هادئ، مثل حياة زوجيّة مضى عليها سنوات. تأقلمت كارمن شيئاً فشيئاً مع الأمومة، كانت تخرج الصغير في نزهات هي في كلِّ يوم أطول، تعلّمت بعض الكلمات الفييتناميّة وعلّمته أخرى بالإنكليزيّة، اكتشفت ذوقه، خوفه، قصص الأسرة. حملتها تهوي في رحلةٍ ليومين إلى الريف لزيارة أقربائها ليودّعوا داي. أصرّوا على أن يأخذوا الطفلَ على عاتقهم، مذعورين من فكرة إرسال واحدٍ منهم إلى الجانب الآخر من البحر، لكنَّ تهوي كانت واعيةً بأن ابنها سيبقى هناك ابن زنى ودم مخلوط، مواطناً من الدرجة الثانية، فقيراً دون إمكانيّات للنهوض. تحدي التأقلم في أمريكا لن يكون سهلاً، لكن على الأقل سيكون أمام داي فرصٌ أفضل من شغلِ قطعة أرضٍ شيخ العائلة. أصرَّ ليو غالوبّي على مرافقتهم لأن الوقت لم يكن مناسباً لأن تسير امرأتان وطفل دون حماية. تأكدت كارمن من شيءٍ تعرفه منذُ الطفولة وبرهنت عليه جون وسوزان مرّات كثيرة، هو أنَّ النساء والرجال يوجدون في المكان ذاته والوقت عينه لكن بأبعادٍ مختلفة. كانت تعيشُ ناظرة من فوق كتفها إلى الوراء، حذرة من أخطارٍ حقيقيّة وخياليّة، في وضعيّة دفاعيّة مستمرّة، باذلة ضعف جهد أيِّ رجلٍ للحصول على نصف الفائدة. ما كان بالنسبة إليهم مسألة تافهة ولايستحقُّ التفكيرَ ثانيةً، كان بالنسبة إليها خطراً يتطلّبُ حساباتٍ واستراتيجيّاتٍ. شيءٌ بسيطٌ كالنزهة يمكن أن تعتبره تحريضاً، دعوة للكارثة. ناقشته مع غالوبّي، ففوجئَت بأنَّه لم يفكِّر قط بهذه الاختلافات. كان أقرباء داي فلاّحين فقراء وارتيابيين، استقبلوا الغريبين بنظرة كراهية، على الرغم من التوضيحات المطوّلة التي قامت بها تهوي نْغويّن. كانت المريضةُ تنهار بسرعة متصاعدة، كما لو أنَّها أبقت السرطان على الحدِّ حتى عرفت كارمن، وحين تأكّدت أنَّه في أيدٍ أمينة أعلنت هزيمتها. كانت تودِّع دونما مبالغة في حركات، راحت تبتعد قبل موتها بنعومة كي يبدأ داي نسيانها، كما لو أنَّ أمَّه لم توجد قط، هكذا سيكون الفراق محتملاً أكثر. شرحت ذلك لكارمن برقّةٍ فلم تجرؤ على

مناقضتها. كثيراً ما كانت تهوي تطلبُ منها أن تبقى مع داي ليلاً: فأنا لست بحالة جيّدة تماماً وأشعر بالراحة وحدي، لكنّهما ما أن ينطلقا حتى تشيح بوجهها لتخفي دموعها وحين كان يعودُ ابنها تتلألأ عيناها. لا تكاد تستطيع السير، فالألم دائم الحضور، ومع ذلك لا تشكو. تخلت عن أدوية المشفى التي كانت تتركها في حالة ذهول وغثيان، دون أن تريحها وتستشير عجوزاً يعالج بالوخز بالإبر. رافقتها كارمن عدّةَ مرّاتٍ إلى تلك الجلسات الغريبة في غرفة بائسة ومظلمة تفوح منها رائحة القرفة، يعالج فيها الرجلُ مرضاه. كانت تهوي، المستلقية على حصيرةٍ ضيّقةٍ والإبر مغروزة في أماكن مختلفة من جسمها المضنى، تغلقُ عينيها وتغفو. وعند العودة كانت كارمن تساعدها على الاستلقاء، وتُحضّرُ لها غليون أفيون وحين تراها في حالة إنهاكٍ من المخدِّر تحمل الطفلَ لتناول المثلجات. في النهاية لم يعد باستطاعة المريضة أن تنهض فانتقل داي كلّيّاً إلى العنبر، حيث كان يشاطر أمّه الجديدة السرير الصينيّ الكبير. تعاقدَ الإيطاليُّ مع امرأة للعناية بالمحتضَرَة، يحمل في سيّارته معالِج الوخز بالإبر ليعالجها يوميّاً. كانت تهوي نْغويّن تسألُ بقلقٍ متنامٍ عن سير الأوراق، فهي تريد أن تتأكّد من وصول داي سليماً معافى إلى أرضِ أبيه فكلّ تأخير يضيف إليها عذاباً جديداً.

وذات أحدٍ حملوا الطفل ليودِّع أُمّه فقد حُلّت التعثُّرات الأخيرة، وظهر مسجّلاً كابن قانونيٍّ لكارمن مورالِس، صار معه جواز سفرٍ مع التأشيرة المطلوبة وفي اليوم التالي سيشرع بالسفر إلى أمريكا، حيث سيغرس جذوراً أخرى. تركا تهوي وحيدةً مع الطفل عدَّة دقائق. جلس داي على السرير مع إحساسٍ بأنَّ تلك كانت لحظة حاسمة وهكذا كان، لأنه بعد سنوات كثيرة حين أصبح معجزةً في الرياضيّات وصار يجري لقاءات صحفيّة في مجلات علميّة، حكى لي بأنّ الذكرى الحقيقيّة الوحيدة من طفولته في ڤييتنام هي امرأة خفيفة بعينين ملتهبتين كانت تقبّله على وجهه وتُسلمه صرّة صفراء. أطلعني على ذلك الشيء، ألبوم صورٍ ملفوف بلفحة حرير. انتظرت كارمن وغالوبّي على الطرف الآخر من الباب إلى أن نادتهما المريضةُ، وجداها مستلقية على الوسادة، وديعةً ومبتسمة. قبّلت الطفلَ لآخر مرّةٍ وأومأت مشيرة إلى غالوبّي أن يأخذه. جلست كارمن بجانبها، أمسكت يدها بينما دموع حارّة راحت تجري على خدّيْها.

ـ شكراً، يا تهوي. أعطيتني أكثر ما رغبتُ به في حياتي. لا تهتمّي، سأكون أمّاً صالحة له، مثلك، أُقسم لك.

ـ يفعل الإنسان ما يستطيع ـ قالت بنعومة.

فيما بعد بقليل، وبينما أسرة مورالِس تحتفل بوصول داي إلى أمريكا، كان ليو غالوبّي يرافق جثمان تهوي نْغويّن في طقس جنائزيٍّ بسيط. هذه الأسابيع الأحد عشر بدّلت مصائر عددٍ من الأشخاص، بمن فيهم ذلك الفضوليّ التشيكاغي، الذي يشعرُ منذُ أيّامٍ بألمٍ أخرسَ وسطَ صدره، هناك حيث كان يؤوي روحاً لا مبالية ومتبجّحة.

كان داي نابض تجديدٍ في حياة كارمن مورالِس التي نسيت صدودَ الحبّ الماضية، والعوز الاقتصادي، الوحدة والتردّد. ظهر المستقبلُ أمام عينيها واضحاً جلياً كما لو أنّها تراه على شاشة. ستكرّس نفسها لذلك الطفل، تساعده على النمو، تأخذه من يده كي تجنّبه العثرات، تحميه من كلّ معاناة محتملة، بما في ذلك الحنين والحزن.

ـ أعتقد أنّ أوّل ما يجب عمله هو تعميد هذا الصُيَيْني كي يصير واحدا منّا ولا يبقى مسلماً ـ ارتأى الأب لارّاغيبِل العجوز في حفل الاستقبال، وهو يعانق الطفل بالرقة التي كانت دائماً مختبئة في جسد الفلاّح الباسكي الضخم، ولم يجرؤ على التعبير عنها في شبابه. ومع ذلك تدبّرت كارمن الأمر لتأجيل هذا التعميد، لم تكن تبغي أن تعذّب داي بكل تلك التبدُّلات، ثم إنّها كانت ترى أن البوذيّة مذهب محترم وربّما أكثر احتمالاً من العقيدة المسيحيّة.

نفذَت الأم الجديدةُ الطقوس العائليّةَ الضروريّة، قدّمت ابنها لأقربائها وأصدقاء الحيّ واحداً واحداً وحاولت أن تعلّمه بصبرٍ أسماء جدَّيه الجديدين وأبناء أعمامه الذين لا يُحصون، والصعبة اللفظ، لكن داي كان يبدو مذعوراً، لا ينبس بكلمة واحدة، يقتصر على المراقبة بعينيه السوادوين، دون أن يفلت يدَ كارمن. أيضاً حملته إلى السجن ليرى أولغا، المتهمة بممارسة السحر الأسود، لترى ما إذا كانت تخطر لها طريقة تجعله يأكل، لأنّه منذ خروجه من بلده لا يتغذّى إلاّ على عصير الفاكهة، كان ينحل وعلى وشك أن يتلاشى مثل تنهيدة. كانت كارمن وإنماكولادا على أحرّ من الجمر. استشارتا طبيباً، أعلن بعد فحوصاتٍ دقيقة أنّه بصحة جيّدة ووصف له فيتامينات. جهدت الجدّة المتبنِّيَةُ في تحضير أطباقٍ مكسيكيّةٍ آسيويّةِ المذاق وتصرُّ على حمله لابتلاع مقوّي زيت كبدِ البكلاء الذي مرمرت به أولادها الستة في طفولتهم، لكنّ شيئاً من هذا لم يعطِ نتيجة.

- يحنُّ إلى أُمِّهِ - قالت أُولغا ما إن رأته عبر قضبان قاعة الزيارات.
- البارحة أعلموني أنّ أمّه ماتت.
- اشرحي للصغير أنّها إلى جانبه، وإن كان لا يستطيع رؤيتها.
- إنّه صغيرٌ جدّاً، لن يفهم هذا، فالأطفال في هذه السنِّ لايفهمون الأفكار المجرّدة. ثمَّ إنّني لا أريدُ أن أقحم عقله بالشعوذات.
- هيه، يا صغيرة، أنت لا تعرفين شيئاً من شيء - تنهّدت الطبيبة الشعبيّةُ - الموتى يمضون آخذين بأيدي الأحياء.

تكيّفت أُولغا مع السجن بالمرونة ذاتها التي كانت تقيمُ فيها في كلِّ محطّة من محطّات الشاحنة المرتحلة، كما لو أنّها ستقيم هناك إلى لأبد. لم يؤثّر السجنُ على معنوياتها الطيّبة أبداً، فهو لا يكاد يكون أكثر من عائقٍ صغير، الشيء الوحيد الذي أغاظها هو أنّ الاتهامات كانت مزيّفة، فهي لم تهتم قط بالسحر الأسود، لأنّه ليس تجارة جيّدة، وتكسب من مساعدة زبائنها أكثر بكثير من لعنة أعدائهم. لم تخف على سمعتها، بالعكس فهذا الظلم بالتأكيد سيزيد من شهرتها، لكنّها تفكر بقططها، التي كلّفت بها إحدى جاراتها. أكّدَ لها غريغوري ريفز أنّه ما من مُخَلّفٍ سيصدِّقُ تأثيرات بعض الطقوس السحريّة الضارّة، لكن عليها أن تحاول مهما كلّف الأمر أن تتجنّب الكشفَ عن طبيعة تجارتها الحقيقيّة، لأنَّ القانون في هذه الحال لا يرحم. أذعنت لإتمام محكوميّتها بحشمة دون إثارةِ الكثير من الضجيج، لكنَّ الوداعة لم تكن فضيلتها الأساسيّة فحوّلت في أقلِّ من أسبوع زنزانتها إلى امتدادٍ لعيادتها البيتيّة الغريبة. لم ينقصها زبائن. كانت السجينات الأخريات يدفعن لها عن نصائح الأمل، والمسادات العلاجيّة، التنويم المغناطيسي المهدِّئ، والتعاويذ الفعّالة وفنون عرافتها، وسرعان ما صار الحرّاسُ يستشيرونها أيضاً. تدبَّرت أمرها شيئاً فشيئاً لتنقل أعشابها الطبّيّة وقوارير مياهها الممغنطة وورق التاروت وتمثال بوذا الجصي المذهّب. من زنزانتها، التي تحوّلت إلى بازار، راحت تمارس سحرها الفعّال وتنشرِ مجسّات سلطتها الرقيقة. لم تتحوّل فقط إلى الشخص الأكثر احتراماً في السجن بل كانت أيضاً أكثر المُزارين، فالحيّ اللاتينيّ كلّه كان يقف في الصفِّ لرؤيتها.

قرّرت كارمن، خائفة من أن يستنفد الخمصُ داي، أن تجرِّبَ نصيحة أولغا وتدبّرت أمرها لتقول له بخليطٍ من الإنكليزيّة والڤييتناميّة والإيمائيّة بأنَّ أمّه قد صعدت إلى مستوى آخر، لا فائدة فيه من جسدها، وصار لها الآن شكل جنيّة صغيرة شفّافة تحوم دائماً حول رأسه لترعاه. نسخت

الفكرة عن الأب لارّاغيبل الذي يصف الملائكة بهذا الشكل. وبحسب قوله كلُّ إنسان يحمل شيطاناً على يساره وملاكاً على يمينه، وإن طولَ الثاني يبلغُ ثلاثة وثلاثين سنتيمتراً بالضبط بعدد سنوات حياة المسيح على الأرض، يمضي عارياً ومن الزيف المطلق أن يقال إنَّ له أجنحة، فهو يطير بدفع الشعاع، نُظُم الإبحار الإلهي، الأقل أناقة والأكثر منطقيَّة من أجنحة الطيور الواردة في النصوص المقدَّسة. صار الرجل الطيِّبُ مع التقدم في العمر غريبَ الأطوار قليلاً، لكن أيضاً رهفت رؤية عينه الثالثة الشهيرة، فكان هناك إثباتات لا تدحض بأنّه قادر على الرؤية في الظلام، تماماً كما يحسّ بما كان يجري خلفه، لذلك لا أحد كان يهمس في قدَّاسه. وبمرجعية أخلاقيَّة لا تقبل الجدل يصف الشياطين والملائكة مقدِّماً تفاصيل دقيقة، وما من أحد ولا حتى إنماكولادا مورالِس المحافظة جدّاً في موضوع الدين يجرؤ على الشك بكلماته. ولكي تعوِّض عن محدوديّة اللغة رسمت كارمن رسماً يظهر فيه داي في المستوى الأوَّل تطوف حوله هيئة صغيرة وتحوم بمروحة في الرأس ودخان كثيف في الذيل، لها عينا تهوي نُغويّن السوداوان اللتان لا تُخْطآن. تأمَّلها الصغير برهةً طويلة، ثمَّ طواها بعناية وخبّأها في ألبوم الصور التي زوَّرها ليو غالوبّي، بجانب صور والديه وهما يمسكان واحدهما بذراع الآخر في أماكن لم يكونا فيها قط. تناول بعد ذلك مباشرة أول همبرغر أمريكي.

بعد أسبوع أسرويٍّ مُكثَّفٍ عادت كارمن مع ابنها إلى بيركلي، حيث نظَّمت حياتها الجديدة. كانت قد استأجرت شقّة قبل أن تذهب بحثاً عن داي وأعدَّت له غرفة بيضاء الأثاث، وافرة الألعاب. كان المكان يحتوي على غرفتين فقط، واحدة لابنها والأخرى لورشتها ونومها. لم تعد تقف في أيّة زاوية لتبيع مجوهراتها، صارت تضعها في عددٍ من الحوانيت، لكنَّ إغراءات البيع في الشارع كانت حتميّة، فتذهب في نهايات الأسابيع في بسيارتها إلى قرىً أخرى تركِّب طاولة عرضها في أسواق المهن اليدويّة. فعلت ذلك لسنواتٍ دون تفكير بإزعاجات السفر والعمل ثماني عشرة ساعة دون راحة، تتغذّى على الفستق والشوكولا، تنام في السيّارة، دون مرحاض، فوجود الطفل أجبرها على ضبط بعض الأمور. باعت «الكاديلاك» الصفراء المهلهلة واشترت فرغون متماسكة وواسعة، تستطيع أن تمدَّ فيه زوجاً من أكياس النوم ليلاً، حين لا تجد في متناول يدها غرفة. كانا يذهبان من مكان إلى آخر كشريكين، يساعدها داي في حمل بعض الأشياء وتركيب الطاولة، يجلس بعدها للعناية بالزبائن أو يلعبُ وحيداً، وحين ينزعج يذهب ليجوب السوقَ وإذا ما تعب يستلقي لينام عند

قدمَي أمّه. كما يحدث دائماً كان الصنّاع اليدويّون هم أنفسهم الذين يتواجدون في مختلف الأماكن، وجميعهم يعرفون ابنَ تامار، ولم يكن في أمان كما كان في تلك الكرنفالات حيث يتكاثر اللصوص، والثملون ومتعاطو المخدِّرات. كانت كارمن تعمل بقيَّةَ الأسبوع في بيتها، برفقة الصغيرِ دائماً، تمنح نفسها الوقتَ لتعليمه الإنكليزيَّة، وإطلاعه على العالم في الكتب المستعارة من المكتبة، التنزه معه في المدينة، وأخذه إلى المسبح والحدائق العامَّة. حين يشعر بالأمان أكثر في بلده الجديد تفكرُ بإرساله الى روضة أطفالٍ ليتعايش مع أخرين من عمره، لكن فكرة الانفصال عنه ولو لساعاتٍ فقط ما تزال تؤرقها، صبَّت في داي رقَّتها المكبوحة لسنواتٍ طويلة من الحزن على عقمها. لم تشك بقدرتها على تربية طفل ولم يكن عندها صبر لتتعلمها من الكتب، لكنَّ هذا لم يشغلها. كلاهما أقام رابطة لا تنفكُّ عراها ترتكز على القبول المتبادل والمزاج الرائق. اعتاد الصغير على تقاسم فضائه بودٍّ فصار باستطاعته أن يركِّبَ قلعةً بمكعَّباتٍ بلاستيكيّة على الطاولة ذاتها التي تركِّب عليها أقراطها الذهبيّة مع حبَّات الخزف الدقيقة السابقة على اكتشاف أمريكا. كان داي يذهب عند منتصف الليل إلى فراش كارمن ليستيقظا متعانقين. بعد السنة الأولى بدأ يبتسم بخجلٍ، لكنَّه لا يلبث أن يعودَ إلى مظهر شروده القديم في فرص انفصالهما النادرة. كانت تُكلِّمه طوالَ الوقت دون أن تتضايق لأنه لا يحسن مخارج الأصوات، هكذا كانت تشرح لغريغوري بالهاتف أيّامَ الإثنين، وغريغوري يرد: كيف تريدين من المسكين أن يتكلم وهو لم يتعلَّم الإنكليزيّة بعد ونسي لغته، إنَّه على حافة الصم والبكم، لكن ما إن يصبح عنده ما يقوله حتى يقوله. وكان على حقٍّ. في الرابعة من عمره عندما لم يبق إلاّ القليل من الأمل بالكلام أذعنت كارمن لضغوطات الجميع وحملته بالإكراه إلى أحد الاختصاصيين، الذي أكّد بعد أن فحصه بأناة وطويلاً دون أن يحصل على صوتٍ واحد منطوق ما كانت تعرفه وهو أنَّ ابنها لم يكن أصمّاً. أخذت كارمن داي من يده ومضت به إلى الحديقة شرحت له وهي تجلسُ على مقعدٍ بجانب بركة فيها بطّ أنَّها إذا كان عليها أن تدفع لمعالج كي يجعله يتكلَّم فإنَّ إجازة ذلك العام ستذهب إلى الشيطان لأن الميزانيّة لا تكفي لكلِّ ذلك.

ـ بيني وبينك لسنا بحاجة للكلمات يا داي، لكن لكي تعمل في العالم عليك أن تتواصل معه. لا تكفي الرسومات. حاول أن تتكلَّم قليلاً لنحصل على إجازتنا وإلاّ تخوزقنا أنا وأنت...

ـ لم يعجبني هذا الطبيبُ، يا ماما، له رائحة صلصة الصويا ـ ردَّ

الطفلُ بإنكليزيَّةٍ تامّة. لن يكون يوماً ثرثاراً، لكنَّ مسألة صممه استبعدت.

صار الوقت الحرُّ الرفاهيةَ الأعظم، ما عادت كارمن ترى الأصدقاء، صارت ترفض دعوات المتطلّعين إليها الذين كانوا لوقت قصير يثيرون حماسها. كان الحبّ حتى تلك اللحظة يثيرُ عندها معاناة أكثر من ذكريات طيّبة، فبحسب غريغوري كانت تختار أسوأ المرشّحين، وكأنّها لا تستطيع أن تعشق إلا من يسيّئ معاملتها، كانت على ثقة بأن مرحلة الحظ السيّئ قد ولّت ومع ذلك قرّرت الحذر. بقيت إنماكولادا مورالِس لسنواتٍ ترسلُ أعطيات لسان أنطونيو بادوا، لترى ما إذا كان ربُّ العانسات سيأخذُ على عاتقه عمليّة البحث عن زوج لتلك الابنة الضالّة التي تجاوزت الثلاثين دون أن تقدِّم أيّة علامة على الاستقرار. كان العثور على الرفيق المناسب هوس كارمن الأخرس في الماضي، فحين كان ينقصها رجلٌ تمتلىء أحلامها بالأشباح الشبقة، فهي بحاجة إلى عناق ثابت، قربٍ حارٍّ، يدينِ ذكريّتين على خصرها، صوتٍ أجشّ يهمس لها. لكن المسألةُ لم تعد تتعلّق بالبحث عن رجلٍ وحسب بل وعن أبٍ عاقل لداي. فكّرت بالرجال الذين ملكتهم فانتبهت للمرّة الأولى للحنق الذي تشعر به ضدَّهم. كانت تتساءل وماذا لو سمحت بأن تُضْرَب أمام الطفل، أو أذعنت وغسلته بالماء البارد الذي استخدمه آخر، فتنتفضُ مذعورة من خضوعها ذاته. استعرضتِ العشّاق الجدد فلم يتخطَّ أحدٌ امتحانها الصارم، ثم قرَّرت، أنّه مما لا شكَّ فيه أنَّ بقاءهما وحيدين أفضل لهما. سكنت الأمومة روحها، وبالنسبة لاضطرابات الجسد فقد عزمت على اتباع مُثُلِ غريغوري والاكتفاء بالحب العابر. كانت تتساءل لماذا خانتها الشجاعة في امتلاك طفلها قبل عشر سنوات، لماذا تركت الخوفَ وضغطَ تقاليدَ غير مجدية ينتصران عليها؟ وبعد كلّ شيءٍ قرَّرت: لم يكن أمراً صعباً أن تكون أمّاً عازبة. المسؤوليّات الجديدة أبقت على طاقتها في حالة فوران، زادت رغبتها بالعمل وصارت تخرج من بين يديها تصاميم هي في كل مرَّةٍ أكثر أصالة، والأفكار والمواد الغريبة التي جاءت بها من مناطق بعيدة راحت تكتسب حياةً تحت كماشتها وموقدها وكلاّبتها. تستيقظُ فجأة في الفجر على رؤيا رائعة لتصميم فتبقى للحظات في السرير تلفُّها رائحةُ الطفلِ وحرارته، ثم تنهض، تضع عليها دثاراً حريريّاً مطرَّزاً، أهداه لها ليو غالوبّي، تغلي ماءً لتحضِّر شاي المانغا، تشعل الثريّات الفيكتوريّة فوق الطاولة وتأخذ معدّاتها بعزم سعيد. ومن فينة إلى أخرى تلقي نظرة على الابن النائم وتبتسم برضى. حياتي تامّة، كانت تُفكِّرُ، لم أكن قط بهذه السعادة.

# القسم الرابع

حذارِ ممّا تطلب، انظر فالسماء يمكن أن تستجيب لك، كان هذا واحداً من أقوال إنماكولادا مورالِس، وقد تحقّق بالنسبة لغريغوري ريفز كمزحة مشؤومة. ففي السنوات اللاحقة حقّق خططه التي صمّم عليها بكثير من العزيمة، ومع ذلك كان من الداخل يغلي في قدر من نفاد الصبر الماحق. لا يستطيع أن يتوقّفَ لحظةً واحدة، وحين يكون مشغولاً يتمكّن من تجاهل مآزق الروح، لكن إذا ما فاضت عنه بعض الدقائق وكان ساكناً وصامتاً شعر بصلاءٍ يستنفده من الداخل، هو من القوّة بحيث يتأكّدُ من أنّه لم يكن صلاءه وحده، فقد غذّاه والده الرجيم وجدُّه من قبله، لصُّ الخيول، ومن يدري أيّ أجداد موسومين بالقلق قبلهما. كان عليه أن يُطْبَخَ في مرجلِ ألف جيل. كان الدافع يحمله إلى الأمام وقد تحوّل إلى صورة المنتصر تماماً حين سحقت مسنّنات آلة النظام التي لا ترحم الغيريّةَ الريفيّة وبراءة الهيبّيين السرمديّة. لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يلومه على طموحه لأنَّ عصر الجشع الجموح الذي كان سيحل سريعاً يتشكّل. كانت الهزيمة في الحرب قد خلفت شعوراً بالخزي، رغبة جماعية بالمطالبة بوسائل أخرى. لم يكن الناس يتكلّمون عن الموضوع، يجب أن تمرَّ عشر سنوات كي يتجرّأ التاريخ والفنُّ على تعزيم الشياطين الناجية من الكارثة. رأت كارمن الشارعَ الذي كان يكسب فيه أفضلُ أصدقائها عيشهم ينحطُّ، ودَّعت الكثيرين من أصحاب المهن اليدويّة الذين طردهم ضغطُ تجّار المنتجات التايوانيّة العاديّة، ورأت المجانين الأبرياء، الذين ماتوا خمصاً أو تاهوا في الدروب حين نسي الناس إطعامهم، يختفون واحداً تلو الآخر. جاء مجانين آخرون أكثر قنوطاً، جنود الحرب القدماء الذين أذعنوا لهول الذكريات. تلا تمرُّدَ شوارع الماضي وباءُ القناعة الذي أصاب حتى طلاّب الجامعة. ازداد عددُ البؤساء وقطّاع الطرق، ظهر المتسوّلون ، السكارى،

العاهرات، وتجّار المخدرات واللصوص في كلّ مكان.كانت كارمن تتأسّف فالعالم يتفكك على مرأى العين. وغريغوري ريفز، الذي لم يشارك على كلّ الأحوال في الأوهام السانجة لمن كانوا يعلنون عصر برج الدلو، زمن الأخوّة والسلام المفترض، كان يردُّ بِمَثَلِ النوّاس الذي يروح ويغدو في هذا الاتجاه وذاك، لم يؤثّر عليه التبدل، لأنّه انطلق في السباق الأعمى، مستبقاً انفجارَ الماديّةِ التي ستطبع عقد الثمانينات بطابعها، يتبجّحُ بنجاحاته، بينما يتساءل زملاؤه كيف يحصلُ على أفضل القضايا ومن أين يخرج بكلِّ تلك الموارد ليمضي من حفلٍ إلى حفل، يقضي أسبوعاً متجوّلاً في البحر المتوسّط ويرتدي قمصان الحرير. لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الاستدانات الباهظة من البنوك أو عن مناورات بطاقات اعتماده الجسورة. كان ريفز يفضّلُ ألاّ يُفكّرَ في أنّه آجلاً أو عاجلاً سيدفع الحسابات، وإذا ما نفدت أرصدته طلب قرضاً جديداً مقنعاً نفسه أنّه لن يدفع ما يترتّبُ عليه ولا بشكلٍ من الأشكال لا بالإفلاس ولا بالسجن ، وأنَّ المال يجرُّ المالَ مثل المغناطيس. لا يضايقه المستقبل، فهو مشغول في محاولة بناء الحاضر. كان يقول إنّه لا يعرف التردُّد ولم يشعر بنفسه قط بمثل تلك القوّة ولا تلك الحرّيّة وللسبب نفسه لم يكن يفهم ذلك الدافع للهرب الذي لا يتركه يرتاح. كان قد عاد عازباً من جديد ولا صليب على كاهله غير صليب قلبه نفسه. يبعدُ عن ابنته مسافة نصف ساعة، ومع ذلك لا يكادُ يراها مرّتين في العام حين يأخذها في سيّارته ، سيّارة الظريف ليخرج معها في نزهة بذريعة منحها في أربع ساعات ما ضنَّ به عليها في ستة أشهر. يُعيدها بعد كلِّ زيارة محمّلة بالهدايا المناسبة لامرأة مغناج أكثر ممّا لتلميذة غير بالغة، ومريضة بتخمة المثلّجات والحلوى. لم تَجِدِ طريقة لإقناع مرغريت بمناداته بابا، فقد قرّرت أن غريغوري يليق به أكثر ذلك الرجل الذي لا تكاد تعرفه ويمرُّ في حياتها مرّتين في العام، كبابا نويل مبالغ. ثُمَّ إنها لم تكن تستخدمُ كلمة ماما. استدعت معلمةُ المدرسة سمانثا لتسألها ما إذا كان حقيقة بأن مرغريت قد تمَّ تبنّيها بعد أن اغتالت عصابة من الأشرار أبويها بطريقة فظيعة. نصحتها بمراجعة طبيب أطفالٍ نفسي، لكنَّ أمّها أخذتها فقط في استشارة أولى لأنَّ ساعة المعالجة تتعارض مع دروس اليوغا. لست بحاجةٍ لأحدٍ ليقول لي من تكونان، وضّحت مرغريت بالدّعة التي تميّزها، لكّني أُسرُّ ببلبلة المعلمة، التافهة جدّاً. انتهى الأبوان إلى أنَّ الصغيرةَ معجزةٌ في الخيال والظرافة. ولم يقلقهما أنّها تبولَ ليلاً مثل مولودٍ حديث، بينما تصرُّ على أن ترتدي لباس امرأة وتطلي أظافرها وشفتيها، لم تكن تلعبُ مع الأطفال الآخرين وتغنج على الطريقة

الأرستقراطيّة. وإذا وضعنا جانبا عيب أنّها تضع الأقمطة ليلاً في العمر الذي بدأت تتلقّى فيه دروس التربية الجنسيَّة الأولى، فإنّها لم تكن تسبِّبُ لهما وجع رأس، كانت تكبر ككائنٍ غامضٍ وروحيٍّ، فضيلتها الأساسيَّة أنَّها تمرُّ دون أن تُلحَظَ. كان من السهل جدّاً أن ينسيا أنَّها موجودة ، حتى أنَّ والدها مزح مرَّةً قائلاً إن أطواق اختفاء أولغا تناسبُ الطفلةَ تماماً.

في السنوات السبع الأولى من عمل غريغوري ريفز في المؤسسة الأولى تمكن من الإمساك بمفاتيح ورذائل مهنته. ميَّزهُ رئيسه عن بقيَّة محامي المؤسَّسة وأخذ على عاتقه أن يكشف له شخصيّاً عن الخدع الأساسيّة. كان من أولئك الأشخاص الدقيقين والمهووسين الذين يشعرون بالحاجة للتحكّم بأدقّ التفاصيل، رجلاً لا يُحْتَمَل، لكنّه محام رائع، لا شيءٍ يفوتُ تحرّيه، له حاسّة شمٍّ كلب صيد في الوصول إلى حجر الزاوية في كلّ مشكلة قانونيّة، وفصاحة لا تقاوم في إقناع هيئة المحلّفين. علّمه أن يدرسَ القضايا بدقّة متناهية، يبحثُ عن الفجوات التافهة ويضعَ استراتيجيته مثل جنرال.

ـ هذه لعبة شطرنج، يربح من يحَرِّكُ أولاً. تحتاج إلى عدوانيّة الضواري، وبرودة الأعصاب. إذا فقدتَ هدوءك هلكتَ، تعلَّمْ التحكم بمزاجكِ، وإلا فلن تصبح واحداً من أفضلهم، يا ريفز ـ كان يُكرِّر عليه ـ. مزاجُك جيِّد، لكنّك في الصراع تضرب عادة دون تبصّر.

ـ الشيء ذاته كان يقوله لي الأبُ لارّاغيبِل في صحن دار كنيسة لوردس.

ـ من؟

ـ أستاذي في الملاكمة.

كان ريفز عنيداً، لا يكلُّ، يصعب أن يُلوى له ذراع، من المُحال أن يُغلَبَ، وكان ضارياً في المواجهات، لكن انفعالاته ذاتها تلعب به. كان العجوز معجباً بطاقته، التي كانت له في شبابه وما زال لديه احتياطيٌّ منها، لذلك كان يعرفُ كيف يقدِّرها عند الآخرين. وكان يسرّه طموحه لأنّه الرافعة التي ستحرِّكه، يكفي أن تضع جزرة أمام أنفه كي تجعله يجري مثل أرنب. وإذا كان قد انتبه في لحظة ما إلى مناورات الآخر، يستأثر بمعارفه ويستخدمه كمنصّة الوثب ليرتقي في المؤسَّسة، فهذا ما لا يجب أن يستغربه. فقد فعل الشيء نفسه في بداياته مع فارق أنّه لم يكن له رئيس داهية قادر على إيقافه في الوقت المناسب. كان يُعْتَبَرُ عارفاً جيِّداً بطبيعة الآخرين، واثقاً من أنَّه يستطيع أن يبقي على ريفز في قبضته

ويستغلّه لصالحه لوقت غير محدّد، ما أشبه هذا بترويض الخيل: يجب أن يسوطه، يتركه يجري، وما أن يصعد الدخان في رأسه حتى يشدّه شدّة ويجبره على لوكِ اللجام، ليعرف تفوُّقَ سيِّده. لم تكن المرّة الأولى التي يفعل فيها ذلك، وقد أعطى دائماً نتائج جيِّدة. في حالات ضعفٍ نادرة شعر بإغواء الاتكاء على زند هذا المحامي الشاب، شديدِ الشبه به، كان الابن الذي يتمنّى لو يكون له. كوَّن إمبراطوريّة صغيرة وتساءل، وهو يحوم حول الثمانين، من سيرثه. لم يبق له إلا القليل من المتع، فالجسد لا يتجاوب مع دوافع المخيّلة، ولا يستطيع أن يتذوّق الطعام الطيّب دون أن يدفع ثمنه آلاماً في الأمعاء، أو الكلام عن النساء، فهو موضوع مؤلم جدّاً. كان يراقب ريفز بنوع من الحسد والتفهّم الأبوي، لكنّه لم يكن عجوزاً أشمطَ عاطفيّاً أو مستعدّاً لأن يتنازل عن مقدار شظيّة من سلطته، يشرّفه أنّه ولد جافُّ القلب، كما كان يقول لمن يعرِّجُ على طيبته ليطلب منه معروفاً. لقد كان اعتيادُه الطويل على الأنانيّة ودرعُ شحِّه المنيع أقوى من أيّة لمحة ظرافة. كان المعلّم التامُّ لتعلّم الجشع الصعب.

لم يغفر تيموثي دوان لوالده أنّه جاء به إلى العالم، وأنّه لم يمت في عمرٍ مُبكّر وبقي يخرِّب عليه بصحّته الجيِّدة ومزاجه السيّئ رغبته في العيش. ولكي يتحدّاه ارتكب مجموعة من الأعمال الوحشيّة، متقصِّداً دائماً أن يعلم بها العجوز، وهكذا انقضت خمسون سنة من عمره في كراهية مضطرمة كلَّفته السلامَ ورغدَ العيش. أنقذته أحياناً روح التناقض، كما هو الحال حين أرادَ أن يتملّص من الخدمة العسكريّة لمجرّد أنَّ أباه كان يدعمُ الحربَ، ليس لوطنيّة فيه بقدر ما لمصالح اقتصاديّة في مصانع الأسلحة، لكن غالباً ما كان التمرُّدُ يدور به ويصفعه في وجهه. قرَّرَ ألاّ يتزوَّجَ وألاّ ينجبَ أولاداً، حتى في المناسبات القليلة التي كان فيها عاشقاً، كي يقضي على تطلُّع الآخر لتكوين سلالة. معه ستموت كنية الأسرة، التي يكرهها كرهاً شديداً، باستثناء فرع آل دوان في إيرلندا، الذي لا أحد كان يريد الكلام عنه، لأنَّه يذكِّرهم بأصلهم المتواضع. مثقّفٌ ومهذّبٌ، له أناقة من وُلِدَ بين ملاحف مُطرَّزة، كانت له ميول شغوفة نحو الفنون، وظرافة تُكسبه أصدقاء كثراً، لكنّه كان يتدبّرُ أمره ويخفي هذه الفضائل عن أبيه ويتصرّف كفظٍّ فقط ليثيره. فإذا ما نظَّمَ البطريرك دوان حفلَ عشاء لزبدة المجتمع، ظهر دون أن يكون مدعوّاً متأبِّطاً ذراعَ امرأة قبيحة مستعدّاً لأن يخترق عدداً من قواعد المدنيّة. وبينما يزمجرُ الأبُ بين أسنانه بأنّه لا يريد أن يعودَ ويراه في حياته، كانت الأمُّ تحميه دون مواربة، حتى ولو أدّى ذلك لمواجهة مع زوجها: استشر طبيباً نفسانيّاً

ليساعدك في علاج هذه العيوب في طبيعتك، يا بُنَيّ، نصحته مرّاتٍ كثيرةً، لكنَّ تيموثي كانَ يجيبها بأنّه دون عيوبٍ لن يبقى له طبيعة. وفي هذه الأثناء كان يعيشُ حياة بائسة ليس لنقصٍ في المال وأنّما لنزعة المعذَّب فيه. كان يملك شقّةً في أغلى أحياء المدينة، طابقاً قديماً بمفروشات حديثة ومرايا استراتيجيّة، وإيرادات لبقيّةِ حياته، آخر هديّةٍ من جدِّه. وبما أنّه لم ينقصه شيء، لم يكن يولي المالَ أهميّة ويسخرُ من المبرّرات المتعدِّدة التي ابتدعتها الأسرةُ، ليس للتهرُّبِ من الضرائب وحسب بل لتجريده أيضاً من أيِّ إرثٍ ممكنٍ. كانت شياطينه تحاصره بلا كلل دافعة إيّاه نحو رذائل تُقرفه، ويذعن لها ليجرح والده، على الرغم من أنّه كان يقتل نفسه في هذه الطريق. كان يقضي النهار في مخبر علم الأمراض، مشمئزّاً من هشاشة الإنسان ومن أسباب الألم والانحلال اللامتناهية، وفي الوقت ذاته ذاهلاً من إمكانيّات العلم. لم يقبله قط، لكنّه كان المكان الوحيد الذي يجد فيه بعض السلام. يضيعُ في البحث الدقيق داخل خليّة مريضة وعندما يخرج من صفائح الصور وأنابيب الاختبار وأشعّة الليزر، في ساعة متأخرةٍ عادةً، كانت تؤلمه عضلاتُ عنقه وظهره، لكنّه يبقى سعيداً. هذا الإحساسُ الذي يدومُ حتى يصلَ إلى الشارع ويشغِّلُ محرِّكَ السيّارة ويعرف أنّه ليس عنده مكان يذهب إليه، ما من أحدٍ ينتظره في أيِّ مكان فيغرق في كراهية نفسه؛ يزور أكثر البارات خساسة، يضيعُ فيها حتى اسمه، يتورَّطُ في مشاجرات البحّارة لينتهي في قاعة إسعافِ أحد المشافي، يتحرَّش باللواطيين في حمّاماتهم وينجو وهو قاب قوسين أو أدنى من العنف الذي أفلت عنانه ، يأخذ عاهراتٍ ليشتري متعةً خسيسةً مهدِّدة بخطر التهابٍ قاتل. يتقلّب في منحدرٍ قاسٍ بنوعٍ من الحنق والمتعة، لاعناً الربَّ وناشداً الموت. بعد أسبوعينِ من الممارَسات الحقيرة يسقطُ في أزمة الخطيئة فيتوقَّف مرتعداً أمام الهاوية المفتوحة عند قدميه؛ فيقسمُ ألاّ يعود لتذوُّقِ قطرة كحول ويحبس نفسه في البيت مثل ناسكٍ يقرأ كتّابَه المفضّلين، يسمع الجاز حتى الفجر، يفحص دمه بحثاً عن استيضاح وباءٍ ربّما كان في أعماقه يرغبُ به عقاباً على خطاياه. كان يبدأ مرحلة من الهدوء، يحضر كونشيرتات، أعمالاً مسرحيّةً، يزورُ أمَّه بأدبِ ابنٍ طيِّبٍ، ويعود ليتردَّدَ على خطيباته الصبورات، اللواتي ينتظرنه دون أنْ يفقدْنَ الأملَ بإصلاحه. يمضي إلى الجبال في رحلات طويلةٍ كي يسمع صوت الرّب يناديه في الريح. الوحيد الذي كان يراه في حالات الخير والشر هو صديقه غريغوري ريفز، الذي أنقذه من عددٍ من الورطات وساعده على النهوض من جديد. لم يعمل دوان من حياته المبدّدة لغزاً،

على العكس، كان يتلذّذُ بالمبالغة بخساساته كي يغذّي شهرته كروح ضالّة، ومع ذلك كان فيه جانب يخفيه بحذر ولا يتوقّع وجوده إلا القلّة القليلة جدّاً. بينما كان يتبجّحُ بكلبيّة متحدّية لكل هدفٍ نبيل. كان يساهم في عددٍ من القضايا المثاليّة، متوخّياً دائماً أن يبقي على اسمه في سرّيّة صارمة. كان يسخّر جزءاً من دخله لمساعدة المحتاجين الذين يسبحون في فلكه وتمويل بعض الأعمال في بلادٍ بعيدةٍ، بَدْءاً من الأطفال الجياع وصولاً إلى السجناء السياسيّين. وبعكس ما كان يُنْتَظَرُ منه حين اختار ذلك المجال من الطب فقد طوَّرَ عملَه بين الجثث رأفتَه بالأحياء، صارت تهمُّهُ الإنسانيّة المعذّبة كلّها، لكن لم يبق عنده احتياط عاطفيٌّ ليتأثّر بالحيوانات التي كانت في طريقها للفناء أو الغاباتِ المخرّبة أو المياهِ الملوّثة. كان يصوغ من كل ذلك نكاتٍ ضارية، ويهذي أيضاً حول الأعراق والديانات والنساء، من جانب لأنّ الزعامة في تلك القضايا كانت دارجة، ومن جانب آخر لأنَّ متعته القصوى كانت فضح الأنذال. فهو يتقيّأ قرفاً من الفضيلة الزائفة عند من كانوا يرتعبون من أجل دلفين وقع في شبكة للطون، بينما يمرُّون غير مبالين بجانب المتسوّلين المهجورين في الشوارع متظاهرين بعدم رؤيتهم: العالم خراء هائل. تلك كانت جملته المطروقة.

ـ ماتحتاجه هو امرأة عذبة من الخارج، فولاذيّة من الداخل، كي تأخذ بخناقك وتنقذك من نفسك. سأقدِّم لك كارمن موراليس ـ قال له غريغوري ريفز حين فهم أنَّ صديقته صارت خارج مداه وأذعن لحبِّها كأختٍ.

ـ تأخّر الوقتُ كثيراً، يا غريغ. فأنا لا فائدة منّي إلاّ للعاهرات ـ أجاب تيموثي دوان، حاسماً دون سخرية لاذعة.

ظهرت شانون في حياةِ ريفز مثل نسمة رطبة. كان قد مضى عليه سنوات وهو يتسلقُ منحدراً صاعداً ، شاعراً، على الرغم من النجاحات المحقَّقة، أنّه يراوح مكانه، كما يستمني في الكابوس. كان يحرِّكُ في الهواء بشطارة ساحر ديوناً، أسفاراً طائشة، حفلاتٍ خارقة، برنامج عمل مجنونٍ وسُبْحةً من النساء، بانطباعٍ يتجدَّدُ يوميّاً مفاده أنَّ أيّ غفلة ستجعلُ كلَّ شيء ينهار أرضاً محدثاً دويَّ زلزال. كان بين يديه قضايا قانونيّة أكثر ممّا يستطيع أن يتولاّها، وديون أكثر ممّا يستطيع أن يسدِّدها وعشيقات أكثر ممّا يستطيع أن يُرْضي. كانت تساعده ذاكرته

الجيّدة في تذكّرِ كلّ خيطٍ مُفْلت من تلك الكبّة، الحظُّ السعيد كيلا ينزلق في الإهمال والصحة الجيّدة كيلا يموت إنهاكاً مثل حيوان جرٍّ تجاوز حدود مقاومته. وصلت شانون ذات إثنين صباحاً في بياض عرس تفوح منها رائحة الأزهار، بابتسامة أكثر رونقاً من كلّ ما رآه في بناء زجاج وفولاذ المؤسّسة. كان عمرها اثنين وعشرين عاماً لكنّها بتصرّفاتها الصبيانيّة وظرافتها الخلاّبة تبدو أصغرَ. كان هذا عملها الأوّل في الاستقبال، عملت في السابق في عددٍ من الحوانيت والفنادق ومغنّية هاوية، لكنّها وكما قالت بصوتها الساحر، صوت المراهقة المغناج، أنه لم يكن لمثل تلك الأعمال مستقبل. غريغوري الذاهل من فرحها المشعّ والفضوليّ أمام تنوّع الوظائف التي شغلتها شابّة بهذا العمر سألها ما المزايا التي تراها في الرد على الهاتف خلف طاولة من الرخام، فأجابت بغموض: إنّها على الأقلّ تتعرّف هناك على الناس المناسبين. أضافها ريفز على الفور إلى دفتر عناوينه ودعاها قبل نهاية الأسبوع إلى الرقص. قبلت بثقةٍ وهدوءِ اللبوّة المرتاحة، وأبدت مبتسمةً: أحبُّ الرجال كبيري السن، ولم يعرف جيّداً ماذا أرادت أن تقول، لأنّه اعتاد الفتيات الشابات ولم يبدُ له الاختلافُ في السن ذا معنى. لكنّه سرعان ما سيواجه هوّة الجيل التي تفصلُ بينهما، غير أن الوقت سيكون متأخراً للتراجع. كانت شانون فتاة حديثة، هاربة من أبٍ عنيفٍ وأمٍّ تغطّي الوذماتِ التي تسبّبها لها صفعات الزوج بالمكياج، خرجت سيراً على قدميها من قريتها الضائعة في جورجيا حيث ولدت، فالتقطها على بعدِ ميلين أوّلُ سائق شاحنة لمحها كرؤى شبحيّة على شريط الطريق اللامتناهي، وبعد عددٍ من المغامرات وصلت إلى سان فرانسيسكو. كان مزيج السذاجة والظرافة عندها يسحر الناسَ ويسمح لها بأن تطفو فوق واقع العالم الداعر، تنفتح الأبوابُ أمامها تلقائيّاً وتتبخّر العوائقُ. دعوة عينيها النباتيّتين كانت تنزع من المرأة سلاحها وتغري الرجالَ. تترك انطباعاً بأنّه ليس عندها أيّ وعي بسلطتها، تمضي في الحياةِ بخفّةِ روحٍ سماويّة، دائمة الذهول من أنَّ كلَّ شيء يخرج معها جيّد. كانت طبيعتُها المتناقضة تدفعُها لأن تمضي من شيءٍ إلى آخر باستعدادٍ مرحٍ دون أن تُفكّرَ أبداً بمشاغل وآلام الفانين، لا يشغلها الحاضرُ و أقلّ منه المستقبل. من خلال التمرين المتواصل على النسيان تجاوزت مشاهد الطفولة الفظيعة وعوز وفاقة المراهقة، خيانة عشّاقها الذين ارتووا منها ثمّ هجروها وحالة العوز المبكم. عاجزة عن الاحتفاظ بشيء من يوم لآخر، تعيش من أعمالٍ لا تكاد تسدُّ الرمق، ولكنّها لم تكن تعتبر نفسها فقيرة لأنّها حين ترغب بشيء لا تحتاج إلاّ أن تطلبه، دائماً

هناك عددٌ من المفتونين الذين يخطبون ودّها، المستعدّين لأن يرضوا نزاوتها. لم تكن تستخدم الرجالَ خبثاً أو انحرافاً، بل لمجرّد أنّه لم يخطر لها أنّهم ينفعون في شيءٍ آخر. كانت تجهل قلقَ الحبِّ وأيّ شعورٍ آخر عميق، تتحمّس بلمح البصر لكل عاشق ما دام الزخم الأوّليّ موجوداً، لكن سرعان ما تتعب وتمضي دون رحمة بمن خلفته وراءها. أودت بعددٍ من عشّاقها إلى ضنى الغيرة وغمِّ الصدر دون أن تدري، لأنّها هي نفسها كانت منيعة على مثل هذه المعاناة، إذا ما هجروها بدّلت طريقها دون أن تأسف، ففي العالم احتياطيٌّ لا ينضب من الرجال الجاهزين: اعذرني فأنتَ تعرف أنّني مثل الحرشوف ورقة لهذا وورقة لذاك، لكنَّ قلبي لك، قالت لغريغوري ريفز، دون قصد بالسخرية، بعد سنتين من تعرُّفِها عليه، بينما كانت تضمّدُ له عقد الأصابع التي تكسّرت من ضربة على وجه أحد الذين فتنتهم. منذُ الموعد الأوّل بدا واضحاً من هو الأقوى، فقد هُزِمَ ريفز على أرضه ذاتها، لم تفده التجربة المُتراكِمَة ولا تبجُّحه بالدونجوانيّة. انهار في الحال، لكن ليس فقط أمام سحر جسد عاملة الاستقبال الجديدة وحسب، ففي ماضيه عددٌ ممّن كنَّ بجمالها، بل أمام ضحكتها الجاهزة دوماً وحرارتها الظاهريّة. تساءلَ في تلك الليلة بقلقٍ حقيقي، كيف يمكنه أن ينقذَ تلك المخلوقة الرائعة من نفسه، تصوَّرها عرضةً لكل أنواع المخاطر والمرارات واتخذ على عاتقه مسؤوليّة حمايتها.

ـ لأمرٍ ما وضعها القدرُ أمامي ـ علّق قائلاً لكارمن ـ فبحسب خطّة والدي اللانهائيّة لا شيء يحدث بالمصادفة. هذه الفتاة تحتاجني.

لم تستطع كارمن أن تُحَذِّرَهُ لأنَّ هوائيّات حدسها كانت باتجاه داي، وكانت مشغولة في تلك الأيام بخياطة قناع أحد الملوك المجوسيين، لحفل عيد الميلاد في المدرسة. بينما كانت تسند السمّاعة بين كتفها وأذنها كانت تلصقُ ريشاً على عمامة زمرُّديّة اللون أمام عيني ابنها المشدودتين إليها.

ـ حبّذا ألاّ تكون هذه نباتيّة ـ علّقت شاردةَ الذهن.

لم تكن كذلك، فالفتاة كانت تحتفل بالمشاوي اللذيذة لحبيبها الجديد بحماسٍ مُغْرٍ وشهيّة لا تُشبع، وفعلاً إنّها لمعجزةٌ أن تستطيعَ التهام كلّ تلك الكميّات من الطعام وتحافظ على قوامها. أيضاً كانت تشربُ مثل بحّارٍ. فتلمع عيناها من الكأس الثانية وتتأججان لتتحول الطفلة الملائكيّة إلى سوقيّة. في تلك المرحلة لم يكن يعرف ريفز أيّ الشخصيّتين أكثر جاذبيّة: عاملة الاستقبال المغناجُ التي تظهر أيّامَ الإثنين وراء طاولة الرخام

بقميصٍ مُنشّى، أم خالعة عذار الأحد العارية والمضطربة. كانت امرأة فاتنة لا يتعبُ من سبرها مثل جغرافيٍّ ولا من معرفتها بمعنى الكتاب المقدّس. كانا يلتقيان كلّ يوم في العمل، فيتظاهران بلامبالاة مريبة، نظراً لشهرة الأول النسائيّة ولغنج الأخرى العضوي يعبثان عدّةَ ليالٍ في الأسبوع في لقاءات لا تعرف الملل، فيخلطان بينها وبين الحب وأحياناً يهربان في المكتب إلى إحدى الغرف المغلقة ويتلوّيان وقوفاً على أقدامهما في إحدى الزوايا بسرعة المراهقين خوفَ المباغتة. عشقَ ريفز كما لم يعشق من قبل، وربّما هي أيضاً، وإن لم يكن كثيراً. بدأت بالنسبة إليه مرحلةٌ شبيهة بمرحلة شبابه، حين أجبره انفجاره الهرمونيّ على ملاحقة كلّ الفتيات اللواتي عبرن أمامه، مع فارق أنّ شحنته العاطفيّة تصبُّ الآن كاملةً باتجاه هدفٍ وحيد. لم يكن باستطاعته أن يبعد شانون عن تفكيره، ينهض كلّ لحظة من وراء مكتبه لينظر إليها من بعيد، تعذّبه غيرته من كلّ الرجال بشكل عام ومن زملائه في العمل بشكلٍ خاصّ، بمن فيهم عجوز السحلبيات، الذي كثيراً ما يتوقّفُ أيضاً أمام موظفة الاستقبال الشابة، ربّما متطلّعاً لأن يحصل عليها كواحدة من غنائمه الكثيرة، ويكبحه الشعور بالمسخرة ووعيه التام بمحدوديّة عمره. ما من أحدٍ كان يمرُّ أمام المدخل دون أن يعاني من لسعة سوط أمام ابتسامة شانون المتألّقة. وإذا ما حدث ذات مساء أنّها غير مستعدّة للخروج، كان غريغوري ريفز يتخيلها حتماً بين ذراعي آخر، ويخرجه مجرّدُ هذا الشك من صوابه. غطّاها بالهدايا اللامعقولة بهدف إدهاشها، دون أن يحدس أنّها لا تقدّر الصناديقَ الروسيّة المصوّرة يدويّاً، الأشجار المُصغّرة أو لآلئ الأذنين وتُفضّلُ دون شك بنطلوناً جلديّاً تتنزّه به على درّاجتها الناريّة مع الأصدقاء الذين من عمرها. حاول أن يدخلها في اهتماماته، بدافع العاشقين إلى تقاسم كلّ شيء. المرّة الأولى التي حملها فيها إلى الأوبرا ذُهِلت من أناقة ملابس الحضور وحين رفعت الستارة ظنّت أنّ الأمر يتعلّقُ بمشهدٍ ساخر. تحمّلت حتى الفصل الثالث، لكنّها ما إن رأت سيّدةً بدينة ترتدي الغيشا وتغرز سكيناً في بطنها بينما يلوّحُ ابنها بعلم اليابان بيدٍ وعلم الولايات المتحدة باليد الأخرى، حتى قطعت قهقهاتها الأوركسترا واضطرا لمغادرة الصالة.

حملها في آب إلى إيطاليا. لم تكن قد أكملت العام الأول في عملها وليس لها إجازة، لكن ذلك لم يكن عائقاً، لأنّها قدّمت استقالتها لمكتب المحامين.فقد عرضوا عليها العمل كموديل لصور الدعاية. قضى غريغوري الرحلة معذّباً مسبقاً، كان يكره أن يراها عرضةً لنظرات

الغرباء على صفحات مجلّة، لكنّه لم يجرؤ على مناقشة الموضوع معها خشية أن يبدو من سكّان أهل الكهف. كما لم يناقشه مع كارمن، لأنها كانت ستمزّقه بسخريتها. وبينما كانا يسيران في دروب الأزهار على ضفاف بحيرة دي كومو، لم يرَ مرآة الماء الصافية، ولا القرى البرتقالية المعلّقة إلى التلال لأنّ عينيه لم تكونا إلاّ لما تريده رفيقته العجيبة، خطر له حل ليبقيها بجانبه فاقترح عليها أن يعيشا معاً، وهكذا لن يكون عليها أن تعملَ وتستطيع أن تدخلَ الجامعة لتدرس فرعاً، فهي امرأةٌ ذكيّة وخلاّقة، أليس هناك ما تحبُّ دراسته؟ لا، لا شيء في تلك اللحظة، ردَّت شانون بضحكة فالتة بعد عدّة كؤوس نبيذ، لكنّها ستفكرُ بالأمر. في تلك الليلة أخذ ريفز الهاتف ليحكي الجديدَ لكارمن على الطرف الآخر من المحيط، لكنّه لم يجدها. كانت صديقته قد ذهبت مع داي في رحلة إلى الشرق الأقصى.

لم تكن بِل بنيديكت تعرف عمرها الدقيق ولا تريد أن تتأكّدَ منه. فالسنوات صدّأت قليلاً عظامها ودكّنت جلدها السكّري المحروق فصار أقرب إلى لون الشوكولا، لكنّها لم تبدِّل بريق ياقوت عينيها الطوليّتين ولم تخمد مطالب بطنها كلّيّاً. حلمت في بعض الليالي بحرارة الرجل الوحيد الذي أحبَّته في حياتها، واستيقظت على رطوبة من المتعة. لا بدَّ أنّني العجوز الوحيدة التي تأتيها الدورة في التاريخ، غفر لي يسوع، كانت تفكّر دون أيّ ملمح خجلٍ، بل بافتخار سرّيّ. تشعر بالخجل حين تنظر إلى نفسها في المرآة وترى جسدها الشبيه بمهرة داكنة وقد صار كتلة من المتدلّيات الحزينة، لو يستطيع زوجها أن يراها ، كانت تُفكّرُ، لأشاح بوجهه مذعوراً. لم يخطر لها أنّه لو بقي حيّاً، لمرَّت عليه السنون أيضاً ولما عاد الرجل القوي اللدن والفَرِح الذي أغراها في الخامسة عشرة من عمرها. لكنّ بِل لم تكن تستطيع أن تسمح لنفسها بترف البقاء في الفراش تستذكر الماضي أو أمام المرآة تتأسّفُ على تلفها، ففي كل صباح تستيقظُ عند الفجر لتذهب إلى عملها، باستثناء أيّام الآحاد حيث تذهب إلى الكنيسة والسوق. في السنة الأخيرة لم تفض عنها دقيقة واحدة لأنّها ما إن تنتهي من عملها حتى تطيرمسرعة إلى بيتها للاعتناء بابنها. عادت لتسمّيه بابي، كما في الأزمنة التي كانت تحمله فيها معلّقاً إلى ثدييها وتغني له أغاني المهد. لا تقولي لي هذا، يا أمّاه، فيسخر مني أصدقائي، كان يصيحُ، لكن في الحقيقة لم يبق عنده أصدقاء، فقد فقدهم جميعاً، تماماً كما فقد العمل، الزوجةَ والأولادَ والذاكرة. مسكينٌ بابي، كانت تتنهّدُ بِل بنيديكت، لكنّها لا تشفق عليه بل تحسده قليلاً، لم تكن تفكر

بأن تموت إلا بعد سنوات كثيرة، وطالما هي حيّة سيكون في أمان. خطوة خطوة، ويوم بيوم في آن معاً تلك كانت فلسفتها، لا فائدة من الحزن على غدٍ افتراضيّ. جدُّها، عبدٌ من الميسسيبّي، قال لها إنّنا نملك الماضي أمامنا، هو الشيء الوحيد الحقيقي، فمن الماضي نستطيع أن نستخلص معارف وتجارب للحياة؛ الحاضرُ وهمٌ لأنّه في أقل من برهة يصيرُ جزءاً من الماضي والمستقبل فراغ مظلم لا يُرى وربّما ليس له وجود، لأنّه في هذه اللحظة ذاتها لا يمكن للموت أن يأتي. عملت خادمة لوالدَي تيموثي خلال سنوات كثيرة حتى أنّه ليصعب تذكّر هذا البيت دونها. عندما تعاقدا معها كانت ما تزال امرأة مسترجلة أسطوريّة، واحدة من تلك الزنجيّات المكسورات من خصورهنّ ويتحرّكن كأنّهنّ يسبحن تحت الماء.

- تزوّجيني - كان يقول لها تيموثي في المطبخ، حين كانت تحتفي به بحلوى البانكيك، مأثرة مطبخها الوحيدة. - فأنت من الجمال بحيث يجب أن تكوني نجمةً سينمائيّة بدل أن تكوني خادمةً لأمّي.

فتضحك وتقول: الزنوج الوحيدون في السينما هم بيضٌ مدهونون بالأسود.

كانت شابّة جداً حين ظهر لها في الطريق صعلوك ذو ضحكة مدوِّية باحثاً عن ظلٍّ يجلس تحته ويرتاح. عشقا الواحدُ منهما الآخر على الفور، بِوَلَهٍ حار قادرٍ على تغيير البيئة وقلقلةِ قواعد الطقس، وهكذا أنجبا كينغ بنيديكت، الذي سيكون عليه أن يعيش حياتين، تماماً كما تنبّأت له أولغا في المرّة الوحيدة التي التقته فيها، حين التقطته شاحنة *الخطّة اللانهائية* في الطريق المغبرّة، أيّام الحرب العالميّة الثانية. نسيت بِل بعد أيّام من الولادة، أشهر حمل ثقل ابنها تحت القلب وقلق المخاض، فلاحقت الرَّجلَ في زوايا المزرعة؛ مارسا الحبَّ غارقين بدم العادة في الإسطبل بجانب البقرات، وعصافير الذرة وعقارب الأهراءات. وعندما بدأ الصغيرُ كينغ يخطو خطواته المتعثّرة الأولى، هرب الوالد المنهكُ من الحبِّ والخائف من إضاعة روحه ورجولته بين ساقي تلك الحوريّة التي لاتشبع، حاملاً معه خصلة شعر قصّها من بِل وهي نائمة. صمّت أذنيها في معمعانات الجماع الكثيرة المفرطة، عن ضغوطات راعي كنيسة المعمداني ليرتبطا بالرباط المقدّس أمام أعين الربّ، كما كان يقول. بالنسبة لبِل لم يكن التوقيع في كتاب الخورنة ليبدِّل في الأمر شيئاً، فهي تعتبر نفسها متزوّجة. استعملت في بقيّة حياتها كنية عشيقها وقالت لكل الرجال الذين ارتاحوا في حضنها في النصف التالي من القرن بأنَّ زوجها في رحلة مؤقّتة. ومن كثرة ما

كرَّرته صدَّقته، لذلك كان يغيظها أن ترى نفسها عارية في المرآة. كانت تطالبُ الغائب بقولها: إذا لم تسارع في العودة ستلقى جلداً مُترهّلاً.
أصبحت المدينةُ في ذلك الصباح من كانون الثاني، وقد كَنَسَتْهَا الرياحُ القاسية القادمةُ من البحر. ارتدت بِل بنيديكت بدلتها الفيروزيّة اللون، قبّعتها، حذاءها وقفّازي اللونِ ذاته، بدلةَ الآحاد وكل الأعياد. كانت قد لاحظت الملكة إيزابيل تتألّق في تلك الأزياء وحيدة اللون فلم ترتح حتى حصلت على شيء مشابه. كان تيموثي دوان ينتظرها في سيّارته أمام البناء المتواضع الذي يعيشُ فيه.

ـ لستِ خالدة، يا بِل. ماذا سيحدث بابنك عندما لن تكوني؟ ـ كان قد قال لها تيموثي.

ـ لن يكون كينغ الفتى الوحيد الذي يتدبَّر أمره وحده في الرابعة عشرة من عمره.

ـ ليس عمره أربعة عشر عاماً بل ثلاثة وخمسين.

ـ بالنتيجة العمليّة عمره أربعة عشر.

ـ حسناً، هذا ما قصدته تماماً. سيبقى دائماً مراهقاً.

ـ ربّما لا، يمكن أن ينضج...

ـ بشيء من المال كلُّ شيءٍ سيكون أسهل عليكما، لا تكوني يابسةَ الرأس، يا امرأة.

ـ سبق وقلتُ لك، يا تيم. ليس هناك ما يُفْعَلُ. فمحامي شركة الضمان كان واضحاً جدّاً معنا، ليس لنا أيّ حقّ. سيمنحوننا طيبةً منهم عشرة آلاف دولار، لكن لم يحن الوقت بعد، فهناك إجراءات كثيرة يجب القيام بها.

ـ لا أفهم في هذه الأمور، لكن عندي صديق يمكن أن ينصحنا.

استقبلها غريغوري ريفز في غابة أصص مكتبه. دخلت بِل دخولاً انتصاريّا بلباس الملكة، جلست على كنبة الجلد المتعبة وشرعت تحكي حالة ابنها، كينغ بنيديكت. كان ريفز يصغي إليها باهتمام، بينما راح يبحث في ذاكرته عن أصل هذا الاسم الذي كان يتردّدُ مثل الصدى البعيد. من المحال نسيانِ اسم بهذا الرنين، ويتساءل أين سمعه قبلَ الآن. كان كينغ مسيحيّاً طيّباً، قالت المرأةُ، لكن الله لم يهبه حياةً سهلةً. كانوا دائماً فقراء وينتقلون في الأزمنة الأولى من مكانٍ إلى آخر بحثاً عن العمل، مودِّعين الأصدقاء الجدد ومبدِّلين المدرسة. ترعرع كينغ في الخوف من

أنَّ أمّه قد تختفي لاحقة بمريدٍ لها، تاركة إيّاه في غرفة مؤقّتة في قرية بلا اسم. كان طفلاً حزيناً وخجولاً، لم تنفض سنتان من الحرب في المحيط الهادي الجنوبي انعدامَ الثقة عنه. وعندما عاد تزوّج وأنجب ولدين، كان يكسب عيشه من العمل في البناء. تقلقلت حياته الزوجيّة في السنوات الأخيرة، وصارت زوجته تهدّده بالتخلّي عنه وولداه يعتبرانه شيطاناً مسكيناً.انتبهت بِل إلى أنّه كان متوتّر جدّاً وحزين فخافت أن يعودَ إلى تناول المشروبات، كما حدث في أزماتٍ أخرى، كانت الأمور تسير بشكلٍ سيّئ وجاء الحادث فضاع كلّ شيء. كان كينغ على ارتفاع الطابق الثاني، حين انهارت السقالة وسقط إلى الأسفل مرتطماً بالأرض. صعقته الضربة لثوان عدّة، لكنّه تمكّن من الانتصاب على قدميه، ظاهريّاً لم يصب إلاّ ببعض الرضوض الخفيفة، لكنّهم حملوه على كلّ الأحوال إلى المشفى، حيث خرّجوه بعد فحصٍ روتينيّ. وما إن زال عنه ألم الرأس حتى بدأ يتكلّم، بدا أنّه لا يتذكّر أين هو ولا يعرف أهله، كان يعتقد أنّه عاد إلى المراهقة. اكتشفت أمّه أنّ ذاكرته تغطي فقط الأربع عشرة سنة الأولى، وما بعدها هوّة بحرٍ سحيقة. فحصوه من الداخل ومن الخارج، أدخلوا مسابر في كلّ الفجوات، وضعوا له كهرباء على دماغه، أخضعوه لأسابيع من الأسئلة، نوّموه مغناطيسيّاً وصوّروا روحَه، دون أن يكتشفوا سبباً منطقيّاً لنسيان بذلك الحجم من المأساة. بدأ يتصرّف مثل صبيٍّ مناوِر، يخترع أكاذيب خرقاء لاستمالة ولديه، اللذين كان يعاملهما كرفيقين في اللعب، ويتفادى مراقبة زوجته، التي يخلط بينها وبين أُمّه. لم يكن يستطيع التعرف على بِل بنيديكت، يتذكّرها كامرأةٍ شابّة وجميلة جدّاً، لكنّه على كل الأحوال التصق في الأشهر الأخيرة بتلك العجوز المجهولة كزورق للنجاة، كانت الشيء الوحيد الأكيد في عالم مليءٍ بالفوضى. أقرباء وأصدقاء أنكروا عليه فقدان الذاكرة، قالوا: ربما تعلّق الأمر بمزحةٍ هيستيريّة، لكنهم سرعان ما تعبوا من التقصّي في تلافيف دماغه بحثاً عن برهان. كذلك شركة الضمان لم تُصدّقه، واتهمته باختراع تلك الأكذوبة ليقبض معاشاً ويقضي بقيّةَ حياته مُعالاً كمُقعَدٍ بينما الضربة في الحقيقة تافهة، إنّه نصّاب. كان في كلّ مرّة تخرج فيها زوجته يشعر بأنّه مهجور، وحين بدأت تأتي بعشيقها إلى البيت، اعتبرت بِل بنيديكت أنّ لحظة تدخّلها قد حانت فأخذت ابنها ليعيش معها. راقبته خلال تلك الشهور بدقّة دون أن تلمس أيَّ ذكرى لاحقة على الرابعة عشرة. هدأ كينغ شيئاً فشيئاً، كان رفيقاً جيّداً، وكانت الأمُّ سعيدة لوجوده معها، الشيء الوحيد الغريب في

تصرّفه هي الأصوات والرؤى التي يقول بوجودها عنده، لكنَّ الإثنين اعتادا على أشباح المخيلة غير المحسوسة، التي لم يولِها الأطباء أدنى أهميَّة، كان تيموثي دوان يحمل معه تقارير المشفى ورسائل محامي شركة الضمان. تفحَّصها ريفز بنظرة سطحيَّة، شاعراً في كامل جسده احتدام المشادّة التي يعرفها جيّداً ، حدس المحارب المستعر، أفضل ما في مهنته، فهو يحبُّ الأشياء المعقَّدة، التحدّيات الصعبة، المناوشات.

ـ إذا قرَّرت الذهاب إلى المحكمة فعليك فعل ذلك بسرعة، لأنّه ليس أمامك من مهلة غير سنة واحدة من تاريخ الحادث.

ـ لكنَّهم في هذه الحال لن يعطوني العشرة آلاف دولار!

ـ هذه القضيَّة يمكن أن تبلغ قيمتها أكثر من ذلك بكثير، يا سيِّدة بنيديكت. ربّما عرضوا عليك هذا كي يكسبوا الوقت، وتفقدي حقَّك بالمطالبة.

قبلت المرأة مذعورةً، فعشرة آلاف دولار أكثر ممّا وفَّرته في جهد حياتها كلِّها، لكنَّ هذا الرجل أوحى لها بالثقة، وتيموثي دوان كان على حقّ، فعليها أن تحمي ابنها من مستقبلٍ غير أكيد. حمل ريفز القضيَّة في ذلك المساء إلى رئيسه، وهو من الحماس بحيث أنَّ الكلمات كانت تخرج منه متعثِّرة ، يحكي له قصّة تلك الزنجيَّة الجميلة وابنها الناضج العائد بضربة واحدة إلى المراهقة، تصوَّر أن نربح هذه القضيّة، سنغيِّر حياة هؤلاء الناس المساكين، لكنّه وجد نفسه أمام حاجبين شيطانيين مرفوعين حتى منبت الشعر ونظرة ساخرة. لا تضيِّع الوقت في بلاهات، ياغريغوري، قال له، ليس هناك ما يستحق أن تزجَّ نفسك لأجله في حقل الباذنجان. وضَّح له أنَّ إمكانيّات كسب القضيّة بعيدة، تحتاج إلى سنواتٍ من التحقيق. عشرات الخبراء، كثير من ساعات العمل والنتيجة يمكن أن تكون لا شيء، ما من محلفٍ سيصدِّق هذا دون خدشٍ دماغي يبرِّرُ فقدان الذاكرة. شعر ريفز بموجة من خيبة الأمل، فقد ملَّ إطاعة قرارات الآخرين، صار في كل يوم يشعر بأنّه أكثر خيبة وضيقاً في عمله. لم يكن يرى ساعات استقلاله. تمسَّك بهذا الرفض ليواجه عجوز السحلبيات بخطاب استقالته الذي طالما تمرَّن عليه في وحدته. عندما عاد في تلك الليلة إلى البيت وجد شانون مستلقية على الأرض تشاهد التلفزيون، قبَّلها بمزيجٍ من الافتخار والرغبة.

ـ تخلَّيتُ عن المؤسَّسة. من الآن فصاعداً سأطير وحدي.

ـ هذا ما يجب أن نحتفلَ به ـ هتفت ـ وبما أنَّنا في هذا، يا غريغ،

فلنشرب نخبَ طفلنا.

- أيّ طفل؟

- الذي ننتظره - ابتسمت شانون صابّةً له كوباً من القنينة التي كانت بجانبها.

حين انفصلت جودي ريفز عن زوجها الثاني أبقت على الأولاد معها، بمن فيهم اللذين له من الزوجة الأولى. صار الزواج مع مرور الوقت كابوساً من المِحَن والمشادّات يخرج فيها الزوج خاسراً في كل شيء. وحين حانت ساعة الانفصال النهائيّ لم يخطر لها حتى أن تطرح إمكانيّة أن يحمل الأبُ معه أولاده، فالعاطفة التي كانت تربط بين جودي والمخلوقين الأسمرين من الثبات والقوّة بحيث لم يعد أحدٌ يذكر أنّهما ليسا ولديها. لم تبق المرأة عازبة إلا أشهراً. فقد حملت في أحد أيّام السبت الحارّة عائلتها إلى الشاطئ وتعرّفت هناك على طبيب بيطريّ قويّ من شمال كاليفورنيا، يقوم بالسياحة في سيّارة ثقيلة برفقة أولاده الثلاثة وكلبة. كانت البهيمة قد تعثّرت وشلّت قوائمها الأربعة لكنّه بدل أن يُسفّرها إلى حياة أخرى أفضل، كما تتطلّب التجربة المهنيّة، ارتجل صاحبها لها درعاً لتحريكها بمساعدة الأطفال، الذين كانوا يتناوبون لإسنادها من الخلف بينما تركض هي بالساقين الأماميّتين. شدّ مشهد المقعدة، وهي تتقلّب بين الأمواج وتنبح مستمتعةً، أولادَ جودي. هكذا تمّ التعارفُ. هي كانت ترفأ بدلة استحمام مخطّطة وترشف قطعة مثلّجات بعد الأخرى دون توقّفٍ. والبيطريّ راح يتأمّلها بمزيجٍ من الرعب والذهول أمام تلك البدانة العارية، لكنهما بعد قليل من الحديث صارا صديقين، نسي مظهرها وحين غابت الشمسُ دعاها للعشاء. أنهت الأسرتان يومهما بالتهام البيتزا والهمبرغر.

عاد الرجل مع أتباعه إلى وادي نابًا، حيثُ كان يعيشُ وبقيت جودي تستدعيه في ذهنها. منذ أيّام جيم مورغان، زوجها الأوّل لم تلق رجلاً قادراً على مواجهتها سواء في الفراش أو في الشجار العنيف. خرج جيم مورغان من السجن لحسن سلوكه، وهتف لها على الرغم من أنّها كانت قد تزوّجت من الصغير ذي الشارب، ليقول لها بأنه لم يُمضِ يوماً واحداً من محكوميّته دون أن يذكرها بودٍّ. لكنّها كانت قد سلكت طرقاً أخرى. ثمّ إنّ مورغان قد تحوّل إلى مذهبٍ من مذاهب المسيحيّين الأصوليّين، تعصّبهم عصيٌّ على فهمها، هي التي تلقّت إرثَ العقيدة

البهائيّة المتسامح من والدتها، لذلك لم ترض رؤيته حين عادت وحيدة. رسائل جودي العقليّة قطعت جبالاً وكرومَ عنبٍ شاسعةً وبعد فترة وجيزة عاد البيطريُّ لزيارتها. أمضيا أسبوعَ عسل معَ كلِّ الأطفال ونورا، الجدَّة، التي صارت تابعة كليّاً لجودي. الكوخ الذي اشتراه تشارلز ريفز قبل ثلاثين عاماً، عاد إلى وضعه الأصلي المزعزع. الأرَضَات والغبار ومضي الزمن فعلت فعلها البطيء في الجدران الخشبيَّة، دون أن تقوم نورا بشيءٍ لإنقاذه من الكارثة. وذات مساء ظهرت جودي وزوجها الثاني في زيارة للعجوز فوجداها جالسةً على كرسيِّ خيزرانها تحت الصفصافة لأنَّ سقف الكوخ انهار، فالعوارضُ كانت مهترئة.

ـ حسناً، يا سيِّدة، تأتين لتعيشي معنا ـ أعلنَ الصهرُ.

ـ شكراً، يا بُنيّ، لكن هذا غير ممكن. تصوَّر بلبلة الدكتور في العلوم الإلهية إذا لم يجدني هنا يوم الخميس.

ـ ماذا تقولُ أُمُّكِ؟

ـ أعتقد أنَّ طيفَ والدي يزورها أيّام الخميس، لذلك لم تقبل أن تترك البيت قط ـ وضَّحت له جودي.

ـ ما من مشكلة، يا سيِّدة، نترك لزوجكِ ملاحظة مع العنوان الجديد ـ قرَّر الرجلُ.

لم يخطر لأحدٍ حلٌّ بهذه البساطة. نهضت نورا، كتبت ملاحظة بخطٍّ معلِّمة رائع، أخذت طوق لؤلئها، الناجي من فاقاتٍ كثيرة، علبة الصور القديمة، وزوجاً من اللوحات التي رسمها زوجها وذهبت بهدوء لتجلس في سيَّارة ابنتِها. وضعت جودي كرسيَّ الخيزران في صندوق الأمتعة، فقد تحتاجه أمُّها، أغلقت البيت بالقفل وانطلقوا دون أن ينظروا إلى الخلف. يبدو أنَّ تشارلز ريفز وجد الرسالةَ، كما وجد الرسائلَ الأخرى في كلِّ مرَّة بدَّلت فيها أرملته عنوانها، لأنَّه لم يتخلف خميساً واحداً عن الموعد اللاحق كما لم تُضِعْ نورا عن نظرها خيط البرتقالة الذي يربطها بالعالمِ الآخر. في العام الذي تزوَّج فيه غريغوري من شانون، كانت أخته تعيشُ مع البيطريِّ ومعها أمّها وكومة من الأولاد من مختلف الأعمار والألوان والكنى، تنتظر الولد الثامنِ وتعترف بأنَّها عاشقة. لم تكن حياتُها سهلة، فنصف البيت كان مخصَّصاً لعيادة الحيوانات، وعليها أن تتحمَّلَ صفَّ البهائم المريضة، الهواءَ المشبع برائحة الكريولين، الأطفالَ الذين يتشاجرون كالضواري ونورا ريفز التي دخلت عالمَ الخيال الرحيم وعادت إلى شبابها في عمر تنسج فيه العجائز الأخريات جوارب لأحفاد

أحفادهنّ، ومع ذلك كانت جودي تعتبر نفسها سعيدة لأوّلِ مرّةٍ، فأخيراً صار لها رفيق جيّد ولم تعد بحاجة للعمل خارج البيت. كان زوجها يعدُّ حقل شواء هائل لغذاء القبيلة ويشتري بسكويتاً بالشوكولا بالجملة. وعلى الرغم من الحمل، والمائدة الطيِّبة وشهيَّتها الكبيرة راحت جودي تنحل ببطء، وبعد شهورٍ من الولادة صار لها وزنها يوم كانت فتاة. ذهبت إلى حقل زواج أخيها بثياب من طبقات فاتحة اللون وقبَّعة قشٍّ، آخذةً بذراع زوجها الثالث ومعها سبعة أولاد بثياب الأحد وواحدٍ بين ذراعيها وأمّها بلباس تلميذة وكلبة مشلولة يسندها درع، ومع ذلك تتمتع بأسارير ضحكة الحيوانات السعيدة.

ـ سلِّمي على عمَّتك جودي وجدَّتك نورا ـ قال غريغوري لمرغريت، التي كانت قد صارت في الحادية عشرة من عمرها ومازالت صغيرة القامة، لكنَّها تتصرَّف كامرأة بالغة. لم تكن الصغيرة قد سمعت أحداً يتكلم عن تلك المرأة القبيحة وتلك العجوز الشمطاء الساهية بشريطة معقودة على رأسها، وفكَّرت بأن ذلك السيرك كان نوعاً من المزاح. لم تكن تقدِّر مزاج والدها.

أراد الخطيبُ أن يضفي على العرس جوّاً لاتينيّاً، فتعاقد مع فرقة مرياتشيس من حي الميسيون والطعام أعدَّته روسماري، واحدة من عشيقاته القديمات التي لم تحقد عليه لزواجه لأنَّها لم تحبّه يوماً كزوج. كتبت عدداً من كتب المطبخ وتكسب عيشها من تحضير الولائم، وكان باستطاعتها مع فريق من عاملات الفنادق أن تخدمَ بالسهولة ذاتها حفلةً مكسيكيّة، غداء رجال أعمالٍ يابانيين، أو عشاءً فرنسيّاً. شانون التي تحوَّلت إلى روح حفل الاستقبال وتزيّنت بثوب من الأورغاندي الأبيض البريء، رقصت الباسو دوبل والبوليرو والكورِّدو إلى أن صعدت الكؤوس إلى رأسها واضطرَّت للانسحاب. في بقية الليل رقص غريغوري ريفز وتيموثي دوان مع كارمن كما في أيام *الجيتر ـ بوغ و الروك أندرول* بينما كان داي يراقب بتقاسيم ذاهلة ذلك المظهر الجديد في شخصيّة أمّه.

ـ هذا الولد مثل خوان خوسيه ـ أشار غريغوري.

ـ لا، بل مثلي ـ أجابت كارمن.

كانت قد عادت من رحلتها إلى تايلاند وبالي، بالي والهند بحمولة من المواد ورأسٍ مليءٍ بالأفكار الجديدة. لم تكن تستطيع أن تغطي طلبات المحلات، فاستأجرت محلاً لمشغلها وتعاقدت مع زوج من اللاجئين الڤييتناميين اللذين درَّبتهما لمساعدتها. كانت في الوقت الذي يذهب فيه

داي إلى المدرسة تتمتّع بالهدوء والصمت لتصميم المجوهرات التي يعيدُ عاملاها فيما بعد إنتاجها. حكت لغريغوري بأنّها تفكّر أن تفتح حانوتها الخاصّ بها ما إن تتمكّن من توفير ما يكفي لتخطو على قدميها.

ـ هذا لا يعمل بهذا الشكل. لك عقل ريفيّة. عليك أن تطلبي قرضاً، التجارة تقوم على القروض، يا كارمن.

ـ كم مرّةً طلبتُ منك أن تناديني تامار؟

ـ سأعرّفُكِ على صاحب المصرف الذي أتعامل معه.

ـ لا أريد أن أنتهي مثلك، يا غريغوري. لن تستطيع ولا في مئة عام أن تدفع ما أنت مدينٌ به.

كان ذلك صحيحاً. فصاحب المصرف الصديق اضطرّ أن يقدّم له قرضاً آخر ليقيم مكتبه، لكنّه لم يكن يشكو لأنّ الفوائد قفزت في تلك السنة إلى مستويات لم تعرفها البلاد، وعليه أن يستغلّ زبائن من أمثال غريغوري ريفز لأنّه لم يبقَ كثير ممن يستطيعون دفعها. لم يكن بإمكان تلك العاصفة أن تدومَ كثيراً، وكان الخبراء يتنبّأون باضطراب اقتصاديٍّ سيكون ثمنه إعادة انتخاب الرئيس، الرجل الطيّب الذي كانوا يتّهمونه بأنّه ضعيفٌ وليبراليٌّ أكثر من اللازم، الخطيئتان اللتان لاتغفران في ذلك المكان وذلك الزمان.

أقامَ مكتبه فوق مطعم صينيٍّ وأمر أن يُحْفَرَ اسمه وشهادته بحروفٍ ذهبيّة كبيرة على الزجاج، كما شاهد في أفلام الشرطة السرّيّة: غريغوري ريفز، محام. كانت هذه اللافتة ترمز إلى نجاحه. تبدو عليك ملامح الطبقة الدنيا، يارجُل، لم أر شيئاً أكثر دهمائيّة منه، علق تيموثي دوان، لكنَّ الفكرةَ أعجبت كارمن وقرّرت أن تنسخها لحانوتها، بحروف زخرفيّة عربيّة. كان طابقاً واسعاً في وسط سان فرانسيسكو تماماً بمصعدٍ مباشر ومخرج نجاة، سيكون مفيداً في أكثر من مناسبة. في اليوم ذاته الذي دخل فيه ريفز إلى البناء، صعد صاحب المطعم، وكان من هونغ كونغ ليقدّم تهنئته يرافقه ابنه الشاب المصاب بقصر النظر، القصير والناعم الملامح. مهنته الجيولوجيا، لكن دون أيّة هواية بالمعادن والحجارة، الحقيقة أنه لم يكن يُحبُّ إلاّ الأرقام. كان يُدعى ميك تونغ ووصل إلى البلد في أوج شبابه، حين نقل والده كاملَ العائلة إلى الوطن الجديد. سأل ما إذا كان السيّدُ بحاجةٍ إلى مُحاسبٍ كي يمسك له دفاتره، وشرح له غريغوري أنّه في الوقت الراهن ليس عنده إلا زبون واحدٌ، بمعنى أنّه لم يكن

باستطاعته أن يدفع له راتباً، لكنّه يستطيع أن يستخدمه لعددٍ من الساعات في الأسبوع. لم يكن يظنُّ أن ميك تونغ سيصبح حارسه الأكثر أمانة وسينقذه من اليأس والإفلاس. كانت أسراب العمّال اللاتينيّين قد ازدادت كثيراً في ذلك الوقت. خلال ثلاثين سنة سنصبح، نحن البيض، أقليّة في هذا البلد، كان تيموثي دوان يتنبّأ. أراد ريفز أن يستفيد من تجربةِ الحي الذي ترعرع فيه وتمكنِهِ من الإسبانيّة للبحث عن زبائن بينهم، لأنّ المنافسة في الميادين الأخرى كانت كبيرة، فثلاثةُ أرباع مجملِ محامي العالم تعملُ في الولايات المتحدة، هناك محامٍ لكلِّ ثلاثمئة وسبعين شخصاً. ومع ذلك فالسبب الأهم هو أنّه عشقَ فكرة مساعدة الناس الأكثر تواضعاً، فهو يستطيع أن يفهم أكثر من أيِّ شخص آخر ضيقَ المهاجرين اللاتينيين، هو أيضاً اشتغل في الأعمال المجهدة. كان بحاجة إلى سكرتيرة قادرة على العمل باللغتين فعرّفته كارمن على واحدة تُدعى تينا فاييخ، تغطي المطلوب. ظهرت طالبة العمل في المكتب قبل أن يصل الأثاث، لم يكن هناك إلا كنبة الجلد الإنكليزي، شريكته في الكثير من غراميّاته وعشرات الأصص النباتيّة والأرشيف والملفّات القابعة على الأرض دون ترتيب. اضطرّت المرأة أن تشقّ طريقها وسط الفوضى وتجلسَ على صندوقٍ من الكتب. وجدَ غريغوري نفسه أمام سيّدةٍ لطيفة وحلوة، تتكلّم بإسبانيّة صحيحة وتنظرُ إليه نظرة غامضة من عيني نعجةٍ لطيفتين. شعر بالراحة معها، فهي تشعُّ رزانة، كان يحتاجها. لم يكد ينظر إليها أو يراجع التوصيات بشأنها ولم يكثر الأسئلة، كان واثقاً من حدسه. حين ودّعته نزعت نظّارتها، ابتسمت له وسألته بخجل، ألا تعرفني؟ رفعَ غريغوري نظره وراقبها بتأنٍّ أكثر، كانت إرنستينا بِرِدا، سنجاب الألعاب الجنسيّة، في حمّامات المدرسة، ذئبة المراهقة الحارّة التي أنقذته من عذاب الرغبة حين كان يغرقُ في مرجلِ هرموناته الذي يغلي، السفاد المتعجّل وانتحابات الندم، القدّيسة إرنستينا، التي تحوّلت الآن إلى سيّدة وديعة. بعد كثيرٍ من العشّاق تزوّجت ذات يوم بعد أن نضجت من موظّفٍ في مؤسّسةِ الهاتف، ليس لديها أولاد ولا هي بحاجةٍ إليهم، يكفيها زوجها، قالت له وأرته صورة السيّد فاييخ، الرجل العاديّ جدّاً، الذي سيكون من المحال عليه تذكّر وجهه بعد لحظةٍ من رؤيته. بقي غريغوري ريفز والصورة في يده ونظره إلى الأرض، لا يدري ما يقول.

ـ أنا سكرتيرة جيّدة ـ همست محمرّةً خجلاً.

ـ يمكن أن تكون هذه الحالة مزعجة للإثنين، يا إرنستينا.

ـ لن تشكو منّي، يا سيّد ريفز.

ـ ناديني غريغوري.

ـ لا. من الأفضل أن نبدأ من جديد. لم يعد للماضي حساب. وشرعت تحكي له كيف غيّرت حياتها بعد أن عرفت زوجها، الرجل الساذج البسيط في الظاهر فقط، لأنّه في السرّ ديناميت خالص، محبّ لا يشبع، ومخلص استطاع أن يُهدّئ بطنها المتعطش. لم يكد يبقى من الماضي سوى صورة ضبابيّة، من جهة لأنّه ليس لها مصلحة فيما حدث ومن جهة أخرى لأنّ سعادة الحاضر تكفيها.

ـ ومع ذلك لم أنسكَ قط، لأنّك كنت الوحيد الذي لم يعدني بشيءٍ لم يقرّر تنفيذه ـ قالت.

ـ أنا بانتظارك غداً في الثامنة، يا تينا ـ ابتسم غريغوري شادّاً على يدها.

مزحة جميلة ما قمت به، احتجّ على كارمن بعد ذلك بالهاتف، فأكّدت له هي التي كانت تعرف لقاءات صديقها السرّيّة والملومة مع إرنِستينا بِردا، أنّها لم تكن مزحة، بكل شرف كانت تعتقد أنّها السكرتيرة الأمثل له. لم تُخطئ. فتينا فاييخ وميك تونغ سيكونان الدعامتين الثابتتين في بناء محاماة غريغوري ريفز. كذلك كان جذب الزبائن اللاتينيين فكرة كارمن من خلال الدعاية في قناة تلفزيون اللغة الإسبانيّة في ساعة عرض المسلسلات ، متذكّرةً أمّها المسلوبة أمام الشاشة، قلقاً على مصير تلك الشخصيّات الخياليّة أكثر ممّا على شخصيّات أسرتها أنفسهم. ما من واحدٍ منهما قدّر أثر الإعلان. في كلّ قطعٍ عبر الميلودراما كان يظهر غريغوري ريفز ببدلته حسنة التفصيل وعينَيه الزرقاوين، صورة المهني الأنجلوسكسوني المحترمة، لكنّه حين كان يفتح فمه ليعرض خدماته كان يقوم بذلك بإسبانيّة الحيّ الرنانة، بالمصطلحات والنبرة الممطوطة التي للهيسبانيّين الذين يرونه على الطرف الآخر من الشاشة. يمكن الثقة به، كان يقرّرُ الزبائن المحتملون، إنّه واحدٌ منّا، مع فارق أنّه من لون آخر فقط. وسرعان ما عرفه نُدُلُ المطاعم، سائقو سيّارات الأجرة، عمّال البناء، وكلّ عامل مُحمّص الجلد يعبر أمامه. كينغ بنيديكت كانت القضيّة الوحيدة حين بدأ، وبعد شهر كان عنده من القضايا ما جعله يفكّر بالبحث عن شريك.

ـ موظّفون نعم، أمّا شركاء فلا أبداً ـ نصحه ميك تونغ، الذي كان يقضي اليوم كله في المكتب، على الرغم من أنّه متعاقدٌ لعددٍ من الساعات

في الأسبوع.

بعد سنتين صار يعمل معه في المؤسّسة ستة محامين وموظفة استقبال وثلاث سكرتيرات. ريفز يعالج قضايا في جميع أنحاء كاليفورنيا، يتنقّل في الطائرات أكثر ممّا في البر، رابحاً أموالاً بالأكوام ومنفقاً أكثرمما يكسب. كان ميك تونغ وقتذاك يمضي القسم الأعظم من حياته في غرفته بين الأراشيف والأوراق ودفاتر الحسابات، الوثائق المصرفيّة وآلة تصوير المستندات، إضافة إلى غلاّية القهوة والمكانس واحتياطيّ ورق الحمّام والكؤوس المستهلكة، التي يدخلها في كشوفه بحرص العقعق. كان الآخرون يهزؤون من مسكنة الصينيّ، ويؤكّدون أنّه يعودُ ليلاً بحذرٍ كي يخرج من القمامة كؤوس الكرتون، يغسلها وينضّدها من جديد في الصندوق ليُعَاد استخدامها في اليوم التالي، لكن ميك تونغ لم يكن يكترث بذلك المزاح، فهو مشغولٌ جدّاً في جدولة حساباته.

خنقت رتابة الحياة وواجبات الزواج الأحادي شانون منذ البداية، كان يتملّكها إحساسٌ بأنّها تزحفُ في صحراءٍ من الكثبان اللامتناهية، مخلفة في كلّ خطوة مزقاً من شبابها. خفّت نبرة الضحكة الرنّانة التي كانت تشكلُ جاذبيّتها الأساسيّة وصارت ذات طبيعة متراخية. كانت تمل دون تسلية، يشدُّها إلى زوجها وهم الأمان، الفكرة التي طلعت عليها بها أمُّها التي ألمحت أيضاً أنَّ أفضلَ طريقة للإمساك بغريغوري ريفز هي حملٌ مناسبٌ. كانت راغبة بالزواج، طبعاً، لكن ليس لأسباب بائسة، بل لشعورها بالودّ تجاه ذلك الرجل، فقد شعرت إلى جانبه بالحماية لأوّلِ مرّةٍ. يسعدني ذلك، يا بُنَيّتي، لأنَّ ريفز سيصبح قريباً ثريّاً، ما لم يكن قد صار كذلك، كما سمعتهم يقولون هناك، أجابتها السيّدة. لم تعمل شانون حساباتها، لم تظهر اهتماماً بالمال، على الرغم من نصائح الأسرة بالإمساك بالسمكة السمينة الذي ستمنحها مكانة الملكة الجديرة بجمالها. ومن جهة أخرى كانت فكرة كسب العيش والالتزام ببرنامج عملٍ والتكيُّف بميزانيّة تبدو لها غير محتملة، حاولت تنفيذها، لكنّها أثبتت أنّها غير قادرة على تحمّلها. إنّ زواجاً مزدهراً سيحل لها مشاكلها، لكنّها لم تفكر بالثمن الذي ستدفعه. وهي الآن سجينة داخل البيت، مربوطة إلى الطفل الذي ينمو في بطنها. تسلّت في الأسابيع الأولى بالتشمُّس في المرفإِ بقرب الزورق الشبح، لكن سرعان ما أقنعت غريغوري بتبديل البيت، فانقضت

أشهر في دأب البحث عن بيت أحلامها. لم تعثر على ما كانت تبحث عنه، كما لم تملك الهمّة لتزيين بيتها، فاشترت بسرعة أثاثاً وزيناتٍ من أحد الكتالوغات، وحين وصل رتّبته كيفما اتّفق. تهيم في الغرف المكتظّة وتتسلّى بالحديث بالهاتف مع أصدقائها، تمزح وتهتف لعشّاقها السابقين في ساعات غير مناسبة وتهمس إليهم بعبارات فاحشة، تُثيرهم وتثيرهم حتى الجنون. كانت بحاجة لأن تمارس غِنجها الطبيعيّ إذا لم يتعكّر مزاجها، كما كان يحدث عندما ينفد الكحول.راحت تزيد عدد الكؤوس لمجرّد السأم وصارت تشرب كوالدها. في الأشهر الأولى وقبل أن ينتفخ بطنها، كانت تذهبُ إلى مكتبِ زوجها وتُدخن وساقها على المكتب أمام بعض المحامين الشباب، فقط لأنّها تريد أن تراهم مضطربين. ربّما لم تكن لتنتبه إلى وجود ميك تونغ لو لم يكن منيعاً على سحرها، فقد كان يعاملها محافظاً على مسافة الآداب اللائقة بجدّية غريبة، الحالة التي كانت تثير فيها حنقاً أخرس، وتفاقم الأمر لأنّ المحاسب الصيني كان يُقنّن عليها استخدام بطاقات الاعتماد، ويكبح رئيسه حين يطلق العنان لمصروفات مفرطة إرضاءً لها. كما لم يعجبها تيموثي دوان، دعته في بعض المناسبات للغداء بذريعة مناقشة حفلة عيد ميلاد زوجها، لكنّه حضر برفقة سائحة نمساويّة، كان يخرج معها في ذلك الأسبوع دون أن ينتبه كم كانت شانون أجمل وأكثر استعداداً منها. اعتنِ بزوجتك، نبّه دوان، في اليوم التالي، غريغوري، الذي وصل إلى البيت يطلب توضيحاتٍ، لكنّه لم يستطع مواجهتها لأنّها كانت مغشيّاً عليها في أرضِ المطبخ وحين حاول أن يحرّكها تقيّأت عليه. إنّه الحمل، قال، لكنّ رائحة كحولٍ كانت تفوح منها. ساعدها على الاستلقاء ثم عندما رآها بعد ذلك نائمة بين الملاحف الورديّة، فكّر بأنّها ما تزال شابّة جدّاً، ساذجة قليلاً وربّما لأنّ دوان مدفوعاً بكلبيّته فسّرَ دعوتها البريئة بشكل سيّئ. ومع ذلك لم يستطع الاستمرار بخداع نفسه زمناً طويلاً، فقد رأى بعد أشهر أعراض التآكل، تماماً كما حدث له مع سمانثا من قبل. لكنّه قدّر أنّ ما يربطه بشانون أكثر بكثير ممّا كان يربطه بزوجته الأولى وتمسّكَ بهذه الفكرة كيلا يقع في الاكتئاب. فهما يشتركان على الأقل في متعة الطعام الطيّب والعبث المفرط في الفراش. مثله كانت شانون قلقة ومغامِرة، تستمتعُ بالرحلات والمشتريات والحفلات. ستنتهيان بشكلٍ سيّئ، فزوجتك توالف بين نقاط ضعف طبيعتها، حذّرته كارمن، لكنّه لم يرها بهذا الشكل. ربّما كانا سيستطيعان بمثل تلك التشابهات أن ينسجا علاقة زوجيّة حقيقيَّة، لكن سرعان ما بردت عاطفة اللقاءات الأولى وحين فتّشا في جمر

الصلاء القديم لم يجدا الحبَّ. فغريغوري ما يزال مبهوراً بشباب وفرح وجمال شانون، لكنَّه مشغولٌ جداً ولا يخصِّصُ وقتاً لأسرته، بينما هي يضنيها نفادُ صبرِ مراهقةٍ مُدَلَّلة. ما من أحدٍ منهما اهتمَّ كثيراً بالحفاظ على السفينة التي يبحران فيها، لذلك كان غريباً أن يحقد أحدهما على الآخر حين غرقت أخيراً.

تبخَّرَ حماس غريغوري لشانون بسرعة، دون أن يُلحَظ ذلك لأنَّه شعر تجاهها خلال أشهر الحمل بالحنوِّ الحامي، خليطٍ من الشفقة والذهول. كان بجانبها حين ولدت، يسندها، يجفِّف عرقها، يحدِّثُها ليهدِّئها، بينما ينهمك الأطباء في عملهم تحت الأضواء القاسية في صالة الولادة. ذكَّرته رائحة الدم بالحربِ فعاد ليرى الشابَّ الكنساسي، كما رآه مرَّاتٍ كثيرةً في أحلامه يتوسَّله ألاّ يتركه وحيداً. تعلقت به شانون بينما راحت تدفع كي تخرج الصغير من أحشائها، واعتقدَ غريغوري في تلك اللحظات أنَّه يحبُّها. كان محبّاً للأطفال، متحمِّساً لفكرة أنَّه سيصبح أباً من جديد، فهذه المرَّة سيختلف الأمر، وعدَ نفسه، لن يكون الوليدُ مثل مرغريت، غريباً عنه. أرادَ أن يكون أوَّل من يُشرِعُه للحياة، ومط يديه ليتلقّاه ما إن أطلَّ برأسه. رفعه ليُريه لأمِّه، فلم يستطع عملَ شيءٍ، لأن التأثُّرَ جفَّف صوتَهُ. سيتذكَّر فيما بعد تلك اللحظة على أنَّها الأتمُّ سعادة إلى جانب زوجته، لكنَّ ومضة السعادة تلاشت خلال أيّام قليلة، فهي لم تكن أهلاً لمهمات الأمومة، كما لم تكن كذلك في دور الزوجة أو ربَّة البيت، وما كادت تتمكَّن من ارتداء ملابس العازبة الملتصقة بجسمها، حتى أرادت أن تتملَّص من مصيدة الزواج. كان عشيقها الأوَّل هو الطبيبُ الذي اعتنى بتوليدها وسرعان ما كان هناك عدد منهم، بينما لم يكن لزوجها الغارق في عمله عينان ليرى ما كان جليّاً. كانت شانون تتحوّل مع كلِّ غرام بحسب متطلَّبات الرجل الذي حان دوره، تظهر يوماً بشعرٍ متموِّج وثياب داخليَّةٍ جديدةٍ مطرَّزة بالأسود، ثم لا يمضي أسبوعان حتى تمكث الشلحات الفرنسيَّة منسيَّةً في عمق أحدِ الأدراج لأنها أغرمت بجارٍ كاتب، وغريغوري يجدها متلفِّعةً بإحدى صدّاراته، دون زينة وبنظّارة كاري جديدة، تقرأ يونغ. خلال ذلك كان ديفيد الرضيع ينمو في حظيرة بكّاء ، سيِّئ المزاج ، أمُّه نفسها لا ترغب بتسليته..

حدَّثت تينا ذات يوم بشعور من الخزي بأنَّها رأت أحد محامي المؤسَّسة يُقَبِّلُ شانون في موقف السيَّارات، اعذرني لتدخُّلي في هذا، ياسيِّد ريفز. من واجبي أن أقوله لك، تابعت بصوتٍ مرتعش. صُبِغَ العالمُ بالنسبة إلى غريغوري بالأحمر، أمسك بالمتَّهم من قبَّة سترته وجندله

بلكماته، تمكّن الرجلُ من أخذ المصعد للهرب، لكنَّ غريغوري هبط جرياً درجَ الخدمة وقبض عليه في الشارع في فضيحة اضطرَّت الشرطة للتدخُّل، وانتهى الجميع إلى النظارة للإدلاء بتصريحاتهم، بمن فيهم ميك تونغ، الذي كان عائداً من البريد وتمكن من أن يكون شاهداً على المشادّة، حين كان الفتى مسجّى على الرصيف ينزف من أنفه. عزت شانون ما حدث في تلك الليلة إلى بعض الكؤوس الزائدة، وحاولت أن تقنع زوجها بأنَّ تلك الجسارات تخلو تماماً من أيّة أهميّة، فهي لا تحبُّ غيره. وغريغوري أرادَ أن يعرف ما الشياطين التي كانت تفعلها في موقف السيّارات فأقسمت هي أنّه كان لقاءً عابراً وقبلة صداقة.

ـ يظهر عليك السنُّ، يا غريغوري، فاتت موضتك ـ خلُصت.

ـ يبدو أنّني ولدتُ لتُركِّب لي قرون ـ زمجر غريغوري وخرج صافقاً البابَ خلفه.

نام في نزلٍ إلى أن وقعت عليه شانون وتوسّلته العودةَ، مقسمة على الحبِّ وقالت منتحبة ومؤكِدَة أنّها تشعر إلى جانبه بالحماية والأمان وأنها ستضيع وحيدة. كان غريغوري ينتظرها سرّاً. فقد قضى الليل يقظاً، تعذّبه الغيرةُ، يتصوّر أعمال انتقام غير مجدية وحلولاً مُحالة. تظاهر بغيظ هو فعلاً ما عاد يشعر به، فقط إرضاءً لإذلالها، لكنّه عاد إلى جانبها كما سيفعل في كلِّ مرّة يذهب فيها في الأشهر التالية.

اختفت مرغريت من بيتِ أمّها وهي في الثالثة عشرة من عمرها. انتظرت سَمَانثا يومين حتى هتفت له لأنّها فكرت أنّه ليس عندها مكان تذهب إليه وستعود سريعاً، ومن المؤكّد أنَّ الأمر يتعلّق بهروب غير ذي أهمّيّة، فكل الفتيان في مثل هذا السنِّ يرتكبون هذه الحماقات، وقالت لي، ليس هذا شيئاً من العالم الآخر، فأنتَ تعلم أنَّ مرغريت لا تسبّبُ أيّة مشاكل، جيِّدة جدّاً. كانت لها قدرةُ أمّي على تجاهل الواقع، فهي دائماً تدهشني. أخبرتُ الشرطةَ على الفور، فنظّمت عمليّة بحثٍ شاملة للعثور عليها، وضعنا إعلانات في كل من مدن الخليج، وجّهنا إليها نداءات عبر الإذاعة والتلفزيون. وحين ذهبتُ إلى المدرسة عرفت أنّهم لم يروها منذ أشهر، وقد سئموا من إرسال الملاحظات والتنبيهات إلى أمّها وترك رسائل هاتفيّة لها. كانت ابنتي تلميذة سيِّئة جداً، وليس لها صداقات، لا تمارس الرياضة وتغيب أكثر من اللازم عن الدروس إلى أن انقطعت أخيراً. سألت زملاءها عنها، لكن ما كانوا يعرفونه عنها كان قليلاً أو

أنّهم رفضوا أن يقولوه لي، بدا لي أنَّهم لا يستلطفونها، وصفتها إحدى الفتيات بأنَّها عدوانيّة وفظّة، صفتان محال إلصاقهما بمرغريت التي كانت تتصرَّفُ دائماً مثلَ سيِّدة قديمة في صالون للشاي. كلّمتُ بعدها الجيران وهكذا عرفت بأنّهم كانوا يرونها تخرج في ساعات الليل المتأخِّرة وأحيانا يأتي في طلبها شخص مشبوه على درّاجة ناريّة، وتعودُ دائما في سيّارات مختلفة. قالت سَمَانتا إنّ الأمر يتعلَّقُ ولا شكّ بتقوُّلات سيِّئة القصد، فهي لم تلحظ أيَّ شيءٍ غريب. وأقول: كيف ستنتبه إلى غياب ابنتها، إذا كانت لا تنتبه حتى لوجودها؟ بدت مرغريت في الصورة التي ظهرت في التلفزيون فتاة حلوة وبريئةً، لكنَّني تذكَّرت حركاتها الاستفزازيّة فخطرت لي احتمالات رهيبة. العالم مليء بالمنحرفين، قال لي ذات مرَّة ضابط شرطة حين ضاع في الحديقة واحدٌ من الأولاد الذين كنتُ أرعاهم. كانت أيَّامُ تضرُّعٍ أجوب فيها ثكنات الشرطة والمشافي والصحافة.

- هذه حالة ليس لها إلا سانِ خوداس تاديو، صاحب القضايا الخاسرة - نصحني تيموثي دوان بكلِّ جدِّيَّةٍ حين انهرتُ في مختبره بحثاً عن يدٍ صديقة - عليك بالذهاب إلى كنيسة الدومينكانيين، ضع عشرين دولاراً في صندوق القدِّيس واشعل له شمعة.

- أنت مجنون، يا تيم.

- نعم. لكن ليست هذه هي المسألة. الشيء الوحيد الذي خلَّفته لي اثنتا عشرة سنة في مدرسة الرهبان هو الشعور بالذنب والإيمان غير المشروط بسان خوداس. لن تخسر بالتجريب شيئاً.

- كان الدكتور دوان على حقٍّ، لا يخسر المرء شيئاً بالتجريب. أنا أُرافقك - عرضت سكرتيرتي عليَّ حين علمت بالأمر، وهكذا حدث ووجدت نفسي على ركبتيَّ في كنيسة أشعلُ شموعاً، كما لم أفعل منذ أيّام عملي كخادمٍ لقدّاسات الأب لارّاغيبِل، ترافقني إرنستينا بِردا الرائعة.

في تلك الليلة هتفَ شخص قال إنّهم رأوا في أحد البارات فتاة تشبهها، مع فارق أنَّها أكبر منها كفاية. ذهبنا إلى هناك مع شرطيَّين فوجدنا مرغريت متموِّهة بامرأة. أظافر مستعارة، وحذاء عالي الكعب وبنطلون ملتصق بساقيها وقناع من المكياج يشوِّه وجه الطفلة عندها. رأتني فراحت تجري وحين أمسكنا بها عانقتني باكيةً ونادتني بأبي لأوَّل مرَّة حسبما أذكر. أظهر الكشفُ الطبيُّ عن آثار إبر في ذراعيها والتهاب سمِّيّ. وعندما حاولت أن أكلِّمَها في العيادة الخاصّة التي أدخلناها إليها

رفضتني بسيلٍ من الكلمات المقذعة التي بصقتها بصوتِ رجل، بعضها لم أسمعه من قبلُ حتى في الحيِّ الذي ترعرعتُ فيه أو في أيَّامِ الخدمة العسكريّة. انتزعت المجسَّ من ذراعها وكتبت على جدرانِ الغرفة بقلم أحمر الشفاه بذاءات مرعبة، مزَّقت الوسادة وأطاحت أرضاً بكل ما كان في متناول يديها. احتاجت إلى ثلاثة رجالٍ كي يثبّتوها بينما كانوا يعطونها مهدّئاً . في اليوم التالي ذهبتُ مع سمانثا لزيارتها فوجدناها رزينةً ومبتسمةً في سريرها، بوجهٍ نظيف وشريطةٍ على شعرها، مُحاطة بباقات الزهر، علب الشوكولا وحيوانات من النسيج الموبَّر أرسلها إليها موظّفو مكتبي. لم يبق أثر من مسكونةِ الأمسِ بالعفاريتِ. وعندما سألتها لماذا ارتكبت مثل تلك الوحشيّات انفجرت باكيةً بندم ظاهريٍّ، قالت إنّها لم تعرف ما جرى لها، لم تفعل ذلك من قبل، كان السبب هو صداقات السوء، لكن علينا ألاّ ننشغل، فهي انتبهت إلى الخطر ولن تلتقي بهؤلاء الناس السيّئين، أما الحقن، فقد أقسمت بأنها مجرَّد تجربة لن تكرِّرها.

ـ أنا في حالة جيِّدة. ـ قالت لنا ـ الشيء الوحيد الذي أحتاجه هو مسجِّلة لأسمع موسيقى.

ـ ما نوع الموسيقى التي تريدينها؟ ـ سألتْ أُمُّها وهي تسوِّي لها الوسادة.

ـ أحضر لي صديقٌ أغانيَّ المُفَضَّلة ـ أجابت بثبات ـ والآن اتركاني أنام، فأنا متعبة قليلاً.

حين ودّعناها طلبت منّا أنِ نحضر إليها سجائر غير مُبَسَّمة، رجاءً. استغربت أنَّها تُدخِّن، لكنِّني تذكَّرت أنَّني في عمرها صنعت غليوناً. في جميع الأحوال ليس هذا أكثر ما يشغل إذا ما قورن مع المشاكل الأخرى، فقليل من النيكوتين أقل الأمور أهميّة. بدا لي من غير المناسب كثيراً أن أناقش خطر الدخان على الرئتين، في الوقت الذي يمكن أن تموت من زيادة في جرعة الهيروييين. عندما عدت في المساء لزيارتها لم أجدها. تدبَّرت أمرها كي تخدع الممرِّضة المناوبة وتلبس ثياب العاهرة التي جاءت بها وتهرب. وعندما نظّفوا الغرفةَ اكتشفوا حقنة استعمال واحدة تحت الفراش بجانب شريط موسيقى الروك وبقايا قلم أحمر الشفاه. أضعتُ مرغريت ـ منذ ذلك الوقت لم أرها إلاّ في سجن أو سرير مشفى ـ لكنّني لم أكن قد عرفت بعد أنَّني فقدتها، قضيت تسع سنوات وأنا أقول لها وداعاً، تسع سنوات من الأمل الخائب، من البحث غير المجدي، من الندم المُزيَّف، من السرقات التي لا تُحكى، الخيانات، الدهمائيّات، الشكّ،

الإهانات، إلى أن قبلتُ أخيراً في أعماق قلبي أنّ من المحال مساعدتها.

أوّلُ حانوت « *تامار* » ظهر في أحد الشوارع وسط بيركلي، بين مكتبةٍ وصالونِ تجميل، كانت مساحته خمساً وعشرين متراً مربعاً مع واجهة صغيرة وباب ضيّق، ما كان لينتبه إليه أحدٌ بين حوانيت الجوار الأخرى لولا أنَّ كارمن قرَّرت أن تُطبِّقَ مبادئ زخرفة بيت أولغا، لكنَّ بالعكس، فبيت الطبيبة الشعبيّة فيه من التزيينات والألوان الحارَّة ما في معبد شرق آسيوي في أوبريت ولذلك برز بين عمارة الحيِّ اللاتينيّ الرماديَّة والفقيرة. كان محل كارمن محاطاً بالحوانيت البهيّة، والمطاعم الصينيَّةِ بتنّيناتها الغاضبة والمكسيكيَّةِ، بصبَّاراتها الجصّيَّة، والبازارات الهنديَّة، محلات بيعِ السياح وصناعة البورنو المزدهرة بإعلانات النيون التي تظهر أزواجاً عراة في وضعيَّات صعبة التصديق. في جوٍّ من المنافسات كهذا كانَ من الصعبِ جذب الزبائن، لكنَّها طلت كل شيءٍ بالأبيض ووضعتِ ظلَّةً من اللون ذاته على الباب ومصابيح كهربائيَّة قويَّة لإبراز مظهر محلِّها المخبري. نشرت حليَّها على صينيات رملٍ بسيطة وقطع كوارتز شفَّافة، حيثُ تلمع التصاميم المشغولة والمواد الثريَّةُ زاهيةً. علّقت في إحدى الزوايا بعض التنورات الغجريَّة، كتلك التي استخدمتها منذ سنواتٍ، هي النغمات الوحيدة الحارَّة في بياض الثلج. في الجوِّ كان يطفو عبق بهاراتٍ خفيف ونغمات رتيبة لقيثار شرقيٍّ.

- قريباً سيكون عندي زنانير ومحافظ وشالات - شرحت كارمن لغريغوري حين أرته فخورةً بضاعتها الجديدة في حفل الافتتاح - . سيكون هناك تنويعة قليلة، يمكن التركيب بينها جميعاً، بشكل تستطيع الزبونة فيه أن تخرج مكسوَّةً من قدميها وحتى رأسها.

- لن تجدي حماساً كبيراً لهذه الأقنعة - ضحك غريغوري، مقتنعاً بأنَّه لا بدَّ أن تكون الواحدة غير سليمة العقل كي تضع عليها إبداعات صديقته، إلاّ أنَّه اضطرّ بعد قليل لأن يلعق كلماته حين رجته شانون أن يشتري لها عدداً من الحلق «العرقيَّة»، التي بدت له غالية بلا مُبَرَّرٍ ورأى صديقته جون الآخذة بذراع بالسيسكو تتبختر في واحدة من تلك التنورات الزنغريّة الغريبة ذات الرقع متعدِّدة الألوان. تمتم: النساء لغز حقيقيٌّ.

كانت كارمن مورالِس تقوم بتجارتها بصبر الجنائني. تعمل حساباتها أسبوعيَّاً، تدفع قسماً لمتابعة عمل المعمل، وآخر للضرائب، وشيئاً للعيش دون رفاهيّة ولزيادة مدَّخراتها. تعتمد على ڤييتناميَّيْها

المخلصين لإعادة إنتاج التصاميم وبعض جاراتها المكسيكيَّات من حيِّها، اللواتي وبناءً على تعليمات دقيقة يخطن الثياب في بيوتهنَّ ويرسلنها إليها في طرودٍ بريديَّة. كانت تختار الموادَّ بنفسها وتذهبُ مرَّةً في العام لتتبضَّع من آسيا أو شمالِ أفريقيا في رحلات خطرة ترعبُ أيَّة امرأة أخرى، لكنَّها كانت تذهب محميَّة من المخاطر لأنَّها غير قادرة على تصوُّر شرِّ الآخر. لم يكن باستطاعتها أن تغيب إلا خلال عطلة داي المدرسيَّة، الذي اعتاد تلك الرحلات في القطار، سيَّارة الجيب، على الحمار أو سيراً على الأقدام في غابات تايلاند، معسكرات الرعاة البدو في جبال الأطلس، أو الأحياء البائسة في المدن الألفيَّة في الهند. كان جسده الناحل والأسمرُ يقاوم دون شكوى كل أنواع الطعام، المياه الملوَّثة، لسع البعوض، التعب والحرّ الجهنَّمي، فقد كان يتمتَّع بقوَّةٍ فقير هنديٍّ في مواجهة المصاعب. كان طفلاً هادئاً تعلَّم العمليَّات الحسابيّة الأربع باللعب بحبَّات الأطواق فاكتشف قبل بلوغه العاشرة عدداً من القوانين الرياضيَّة، التي عبثاً حاول أن يشرحها لأمِّه ومعلِّمته. فيما بعد وحين تحقَّقوا من نكائه الخارق بالأرقام وفحصه أساتذة جامعيُّون وجدوا أنَّها مبادئ علم حساب المثلَّثات. كان عنده رقعة شطرنج معدنيّة صغيرة لها قطع ممغنطة، ويلعب مع نفسه دون كللٍ ولا حيلٍ، في القطارات المرتعشة ، تكادُ تسحقه حشود المسافرين وأقفاص الحيوانات، حقائب الكرتون غير المرتَّبة وسلال الطعام. لم يناما دائماً في الفنادق وأكواخ ناسٍ أصدقاء، فأحيانا يسافران في قوافل صغيرة أو يأخذان معهما دليلاً ويضطران لأن يُخيِّما وسط العراء.

كان داي يشعر بالأمان الكامل بجانب جسد أمِّه الدافئ ويعتقد أنّه محصَّنٌ سواء نام على حصير على الأرض أو في سريرٍ معلَّق تحت ناموسيّة مرتَجَلَة، يحيط به نعيق طيور الليل المتوعِّدُ، أو وقع سيقانٍ حذرة، غارقاً في رائحة الفضلات النباتيّة أو المغنولية. مرَّ معها في مغامراتٍ كثيرةٍ ولم يشعر بوخزة الخوف إلا في المرَّات القليلة التي رآها فيها خائفةً، لكنَّه يتذكَّر فوراً أمَّه، صاحبة العينين اللوزيّتين السوداوين التي تطير في دفع نفَّاث فوق رأسه لتحميه من كلِّ سوء. في أحد بازارات مراكش الصاخبة، أفلت من يد كارمن كي يتأمَّل بعضَ السكاكين المعقوفة في أغماد الجلد المشغولة. كان صاحب الدّكان رجلاً ضخماً مريعاً ملفوفاً بخرقه، أخذه من رقبته رفعه في الهواء وصفعه، لكن قبل أن يتمكَّن من تكرار الحركة انقضت عليه ضاريةً وقد صارت كلّها مخالب، مزمجرةً تعضّه عضّات كلبة هائجة. رأى داي أمَّهُ تتدحرج مع العربي وسط تنورات

ممزّقةٍ وسلالٍ مقلوبة، بضائع متبعثرة وسخريات آخرين من رجال السوق.
تلقّت كارمن لكمة على وجهها وبقيت لثوان مصعوقةً لكنّ عنفَ يأسها شجّعها من جديد وقبل أن يحتاط أحد كانت تمسك بواحدة من تلك السكاكين المعقوفة خارج غمدها. في هذه اللحظة اندفعت الشرطة، نزعوا سلاحها وأنقذوا التاجر من طعنة أكيدة، بينما الرجالُ المجتمعون في حلقة يحتفلون بالعراك ويحاصرون الأجنبيّة بالصراخ والشتائم. انتهت كارمن وداي إلى مخفر وراء القضبان محاطين بالأشرار الذين لم يجرؤوا على إزعاجهما لأنّهم رأوا الموتَ في عيني تلك المرأة. هُرِع القنصل الأمريكي لإنقاذهما، ثم وعندما ودّعهما نصحهما بألا يعودا ليضعا أقدامهما في ذلك البلد. سنرى بعضنا في العام القادم، قالت كارمن ولم تستطع الابتسام، لأنّ وجهها كان متورّماً وهناك جرح عميق في شفتها.
كانا يعودان من عمليّات السبر تلك بصناديق مليئة بالخرز المتنوِّع، قطع المرجان والبلور أو المعدن القديمة، الأحجار شبه الكريمة، عظام دقيقة النقوش، أصداف تامّة، مخالب، وأسنان حيوانات مجهولة، أوراق وخنافس متحجّرة منذ العصر الجليدي. كذلك كانا يأتيان بأقمشة مطرّزَةٍ وجلودٍ منقوشة تفيد في إضافة تفصيلٍ ما لزنّارٍ أو حقيبة، أشرطة للتنورات ذهب الزمنُ بلونها، أزرار أو أبازيم يكتشفانها في زوايا منسيّة.
لم تعد كارمن آنذاك تعمل في بيتها. فقد صارت كنوزها في الورشة داخل علبٍ بلاستيكيّة شفّافة مرتّبة بحسب المواد واللون، تحبس نفسها هناك وتقضي ساعات في عملِ كلّ نموذج، وضعِ أو نزعِ حبّات، تشتغل معادن، تقصُّ أو تصقل بدأبٍ مخيِّلةٍ صبورة. بدأت هي موضة العناصر الفلكيّة، الأقمار والنجوم، استعمال البلّوريّات للحظ السعيد، الحلي ذات الاستلهامات الأفريقيّة، الحلق المختلفة في كلّ أذن، القرط الوحيد في الأنف مع جلجل من الحجارة وقطع الفضّة، التي ستُنْسَخُ فيما بعد حتى الإشباع. منحتها السنون ثقة وهذبت ملامحها، لكنّها لم تخفّف من استعدادها للفرح كما لم تقلّل من حبّها للمغامرة. كانت تدير تجارتها كخبيرة، وتسرُّ بها إلى حدّ أنّها لم تكن تعتبرها عملاً. كانت غير قادرة على أخذ نفسها مأخذ الجدّ. لم تر اختلافاً بين مؤسّستها المزدهرة ويوم كانت تصنع تحفها في بيت أبويها لتبيعها في الحيّ اللاتيني أو ترتدي المناديل متعدّدة الألوان لتقوم ببهلوانيّاتها في ساحة بِرشينغ. ما من شيءٍ يشكّلُ جزءاً من تسلية الحياة المتواصلة وزيادة أصفار الحسابات المصرفيّة بدّلَ شيئاً في طبيعة عملها اللعوب. كانت أوّل من فوجئ بنجاحها، وصعب عليها أن تصدّق أن الناس على استعدادٍ لأن يدفعوا كلّ

تلك المبالغ على تلك الزينات المبتَدَعَة في لمحة إلهام مسلية. كذلك مساعي الحياة ومخادع النجاح لم يبدِّلا من طبيعتها اللطيفة. بقيت منفتحة، واثقة وكريمة. علَّمتها الأسفارُ، حالاتُ البؤس والألم اللامتناهية التي تعاني منها البشريَّةُ فصارت تشعر إذا ما قارنت نفسها بآخرين أنَّها محظوظة جدَّاً. بالنسبة إليها لم يكن هناك تعارض بين عين التجارة الجيِّدة والشفقة، فمنذ البداية تدبَّرت أمرها كي تُقدِّمَ عملاً لأكثر الناس انسحاقاً في السلَّم الاجتماعي، ثم حين كبر معملها تعاقدت مع الكثير من اللاتينيِّين، اللاجئين الآسيويين والأمريكا ـ وسطيين، المقعدين بل وزوج من المتخلِّفين عقليّاً كلَّفتهما بالنباتات والحدائق، حتى أنَّ غريغوري كان يسمّي تجارة صديقته «مأوى معوزي تامار». كانت تستهلك الوقت والمال في تدريبات مضنية ودروس لغة إنكليزية لعمَّالها، الذين كانوا بشكل عامّ من الواصلين توّاً إلى البلد هرباً من فاقات مرعبة.كان إحسانها التلقائي بالنتيجة إجراءً مؤسَّساتيّاً مستقبليّاً، كما هو حال المطعم المجاني، الاستراحات الإجباريّة، موسيقى الجوّ، الكراسي المريحة، دروس الرياضة البدنيّة، واسترخاء العضلات المنكمشة من جهد تركيب المجوهرات الدقيق، واختراعات أخرى كثيرة، لأنَّ طاقم العمل كان يتجاوب بإخلاص وفعاليَّة مدهشة.

تعلَّمت كارمن من أسفارها أنَّ العالم ليس ولن يكون أبداً أبيض وأسود . لذلك كانت تفتخر بجلدها المحمَّص وملامحها اللاتينيّة. كان موقفها المتعالي يخدع البقيَّة ويخلِّف عندهم انطباعاً بأنَّها أطول وأكثر شباباً وتقدِّم نفسها بوقار، ملفعَّة بثيابها الغجريَّة ترافقها جلجلة أساورها، حتى أنَّ أحداً لم يكن يجهد نفسه لمعرفة قامتها القصيرة، ثدييها الثقيلين وجسدها الشبيه بقيثارة، أو للشيب في شعرها وتجاعيدها الأولى. في استراحة المدرسة ربح داي مسابقة مع زملائه لأنَّ له أجمل أم.

ـ ألن تتزوَّجي أبداً، يا أمّاه؟ ـ سألها الطفل.

ـ بلى عندما تكبر سأتزوَّج منك.

ـ عندما أكبرُ تكونين قد أصبحت عجوزاً جدَّاً ـ وضَّح لها داي، الذي كانت الأرقامُ بالنسبة إليه حقائق لا تدحض.

ـ عندئذٍ سيكون عليَّ أن أبحثَ عن زوجٍ هرم مثلي ـ ضحكت كارمن ورأت بلمح البصر في ذاكرتها وجهَ ليو غالوبّي، تماماً كما تذكَّرته تكراراً خلال تلك السنوات وكما رأته لأوَّلِ مرَّةٍ ، نصف مختفٍ خلف باقة الزهر

الذابلة وهو ينتظرها في مطار سايغون. وتساءلت ما إذا كان يتذكَّرها أيضاً وقرَّرت بأن عليها أن تتحقَّقَ من ذلك ذات يوم، لأنَّ داي يكبر بسرعة وربّما لن يحتاجها في القريب العاجل. ثمَّ إنَّها تعبتْ من العشاق العابرين. تختار رجالاً يافعين لأنّها كانت تحتاج إلى الانسجام والجمال من حولها، لكنَّ الفراغ العاطفيَّ بدأ يثقل عليها.

بينما كان صديقُها غريغوري يعيش كثريٍّ مراكماً الديون وآلامَ الرأس، كانت هي تعيش كعاملة، لكنها تحصد مالاً وملاطفات. فسرعان ما أصبح اسم *تامار* رمزَ الأصالة والنوعيّة الممتازة. ووجدت نفسها دون قصدٍ تدير عروض أزياء وتلقي محاضرات كخبيرة، دون أن يغيب عن نظرها أنَّ المسألة بكاملها مزحة. سيكتشفون أنّني لا أعرفُ شيئاً من شيء، أتدبَّرُ أمري لأستميلَ العالم بتبجح خالص، كانت تعقِّب مع غريغوري حين تخرج في مجلاّتٍ نسائيّة وفنيّة أو في المطبوعات الاقتصاديّة كنموذج لمؤسَّسة سريعة التطوُّر. بعد سنواتٍ قليلة، حين أصبح هناك فروع «*لتامار*» في عددٍ من العواصم، وصار يعمل تحت إمرتها قرابة المئتي شخص، دون أن يُحسب الباعة الذين يجوبون عدداً من القارّات يعرضون بضائعها في أفخر الحوانيت، وحين صار قسم المحاسبة يشغل طابقاً كاملاً في المعمل، كانت هي ما تزال تسافر على بغلة في الأدغال أو على الجمل في الصحراء، تشتري موادّها وتعيش بتواضع مع ابنها، ليس لتقتيرٍ فيها بل لأنّها لم تعرف بأن الحياة يمكن أن تكون أكثر راحة.

أكثر ما كان يتمنّاه كينغ بنيديكت هو قطار كهربائيٌّ في صالة بيت أمّه. كان قد عمل محطّةً وقرية من بيوت خشبيّة، وأشجاراً من كرتون وطبيعة من هضاب وأنفاقاً مصغَّرة تنتشر من الجدار إلى الجدار معيقة المرور في الغرفة. لم يكن ينتظر غير القطار لأنَّ بِل وعدته أنّه سيكون أوّل ما ستحصل له عليه حين يستلمان مال القضيّة. كان يشعر بنفسه كمُقعد ويتمسَّكُ بتلك المرأةِ طويلةِ الجيد وصفراءِ العينين، التي تؤكِّدُ أنّها أمٌّ، وتمثّلُ بوصلته الوحيدة في عاصفة التردّد. منذ الحادث صارت ذاكرته ضباباً خالصاً، أربعون سنة امّحت في اللحظة التي ارتطم فيها رأسه بالأرض. يتذكّرُ أمّه شابّة وجميلةً، كيف تحوَّلت إلى تلك العجوز المستهلَكة في العمل والسنين؟ من تكون بِل واقعياً؟ حبذا لو تشتري لي القطار... كان يفهم أنَّ تلك الألعاب ما عادت له، لكن أيضاً لا تهمُّه المسائل

التي تهوس الرجال. كان يقضي ساعات وساعات متبلّداً أمام التلفزيون، هذا الاختراع العجيب الذي لم يعرفه في السابق، وحين يرى بعض القبل الحارّة في الشاشة يشعر بلهفة عمياء، شيءٍ يخفق في داخله، من حسن الحظّ أنّه لا يدوم كثيراً. كان يشدُّه كتالوغ القطارات الكهربائيّة أكثر بكثيرٍ من مجلاّت النساء العاريات التي يعرضها عليه بائع الصحف في كشك الزاوية. كان يرى نفسه أحياناً عن بعدٍ، كما لو أنّه في السينما يتأمّلُ وجهه في سيناريو عديم الشفقة. لم يكن يتعرّف على جسده. شرحت له أمُّه الحادثَ وفقدان الذاكرة. لم يكن غبيّاً، كان يعرف أنّه ليس في الرابعة عشرة من عمره. ينظر إلى نفسه طويلاً في المرآة دون أن يتعرّف على ذلك الجدِّ الذي يُحيّيه من الطرف الآخر، يضع لائحة بالتغيرات ويتساءل في أيّة لحظة حدثت، كيف تراكم كلُّ هذا التآكل. كان يجهل كيف فقد شعره وزاد وزنه وظهرت تجاعيده، أين انتهت بعضُ أسنانه، لماذا تؤلمه عظامه حين يرمي كرة، والهواءُ ينفد حين يصعد الأدراج ركضاً ولا يستطيع أن يقرأ دون نظّارات. لا يتذكّر أنّه اشترى تلك العدسات. يجلس أمام طاولة في مكتبٍ مليءٍ بالنباتات والكتب بين رجلين يحاصرانه بالأسئلة، بعضها من المحال الإجابة عليها، بينما سكرتيرة تكتب على الآلة الكاتبة كلَّ كلمة. من كان الرئيس في العام الذي تزوّجت فيه؟ كانت أمُّه تجبره على الذهاب إلى المكتبة لقراءة الصحف القديمة ليعرف ما حصل في العالم خلال تلك السنين الأربعين التي امّحت من ذاكرته. المعلومات المجرّدة كانت بالمحصّلة مفهومة لديه أكثر من آلات الاستخدام اليومي، مثل فرن الموجات الصغرى وأشياء أخرى مدهشة وغامضة. كينغ كان يعرف أسماء الرؤساء، أهم نتائج مباريات البيسبول، الرحلات إلى القمر، اغتيال جون كنيدي ومارتن لوثر كينغ، لكن ليس عنده أدنى فكرة أين كان خلال هذه الأحداث ويستطيع أن يقسم إنّه لم يتزوّج قط. كانت أمُّه تقبر المساءات وهي تحكي له أشياء من حياته ذاتها لترى ما إذا كان لكثرة تردادها تستطيع أن تقشع سدمَ النسيان عنه، لكن تمارين الذاكرة تلك كانت طريقاً مضجراً لا ينتهي من الآلام. كان يصعب عليه أن يكون مصيره تافهاً إلى ذلك الحدِّ، وأنَّ شيئاً مهمّاً لم يحدث، ولم يحقّق شيئاً من مشاريع شبابه. يشعر بالضيق على الزمن المضيَّع في طوق الرتابات الصغرى، ولذلك كان يشكر الربَّ على تلك الفرصة الثانية في هذا العالم. فمستقبله لم يكن هوّة سوداء خلفه، كما كانت تقولُ أمُّهُ، بل دفتراً أبيضَ أمام عينيه. يستطيع أن يملأهُ بما طمح به دائماً، أن يجوبَ مرّةً أخرى السنوات المعاشة. سيعيش مغامرات، يجد كنوزاً، يقومَ بأعمالٍ بطوليّةٍ، يذهب إلى

أفريقيا بحثاً عن جذوره، لن يتزوّج أو يشيخ أبداً. لو أنّه على الأقلّ يستطيع أن يتذكّر نجاحاته وأخطاءه...دائماً طمح لأن يملك قطاراً كهربائياً ولم يكن ذلك نزوة اللحظة بل أقدم رغبة عنده، حلم الطفولة.حين قال ذلك لريفز، ابتسم له الرجلُ بعينيه فاتحتي اللون واعترف له أنَّ ذلك كان طموحه الأقصى أيضاً. لكنَّه لم يملكه قط. كذب، إذا كان باستطاعتك أن تدفع ثمن هذا المكتب بحروفه الذهبيّة على الزجاج تستطيع أن تشتري أيضاً قطاراً كهربائيّاً بل وإثنين إذا رغبت، هكذا قرَّر كينغ بنيديكت، لكنَّه لم يجرؤ على قوله، لا يمكنه أن يظهر بمظهر الوقح. لماذا اختارت أمُّه محامياً أبيضَ؟ ألم تقل له مرّاتٍ كثيرة أنَّ عليه من حيث المبدأ ألاّ يثق أبداً بالبيض؟ كان الرجل الآخر يضع له الآن صفوفاً من الصور على الطاولة وعليه التعرّف عليها، لكن ما من صورة بدت له مألوفة، باستثناء المرأة الجميلة الجالسة في إطار نافذة ونصف وجهها مضاء بينما النصف الآخر في الظل. إنَّها أمُّه دون شك، على الرغم من أنَّها تبدو مختلفةً جدّاً عن العجوز هذه الساعة. قابلوه مع صور مجلاّتٍ ليحدِّد مدناً ومناظر، جميعها تقريباً كانت مجهولة بالنسبة إليه. وهذا؟ ماذا كان هذا الحقل من القطن وتلك الشاحنة؟ لم يتمكّن من التذكّر، لكنَّه واثق من أنّه كان في مكانٍ مشابه. أين، يا أمّاه؟ لكنَّه قبل أن يتمكّن من سكب الكلمات بدأ يشعر بمسامير في صدغيه وخلال دقائق تفاقم الألم. رفع يديه ليحمي رأسه وحاول الهرب، لكنَّه سقط على ركبته فوق الأرض.

ـ هل تشعر بنفسك مريضاً، يا سيِّد بنيديكت. سيِّد بنيديكت...! ـ وصله الصوت بعيداً. ثمَّ شعر بيدِ أمِّه على جبينه والتفت ليعانقها من خصرها ويختبئ في حضنها، يضايقه طرقُ المطارق الصمَّاء تدوِّي في دماغه وموجة من الغثيان تملأ فمه باللعاب وتجعله يرتعد.

تأخّر غريغوري ريفز سنة حتى قيل أنَّه لم يكن هناك من سبب لأن يستمرَّ بالنضال من أجل زواج كان عليه ألاّ يحقّقه أبداً، وسنة أخرى ليتخذ قرار الطلاق، لأنَّه لم يكن يبغي تركَ ديفيد ويؤلمه أن يقبل بفشلٍ ثانٍ.

ـ المشكلة ليست شانون، بل أنت ـ شخَّصت كارمن ـ ما من امرأة تستطيع أن تحلَّ لك مشاكلك، يا غريغ. حتى الآن لا تعرف عمّا تبحث. لا تستطيع أن تحبَّ نفسك فكيف ستحبُّ الآخر؟

ـ هل صوت التجربة هو الذي يكلِّمني ـ سخر هو.

- على الأقل لم أتزوّج مرّتين!

- سيكلّف هذا ثروة - أسف ميك تونغ عندما علم أنّ رئيسه يفكّر بالطلاق مرّةً أخرى.

انتقل ريفز ليعيش بعض الوقت مع تيموثي دوان. بعد مشادّة صاخبة تسابّا فيها ورمته شانون بقنينة على رأسه. وضع ثيابه في حقيبتين وانطلق مقسماً إنّه لن يعود هذه المرّة. وصل إلى شقة صديقه حين كان هذا وسط عشاء رسميّ مع أطبّاء آخرين وزوجاتهم. دخل إلى غرفة الطعام وترك متاعه يرتمي على الأرض بحركة مأساويّة.

- هذا هو كلُّ ما تبقّى من غريغوري ريفز - أعلن بعناد.

- الحساء من الفطر - ردَّ تيموثي دون أن يتبدَّل. فيما بعد قدَّم له حين أصبحا وحدهما في غرفة الضيوف، وعلّق بقوله إنّه انفصل عن تلك الفاجرة في ساعة مناسبة - فأنا بحاجة لرفيق في الجولات الليلية - أضاف.

- لا حلّ، حظّي سيّئ مع النساء.

- لا تقل تُرّهات، يا غريغوري. نحن نعيش في الجنّة. ليست النساء جميلات هنا فقط، بل إنّه ليس لدينا منافسون. فأنا وأنت يجب أن نكون آخر الغزّاب متغايري الجنس في سان فرانسيسكو.

- حتى الآن لم يفدني كثيراً هذا الإحصاء...

أبقت شانون على الطفل معها وبعد فترة قصيرة استقرّت في بيت على هضبة تطلّ على الخليج. عاد غريغوري إلى بيته الذي صار بلا أثاث، لكنّه ما يزال يحتفظ ببراميل الورد. لم يهتم بتعويض ما فُقِدَ، لأنّه في فساد الأزمنة الأخيرة راح ينطوي على نفسه في حنق الزوج المخدوع، وبدت له الجدران الأربعة الإطارَ المناسبَ لحالته النفسيَّة. عندما تحوَّل الاستياء من زوجته إلى رغبة بالانتقام، أرادَ أن يبحث عن عشيقات عزاء كما فعل من قبل، لكنَّه اكتشف أنّ ذلك الحل يعقّد له برنامج عمله ويزيد من غضبه بدل أن يخفّف عنه، فغرق في العمل، دون وقت أو استعدادٍ طيّب للنشاطات البيتيَّة، فاقتصر على الحفاظ على نباتاته حيَّةً.

لم تكن شانون من جهتها أفضل حالاً منه، فشاحنة الانتقال أنزلت العفش في صالة البيت الجديد فبقيت مبعثرة هناك. لم تكد قواها تكفيها لترتيب الأسرَّة وبعض أدوات المطبخ، بينما راحت تزداد من حولها الأشياء المحطمة والفوضى. لم تكن قادرة على الصبر على ديفيد. فالطفل كان

بالمحصّلة مهمّة فوق الطاقة البشريّة، يحتاج إلى مروّض حيوانات ضارية أكثر مما إلى مربّية أطفال، فقد وُلِدَ بنظام جسم متسارع ويعيش مثل متوحّش. طردوه من رياض الأطفال التي حاولا أن يتركاه فيها لعدّة ساعات في اليوم، وسلوكه كان من الهمجيّة بحيث أنّه يبقي أُمّه في حالة استنفار دائم، لأنَّ أيّ سهو يمكن أن ينتهي بكارثة. تعلم مُبكّراً أن يلفت الانتباه بالامتناع عن التنفس وقد أتقن هذه الوسيلة حتى أنّهُ تمكن من إخراج الزبد من فمه، تنقلب عيناه ويسقط في ارتعاشات في كلّ مرّة يعارضانه في إحدى نزواته. كان يرفض استخدام فرشاة الأسنان، المشط أو الملعقة، كان يأكل على الأرض لاعقاً الطعام، ولا تستطيع أن تتركه مع أطفالٍ آخرين لأنّه يعضّهم، ولا بين الراشدين لأنّه يطلق زعيقاً صاعقاً قادراً على أن يسحقَ أشجع الشجعان. سلّمت شانون بانهزامها ما إن بدأ الطفلُ يتنقل حابياً، الأمر الذي تصادف مع شجارات زوجها فبحثت عن الراحة في شراب الجنّ، بينما والده يدوخ في عمله وأسفاره التي أبقته بعيداً، وأمّه تدوخ في الكحول والطيش وكلاهما مشغول في حرب أعداء لا تعرف المهادنة، راح الصغير ديفيد يخزّن حنق الأطفال المهجورين الأخرس. أنهى الطلاق على الأقلّ تلك المعارك اليوميّة حامية الوطيس التي كانت تنهك الأسرةَ كلّها بما في ذلك الخادمة المكسيكيّة، التي كانت تذهب يوميّاً للقيام بأعمال النظافة والعناية بالطفل، وفضّلت أخيراً قلق الشارع على مأوى المجانين ذاك. وكان رحيلها أكثر مأساوية بالنسبة إلى شانون من زوجها. شعرت منذ تلك اللحظة بأنّها بلا حماية ولم تعد تحاول القيام بأيّة مبادرة للسيطرة على نفسها فتركت بيتها وحياتها يعمّهما الغبار والفوضى، تتكدّس من حولها الثياب والصحون الوسخة، الحسابات غير المدفوعة، آلات معطّلة وواجبات تحاول أن تتجاهلها. بهذه الحالة ذاتها من التشوّش بدأت حياتها كمطلّقة، لم تعد تجهد نفسها في دورها كأمٍّ وربَّةِ بيت، تخلّت عن كلّ تطلّع إلى الحشمة المنزليّة، مهزومة قبل أن ترحل، ولكن بقيت لها همّة لإنقاذ نفسها من الغرق والهرب للحظاتٍ مسروقة في البداية، ثمّ لساعات ثم كليّاً.

بقي ريفز في البيت الفارغ بينما الزورق في المرفأ يهترئ وشجيرات الورد تضمر في براميلها. لم يكن حلاً عمليّاً لرجل وحيد، كما جعله يرى كل العالم، لكنّه في شقّة صغيرة كان يشعر بنفسه سجيناً، كان بحاجة إلى فضاءات واسعة يمطّ فيه جسده ويترك روحه طليقة. كان يعمل ستّ عشرة ساعة يوميّاً، وينام أقل من خمس ليلاً، ويشربُ قنينة نبيذٍ مع كلّ وجبة. على الأقل أنتَ لا تُدخّنُ وهكذا لن تستهلك نفسكَ بسرطان الرئة،

واساه تيموثي دوان. كان المكتبُ يبدو معملاً لإنتاج المال، ومع ذلك يعيش في توازن مقلقل بينما المحاسب الصيني يعمل المعجزات لدفع الحسابات المستعجلة. عبثاً حاول ميك تونغ أن يشرح لرئيسه مبادئ المحاسبة الأساسيّة، ليتفحّص أعمدة الدفاتر الدمويّة ويرى كيف يقومون بقفزات بهلوانيّة عمياء على حبل رخو. لا تهتمّ، يا رجل، سنتدبّر أمرنا، فهذا ليس كما في الصين، هنا دائماً يتقدم المرء، هذه أرض الجسورين، لا الحكماء. هكذا كان يهدّئه ريفز، ينظر حوله فيرى أنّه ليس الوحيد في وضعه، فالأمّةُ كلّها تترنّحُ تحت صاعقة الإسراف، مدفوعة في عربدة النفقات ودعاية وطنيّة صاخبة، موجّهة لاستعادة الكبرياء المهان في هزيمة الحرب. كان يسير على إيقاع طبل العصر، لكنّه يحتاج لأن يُخرسَ أصوات سايروس بشعره الطويل الذي لعالم وموسوعاته السرّيّة، أصوات والده وأفعى البوا الوديعة، الجنودِ الغارقين في الدم والرعب، كان يقول تيموثي دوان: لم نعرف مثل هذه الأنانيّة والفسادِ والعجرفة ، منذ الامبراطوريّة الرومانيّة. حين حذّرت كارمن غريغوري من مطبّات الطمع، ذكّرَها بأنها هي التي لقّنته في طفولته الدرس الأوّل في الفطنة، حين أخرجته من الغيتو وأجبرته على الحصول على المال من حي البرجوازيّين. بفضلك اجتزت الشارع واكتشفت ميّزات أن يكون المرء على الطرف الآخر، أفضلُ بكثير أن يكونَ المرءُ ثريّاً، قال، لكنّني إذا لم أستطع فسأعيش على الأقلّ كما لو أنّني كذلك. لم تستطع أن توائم بين جسارات صديقها وجوانب أخرى من حياته حيث كان يكشف عنها في أحاديث الإثنين الطويلة دون أن يتقصّد ، كما هو الحال بالنسبة لنزعته التي تتجلّى أكثر كلّ مرّة، في الدفاع فقط عن أكثر الناس فاقة، وليس أبداً عن المؤسّسات أو شركات الضمان، حيث توجد مرابح أساسيّة دون مخاطر كثيرة.

ـ لستَ واضحاً، يا غريغ. تتكلّم عن جمع المال، وبمكتبك لا يمرُّ إلا الفقراء.

ـ اللاتينيون دائماً كذلك، تعرفين هذا جيّداً كما أعرفه.

ـ هذا ما أنا ذاهبة إليه. لا أحد يصبحُ ثريّاً من نوع هؤلاء الناس. لكنّني سعيدة بأن تبقى الغبيّ العاطفيّ الذي كنته دائماً. لذلك أحبّك. فأنت دائماً تأخذ الآخرين على عاتقك، لا أدري كيف تكفيك قواك.

لم تظهر هذه العلامة في طبيعته كثيراً حين كان صامولة في مسنّنات المكتب الغريب المعقّدة، لكنها بدت واضحة حين صار ربَّ عملٍ نفسه. كان عاجزاً عن إغلاق الباب في وجه من يطلب مساعدته، سواء في المكتب

كما في الحياة الخاصّة. كان محاطاً بأناس في محنٍ ولا يكاد يستطيع أن يفي بالتزاماته مع الجميع. كثيراً ما كان الزبائن يصبحون أصدقاء له، وفي أكثر من مناسبة عاش في بيته أحدٌ ما وجدَ نفسه بلا سقف. نظرة شكر كانت تبدو له تعويضاً كافياً، لكن كثيراً ما كان يقعُ في ورطات خطيرة. لم تكن له عينٌ جيّدة لكشف قليلي الحياء في الوقت المناسب، وحين كان يريد التخلّص منهم يكون قد تأخّرَ الوقتُ، لأنّهم يصبحون كالعقارب، يتّهمونه بكلِّ أنواع الرذائل. حذارِ أن يدخلونا في دعوى سوء استخدام القانون، كان ميك تونغ يحذّرُ رئيسَه حين يراه واثقاً أكثر من اللازم بالزبائن، الذين كان بينهم أشرارٌ يعيشون من التطاول على النظام القضائي وعندهم تاريخ من الدعاوى على ظهرهم، يعملون شهوراً محدودة، ويتمكّنون من حمل الآخرين على أن يطردوهم ليطالبوهم فيما بعد بتعويض فقدان العمل. بعضهم يُوقِعُ بنفسه جروحاً، ليقبض التأمينات. أيضا كان ريفز يخطئ عندما يتعاقد مع موظّفيه، الغالبية كانت لهم مشاكل مع الكحول. وآخر مقامر ويراهن ليس فقط على ما يملك وإنّما على كلِّ ما يستطيع استخراجه من المكتب. كان هناك واحد يعاني من الاكتئاب المزمن وجدوه أكثرَ من مرّة وقد قطع شرايينه في الحمّام.تأخّر سنواتٍ كثيرةً حتى انتبه إلى أنَّ موقفه كان يجلب له مرضى العصاب. لم تكن السكرتيرات يتحمّلن كلَّ ذلك الرعب، وقليلات هنَّ اللواتي يمكثن أكثر من شهرين. ميك تونغ وتينا فايبخ كانا الشخصين الوحيدين الطبيعيَّين في ذلك السيرك من الممسوسين. كان عدم انهيار صديق كارمن حتى ذلك الوقت برهاناً قاطعاً على قوّته، لكنَّ تيموثي دوان كان يسمي هذه المعجزة بمجرّد الحظّ الجيّد.

دخلَ إلى مكتبه من باب الخدمة، كما كان يفعل كثيراً من الأحيان لتفادي الزبائن في قاعة الانتظار. كان مكتبه جبلاً من الأوراق وعلى الأرض تنتظر أيضاً وثائق ودفاتر استشارة، وعلى الكنبة صدّارة وعدد من العلب مع جلاجل وغزلان بلّوريّة. كانت الفوضى تنمو من حوله مهدِّدَة بالتهامه. وبينما كان يخلعُ المعطف المَطَريَّ، تفقّد نباتاته، مشغولاً بمظهر السراخس الجنائزي. لم يتمكّن من قرع الجرس فتينا تنتظره مع مذكّرة اليوم.

ــ علينا أن نفعلَ شيئاً لهذه التدفئة المركزيّة، إنّها تقتل لي نباتاتي.

ــ اليوم عندك تصريح في الحادية عشرة وتذكّر أنَّ عليك أن تذهب

مساءً إلى المحاكم. هل أستطيع أن أرتّب هنا قليلاً؟ فهذا، إذا كان لا يهمُّكَ أن أقوله لك، يا سيّد ريفز، المكتب أشبه ما يكون بالمزبلة.

- حسناً، لكن لا تلمسي لي أرشيف بنيديكت، فأنا أعمل به. اكتبي مرَّةً أخرى إلى نادي الميلاد كيلا يرسلوا لي المزيدَ من الآنية. هل تستطيعين أن تأتيني بحبَّة أسبيرين، من فضلك؟

- أعتقد أنَّك بحاجة إلى اثنتين. هتفت أختك جودي عدَّة مرَّاتٍ، الأمر مستعجل - أعلنت تينا وخرجت.

أخذ ريفز الهاتفَ وهتفَ لأخته، التي أخبرته بكلمات قليلة أنَّ شانون مرَّت باكراً وتركت ديفيد عندها في البيت قبل أن تشرع في رحلة مجهولة الاتجاه.

- تعال في طلب ابنك بأسرع ما تستطيع لأنَّني لا أُفكِّر أن آخذَ على عاتقي هذا المسخ، يكفيني أولادي وأُمّي. هل تدري أنَّها صارت تستخدم القماطات.

- ديفيد؟

- أُمّي. أرى أنَّك أيضاً لا تعرف شيئاً عن ابنك نفسه.

- يجبُ إدخالها إلى مأوى العجزة، يا جودي.

- طبعاً، هذا هو الحلُّ الأسهل، نهجرها كما لو كانت حذاءً قديماً، هذا ما يمكن أن تفعله أنت، دون شكّ، لكن أنا لا. هي اعتنت بي حين كنتُ صغيرة ،ساعدتني على تربية أطفالي وكانت بجانبي في كل حاجاتي. كيف يخطر لك أنَّني سأضعها في مأوى للعجزة! بالنسبة لك ليست أكثر من عجوز لا فائدة منها، لكنَّني أُحبُّها وآملُ أن تموت بين ذراعيَّ لا مرميّة ككلبة. عندك ساعة كي تأخذ ابنك.

- لا أستطيعُ، يا جودي، عندي ثلاثة زبائن ينتظرون.

- إذن سأسلِّمه للشرطة. ففي هذه البرهة القصيرة التي قضاها عندنا أدخل القطَّ في مجفِّفة الثياب وقصَّ شعر جدَّته - قالت جودي محاولة أن تسيطر على جرس صوتها الهستيري.

- ألم تقل شانون متى ستعود؟

- لا. قالت بأنَّ لها الحقّ في أن تمارسَ حياتها، أو شيئاً مُشابهاً. كانت تفوح منها رائحة الكحول وفي غاية العصبيَّة، شبه يائسة، لا ألومُها، هذه المرأة المسكينة التي لا تسيطر على حياتها، كيف ستسيطر على ابنها.

- وماذا سنفعل الآن؟

- لا أدري ما ستفعله أنت. كان عليك أن تُفكِّر به قبل هذا بكثير، لا أدري لماذا تطلق إلى الحياة أولاداً إذا لم يكن في نيَّتك أن تُربِّيهم. صار عندك ابنة مدمنة على المخدرات، ألا يكفي؟ أم أنَّك تريد أن يتبع مُثُل أخته؟ إذا كنت لا تستطيع أن تكون هنا خلال ساعة فاذهب إلى الشرطة فهناك ستجد صغيرك - وأغلقت الهاتف.

نادى ريفز تينا ليطلب منها إلغاء مواعيد اليوم. أدركته على الباب يرتدي سترته الطويلة والمظلَّة في يده، واثقة من أنَّ رئيسها يحتاجها في هذه الحالة الحرجة.

- ما رأيك بامرأة تهجر ابنها وهو في الرابعة من عمره، يا تينا؟ - سألَ ريفز سكرتيرته في منتصف الطريق.

- الرأي ذاته بأبٍ يهجره في الثالثة - أجابت بنبرة لم تستخدمها قط وهكذا أنهت الحديث. في بقيّة الرحلة بقيا صامتين، يسمعان كونشيرت في الإذاعة، محاولين أن يبقيا اضطرابَ الخيال على الحدّ. كل شيءٍ متوقَّعٌ من ديفيد.

كانت جودي أمام الباب تنتظر ومعها أمتعة ابن أخيها بينما الطفلُ يجري هائماً في الحديقة بلباس جنديٍّ يرمي الكلبة المقعدة بالحجارة. فتحت تينا مظلَّتَها العملاقة وجعلتها تدور مثل دولاب أرجوحة، فكان لذلك من القوَّة ما أوقف ديفيد وجمَّده. تقدَّمَ الأبُ ليأخذه من يده، لكنَّ الطفلَ رماه بحجر وخرج راكضاً باتجاه الشارع. لم يتمكَّن من الوصول فقد أغلقت تينا المظلَّة بحركة مشعوذٍ أمسكت به بعقفتها من ساقه ورمته على فمه أرضاً ثم أخذته من ثيابه، رفعته في الهواء وأدخلته بقوّة نهائية في السيَّارة، كلّ ذلك دون أن تفقد ابتسامتها المعتادة. وتدبَّرت أمرها للحفاظ عليه جامداً طوال طريق العودة إلى المدينة. مَثُل غريغوري في ذلك المساء في المحاكم برغبة شجارٍ أكبر من المعتاد، بينما سكرتيرته الصلبة بانتظاره في الخارج تتحكّم بديفيد بالحكايات والبطاطا المقليَّة وهذه القرصة أو تلك.

هكذا بدأت معايشة غريغوري لابنه. لم يكن مستعدَّاً لمثل تلك الحالة الطارئة كما لم يكن في روتين حياته مكان لمخلوق، وأقل من ذلك لمخلوق متعب كابنه. كان خطر ديفيد من الكبر بحيث لا يستطيع تركه وحده دقيقةً واحدة، في الليل كان يحشر نفسه في فراش أبيه لينام ممسكاً بيده. اضطرَّ في الأيّام الأولى لأخذه معه إلى كل مكان، لأنَّه ليس في عمرٍ

يترك فيه وحيداً، ولم يتمكّن من تأمين من هو مستعد لأن يأخذه على عاتقه، ولا حتى جودي نفسها، على الرغم من ميولها الطبيعيّة نحو الأطفال والمبلغ الكبير الذي عرضه عليها. إذا كان في دقائق قليلة جزُّ شعر رأس أمّي ففي ساعة يقطعها. ذلك كان ردُّ جودي على طلبه. امتلأ بيتُ وسيّارة ريفز بالألعاب، الطعام الزنخ، والشيكلس المعلوكة، وأكداس الثياب الوسخة. ونظراً لغياب حلٍّ آخر حمله معه إلى المكتب، حيث حاول موظّفوه في البداية ملاطفته، إلاّ أنّهم أعلنوا انهزامهم معترفين بنزاهةٍ أنّهم يكرهونه. كان ديفيد يجري فوق المكاتب، يبلع الشكّالات المعدنيّة ثمّ يبصقها فوق الوثائق، ينزع مآخذ الحاسوبات ويغرق الحمّامات بالماء، يقتلع أسلاك الهاتف ومن كثرة ما ركب في المصعد عطّل آلته، وباقتراح من سكرتيرته تعاقد غريغوري مع مهاجرة سلفادوريّة غير شرعيّة لرعايته، لكنَّ المرأة لم تمكث أكثر من أربعة أيّام. كانت الأولى في لائحة طويلة ممّن مررن بالبيت دون أن يتركن أيّة ذكرى. إلى الشيطان بالصدمات النفسيّة، لو كنت مكانك لأقمت الدنيا وأقعدتها على رأسه، نصحته كارمن بالهاتف، على الرغم من أنّها لم تمر بمناسبة لفعل ذلك مع داي. فضَّل الأب استشارة طبيب أطفال نفسي، نصِح بمدرسة خاصّة بالأطفال الذين يعانون من مشاكل في السلوك، وُصِفَ له حبوباً للتهدئة والمعالجة الفوريّة، لأنّه، بحسب ما وضّح، تترك الجراح العاطفيّة في السنوات الأولى من الحياة ندوبها التي لا تمحى.

ـ وبالمناسبة أقترح عليك أن تعالج نفسك أيضاً، لأنّك تحتاجها أكثر من ديفيد. إذا لم تسوِّ مشاكلك فلن تستطيع أن تساعد ابنك ـ أضاف، لكنَّ ريفز أبعد تلك الفكرة دون لحظة تفكير. فقد ترعرع في وسط لم يكن يُطرح فيه هذا الاحتمال، كان ما يزال يؤمن بأنَّ على البشر أن يتدبّروا أمورهم بمفردهم.

كان ذلك عاماً صعباً على غريغوري ريفز. إنّه أسوأ ما في قدرك، لم يعد عليك أن تنشغل لأنَّ المستقبلَ سيكون أسهل بكثير، أكدت له أولغا فيما بعد، عندما حاولت أن تقنعه بقوّة الزجاج لمواجهة الحظ السيّئ. تجمّع عليه عددٌ من الفواجع فانهار توازن الواقع الهشّ عنده. مَثُلَ ميك تونغ ذات صباح منهاراً ليعلن له أنّه مدين للمصرف بمبلغ من المحال دفعه والفوائد تخنق المؤسّسة، ثمّ إنّه لم ينته من نفقات الطلاق. النساء اللواتي راح يخرج معهنَّ رحن يختفين الواحدة تلو الأخرى، كلّما سنحت لهنَّ الفرصة

لمعرفة ديفيد، ما من واحدة منهنّ كان عندها من قوّة العريكة ما يسمح لها بمشاركة حبيبها ذلك المخلوق الجموح. لم تكن المرّة الأولى التي تحاصره فيه الظروف، إنما أضيفَ إليها اليوم العناية بابنه. كان يستيقظ باكراً ليرتّب البيت، يحضّر طعام الإفطار، يسمع الأخبار، يبرمج الغداء ويلبس الطفل ثيابه، يتركه في المدرسة ما إن يبدأ مفعول الحبوب المهدّئة، ويذهب إلى المدينة. دقائق السفر الأربعون تلك كانت لحظة السلام الوحيدة في يومه، يتذكّرُ والده حين كان يمرُّ بين بروج جسر غولدن كات الشامخة كأنّها أبراج نواقيس صينيّة من اللك الأحمر، والخليج على جانبه، مرآة داكنة تعبرها أشرعة المتعة وزوارق الصيد، وطيف سان فرانسيسكو الأنيق أمامه. أجمل مكانٍ في العالم يناديه. يسمع موسيقى، محاولاً أن يبقي على عقله صفحةً بيضاء، إلاّ أن ذلك يكاد يكون دائماً محالاً، لأنّ لائحة المسائل العالقة كانت بالنتيجة لا نهائيّة. كانت تينا تحدّدُ مواعيده في ساعة مبكّرة، ليستطيع أن يأخذ ديفيد في طريقه، يحمل معه وثائقه إلى البيت بهدف دراستها مساءً، لكنّ الوقت لم يكن يكفيه، لم يخطر له قط أنّ طفلاً يمكن أن يشغلَ كلَّ ذلك الفراغ، ويحدث كل ذلك الضجيج ويحتاج إلى كل ذلك الانتباه. لأوّل مرّة يحزن على شانون، بل ويتفهّم اختفاءها، ثمّ إنّ الطفل كان يجمع حيوانات سحريّة وعليه هو أن يغسل حوض الأسماك، يطعم الفئرانَ، ينظف قفصَ الببغاوات وينزّهَ الكلب، الغنّام الأصفر، الذي سمّوه *أوليفر* تيمّناً بأوّل صديق لغريغوري.

- يحدثُ لك هذا لأنّك غبيّ. أوّلاً كان عليك ألاّ تشتري حديقة الحيوانات هذه. ـ قالت له كارمن.

- كان باستطاعتك أن تُنبّهيني من قبل، أمّا الآن فلا يمكن عمل شيء.

- طبعاً يمكن. اهدِ الكلبَ، أطلق الطيورَ والفئرانَ وارمِ الأسماكَ في الخليج. والجميع يخرج رابحاً.

كانت الأوراق تتراكم على الأدراج التي يستخدمها كطاولة. اضطرَّ لإلغاء رحلاته وتسليم قضايا المدن الأخرى إلى موظّفيه، الذين لم يكونوا دائماً قنوعين أو سليمين ويرتكبون أخطاء مكلفة. انتهت غداءات الصفقات، مباريات الغولف، الأوبرا، الهرب إلى الرقص مع نساء قائمته، وحفلات الصخب مع تيموثي دوان، لم يعد باستطاعته حتى الذهاب إلى السينما كيلا يترك الطفل وحيداً. كما أنّه لم يستطع أن يلوذ بالفيديو لأنّ ديفيد لا يقبل إلاّ أفلام المسوخ والعنف المتطرّف، كلّما كانت أكثر دمويّة كلّما أعجبته أكثر. حاول غريغوري المشمئزّ من كلّ أولئك الموتى،

المعذَّبين، العائدين إلى الحياة، الرجال الذئاب والخونة من خارج الأرض، أن يشغله بالكوميديات الموسيقيّة، والرسوم المتحرِّكة، لكن كليهما كان يضجر في الحال. كان من المحال عليه أن يدعو أصدقاءه إلى البيت، فديفيد لم يكن يتحمَّلُ أحداً، ويعتبر كلّ من يقتربُ من أبيه تهديداً له فيدخل في حالة من الرفس، الغيرة تعجِّل طبعا بهرب الزائرين. وإذا كان عنده حفلة أحياناً أو موعد مع صديق مهم يتدبّر أحداً ليراقب الطفل لساعات، لكنَّه يعود دائماً ليجد البيت وقد كنسه إعصار، والراعية في حالة اكتئاب أو على حافّة نوبة عصبيّة. الوحيد الذي كان ذا صبر كافٍ هو كينغ بنيديكت، الذي برهن أنَّه مؤهَّلٌ لدور مربّي الأطفال، يتمتّع أيضاً بألعاب الفيديو وأفلام الرعب، لكنَّه كان يعيشُ على مسافة بعيدة جدّاً، ثمَّ إنّه كان مثل الطفل معدوماً. حين يتركهما غريغوري وحيدين كان يذهب قلقاً ويعود على عجلة، متخيِّلاً الكوارث التي لاحصر لها والتي يمكن أن تحدث في غيابه. كان يخصِّصُ نهايات الأسابيع كلّها لابنه، لتنظيف البيت، الذهاب إلى السوق، تصليح المخرَّبات، تبديل القشّ للفئران، غسل حوض الأسماك، التي تصبحُ طافية مغشيّاً عليها لأنَّ ديفيد قد ألقى لها في الماء من كلّ ما هو موجود. حتى في نومه كانت تلاحقه الديون المتوجّب دفعها، الضرائب المتأخرة وإمكانيّة أن يجد نفسه في ورطة لا مخرج منها لأنَّه لا يثقُ بمحاميّه، وهو نفسه أهمل بعض زبائنه. والطامّة الكبرى أنَّه اضطرَّ أن يسرِّح المهني الموثوق لنقص الأرصدة، أمام ذعر ميك تونغ، الذي كان يتنبَّأ بكل أنواع الكوارث الماليّة ويؤكِّدُ أنَّ العملَ في هذا المجال دون حماية من شركة ضمان عملٌ انتحاريّ. لم يكن المال ولا القوّة ولا الساعات تكفي غريغوري، فقد كان متعباً جدّاً، ويحنُّ للوحدة والصمت قليلاً، يحتاجُ على الأقل لأسبوع من الراحة على أحد الشواطئ، لكن كان من المحال عليه السفر مع ديفيد. اهده لأحد المخابر، فهم دائماً بحاجة لبعض الأطفال لتجاربهم، اقترح عليه تيموثي دوان، الذي لم يعد أيضاً يظهر في بيت صديقه خوفاً من مواجهة الصبيّ. كان غريغوري يشعر برأسه مليئاً بالضجيج، كما في أسوأ أيّام الحرب، ينمو الإحباط من حوله دون إمكانيّة لوقفه، شرع يشربُ زيادةً وأفراحه لا تهادنه، يختنق كما لو أنَّ رئتيه مليئتان بالقطن، كان الكحول يسبِّبُ له انتعاشاً مؤقّتاً وقصيراً ليغوص به فيما بعد في حزنٍ طويل، ويصبح في اليوم التالي على احمرار في جلده، وأزيز في أذنيه وانتفاخ في عينيه. شعر لأول مرّة أنَّ جسدَه يخونه، وكان قد سخر حتى ذلك الوقت من التعصّب الكاليفورني للحفاظ على الشكل، فكَّر بأنَّ الصحة مثل لون الجلد، شيء يأتي مع الولادة ولا

تستحق أن يتكلّم عنها. لم يهتمّ قط بالكوليسترول، السكّر المصفّى أو الشحوم المشبعة، وبقي لامبالياً بالأغذية العضويّة والألياف، وكذلك بهوس الزيت المبَرْزِن، أو الجري، إلا إذا كان عليه أن يصل سريعاً إلى مكان ما. كان واثقاً أنّه لن يكون لديه الوقت ليعاني من الأمراض، لن يموت عجزاً، بل بحادثٍ مفاجئ.

ولأوّل مرّة يتقلّص اهتمامه بالنساء، هذا ما كان يخلقُ عنده بعض الضيق، لكنّه في الوقت ذاته يشعر بشيءٍ من الراحة، فهو من جهة يخافُ أن يفقد رجولته ومن جهة أخرى يفكّرُ بأنَّ حياته دون هذا الهوس يمكن أن تكون أكثر احتمالاً. صارت المواعيد أقل، اقتصرت على لقاءات سريعة عند الظهيرة، لأنَّ عليه أن يعودَ في المساء مع ديفيد. كان الجنس بالنسبة إليه مثل الجوع أو النعاس يجب إشباعه على الفور، لم يكن رجلَ مقدّمات، فرغبته ذات طبيعة متلهِّفة.

- إنّني أتحوّل إلى رجلٍ يتوقّف أمام التوافه. لا بدَّ أنّه العمر - عقّب لكارمن.

- هذه ساعتها. لا أفهم كيف أنَّ رجلاً منتقياً لثيابه، موسيقاه، كتبه، يتمتّع في مطعم جيّدٍ، يشتري أفضل نبيذٍ، يسافر في الدرجة الأولى وينزل في الفنادق الفاخرة، يمكن أن يمشي مع تلك المتسكّعات.

- لا تبالغي، بعضهنَّ ليس سيّئاً - ردَّ، لكنّه في أعماقه وافق صديقته، فعنده الكثير ليتعلّمه في هذا الميدان. المتعة الوحيدة التي كان يتسلّى بها دون استعجال وبقصد إدامتها هي الموسيقى. في الليل حين لم يكن يستطيع النوم والقلق يمنعه من القراءة، كان يستلقي في الفراش لينظر في الظلام يرافقه أحدُ الكونشيرتات.

في نهاية آذار توفّيت نورا ريفز متأثرةً بالتهاب رئويٍّ. أو ربّما راحت تموتُ شيئاً فشيئاً منذ أكثر من أربعين سنة دون أن ينتبه إليها أحد. كان عقلها في السنوات الأخيرة يهيم في دروب روحيَّة لولبيّة حاملة في يدها دائماً برتقالة *الخطّة اللانهائية* الخفيَّة كيلا تضيِّع الطريق. كانت جودي ترجوها أن تتركها في البيت حين يخرجون، فلا يظنُّ الناس أنَّ أمَّها تمدُّ يدها لتطلب صدقة. كانت نورا تظنُّ نفسها في السابعة عشر من عمرها في قصرٍ أبيضَ يزورها فيه خطيبها ، تشارلز ريفز، الذي كان يحضرُ في ساعة الشاي بقبّعة رعاة البقر وأفعى وديعة وكيس معدّاتٍ لإصلاح عيوب العالم، تماماً كما زارها دينيّاً في كل الخميسات منذ ذلك اليوم البعيد الذي نقلته فيه سيّارة الإسعاف إلى العالم الآخر. بدأ

الاحتضار بحمّى متقطِّعة وحين دخلت العجوز في حالة الغيبوبة، نقلتها جودي وزوجها إلى المشفى. بقيت هناك قرابة الأسبوعين، في حالة من الوهن بدت فيها أنَّها على وشك أن تطير، لكنَّ غريغوري كان واثقاً من أنَّ أمَّه لا تُحْتَضَر. أهداها جهاز صوت لتسمع اسطوانات الأوبرا، لاحظ أنَّها تُحرِّكُ قدميها قليلاً تحت الملاحف على إيقاع العلامات وشيئاً كالبسمة الطفوليّة يلامس فمها، البرهان القاطع على أنها لا تفكر بالرحيل.

ـ إذا كانت ما تزال تتأثَّرُ بالموسيقى، فهذا يعني أنّها لا تموت.

ـ لا تتوهَّم، يا غريغ. فهي لا تأكل، لا تتكلَّم، وتكادُ لا تتنفَّس ـ ردَّت جودي.

ـ تفعل ذلك لتغيظنا. سترين كيف ستكون غداً في حالةٍ جيِّدة ـ ردَّ، متمسِّكاً بذكرى أمِّه الشابة.

لكنهم هتفوا له ذات فجرٍ من المشفى، وأصبح مع أخته بجانب السرير الذي كان يرقد فيه جسد أمِّه الخفيف وبلا عمر. كانت أمَّه في طريقها إلى الثمانين، لكنَّها ودَّعت الحياة منذ زمن بعيد مستسلمةً لجنون سليم ساعدها على الهرب كلِّيّاً من آلام الوجود، دون أن يؤثِّرَ على سلوكها المهذب أو على رقة روحها. كلَّما هرم جسمها، كانت نورا ريفز ترجع إلى زمن آخر ومكان آخر، إلى أن ضيَّعت حساب النسيان. في آخر أيَّامها اعتقدت أنَّها أميرة الأورال تجول مغنِّيَةَ الأغاني الإفراديّة في غرفِ مكانٍ مسحورٍ، بيضاءَ. منذ زمن طويل لم تعد تتعرَّف إلاّ على جودي، التي أيضاً كانت تخلط بينها وبين جدَّتها وصارت تُكلِّمها بالروسيَّة. عادت إلى شبابٍ خياليٍّ، ليس فيه واجبات أو معاناة، لا شيء غير تسليات الموسيقى والكتب الهادئة. كانت تقرأ لمتعة التحقُّق من التنوُّعات اللامتناهية لأربع وعشرين علامة مطبوعة على الورق، لكنَّها ما عادت تتذكر الجملَ أو تنتبهُ إلى الموضوع؛ فبالاهتمام نفسه الذي تتصفَّحُ به رواية كلاسيكيَّة تتصفَّحُ كتاب تعليمات جهازٍ الكترونيٍّ. انكمشت مع مرور السنين إلى أن أصبحت بحجم دمية شفَّافة لكنَّها استعادت بمستحضرات زينةِ خيالها الغريبة، أو ربَّما ببساطةِ براءةِ الموت، النضارةَ التي فقدتها في حياة مديدة، وحين ماتت كانت تماماً كما كان يتذكَّرها غريغوري حين كان طفلاً، وكانت تكشف له عن مجرَّات السماء. أسبوعا الحمّى والصيام المتطاول والشعر المقصوص على شكل خصلات بمقصِّ حفيدها، الذي لم ينمْ بعدها، لم تتمكَّن من تخريب وهم ذلك الجمال. طلعت روحها من يد ابنتها بالخجل العذب الذي كان من خاصَّتها. واروها التراب في يوم ماطر دون مبالغات

أو دموع. وضعت جودي في كيس القليل الذي بقي: ثوبين مستعملين جدًّا، علبة صفيح مع بعض الوثائق التي تثبت مرورها في هذا العالم، لوحتين رسمهما تشارلز ريفز وطوق لؤلئها المصفرّ من الاستعمال. غريغوري لم يأخذ إلا زوجاً من الصور.

بعد أن غسّلَ ديفيد وتصارع معه كي ينام، أطعم في تلك الليلة، الحيواناتِ المنزليّة، وضع الملابسَ الوسخة في الغسّالة، جمع الألعاب المنثورة في كلّ مكان ورماها داخلَ خزانة. حملَ القمامةَ إلى المرآب، نظّفَ المطبخ، أعادَ إلى الرفوف الكتب التي استعملها الطفل لعملِ حصنٍ، ووجدَ نفسه أخيراً وحيداً في الغرفة مع حقيبته المليئة بالوثائق، التي عليه أن يراجعها لليوم التالي. وضع سيمفونيّة لموهلر، صبَّ كأساً من النبيذ الأبيض وجلس على السرير، الأثاث الوحيد في غرفته. كان الليلُ قد توسَّط ويحتاج لساعتين من العملِ على الأقلّ ليحلَّ القضيَّة التي بين يديه، لكنَّه كان معدوم النشاط لفعل ذلك. شرب الكأس بجرعتين، صبَّ آخر ثمَّ آخر إلى أن أتى على الزجاجة. ذهب وفتح ماء حوض الحمّام، خلعَ ملابسَهُ، نظرَ إلى نفسه في المرآة: الرقبة ثخينة، المنكبان عريضان، الساقان شديدتان. كان معتاداً على تجاوب جسده معه بحيث لم يكن باستطاعته أن يتخيَّلَ أنَّه مريض. المرّات الوحيدة التي لزم فيها الفراشَ كانت يوم انفجرت شرايين ساقيه في ذلك المشفى في هاواي، لكنَّها كانت حادثة شبه منسيَّة. كان يتجاهل بعنادٍ نواقيس الخطر التي تدعوه إلى النظام، تجاهل الفرحَ، آلامَ الرأس، التعبَ، الأرق. مرَّ بيده على شعره وتبيَّنَ أنَّه لا يبيَضُّ وحسب، بل يتساقط أيضاً. تذكَّر كينغ بنيديكت الذي كان يدهن جمجمته بدهان الأحذية الأسود ليخفي صلعته التي تبلبله، لأنَّه كان ما يزال يظنُّ نفسه في أوج الشباب. راقب صورته بحثاً عن آثار أمِّه فوجدها في يديه بأصابعهما الطويلة، وفي قدميه الناعمتين، والبقيَّة تعودُ إلى أرث والده الراسخ. كان لمرغريت شكل جدَّتها، وجه القط بوجنتين عاليتين، نظرة ملائكيّة، وأسارير ناعمة. ماذا عنها؟ فآخر مرَّةٍ رآها فيها كانت في السجن. من الشارع إلى السجن ومن السجن إلى الشارع ومن حماقةٍ إلى أخرى، هكذا كانت حياتها تجري منذ هربت من بيت سَمانثا أوّل مرَّة. كانت فتيَّةً جدًّا، لكنَّها جابت كل حلقات الجحيم، ولها موقف الكوبرا المرعبة الجاهزة للهجوم. أراد أن يتخيَّلَ، بعيداً عن كلّ ما هو بادٍ، أنَّها ما تزال تحتفظ تحت طبقة الرذائل بطعم النقاء. فكَّر أنَّ مرغريت تستطيع أن تنقذ نفسها من الفساد وتنبعث بمعجزة من رمادها تماماً كما تغيَّر شكل نورا ريفز في الموت. أمُّه عاشت عدَّة عقودٍ لم تلمسها فيها اختبارات

العالم الفاحشة. كان واثقاً من أنّها ستتحوّل إلى ضباب في تابوتها، بمنجاة من عمل ديدان التفكّك الدوّوبة، بالطريقة نفسها ستصان ابنته. فلربّما لم يخرّب بعدُ العذاب الطويل الذي مضى بها بعيداً على طريق الفساد ذلك الجمالَ الجوهريّ، ويكفيها مطهِّرٌ من المطهِّرات الرائعة التي كانت تصفها أولغا وحمّامٌ جيِّدٌ بالصابون والفرشاة لتعود نظيفة، دون أيِّ أثر، أو ندوب حقن، خدوش، رضوض، أو قروح، الجلدُ نظيفٌ من جديدٍ، الأسنان بلا لطخ، الشعر حيٌّ والقلب مغسول من الآثام إلى الأبد.

شعر بدوخة بسيطة، لا يرى جيِّداً. دخل في الحوض، أسلم نفسه لرغدِ الماء الحار، محاولاً أن يرخي أعضاءه المنكمشة بفعل التوتّر، لا يفكِّر بشيءٍ، لكنَّ أحداث اليوم هاجمته مجتمعة: إجراءات الموت في المشفى، الخدمة الدينية القصيرة، الجنازة الموحشة التي كانت علامتُها الملوّنة الوحيدة إكليلَ القرنفل الأحمر الذي اشتراه كي يخرس ضميره لأنّه لم يهتمّ بأمّه عبر تلك السنين. تذكّرَ المطرَ، صمتَ جودي اللجوج دون دموع، انزعاجه الخاصّ وكأنَّ الموتَ تهوُّر، قلّة أدب والسلوك الوحيد عند نورا ريفز. خلال الرحلة إلى المقبرة راح يفكِّرُ بالعمل المتراكم في المكتب، بأنَّ عليه أن يسوّي قضيّة كينغ بنيديكت أو أن يقرِّرَ الذهابَ إلى المحكمة تحت خطر أن يخسرَ كلّ شيء، كان قد تعقَّب ككلبٍ لجوجٍ كلَّ أثرٍ، مهما بدا له تافهاً، لكنّه لم يملك أيّ شيءٍ محدَّد يتعلقُ به. كان يشعر بودٍّ خاص نحو زبونه، فقد كان مثل طفل طيِّبٍ في لفافةِ خمسينيٍّ مهجورة، لكنّه كان معجباً على الأخصّ ببِلْ بنيديكت، تلك المرأة الرائعة التي تستحقُّ أن يُنْفَضَ عنها الفقر. لكن عليه أن يستبقَ لأجلها مناورات المحامين الآخرين ويهزمهم على أرضهم ذاتها، ليس من يملك الحق هو الذي يربح بل من يعاركُ أفضل، هذا هو درس عجوز السحلبيات الأوّل. كره نفسه لشروده عبر هذه الاعتبارات في تلك اللحظة، وجسدُ أمّه لم يبرد بعد. تذكّر سنوات نورا ريفز الأخيرة، التي صارت مجرّد طفلة متخلفة تعتني بها جودي بحرصٍ فجٍّ قلق، كطفلٍ آخر من قبيلة أولادها الثمانية. على الأقل كانت أخته معها، بينما كان دائما يجدُ الأعذارَ كيلا يراها ويقتصر على دفع الحسابات عندما يتطلّبُ الأمرُ ذلك ويقوم بزيارة قصيرة لها مرّتين في العام. كان يضايقه أنّها لم تعرفه، وأنَّ عقلها لم يسجِّل وجودَ ابن يدعى غريغوري، ويشعر بنفسه معاقباً بفقدان الذاكرة الشيخوخي عند أمّه، لكأنَّ النسيان لم يكن إلاّ ذريعةً لمحوه نهائيّاً من قلبها. دائماً شكَّ بحبِّها له، وبأنّها حين حاولت التخلّصَ منه بوضعه في دار الأيتام أو في بيت صاحب المزرعة لم تفعل ذلك بدافع الفاقة، وإنما بدافع اللامبالاة.

كان الماء حارّاً أكثر من اللازم وجلده يشتعل وصدغاه ينبضان، فكّر أنّ كأساً أخرى لن تضرّه، خرج من الحوض ملفوفاً بالمنشفة، واتجه إلى المطبخ بحثاً عن زجاجة وأطفأ في طريقه التدفئة المركزيّة لأنّه كان يشعر بالاختناق. سرق النظر إلى غرفة ديفيد وتأكّد من أنّه ينامُ ناعماً بالهدوء مخترقاً خيمة هنوده. صبّ كأساً أخرى من النبيذ الأبيض، عاد وجلس على السرير، كانت الاسطوانة قد انتهت واستطاع أن يسمع الصمتَ، الترف النادر في حياته منذ أن أصبح يعيش مع ابنه. عادت أمُّه من جديد كذكرى ملحاحة، وصوتها يهمس له، يحاول أن يقول له شيئاً، فانتبه إلى أنّه لا يعرفها، كانت غريبة. في طفولته عبدها، لكنّه ابتعد عنها فيما بعد واعتقد في لحظاتٍ كثيرةٍ أنّه يكرهها، على الأخص في أحلك السنوات، حين جلست في كرسيٍّ خيزرانها، مستسلمة للفقر والعجز بينما يبحث هو عن الحياة في الشارع. نظرَ إلى الصور القديمة، الصفراء: قِطعٌ من ماضٍ غريب ينتمي إليه بطريقة ما، حاول أن يركّب نتف تلك العجوز الناعمة والمطيعة. لم يستطع تصوّرها هكذا، رآها شابّةً، بفستان مطرَّزِ القبّة وقد جمعتِ شعرها في كعكة، واقفة في مخرج قرية مغبرّة. ورأى نفسه طفلاً ناحلاً واضح الملامح، أزرقَ العينين، كبيرَ الفم، وخلفه رجلان يغتصبان فتاةً زنجيّةً، هو يصرخُ وهما يهزآن، لكنَّ الطفلة تفلت من ذلك الاحتضان الفظيع وتظهر بجانب نورا ريفز، التي تقدِّم لها نشرة من *الخطّة اللانهائية*.

ثمَّ رآها تسير بخطى واسعة في طريقٍ معزولٍ، هي أمامه وهو يحاول أن يدركها، لكنّه كلّما ركض كلّما اتسعت المسافة بينهما وتصير الهيئة التي أمامه أصغر وأكثر ضبابيّةً على خلفيّة الأفق، وكان الإسفلت ملتهباً ولزجاً، تلتصق به قدماه، لن تكفيه قواه ليهزم التعب، ما عاد يستطيعُ التقدّمَ، يسقط، يزحفُ على ركبتيه، يخنقه القيظ، شعر برأفة هائلة تجاه تلك الطفلة، تجاه نفسه. أمّاهُ، ناداها في البداية في تفكيره، ثمّ بصرخة ممّزقة، وعندئذٍ تركّزت الصور المهزوزة، الخطوط السائبة وصارت مثل خطوط ريشة راسخة، فظهرت نورا ريفز كاملةَ الجسدِ، حقيقيّة وحاضرة، فمدتْ إليه يديها مبتسمةً. أراد أن ينهض على قدميه ليعانقها، كما لم يفعل من قبل، لكنّه لم يتمكّن من الحركة وبقي في مكانه يردّدُ أمّاهُ، بينما الغرفة تمتلىء بنورٍ متوهِّج، وشيئاً فشيئاً راح يصلُ زوّارٌ آخرون: سايروس، خوان خوسيه مورالِس وهو يمسك بيد تهوي نْغويّن، فتى كنساس الذي مات بين ذراعيه، وجنود آخرون مزرقّون، مارتينث دونما أي بادرة من وقاحته القديمة لكنّه بلباسه *الباتشوكي*، وأكثر من ذلك بكثير راحوا يدخلون بصمتٍ مالئين عليه الغرفة، بدا

غريغوري ريفز مستحمّاً بابتسامة نورا، التي طالما احتاجها في طفولته وبحث عنها عبثاً في مراهقته. بقي بلا حراكٍ في صمتِ زمن هادئٍ، متوقّفٍ في كلِّ الساعات، إلى أن اختفى موكب الموتى ببطءٍ. آخر من ذهب كانت أمّه، التي تراجعت طافيةً وتلاشت في الجدار، تاركة له يقينَ حنان لم تعرف كيف تعبّر عنه في حياتها، وكانت دائماً تكنّه له.

حين غادر الجميع وبقي وحيداً، انفجر شيءٌ في روحه، ألمٌ رهيب انغرز في صدره وتوزّع من هناك على شكل أمواج في بقية جسده، حارقاً، قاصماً، محطِّماً عظامه، نازعاً جلده. فقد القدرة على التماسك، ما عاد هو، صار عذاباً لا يحتمل، ميدوزا بحرٍ انتثرت في الغرفة وملأت الفضاء، جرحاً واحداً دامياً. حاول مرّةً أخرى أن ينهض، لكنّه لم يستطع تحريكَ ذراعيه، انطوى وسقط على ركبتيه لا يستطيع التنفس، يحرقه رمحٌ اخترقه من جانب إلى آخر. لهث لدقائق محطمّاً على الأرض، يبحثُ عن الهواء، وقرعُ طبلٍ في صدغيه. قسمٌ فَطِنٌ في دماغه سجّلَ ما يحدثُ وعرف أنّ عليه أن يطلب مساعدة، أو أنّه سيموتُ في مكانه، لكنّه لم يتمكّن من الاقتراب من الهاتف، ولم يخرج صوته ليصرخ. فانكمش مثل مولود حديث، مرتعشاً، محاولاً أن يتذكر ماذا كان يعرف من النوبة القلبيّة. تساءل كم سيتأخر حتى يموت فأرعبته الفكرة لثانية، لكنّه تصوّر بعدها سلامَ العدم، الإنتهاءِ من التدحرج في الغبار والارتطام بالأشباح، عدمِ التجرجر في طريق خلف تلك المرأة التي كانت تبتعد، واستسلم كما فعلَ في طفولته حين كان يختبئ مع كلبه في جحر الثعلب لإغواء العدم. وببطءٍ عبره الألم حاملاً معه جزءاً من تعبه الرهيب. أحسَّ بأنّه عاش قبل هذه اللحظة. عاد ليتنفّس، متحسِّساً صدره ليتأكّد من أنّ شيئاً ما يزال يخفقُ فيه، لا ، لم ينفجر قلبه بعد. راح يبكي كما لم يفعل منذ الحرب، حزن يعتصر الأحشاء يأتيه من أقصى الماضي، ربّما من قبل ولادته، منحدر تغذّيه دموعٌ مكبوتة في سنواته الأخيرة، سيل جارف. بكى هجرانَ الطفولة، الصراعات والهزائمَ التي حاول عبثاً أن يحوّلها إلى نصر، الديونَ المستحَقّة، والخياناتِ التي تحمّلها على امتداد حياته، غيابَ أمّه، وفهمَه المتأخر لحنانها. رأى مرغريت تتدحرج في هاوية، حاول إيقافها، لكنّها أفلتت من يديه. همسَ باسم ديفيد، المتأذي والجريح، متسائلاً لماذا كتب على ولديه هذا الكابوس، لماذا كانت الحياة صعبةً إلى هذا الحدِّ عليهما، وما إذا انتقلت إليهما لعنةٌ عبر الجينات أو أنّ عليهما أن يدفعا ثمن آثامه. بكى عن مجمل أخطائه وهذا الحب الكامل الذي كان يحلمُ به ويعتقد أنّه محالٌ، أباه الذي مات من قرونٍ كثيرة وأختَه جودي، سجينة أسوأ

الذكريات، أولغا في مهنةٍ دجلها تبتدعُ المستقبل في ورق اللعب المعلَّم. بكى زبائنه ، ليس العيَّارين والمتمادين في غيِّهم بل الضحايا من أمثال كينغ بنيديكت، وأشقياء آخرين كثيرين، زنوجاً ولاتينيين، لا شرعيين، فقراء، هامشيين ومهانين كانوا يأتون ليطلبوا مساعدته في مجلس المعجزات الذي صار إليه مكتبُهُ، وبقي يجهشُ الآن على رفاق الأكياس البلاستيكيّة، ذكريات الحرب، على خوان خوسِه، فتاة الثانية عشرة التي كانت تُباعُ للجنود، قتلى الجبل المئة. وحين عرف أنّه كان في الحقيقة يبكي نفسه ، فتحَ عينيه ووجد نفسه أمام البهيمة فاضطر أن ينظر إلى وجهه وهكذا عرف أنَّ هذا الحيوان القابع خلفه، هذه النفخة التي شعر بها في قفا عنقه منذ البداية، إنَّما كان ذعره العنيد من الوحدة التي أضنته منذ الطفولة، حين كان يغلق على نفسه الكهف مرتعداً. لفَّه الضيقُ بذراعيه المشؤومين، دخل فمَه، سمعَه وعينيه، كلَّ مكانٍ فيه، احتلّه كاملا بينما يهمس أريدُ أن أعيش، أريدُ أن أعيش...

في هذه اللحظة رنَّ جرس، هزّه في طريقه. تأخَّر دهراً في التعرُّفِ عليه، الانتباهِ إلى مكانهِ ورؤيتِهِ لنفسه على الأرض عارياً. كان الهاتفُ يرنُّ كطلب مستعجل من بعدٍ آخر، إلى أن استطاع أخيراً أن يزحف ويأخذ السماعةَ.

ـ غريغ؟ أنا تامار. لم تهتف لي واليوم إثنين...

ـ تعالي، ياكارمن، أرجوك تعالي ـ تلعثمَ.

بعد نصف ساعة كانت بجانبه، بعد أن بدأت سفرها من بيركلي بسرعةٍ ممنوعة. فتح لها الباب، مضعضعاً، ملفَّعاً بمنشفة، عانق صديقته محاولاً أن يشرح لها أين كان يؤلمه، هنا، في الصدرِ، الرأسِ، الظهرِ، في كلِّ مكان. دثَّرته كارمن بمعطف وأخذت ديفيد نصف نائم، أدخلتهما في سيّارتها وطارت إلى أقربِ مشفى، حيث وضعوا غريغوري بعد دقائق قليلة موصولاً بمسبر وقناع أوكسجين.

ـ هل سيموتُ أبي؟ ـ سأل ديفيد.

ـ نعم، إذا لم تنم ـ ردَّت كارمن بضراوة.

بقيت في قاعة الانتظار بجانب الطفل النائم حتى صباح اليوم التالي، حين أخبرها طبيب القلب بأنّه لا يوجدُ خطر، الأمر لا يتعلق بنوبة قلبيَّة بل بنوبة قلق، وأنَّ المريض يستطيع أن يغادر، لكن عليه أن يرى طبيبه، يقومَ ببعض الفحوصات ويالَيْتَهُ يراجع طبيباً نفسانيّاً أيضاً، لأنّه كان ضائعاً في اختلاجات الجنون. عند العودة ساعدته كارمن على الاستحمام

والاستلقاء، حضَّرت القهوة، ألبست ديفيد ثيابه، أعطته فطوره وحملته إلى المدرسة. ثمَّ هتفت لتينا فايبخ لتشرح لها أنَّ رئيسها ليس في وضع يسمح له بالعمل في ذلك اليوم، عادت إلى جانب صديقها وجلست إلى جواره على السرير. كان غريغوري منهكاً ودائخاً من المُهَدِّئات، لكن صار باستطاعته أن يتنفَّس دون ضيق، بل وكان يشعرُ بشيءٍ من الجوع.

- ما الذي جرى؟ - أرادت أن تعرف كارمن.

- ماتت أُمّي.

- لماذا لم تخبرني؟

- حدث هذا بسرعة، لم أبغِ أن أزعجَ أحداً، ثمَّ لم يكن باستطاعتك أن تفعلي شيئاً. وشرع يحكي لها ما حدثَ دون ترتيب أو تعقّل، سيل من الجمل غير المنتهية، أمسك بيد تلك المرأة التي كانت أكثر من أختٍ، كانت أقدم وأخلص حبٍّ له، صديقته، رفيقته، القسم الحميمي منه، شديدة القرب والاختلاف عنه، كارمن السمراء والجوهريّة، كارمن الشجاعة والعالمة، ابنة الخمسمئة سنة من التراث البلدي والدم القشتالي والشعور الأنجلوسكسوني المشترك المتماسك الذي أفادته في السير بخطواتٍ ثابتة في العالم.

- هل تذكرين حين كنّا صبية وكنت أجري أمام القطار؟ شفيتُ من فكرة الموت الضاغطة هذه، وقضيتُ سنواتٍ كثيرة دون تذكرها، لكنها عادت إليَّ الآن وأنا خائف، محاصر، لن أنتهي أبداً من تسديد المصارف، ابنتي ضائعة في المخدِّرات، وسأبقى متورِّطاً مع ديفيد لخمسة عشر عاماً قادمة. حياتي كارثة، أنا فاشل.

- لا وجود للفشل والنجاح، يا غريغ، هذا من اختراع الغرينغويين. الإنسان يعيش لا أكثر وبأفضل ما يستطيع، شيئاً فشيئاً كلَّ يوم، إنَّه كالسفر بلا هدف، الاعتبار هو للطريق. إنَّها ساعة التوقُّف، فلماذا كلّ هذا القلق. جدَّتي كانت تقول إنَّ علينا ألاّ نصبحَ عبيدَ السرعة.

- جدَّتُكِ كانت مجنونة، يا كارمن.

- ليس دائماً، كانت أحياناً أكثر من في البيت فطنة.

- أنا غارق ووحيد مثل كلب.

- عليك أن تطأ القاع، وعندئذٍ ترفس وتصعد إلى السطحِ من جديد. الأزمات مفيدة، الطريقة الوحيدة للنمو والتغيير.

- أنا كما ترينني، ليس أكثر. كلُّ ما عملته عملته بشكلٍ سيّئ، بدءاً

من ولدَيَّ. أنا مثل برج بيزا، ياكارمن، محوري مائل، ولذلك كلُّ شيء يخرج معي منحرفاً.

- ومن قال لك إنَّ الحياة سهلة؟ دائما هناك ألم وجهد. عليك أن تقوِّم المحور، إذا كان هذا هو المطلوب. انظر إلى نفسك، يا غريغ، تبدو مثل ليفة الحَلْفاء. دعكَ من ندبِ نفسك وانهض دفعة واحدة. لقد تدبَّرت أمرك لتعيش هرباً، لكن ليس من الممكن الجري دائماً. يجب التوقُّف أحياناً ومواجهة الذات. مهما جريت ستبقى داخل جلدكَ ذاته.

عبر في عقل غريغوري أبوه الرحَّالة، متنقِّلاً، مجتازاً حدوداً، محاولاً أن يبلغ الأفق، أن يصل نهاية قوس قزح وأن يجد هناك في البعيد ما كان يُنْكَرُ عليه هنا. يقدِّم البلدُ فضاءات واسعة للهرب، لدفن الماضي، لهجرِ كلِّ شيءٍ والانطلاق من جديد في كل المرَّات التي يجد فيها ضرورة لذلك، دون أن يثقل نفسه بالذنب أو الحنين، هناك دائماً إمكانيّة لقطع الجذور والبدء من جديد، فغداً ساعة على بياض. تلك كانت قصَّته، لا يهدأ أبداً، سائر أبديٌّ، لكنَّ نتيجة هذا الجهد كانت الوحدة.

- قلته لك من قبلُ، يا كارمن، إنَّني أشيخ.

- هذا ما يحدثُ لنا جميعاً.

نظر إليها لأوَّلِ مرَّةٍ عن قربٍ وبانتباه، لاحظ أنَّها لم تعد فتاةً وسَرَّهُ أنَّها لم تفعل شيئاً لتخفي خطوطَ وجهها، آثارَ الزمن المقطوع، أو الشيبَ الذي كان ينيرُ سواد شعرها. كان ثقل ثدييها يحني كتفيها، وتزدان، وفيَّةً لطريقتها، بتنُّورةٍ واسعة، ونعلينِ وقرطينِ وأساور، كل ذلك كان كارمن، تامار. تصوَّر أنَّها ستبدو عاريةً مثل قطٍّ مبلَّلٍ، ومع ذلك بدت له حلوة، أكثر بكثير ممّا كانت في طفولتها، حين كانت طفلةً ممتلئة وجسورةً وجسر تقويم على أسنانها أو مراهقة، الفتاة الأكثر جاذبيّة في المدرسة، أو امرأة، حين أدركت شكلها النهائيّ وصارت تسير مع يابانيٍّ في الحي القوطي في برشلونة. ابتسم لها فردَّت له ابتسامته، نظر واحدهما إلى الآخر باستلطاف هائل، بتواطؤ الطفولة المشترك. أخذها غريغوري من كتفيها، وقبَّلها بشكلٍ خفيفٍ على شفتيها.

- أُحبُّكِ - همس واعياً بأنَّ وقعها كان مبتذلاً، وكانت حقيقة مطلقة - هل تعتقدين أنَّنا سنكون زوجين صالحين؟

- لا.

- هل تريدين ممارسةَ الحبِّ معي؟

- يبدو لي لا. لا بدَّ أنَّ لديّ مشكلة شخصيّة - ضحكت - ارتَحْ وحاول أن تنام.ميك تونغ سيأخذ ديفيد من المدرسة وسيأتي ليبقى بجانبك لبضعة أيّام. سأعودُ ليلاً، عندي مفاجأة لك.

المفاجأة كانت ديزي. تسعون كيلوغراماً من زنجيّة جميلة وفرحة، محض شوكولا برّاقة، من جمهوريّة الدومينيكان، اجتازت نصفَ المكسيك على قدميها ثمَّ عبرت الحدودَ مع ثمانية عشر لاجئاً آخر في الصندوق المزدوج لشاحنة محمّلة بالبطيخ، مستعدّة لكسب قوتها في الشمال. ستغيّر ديزي حياة غريغوري وديفيد. أخذت الطفلَ على عاتقها دون تذمُّرٍ أو حساسيّة مفرطة، بالموقف الصابرِ ذاته الذي تخطت به بؤسَ ماضيها. لم تكن تتكلّم كلمة إنكليزيّة واحدة فاضطرَّ سيِّدها أن يعمل مترجماً لها. طريقة ديزي في تربية الأطفال أعطت نتائج جيِّدة عند ديفيد، على الرغم من أنَّ الفضل ليس لها وحدها، فالصبيُّ كان بين أيدي طاقم من المدرِّسين والأطبّاء وعلماء النفس. لم تكن تؤمنُ بأيٍّ من هذه الحداثات، فلم تتعلم حتى كلمة فائق النشاط بالإسبانيّة، وكانت مقتنعة بأن سببَ كلّ تلك التشوُّشات أبسط من ذلك: فأبو مخطة ممسوس بالشيطان، وهوأمرٌ عاديٌّ جدّاً، كما كانت تؤكِّدُ لأنها عرفت بنفسها أشخاصاً كثيرين، تعرَّضوا للحالة ذاتها، وعلاجُ هذا أسهل من علاج الرشح العادي، وأيُّ مسيحيٍّ صالح يستطيع أن يقومَ به. انهمكت منذ اليوم الأوّل في طرد الأرواح الشريرة من جسد ديفيد بنوعٍ من المركَّب الروحي، صلواتِ قدِّيسي عبادتها، وأطباقِ الطعام الكاريبيّة اللذيذة، والكثير من الحنان، وبعض الصفعات الرنّانة التي كانت تكيلها له من وراء ظهر والده دون أن يجروَّ المضروب على وشايتها، فأمل العيش دون ديزي كان بالنسبة إليه لا يحتمل. أخذت المرأة على عاتقها تدجينه بصبرٍ تُثنى عليه، وإذا ما رأته منتفشاً مثل شيهم[1] على وشك أن يتسلقَ الجدران، لفّته بذراعيها الضخمين السمراوين، وأقعدته بين ثديي الأم التي تمثلها، تحك رأسه، وتغني له بلغتها الخشنة إلى أن تُهَدِّئَهُ. إنَّ حضورَ ديزي المسكّن بعبقِ أناناسها وسكّرها، ضحكتها الجاهزة دائماً، بإسبانيّتها الخالية من الأحرف الساكنة وحكاياتها التي لا تنتهي عن القدّيسين والسحرة التي لم يكن ديفيد يفهمُها، لكنَّ إيقاعها يهدهده حتى ينام، قد منح الطفلَ الأمان أخيراً. وبفضل هذه المساعدة في المسائل الأساسيّة للحياة اليوميّة

(1) الشيهم: ذكر القنفذ .

استطاع غريغوري ريفز أن يبدأ رحلة بطيئة ومؤلمة إلى داخله.

سنة وغريغوري يظنُّ في كلِّ ليلةٍ أنَّه يموت. كان ابنه ينامُ فيدخل البيت في سكينة ويبقى وحده، يشعرُ باقتراب النهاية. يغلق بابَ غرفته بالمفتاح، كيلا يفاجئه ديفيد إذا ما استيقظ، لم يكن يبغي تخويفه، ثمَّ يستسلم للعذاب دون مقاومة. كان ضيقه مختلفاً عن الضيق السابق المبهم، الذي اعتاده إلى هذا الحدِّ أو ذاك، يعملُ في النهار بشكلٍ عاديٍّ، يشعرُ بنفسه قويّاً ونشيطاً، يتَّخِذُ قراراتٍ، يديرُ مكتبَهُ وبيتهُ، يهتمُّ بابنه فيتخيَّل لبرهة أنَّ كلَّ شيءٍ يسيرُ على أحسن ما يرام، لكن ما إن يجد نفسه وحيداً في الليل حتى ينهال عليه خوفٌ أصمّ؛ يلقى نفسه سجيناً في غرفةٍ مسيَّجة من كل جانب، زنزانة للمجانين لا يجدي فيها الصراخُ أو الطرقُ على الجدران، إذ لا صدى يرجع ولا جواب، لا شيء غير الفراغ الخانق. لم يعرف اسماً لذلك الكابوس المركَّب من التردُّدِ والقلق والذنب والإحساسِ بالهجرانِ والوحشةِ العميقة، حتى إنَّه انتهى إلى تسميته بالبهيمة. حاول السخرية منه لأربعين سنة، لكنّه فهم أخيراً أنَّه لن يتركه بسلام، ما لم يصرعه في معركةٍ وجهاً لوجه. أن يكزَّ على أسنانه ويقاوم كما في تلك الليلة في الجبل، بدت له الاستراتيجيَّة الوحيدة الممكنة في مواجهة ذلك العدو الذي يعذِّبه ككمَّاشة تضغط على صدره، كمطرقة تطرق على صدغيه، حطبٍ مشتعل يضطرم في معدته، سرعة ملحَّة للجري باتجاه الأفقِ والضياع للأبد، حيث لا شيء، لاأحد يستطيع أن يصل إليه، خاصَّةً ذكرياته. كان الفجر يباغته أحياناً منكمشاً مثل حيوانٍ محاصَرٍ، وأحياناً أخرى ينام منهكاً بعد ساعات من الصراعِ الأخرس ليستيقظ متعرِّقاً في كتلة الأحلام التي لا يستطيعُ تذكُّرها. مرَّةً أو مرَّتين عادت وانفجرت في صدره قنبلة تركته بلا هواء، لكن وبما أنَّه أصبح يعرفُ الأعراض كان يقتصر على انتظار انقشاعها، يحاول أن يبقى على حافَّة القنوط كيلا يموتَ فعلاً. قضى حياته وهو يخدعُ نفسه بحيل السحر، وحانت ساعة أن يعاني دون مسكِّناتٍ بأمل أن يعبرَ العتبة وينبعث ذات يوم سليماً معافى. هذا ما كان يمنحه القوَّة للمضي إلى الأمام: فَلِلنَّفَقِ مخرجٌ، كلُّ المسألة في تحمُّل مسيرة الرحلة الإجباريّة والوصول إلى الطرف الآخر.

استبعدَ راحة الكحول لأنَّ قلبه حدَّثه بأنَّ أيَّ وسيلة عزاء ستؤخِّر شفاء الحمار الذي فرضه على نفسه. حين كان يصل إلى حافَّة قواه كان يستحضر صورة أمِّه، تماماً كما ظهرت له بعد موتها، بذراعين ممدودتين

وابتسامة ترحيب، فتهدِّئُهُ، على الرغم من أنَّه في أعماقه كان يعرف مدى تعلّقه بوهم، تلك الأمُّ الودودة كانت من ابتداع عقله. كما لم يكن يبحثُ عن نساءٍ، على الرغم من أنَّه لم يبق متبتِّلاً، فمن حين لآخر تعبر به واحدة مستعدَّة لأن تُبادِرَ فيستطيع أن يسترخي لساعتين على الأقل، لكنَّه لم يقع ثانيةً في مكيدة الخيالات الرومانسيّة، فقد فهم أن ما من أحدٍ يستطيع إنقاذه، عليه أن ينقذَ نفسه بنفسه. روسماري، عشيقته القديمة مؤلِّفة كتب الطبخ، تدعوه عادةً ليجرِّبَ جديدَ طبخها، فيداعبها أحياناً طيبةً أكثر منها رغبةً، وينتهيان بممارسة الحبِّ دون ولهٍ لكن بإرادة طيِّبة صادقة. ميك تونغ، الذي كان ما يزالُ متعلِّقاً بجداوله بعيدةِ الاحتمال على الرغم من طاقم حاسوبات المكتب الحديث، لم يستطع أن يوضح له ألغاز دفاتر حساباته الكبيرة المخربشة بالأحمر، لكنَّه استطاعَ على الأقلّ أن يزرع عنده بذورَ الحكمة الماليّة: يجب أن تنظِّم حساباتك أو أنَّنا سنذهب كلّنا إلى الخراء. كان محاسبُهُ الصينيُّ يرجوه بابتسامة لا تتبدَّل واحترام مهذَّب، هاصراً يديه عصبيَّةً. ونظراً لحبِّه لرئيسه وجهله بالإنكليزيَّة، صار يستخدم مفردات ريفز ذاتها. كان تونغ على حقٍّ، فلم يكن عليه أن ينظِّم حساباته وحسب، بل بقيَّة حياته أيضاً، التي يبدو أنَّها تمضي إلى الهاوية. فسفينته يدخلها الماءُ من أماكن كثيرة وأصابعه ما عادت تكفي لسدِّ ثقوب الغرق. تأكَّد من صداقة تيموثي دوان وكارمن مورالس، اللذين كانا يتحمَّلان صمته الفظَّ ولا يدعان أسبوعاً يمرُّ دون أن يهتفا له أو يحاولا رؤيته على الرغم من أنَّ رفقته لم تكن مسلية: أنت لا تُحْتَمَل، لا أستطيعُ أن آخذك إلى مكان، ماذا بك؟ صرتَ مملاً، هكذا كان يشكو تيموثي دوان. هو أيضاً كان قد بدأ يتعب من الفوضى. فقد تمادى كثيراً مع بنيته الإيرلنديّة القويَّة، وجسده ما عادَ يُقاوِمُ حفلات العربدة التي ملأت عليه في السابق نهايات أسابيعه بالخطايا والندم. ونظراً لأنَّ ريفز لم يكن يتكلَّمُ عن مشاكله خطرت لدوان فكر منقذةٌ وهي حمله بالقوَّة إلى عيادة الدكتورة مينغ أبريين، بعد أن جعله يقسم بأنَّه لن يحاولَ إغراءها. تعرَّفَ عليها في محاضرة عن المومياء، حضرها ليرى ما إذا كان سيجد علاقةً بين المحنَّطين المصريين القدماء وعلم الأمراض الحديث وحضرتها الدكتورة لترى أيَّ نوعٍ من المشوَّشين يمكن أن يهتمَّ بمثل ذلك الموضوع. التقيا أثناء الاستراحة في الصفِّ لتناول القهوة. نظرت هي شزراً إلى تمثال البارثينون الذي ساءت معاملته ويُشْعِلُ غليونه على بعد ثلاث خطوات من الإعلان الذي يمنع التدخين، ودوان تمعَّنَ بها مفكراً بأنَّ تلك المخلوقة الصغيرة ذات الشعر الأسودِ والعينين النبيهتين لا بدَّ أن تحملَ دماً صينيّاً

في عروقها. وبالفعل كان أبواها تايوانيّين. أركبوها السفينةَ في الرابعة عشرة من عمرها في الطريق إلى أمريكا إلى بيت بعضِ أبناء وطنها، الذين كانت معرفتهم بها قليلة، مع تأشيرة دخول سياحيّة وتعليمات دقيقة للدراسة، والمضيّ إلى الأمام وألاّ تتذمّر إطلاقاً لأنّه مهما حدث لها فهو دائماً أفضلَ من قدرها كامرأةٍ في بلدها الأصلي. وما إن مضى عامٌ على وصول الفتاة حتى تكيّفت جيّداً مع الطبع الأمريكي وخطر لها أن تكتبَ رسالةً إلى نائبٍ عاشقٍ لفضائل أمريكا تطلب منه بالمناسبة تأشيرةَ مقيم. وشاءت المصادفة اللامعقولة أن السياسيَّ كان يجمعُ خزفَ مينغ، لفت اسمُ الفتاة انتباهه على الفور، أمرهم باندفاع وجداني أن يسوّوا لها أوراقها. الكنية أبريين جاءتها من زوج لها في شبابها، عاشت مينغ معه عشرة أشهر قبل أن تهجره وتقسم إنها لن تتزوّجَ ثانية في حياتها. النظرة الثانية كشفت لدوان جمال الدكتورة المحتشم، وعندما توقّفا عن الكلام حول المومياءات وراحا يسبران مواضيع أخرى، اكتشف أنّها المرّة الأولى منذ سنوات طويلة التي تفتنه فيها امرأة. لم يستمرّا حتى نهاية المحاضرة وانطلقا معاً إلى مطعم من مطاعم أرصفة الميناء، وبعد قنينة النبيذ الأولى وجد تيموثي دوان نفسه ينشدها أحد مونولوجات بريخت. كانت الدكتورة تتكلّمُ قليلاً وتراقبُ كثيراً، وحين أراد أن يحملها إلى شقّته رفضت بلطفٍ واستمرّت كذلك في الأشهر اللاحقة، الحالة التي أبقت على فضولِ الطامح المعذّب حيّاً. في المرحلة التي بدأا يعيشان فيها أخيراً معاً كان تيموثي دوان مهزوماً.

ـ لم أرَ قط امرأة بملاحتها، تبدو صورةً من العاج، ثم إنّها مسلّية، لا أتعبُ من الاستماع إليها. أظنُّ أنّني أعجِبُها، لا أفهمُ لماذا ترفضني.

ـ ظننتُ أنّك لا تستطيع ممارسة ذلك إلاّ مع العاهرات.

ـ معها سيختلف الأمرُ، أنا واثق .

ـ تقول كيف أتحمّله، يا غريغ؟ بالصبر الصيني... ثم إنّني أحبُّ العُصابيّين، وتيم هو أسوأ من التقيته في حياتي ـ ستوضّحُ مينغ أبريين لريفز بعد سنوات بغمزة جسورةٍ، بينما تتناول الجبن في مطبخ الشقّة التي تتقاسمها مع دوان. لكنَّ هذا حدث في زمنٍ متأخرٍ جداً.

بعدَ كثيرٍ من التردّدِ تمكّنْتُ من تجاوز فكرة أنَّ الرجالَ لا يتكلّمون عن نقاط ضعفهم أو عن مشاكلهم، هذا الحكم المبتسر المتجذّر فيَّ منذ أيّام الحيّ اللاتينيّ كواحد من ملامح الرجولة. وجدتُ نفسي مقيماً في

مكتب كلٌّ ما فيه يبدو متناغماً، اللوحات، الألوان ووردة وحيدة وتامّة في كأس من البلور. أفترض أنَّ كلَّ هذا كان يدعو للراحة والتناجي، لكنَّني كنتُ أشعرُ بعدم الراحة، وبعد قليلٍ تبلَّلَ قميصي، بينما رحتُ أتساءل من أجلِ أيّةِ أباليس اتبعتُ نصيحةَ تيموثي. دائماً كنت أرى أنَّ من الحماقة أن يدفع لمهنيٍّ ينتفع كلَّ ساعة، خاصَّة إذا كان من غير الممكن قياس النتائج. أجبرتني الظروفُ على فعلِ ذلك مع ديفيد، الذي لا يعمل دون هذا النوع من المساعدة، لكنَّني لم أفكِّر بأنه يمكن أن يصيبني أنا. من جهةٍ أخرى، كان انطباعي الأوَّل عن مينغ أبريين أنَّها تنتمي إلى مجرَّةٍ أخرى، لم يكن بيننا شيء مشترك، تركت لنفسي أن تُخْدَعَ بوجهها، وجهِ الدمية، وخرجتُ بنتائج أخجلُ منها اليوم. حكمتُ أنَّها لم تكن قادرة على تصوُّر رياحي العاصفة، فما الذي تستطيع أن تعرفه هي عن تدبُّر العيش في حيٍّ فقير، عن ابنتي مرغريت الشقيّة، عن مشاكل ديفيد التي لا تحصى، الموصول دائماً إلى سلك عالي التوتُّر، عن ديوني، زوجَتَيَّ السابقتين وسبحةِ عشيقاتي العابرات، عن مشادَّاتي مع زبائن ومحاميِّي مؤسَّستي، عن حفنة من المتمادين وعن الألم في الصدر والأرقِ وخوفي من الموت كل ليلةٍ. وأقلّ من هذا بكثير ما قد تعرفه عن الحرب. تجنَّبت لسنواتٍ علاجَ المقاتلين السابقين، كان يزعجني تقاسم لعنة الذكريات والرعب من المستقبل، لم يبدُ لي ضرورياً الكلام عن هذا الجانب من ماضيَّ، لم أقم به قط بين الرجال، فكيف الآن مع هذه السيِّدة التي لا شيء يعكِّرُ صفوها.

- احكِ لي حلماً متكرِّراً - طلبت منّي مينغ أبريين.

اللعنة، ما كان ينقصني هو فرويد في تنورة، فكَّرتُ، لكنَّني قدَّرتُ، بعد وقفةٍ طويلةٍ أكثرَ من اللازم، كم كانت تُكلِّفني كلُّ لحظةِ صمت، ونظراً لقلَّة اهتمامي خطر لي أن أذكرَ لها حادثَ الجبل. أعترف أنَّني بدأتُ بنبرة ساخرة، وأنا جالس رجلاً فوق رجل، أقيسها بعينٍ متدرِّبة على النظرِ إلى النساء. رأيتُ الكثيرات وكنتُ ما أزال في تلك المرحلة أضعهنَّ في سلّم من واحد إلى عشرة، الدكتورة مقبولة، وقرَّرتُ أنَّها تستحق سبع درجاتٍ على وجه التقريب. ومع ذلك راح يتملَّكني، وأنا أمضي في رواية الكابوس، الضيقُ ذاته الذي كنتُ أشعرُ به في الحلم. رأيتُ أعدائي يتقدَّمون منّي مرتدين السواد، المئات منهم، حذرين، مهدِّدين، شفَّافين، ورفاقي صرعى على الأرض، كضربات فرشاةٍ قرمزيّة في رماد المشهد الضاغط، حباحب الطلقات السريعة تخترق المهاجمين دونَ أن توقفهم، وأعتقد أنَّ العرق راح يسيلُ على وجهي، ويداي ترتجفان من كثرة الشدِّ على السلاح، تسيل دموعي من جهدِ التصويبِ في الضباب الكثيف، وألهث بحثاً عن الهواء

الذي يتحوّلُ إلى رمل. يدا مينغ أُبريين اللتان تهزّانني تعيدان إليَّ الإحساسَ بالواقع لأجدَ نفسي في غرفة وديعة أمامَ امرأةٍ شرقيّةِ الملامحِ تخترق روحي بنظرة ذكيّة وثابتة.

- انظر إلى العدوّ، يا غريغوري. انظر إليه في وجهه وقل لي كيف هو.

حاولت أن أطيعها، لكنّني لم أكن أُميّز في الضباب شيئاً غير الأشباح. أصرَّت وحينئذٍ راحت الهيئات تأخذُ شكلها شيئاً فشيئاً واستطعتُ أن أرى أقربهم منّي، فأدركت أنّني كنتُ أنظرُ إلى نفسي في مرآة.

- يا إلهي... واحدٌ منهم يُشْبِهُني!

- والآخرون؟ انظر إلى الآخرين! كيف هم؟

- يشبهونني أيضاً... جميعهم متشابهون... للجميع وجهي!

مرَّت برهة طويلة، ملكتُ الوقت لتجفيف عرقي واستعادة شيءٍ من هدوئي. طعنتني الدكتورة بعينيها السوداوين، هوّتان سحيقتان مضت عبرهما عيناي مذعورتين.

- رأيتَ وجهَ عدوِّكَ، صارَ باستطاعتك تحديده، صرتَ تعرف من يكون وأين هو. لن يعذِّبَك هذا الكابوسُ بعدَ الآن، لأنَّ معركتك ستكون واعية - قالت لي ذلك بثقة جعلتني لا أشكُّ بأن الأمر سيكون كذلك.

خرجتُ بعدَ قليلٍ من العيادة شاعراً بنفسي تافهاً، لأنّني لم أتحكَّم بوهن ساقيَّ ولم أستطع وداعها، فصوتي لم يخرج. عدتُ بعد شهرٍ، حين تأكّدت أنَّ الكابوسَ لم يتكرَّر وقبلتُ أخيراً مساعدتها. كانت بانتظاري.

- لا أعرفُ علاجاتٍ سحريّةً. سأكون بجانبك لمساعدتك على إزاحة أثقل العوائق، لكن عليكَ أنت وحدكَ أن تقومَ بالعمل. إنّها طريقٌ طويلةٌ ويمكن أن تدوم عدَّةَ سنواتٍ، كثيرون يبدؤونها، وقليلون هم الذين يصلون إلى نهايتها لأنّها مؤلمة. لا توجد حلول سريعة أو دائمة، وتستطيع أن تقوم بالتغييرات بجهدك وصبرك فقط.

أوفت مينغ أُبريين في السنوات الخمس التالية بوعدها. أجدها هناك كلَّ ثلاثاء، رصينة وعالمةً بين لوحات حفرها الرقيقة وأزهارها الطريّة، مستعدّةً للإصغاء إليَّ. في كل مرّة حاولت فيها أن أفلتَ عبر أحد الدروب الجانبيّة كانت تجبرني على التوقُّف ومراجعة الخارطة. وحينَ كنتُ أصطدمُ بحاجزٍ لا خلاص منه كانت تبينُ لي طريقة فكّه قطعةً قطعةً كي أتخطّاه. بالتقنيّة نفسها علمتني كيف أصارع شياطيني القديمة دفعةً

واحدة. رافقتني خطوةً خطوةً في رحلتي إلى الماضي، الذي كان من البعد بحيث أنّني استطعتُ تذكّرَ رعب الولادة وقبول الوحدة المنذور لها، منذ اللحظة التي فصلني فيها مقصُ أولغا عن أمّي. ساعدتني على تحمّل أشكالَ الهجران المتعدِّدة التي عانيتُ منها، بدءاً من موت أبي المُبكِّر، حصني الوحيد في سنواتي الأولى والهروب المستعصي لأمّي المسكينة، التي خنقها الواقع مبكّراً جداً وضاعت في سبلٍ غير محتملة، لم أستطع أن أتبعها فيها، وحتى خيانات سَمانثا وشانون وأشخاص آخرين كثيرين. أشارت إلى أخطائي، السيناريو المتكرِّر مرّاتٍ كثيرةً على امتداد حياتي، ونبّهتني بأنَّ عليَّ أن أبقى متيقّظاً، لأنَّ الأزمات تعودُ للظهور بإلحاح. استطعتُ معها أخيراً أن أسمّي الألم وأفهمه وأتعامل معه، عارفاً أنّه سيبقى موجوداً بطريقة أو بأخرى، لأنّه جزء من الوجود وعندما جذّرت هذه الفكرة خفَّ ضيقي بطريقة عجيبة. اختفى الرعب القاتل لكلِّ ليلةٍ واستطعتُ أن أبقى وحيداً دون أن أرتعد خوفاً. وفي اللحظة المناسبة اكتشفتُ، كم أحبُّ الوصول إلى البيت، اللعب مع ابني، الطبخ للإثنين والقراءة والاستماع إلى الموسيقى ليلاً حين يسكنُ كل شيء. استطعتُ لأوّلِ مرّة أن أمكثَ صامتاً وأقدِّر فضيلةَ الوحدة. عضّدتني مينغ أُبريين لأستطيع النهوضَ على ركبتيَّ وأسجل قائمة بنقاط ضعفي وحدودي وأُسعد بقوّتي، وأتعلّمَ التخلص من الحجارة التي أحملها في كيسٍ على ظهري. ليست مسؤوليّتك بالكامل، قالت لي في إحدى المناسبات، فرحتُ أضحك لأنَّ كارمن سبق وقالت لي هذه الجملة ذاتها، يبدو أنّني أنزع إلى الشعور بالذنب... لم أكن أنا من أعطى المخدِّرات إلى مرغريت، فهي من كانت تتناولها بقرارٍ منها، ومن غير المجدي توسّلها أو شتمها، ودفع كفالات السجن، حبسها في مشفى للأمراض النفسيّة أو ملاحقتها مع الشرطة، كما فعلتُ في كثيرٍ من المناسبات، فابنتي اختارت هذا المطهر وقد تخطّت حرصي وحناني. كان عليك أن تساعد ديفيد على النمو، قالت لي مينغ أُبريين، لكن دون أن أكرّس له حياتي كاملة أو أتحمّلَ نزواته كي أعوِّض له الحبَّ الذي لم أعرف كيف أمنحه لمرغريت، لأنّني كنتُ أحوّله إلى مسخ. معاً راجعنا مذكّرة هواتفي، سطراً سطراً، وتبيّنتُ خجلاً أنَّ جميعَ عشيقاتي كنَّ على امتداد مسيرتي الطويلة من المعيَّة والنوعية ذاتها، تابعات، غير قادرات على ردِّ جميل الوداد. كما رأيتُ بوضوح أنّني لم أستطع أن أقيم علاقة سليمة أو أقبل الاستسلام التام لرفيقةٍ حقيقيَّةٍ أو لنساءٍ مختلفات مثل كارمن وروسماري، لم أفكِّر قط بوحدة الحبّ. فأولغا علّمتني أن الجنس أداةٌ والحبّ موسيقا، لكنّني لم أتعلّم الدرس في أوانه،

وبدأتُ أعرفه حين صرت على الطريق إلى نصف القرن، لكنّني أفترض أنَّ من الأفضل اكتشافه متأخّراً من ألاّ أكتشفه أبداً. اكتشفت أنّني لم أكن أضمر ضغينة لأمّي، كما كنتُ أظنُّ، واستطعتُ تذكّرَها بإرادة طيّبة. كلانا لم نستطع أن نُعبِّرَ عنها حين كانت على قيدِ الحياة. لم يعد يهمُّني أن أبتدع نورا ريفز بما ينسجمُ مع حاجاتي، في جميع الأحوال يرتِّب الواحدُ الماضي بالشكل الذي يريحه فالذاكرة مركّبة من خيالاتٍ كثيرة. خطر لي بأن روحها الحصينة كانت ترافقني، كما يفعل ملاكٌ تهوي نغويِّن النفاث مع ابنها داي وهذا ما منحني بعض الأمان. ما عدتُ أجَرِّم سَمانثا أو شانون بفشلنا. ومهما يكن الأمر من السوء فأنا من اختارهما كرفيقات، المشكلة تكمن أساساً فيَّ وتتوالد في طبقات شخصيّتي العميقة حيث بذرة الهجرانِ الأقدم. تفحّصتُ علاقاتي واحدةً، حتى الولدين، الأصدقاء والموظّفين، وذات ثلاثاء تكشَّف لي فجأةً أنّني على امتداد حياتي أحطت نفسي بأشخاص ضعفاء بأملٍ أخرس أتطلّع منٍ خلاله إلى أن أحصل مقابل رعايتهم على شيءٍ من الودِّ أو على الأقلّ الامتنان، لكن النتيجةَ كانت منحوسة، فكلّما أعطيتُ أكثر تلقّيتُ مزيداً من الضغينة. لم يُقَدِّرني غير الأقوياء، مثل كارمن وتيموثي، ميك وتينا.

ـ لا أحد يشكر عجزه ـ وضَّحت لي مينغ أُبريين ـ. فأنت لا تستطيع أن تقوم بمسؤوليّة الآخرين للأبد، تأتي لحظة تتعبُ فيها، وحين تتركهم يسقطون يشعرون بأنَّك خنتهم وبالطبع سيلعنونك. هذا ما حدث لزوجتيكَ، بعض أصدقائك، وعددٍ من زبائنك وجميع موظّفيك تقريباً وما هو في الطريق ليحدث مع ديفيد.

التغييرات الأولى كانت الأسهل، لأنّه ما إن بدأت تترنَّح قواعد البناء المائل الذي هو حياتي حتى انكسر التوازن وانهار كلُّ شيء.

تلقَّت تينا فاييخ المكالمةَ هذا الثلاثاء مساءً، كان رئيسُها في محادثةٍ مع زوج من محاميي مؤسَّسة الضمان بخصوص قضيَّة كينغ بنيديكت، وعليها ألاّ تقاطعه، لكن اضطراراً في صوت المجهول جعلها لا تجرؤ على تأجيله. كان قراراً صائباً، فقد أنقذ حياةَ مرغريت، على الأقل لفترة من الزمن. تعالَ بسرعةٍ قالَ الرجلُ وأعطاه عنوان فندق في ريكموند وأغلقَ الهاتفَ دون أن يعطي هويَّتَه. كان كينغ بنيديكت يتصفّحُ مجلة قصص مصوّرة في صالة الانتظار حين رأى غريغوري ريفز يخرج، واستطاع أن يسأله بينما كان ينتظر المصعدَ إلى أين يذهبُ بهذه السرعة.

- في هذه النواحي لا تستطيع أن تمضي وحيداً وعلى الأخص في سيّارةٍ كسيّارتك - أكّدَ له وسار إلى جانبه كعباً إلى كعب ليرافقه دون أن ينتظر منه جواباً. بعدَ خمس وأربعين دقيقةً أوقفا السيّارة أمام صف من الغرف المهجورة في زقاق من القاذورات. ومع تقدُّمهما بين أفقر بيوت المدينة كان يتّضح له أنَّ بنيديكت كان على حق، لم يكن يظهر للعيان أيُّ أبيض. على عتبات الأبواب، أمام البارات وفي الزوايا يتجمّع شبابٌ عاطلون يهدّدونهما بإيماءاتٍ بذيئة ويصرخون بالشتائم عند مرورهما. بعضُ الشوارع لم تكن تحمل اسماً فراح ريفز يدور ضائعاً، دون أن يجرؤ على إنزال بلور النافذة ليسأل عن العنوان خيفة أن يبصقوا عليه أو يرموه بحجر، لكنّ كينغ بنيديكت لم يكن يعاني من المشكلة ذاتها. فأوقفه ونزل هادئاً وسأل شخصين ثمّ عاد وهو يحيّ مجموعة الفتيان، التي كانت قد أحاطت بالسيّارة، يومئون ويرفسون رفرافات السيارة. وهكذا وقعا على مرغريت. طرقا باب الغرفة ذات الرقم تسعة في نزل غير صحيٍّ، ففتح لهما زنجيٌّ جهمٌ، حليق الرأس تخترق إحدى أذنيه خمس أبرٍ، آخر من كان يحبُّ ريفز أن يراهُ بجانب ابنته، لكنّه لم يملك الوقت ليتفحّصَه جيّداً لأنَّ الرجل أمسكه من يده مثل كلاّبة وقاده إلى غرفةٍ فيها الفتاة.

- يبدو لي أنّها تُحْتَضَر - قال.

كان زبوناً عابراً، الأوّلُ في ذلك اليوم، حصل ببعض الدولارات على برهة مع تلك الفتاة الشعثاء، التي يعرفها جميع الجيران ويتركونها بسلام، على الرغم من غرابتها، فهي في جميع الأحوال تجاوزت الاعتداءات المعتادة وعبرت إلى الطرف الآخر من الكآبة. لكنّه عندما خلع ثوبها بضربة مخلبٍ سريعة وحملها ليفلطحها على الفراش وجد نفسه مع دمية مُفكّكة بين يديه، هيكلٍ عظميٍّ يلتهب في الحمّى. هزَّها قليلاً ليخلخل سبات المخدّرات، فسقط رأسها إلى الخلف، دون قوّة للحفاظ عليه فوق الرقبة، كانت عيناها بيضاوين مغمضتين وخيط من اللعاب الأصفر يسيلُ من فمها. خراء، دمدم الرجلُ وأوّل ما خطر له هو أن يتركها هناك ملقيّةً ويخرجَ مثل البرق قبل أن يراهُ أحدٌ فيتهمونه فيما بعد بقتلها، لكنّه عندما أفلتها على السرير بدت له مُشجيةً فلم يستطع التملّص من عاطفته وبشيءٍ من الشهامة داخل عنف حياته انحنى فوقها يناديها، حاولَ أن يسقيها ماءً، تلمّسها في كل جانب بحثاً عن جرح ما، تبيّنَ له أن جسدها كان محموماً. كانت الفتاة تعيش مؤقّتاً في تلك الغرفة، التي بعثرت على أرضها زجاجات فارغة، أعقاب سجائر، محاقن، بقايا بيتزا قديمة وكلّ

القاذورات التي من الممكن تصوّرها. على الطاولة بين أدوات الزينة المفتوحة كان هناك كيس بلاستيكيٌّ، أفرغه دون أن يدري عمّا يبحث، فوجد مفتاحاً، سجائرَ وجرعةً هيروييين، محفظة أوراق نقديّة تحتوي على ثلاثة دولارات وبطاقة عليها اسم محام. لم يخطر له أن يهتفَ للشرطة، لكن خطر له أنّها لسببٍ ما تحمل تلك البطاقة فهُرِعَ إلى الهاتف العام عند الزاوية وهتف لريفز، دون أن يدري أنّه كان يتكلّمُ مع والد تلك العاهرة البائسة المحتضرة على سرير بلا ملاحف. وما إن دبَّ الصوت حتى سار إلى حانة ليتناول بيرة مستعدّاً لنسيان المسألة ويهرب من هناك إذا ما ظهرت الشرطةُ، لكنّه أحسَّ في مكانٍ خفيٍّ من روحه أنَّ الفتاةَ تناديه وفكّر أنّه ما من أحد يُحبُّ أن يموتَ وحيداً. لن يفقد شيئاً إذا ما رافقها دقائق أخرى ووضع في طريقه الدولارات والمخدّرَ في جيبه، فهي في جميع الأحوال لن تحتاجها. عاد إلى الغرفة ذات الرقم تسعة بقنينة بيرةٍ أخرى وكأس ورقيٍّ فيه ثلج وبينما هو منهمكٌ في سقايتها وتمرير الثلج على جبينها وتبليل قميصها الداخلي ليرطِّبَ جسدها بالماء البارد، نسي أن يفرِّغَ محفظة الأوراق ومضى الوقتُ وتمكن ريفز أن يهتدي إلى النزل.

ـ حسن، أنا ذاهب ـ قالَ، مشوّشاً لرؤية رجلٍ أبيض ببذّة رماديّة وربطة عنق، الذي يبدو مزحةً في ذلك المكان، لكنّه بقي على العتبةِ فضولاً.

ـ ما الذي حدثَ؟ أين يوجدُ هاتف؟ من أنتَ؟ ـ سألَ ريفز وهو يخلعُ سترته ليغطّي ابنته العارية.

ـ لا علاقة لي بالأمر، حتى أنّني لا أعرفها. وأنت من تكون؟

ـ أبوها. شكراً لأنك هتفت لي ـ وتكسّر صوته.

ـ خراء... خراء ملعون... ـ دعني أُساعِدُكَ.

رفع الزنجيُّ مرغريت كما لو كانت مولوداً جديداً وحملها إلى السيّارة حيثُ كان ينتظر كينغ بنيديكت، كي يمنعهم من أن يعرُّوها. انطلق ريفز بكلّ سرعة إلى المشفى مخترقاً السيرَ عبرَ ضباب دموعه، بينما ابنته لا تكادُ تتنفّسُ متكوِّرة على ركبتي كينغ، الذي راح يرنِّمُ لها واحدةً من أغاني العبيد القديمة، التي كانت تنوِّمه بها أُمُّه حين كان طفلاً. دخل إلى قاعة الإسعاف يحملُ الفتاةَ بين ذراعيه. بعدَ ساعتين سمحوا له أن يراها لدقائق معدودات في غرفة العناية المشدَّدة، حيث ترقد مصلوبةً على حمّالة وقد وضعوا لها عدداً من المسابر وجهاز تنفُّسٍ متصلاً بالجسد. قدَّم الطبيبُ المناوب التقريرَ الأوّلَ، ، التهاب عام أثَّرَ على القلب، الأعراض

سيئّة جدّاً، قالَ، ربما استطعنا إنقاذها بجرعاتٍ كبيرة من المضادّات الحيويّة وتغيير جذري في حياتها. كشفت الفحوصات اللاحقة أنَّ جسمَ مرغريت ينطبق على جسم امرأة عجوز، أجهزتها الداخليّة خرَّبتها المخدِّراتُ وأوردتها عطلتها الحقن، أسنانها مرتخية، جلدها محرشفٌ وتفقد شعرها خصلاً، تتقطّر دماً لكثرة الإجهاضات والأمراض الجنسيّة. على الرغم من كلِّ تلك المحن، المطروحة بعينيها المغمضتين في ضوء الغرفة الخافت كانت تبدو ملاكاً نائماً، ببراءتها غير الممسوسة دون آثار ظاهرة للخزي. لم يدم الوهم طويلاً، فسرعان ما تأكّدَ كم هي خسيسةٌ الهوّة التي وقعت فيها. حاولوا أن يبقوا إدمانها على الحدّ، لكنَّ روحها كانت تفلت في تشنُّجات كرب. ناولوها ميتادون وأعطوها النيكوتين في علكة مطاطيّة، لكنّهم أيضاً كانوا بحاجة لأن يربطوها كيلا تتناول كحول تعقيم الجروح أو تسرق الباربيتوريك. لم يتمكن غريغوري ريفز في هذه الأثناء من الاتصال بسَمانثا، التي كانت في الهند تقتفي آثار أحد الشيوخ. لجأ وقد أصيبَ بالقنوط إلى مينغ أبريين طالباً مساعدتَها، على الرغم من أنَّه فقد كلَّ أملٍ بإمكانيّة انتشالِ مرغريت من مخالب قدرها اللعين. وما إن تجاوزت المريضةُ أزمة موت الأيّام الأولى حتى ذهبت أبريين لزيارتها بانتظام، تغلق عليها لتتحادث معها لساعات. كان ريفز يصل إلى المشفى مساءً فيجدُ ابنته ممزَّقة القلب حزناً على نفسها، وعلائم جنون ورعشة مستعصية في يديها. كان يجلسُ بجانبها يرغبُ بمداعبتها، دون أن يجرؤ على لمسها ، يمكثُ صامتاً يسمع سلسلةً من التوبيخات والاعترافات البغيضة. هكذا عرف بالعذاب الغامض الذي تحمّلته ابنتهُ. حاولَ أن يتحقّق كيف وصلت إلى تلك الجلجلة، أيّ حنق كتيم، أيّة وحشة من الظلمات حولت حياتها بذلك الشكل، لكنّها هي نفسها لاتعرفه. كانت تقول له مجهشةً في كل برهةٍ أحبُّكَ، يا أبي ، لكن بعد لحظةٍ تنقلبُ ضدَّهُ مزمجرة بكراهية قلبيَّةٍ مجرِّمة إياه بكلِّ خرابها.

ـ انظر إليّ ياابن العاهرة الملعون، انظر إليَّ ـ ثم بحركة من يدها تنزع عنها الملاحف وتفتح ساقيها مظهرةً له عضوها، باكيةً ضاحكةً بضراوة مجنونة. ـ هل تريد أن تعرف كيف أكسب عيشي بينما أنتَ تسافر إلى أوروبا وتشتري المجوهرات لعشيقاتكَ وأمّي تتأمّل في وضعيّة الحداد؟ هل تريد أن تعرف ما يفعله معي السكارى، المتسوّلون، اللواطيّون والمصابون بالزهري؟ كان عليَّ ألا أقوله لك لأنّك خبيرٌ بالعاهرات، أنت تدفع لنا كي نمارس معك ما لاتفعله أيّةُ امرأةٍ مجّاناً...

حاولت مينغ أبريين أن تواجه مرغريت بواقعها نفسه، كي تقبل

بوضوح أنّها لا تستطيع أن تنقذَ نفسها بنفسها، فهي تحتاج إلى علاجٍ طويل الأمد، لكنَّ ذلك كان مثل لعبة من ألعاب الخداع في مرايا مُشَوَّهَةٍ. كانت الفتاةُ تتظاهر بالإصغاء إليها وتعترف أنَّها مشمئزَّة من حياتها الجامحة، لكن ما إن استطاعت أن تخطو خطواتها الأولى حتى انسلَّت إلى هاتف الممرِّ لتطلب من أصحابها أن يحضروا لها هيرويينا إلى المشفى. وكانت في مناسباتٍ أخرى تنهارُ كليّاً وترتعبُ من نفسها، تشرع تروي تفاصيلَ من انحطاطها الطويل لتغوص بعد ذلك في وحل الندم. عرض أبوها أن يدفع لها مقابل برنامج إعادة تأهيل في عيادة خاصّةٍ وقبلت الشابةُ أخيراً مذعنةً ظاهريًّا. قضت مينغ الصباحَ وهي تحرِّكُ خيوطاً كي يقبلوها وغريغوري ذهب لشراء بطاقات السفر إلى جنوب كاليفورنيا. في تلك الليلة أخذت مرغريت ثياب مريضةٍ أخرى وهربت بها دون أن تُخلِّفَ أثراً.

- الإلتهاب لم يشفَ، وحدها الأعراض المقلقة هي التي اختفت. بكلِّ تأكيدٍ ستموتُ إذا ما أوقفت المضادَّات الحيويّة - أعلن الطبيبُ بنبرة محايدة، فقد كان معتاداً على كلِّ أنواع الإسعافات أما مدمني المخدِّرات فليس لهم في نفسه أيّ موقع حسن.

- لا تبحثْ عنها، يا غريغوري. ستقبل في لحظة ما بأنّه ليس باستطاعتك عمل أيّ شيءٍ من أجل ابنتكَ. عليك أن تتركها تذهب، فهي سيِّدةُ حياتها - نصحت مينغ أبريين الأبَ المنهك.

في هذه الأثناء كان يقتربُ موعدُ محاكمة كينغ بنيديكت. بقيت شركة الضمان ثابتة في رفضها التعويض عن الحادث، معتبرة أنَّ فقدان الذاكرة المزعوم كذبة. كانوا قد أخضعوه لفحوصاتٍ طبيَّة ونفسيَّةٍ مُذلَّةٍ، ليثبتوا أنّه لا يوجدُ أيُّ ضررٍ جسديٍّ يمكن أن يعزى للسقطة، استنطقوه لأسابيع حول كثيرٍ من الحوادث التافهة التي وقعت بين سنِّ المراهقة والعام الجاري، كان عليه أن يحدِّد هويَّةَ فرق بيسبول قديمة سألوه ما الرقص الذي كان يُرقصُ في العام 1941 وفي أيِّ يوم انفجرت الحربُ في أوروبا. كذلك وضعوا مخبرين يتجسَّسون عليه أشهراً بأملٍ أن يباغتوه في الخديعةِ. بنيَّةٍ صادقة حاول بنيديكت أن يجيبَ على الأسئلة اللامتناهية، لأنّه لا يريد أن يعتبروه جاهلاً، وباستثناء بعض الأمور التي احتفظ بها من قراءاته اليوميَّة في المكتبة، كان ما عداها متخفيًا في ضباب أمور العيش الساكن: لا نعرف شيئاً عن المستقبل، وربّما كان غير موجود، لا

يوجدُ أمام أعيننا غير الماضي. كانت قد قالت له أمُّه مرّاتٍ كثيرةً، لكنَّه في حالته لم يكن يستطيع أن ينضح مما عنده، فقد كان ظلاً منزلقاً تضيع فيه أربعون عاماً من مروره في هذا العالم. بالنسبة لغريغوري ريفز، الذي عاش معذَّباً بذاكرة هائلة، كانت مأساةُ زبونه مذهلة. هو أيضاً كان يسأله، لكن لا ليوقعه في الكذب وأنَّما ليعرف كيف يشعر الرجل حين يملك فرصة ليمحو الحياة ويصنعها من جديد. عرف كينغ قبل أربعة أعوام وسمع منه في تلك الفترة أوهام فتوَّته وطموحاته للعظمة، بينما يراه يمضي خطوةً خطوة على الطريق السابق ذاته، مثل رجلٍ أرقٍ، أسير حلم مطروق. لم يقم كينغ بتغييرات كبيرة، وكأنّه يدوس على آثاره ذاتها، ذهب إلى المدرسة الليليَّة ليدرس الثانويّة، وحصل على العلامات السيِّئة التي حصل عليها يوم كان فتىً، ثمَّ تركها أخيراً من منتصف الطريق، بعد قرابة السنتين، في الفترة التي كان يقارب فيها عقله السابعة عشرة من العمر تقدَّم إلى عددٍ من مراكز التجنيد للقوات المسلَّحة يتوسَّلهم أن يقبلوه، لكنَّه رفض فيها جميعاً. كان قد شاهدَ أفلاماً كثيرة عن الحرب ولأنَّه بُهر بتبجُّحات العسكريِّين انتهى إلى أن اشترى لباسَ جنديٍّ، يرتديه ليُعزِّي نفسه.

- بعد سنة أو سنتين سيتزوَّجُ بواحدة مشابهة لزوجته الأولى، وسينجبُ ولدين مثل أحفادي الملعونين - علَّقت بل بنيديكت بمرارة.

- أستغرب أن يتعثَّر المرءُ بالحجر ذاته مرَّتين - أجاب غريغوري ريفز، الذي بدأ رحلته الصامتة إلى ماضيه ويتساءل كثيراً ماذا كان من الممكن أن يحدثَ لو أنَّه فعل هذا محلَّ ذاك.

- لا يمكن للمرء أن يعيش مرَّتين ولا مصيرين مختلفين. ليس للحياة ممحاة - قالت هي.

- نعم نستطيعُ، يا سيِّدة بنيديكت، أنا أحاول ذلك. يمكن تغيير الطريق وتعديل الممحاة.

- ليس للمُعاشِ من إصلاح. يمكن أن تحسِّن ما تبقى أمامك، لكنَّ الماضي لا يرعى عهداً.

- هل تريدين أن تقولي إنَّه من المحال التخلُّص من الأخطاء المرتكبة؟ أما من أملٍ بالنسبة إلى ابنتي مرغريت، مثلاً، التي لم تبلغ العشرين بعد؟

- أمل، نعم، لكنَّها لن تستعيد السنين العشرين الضائعة أبداً.

- فكرة مرعبة... يعني أنَّ كلَّ خطوةٍ تشكِّلُ جزءاً من تاريخنا. نمضي مثقلين دائماً برغباتنا، أفكارنا وأعمالنا. كان والدي يتكلَّم عن كلِّ عملٍ والمسؤوليَّة التي تقع على عاتقنا في نظام الكون الروحي، كان يقول بأنَّ كلَّ ما نقوم به يعودُ إلينا، عاجلاً أم آجلاً سوف ندفع ثمن الشر ونكافأ على الخير.

- هذا الرجل كان يعرف كثيراً.

- كان مُزَعْزَعاً ومات معتوهاً. نظريّاته كبّة من التشابك، أنا لم أفهمها قط.

- لكنَّ قيمه كانت واضحة، كما يبدو.

- لم يكن يعظ بالمَثَل. تقولُ أُختي إنَّه كان كحوليَّاً ومنحرفاً، مهووساً بالتحكم بكلِّ شيءٍ، ودمَّرَ حياتنا، على الأقلِّ حياتها. لكنَّه كان رجلاً قويَّاً وكنت أشعر بالراحة إلى جانبه وعندي ذكريات جيِّدة عنه.

- يبدو أنَّه علَّمك الاستقامة.

- حاول أن يفعل ذلك، لكنَّه مات أبكرَ ممّا يجب. كان طريقي متعرِّجاً جدَّاً.

حين ناقش هذا مع الدكتورة مينغ أُبريين انتهى إلى أن حكى لها قصّة زبونه، فقاطعته وهي التي تصغي بشكلٍ عام بانتباه شديد ويندرُ أن تفتحَ فمها لتعلن رأياً، لتسأله عن بعض التفاصيل. هل تعرَّضَ كينغ بنيديكت إلى ضغطٍ كثير؟ كيف كانت طفولته؟ هل كان شخصاً هادئاً ومتزناً، أم مضطرباً؟ وكشفت له أخيراً أنَّ هذا النوع من فقدانٍ الذاكرة كان نادراً، لكن هناك حالات قليلة. أخرجت كتاباً من الرفِّ وناولته له.

- القِ نظرةً على هذا. من المحتمل أن يكون زبونك قد عانى صدمةً عاطفيَّة قويّة جدَّاً أو ضربة شبيهةً بتلك التي تلقّاها في الحادث. وحين تكرَّرت التجربة صارت صدمة الماضي غير محتملة وحاصرت ذاكرته.

- ظاهريّا لا يوجدُ شيءٌ من هذا.

- يجب أن يكون هناك شيءٌ مؤلم جدَّاً أو مُهَدِّد لايريدُ تذكُّرَهُ. اسألْ أُمَّهُ.

قضى غريغوري ريفز الليلَ ساهراً يقرأ وفي ساعة الإفطار كوّن فكرةً واضحةً عمّا اقترحته مينغ أبريين. تذكَّر تلك المناسبة التي أغمي فيها على كينغ بنيديكت في مكتبه عندما طُلِبَ منه أن يحدِّد هويّة صور

بعض المجلاّت وردّة فعل بِل الغريبة. كانت تنتظر في الخارج أثناء التصريح وحين سمعت الضوضاء هُرِعت إلى المكتبة، رأته على الأرض، وانحنت لنجدته، لكنّها اكتشفت في تلك اللحظة المجلّةَ مفتوحة على الطاولة وبحركة متهوّرةٍ أغلقت فم كينغ بيدها. لم تسمح بعدها بمتابعة الاستنطاق، حملته في سيّارة أجرة وأصرّت منذ ذلك اليوم على حضور جميع المقابلات. عزا ريفز ذلك إلى قلقها على صحّةِ ولدها، لكن صار عنده الآن شكوك. ذهب، وقد أثارته هذه الفجوة التي يرى من خلالها بعض النور، إلى بيت والدي تيموثي دوان مباشرة ليتكلمَ مع المرأة. كانت بِل في المطبخِ تنظّف أطقم الملاعقِ والشوك والسكاكين الفضيّة حين أعلن رئيس الخدم عن الزيارة، ولم تتمكّن من الخروجِ لاستقباله، لأنَّ محاميها اقتحم عليها المطبخ. علينا أن نتكلّم، قال لها، وأخذها من يدها دون أن يمنحها الوقت لتنزع المئزر أو تغسل يديها. قال لها على انفرادٍ في مكتبه إنّهم سرعان ما سيلعبون بورقة واحدة بمستقبل ابنها، وأنّ النصر يتعلّقُ بحججه لإقناع هيئة المحلفين بأنَّ كينغ لم يكن يتظاهر. وقد بدا له ذلك حتى البارحة محالاً، لكنّه اليوم يستطيع بمساعدتها أن يغيّرَ مجرى القضيّة. كرّر عليها نظريّة مينغ أبريين ورجاها أن تحكي له ما جرى لكينغ بنيديكت في شبابه.

- كيف تريدني أن أتذكّر شيئاً مضى عليه كلُّ ذلك الوقت؟

- أنا واثق من أنّك لن تحتاجي إلى جهدٍ كبير كي تتذكّري، لأنّكِ لم تنسه لحظةً واحدة، يا سيّدة بنيديكث - ردَّ عليها فاتحاً الأرشيف واضعاً المجلّةَ التي تسبّبت بنوبة ابنها مفتوحةً أمامَ عينيها - . ماذا تعني هذه المزرعة؟

- لا شيء.

- أنت وكينغ، هل كنتما في مكان مثل هذا؟

- كنّا في أماكن كثيرة، ونتحرّكُ طوالَ الوقت بحثاً عن عمل. جمعنا القطن مرّاتٍ عدّة في أماكن مماثلة.

- هل هذا حين كان كينغ في الرابعة عشرة من عمره؟

- ربّما، لا أتذكّرُ.

- أرجوك لا تصعّبي عليَّ الأمورَ أكثر، فنحن لا نملك وقتاً. أريدُ أن أُساعدكِ، نحن نلعب في الفريق ذاته، يا سيّدة، لستُ عدوّاً.

لزمت بِلْ بنيديكت الصمتَ وهي تراقب الصورَ، مظهرةً عزّةَ نفس

متحدّية، بينما غريغوري ريفز ينظر إليها معْجَباً، مفكِّراً أنّها لا بدَّ كانت حسناء في شبابها وأنّه لو قيِّضَ لتلك الفهدة أن تولد في عصرٍ آخر أو ظرفٍ آخر لكان من المحتمل أن تتزوَّج من رجلٍ نبيل وقوي يأخذها من ذراعها دون أن يجرؤَ أحدٌ على أن يعيب عليها عرقها.

ـ حسنٌ، يا سيِّد ريفز، نحن في زقاقٍ مغلق ـ قالت هي أخيراً متنهِّدةً ـ . إذا ما أغلقتُ فمي، كما فعلتُ حتى الآن خلال أربعين سنة، سيكون وليدي معوقاً وعجوزاً. وإذا قلت لك ما حدث سيأخذونني سجينة ويبقى ابني وحيداً.

ـ يمكن أن يكون هناك أكثر من اختيارين. إذا ما استشرتني كمحام، سيكون كلُّ شيء سريّاً، وأوكِّد لك أنّه لن يخرج من بين هذه الجدران الأربعة.

ـ هل يعني أنّك لا يمكن أن تشي بي؟

ـ لا.

ـ إذن سمَّيتُك محاميَّ، لأنّني سأحتاج، في جميع الأحوال، إلى واحدٍ ـ قرَّرت بعد وقفة طويلة ـ . كان ذلك دفاعاً عن النفس، كما يقولون، لكن من كان سيصدِّقني؟ فأنا كنتُ زنجيَّةً مسكينة عابرة في أكثر مناطق تكساس عنصريَّةً، أمضي مع ولدي من مكانٍ إلى آخر أكسبُ عيشي مما أستطيع أن أجده، لم يكن معي غير حقيبة ثياب وذراعين للعمل. في تلك الأيّام كان يفيض عني وجع الرأس، داخلة دون إرادةٍ مني في ورطاتٍ أجْذُبُ المآسي كما يجذبُ الورق اللاصق الذبابَ. لا أتأخَّر قط في مكان، فدائماً كان يحدث شيءٌ ونضطرُّ للرحيل من جديد. فوجئت بأن المالك منحني عملاً، بقيّة العمال *المياومين* كانوا رجالاً، جميعهم تقريباً لاتينيّون، ناس عابرون، لكنّه كان موسم قطاف القطن وافترضتُ أنّه بحاجة لعمّال. لم يكن باستطاعتي أن أنزل في المهاجع العامَّة، فوضعنا أنا وبابي في كوخٍ قذرٍ على حدود ممتلكاته، بعيداً كفاية، في الصباح كانت تأتي شاحنة وتأخذنا ثمَّ تعيدنا في المساء بعد انتهاء العمل. كان عملاً جيِّداً، وأؤكِّدُ لك أنّني تحمَّلت ما استطعت. لستُ شديدة الحساسيَّة، وأولويَّاتي واضحة جدّاً، أوَّلها دائما إطعامٍ ابني، فماذا يهمُّني أن أنامَ مع رجل؟ عشر أو عشرون دقيقة وينتهي كلُّ شيء، وتنسى الواحدة الأمر حالاً. لكنَّه كان واحداً ممّن لا يستطيعون أن يقوموا بذلك مثل كلِّ العالم، يحبّ ممارسته بالضرب، وإذا لم يرَ دمي يسيل لا يستطيع. من كان سيعرف هذا، فهو يبدو رجلاً طيِّباً، والعمَّال يحترمونه، يدفع المستَحَقّ، يذهبُ أيّامَ

الآحادِ إلى الكنيسة، كان ربّ عملٍ نموذجياً. تحمّلتُ أن يجلدني وينـاديني بالزنجيَّة القذرة وأشياء أخرى كثيرة مرّتين أو أكثر، لم يكن الوحيد، فقد اعتدتُ هذا إلى هذا الحدّ أو ذاك. من هي المرأةُ التي لم تُضْرَب؟ كان بابي قد ذهب في ذلك الأحد ليلعب البيسبول ووصل الرجل في شاحنته الصغيرة إلى الكوخ، كنت وحيدةً، رأيت في وجهه ما كان يبغيه، ورائحة الكحول تفوح منه. لا أعرف جيّداً كيف حدثت الأشياء، يا سيِّد ريفز، فقد نزع زنّاره وراح يسوطني بقساوة وأظنُّ أنَّني رحتُ أصرخُ، وفي تلك الأثناء وصل بابي، وقف في الوسط، لكن الوضيعَ رماه بلكمةٍ بعيداً. ارتطم قفا عنقه بزاوية الطاولة. رأيتُ ابني مغشيّاً عليه فلم أضطرّ للتفكير بالأمر، أخذت المضرب وضربته على رأسه. كانت ضربة واحدة لكنها بقوة روحي كلّها فقتلته. حين فتح بابي عينيه غسلت له جرحه، كان جرحاً عميقاً، لكنني لا أستطيعُ أن أحمله إلى مشفى لأنّهم كانوا سيوجِّهون لنا بعض الأسئلة، أوقفتُ الدمَ بالماء البارد وبعض الخرق. وضعتُ جثَّةَ الرجل في الشاحنة، غطّيته بالأكياس، ثمّ خبَّأتُها بعيداً عن البيت. انتظرتُ الليل وحملتها إلى مسافة عشرين ميلاً عن أملاكه ورميتها في هوّة. لم يعرف أحدٌ بالأمر، سرتُ أكثر من خمس ساعات على قدميّ عائدةً إلى الكوخ. أتذكّرُ أنّني نمت بقيَّة الليل مرتاحة الضمير، وفي اليوم التالي كنتُ في الباب بانتظار أن يأخذوني للعمل، كأنَّ شيئاً لم يحدث. لم أتكلَّم عن هذا مع ابني قط. عثرت الشرطة على الجثَّةِ واعتقدت أنَّ المالكَ شرب أكثر من اللازم وانقلبت به الشاحنةُ. استجوبوا العمَّال *المياومين*، ومع ذلك إذا كان أحدٌ قد رأى شيئاً فإنَّه لم يشِ بي ولم يتخطَّ الأمرُ هذا الحدَّ. بعدَ فترةٍ رحلتُ مع بابي دون أن نعود لنطأ تكساس. تصوَّر ماهية الحياة، يا سيِّد ريفز، بعد أربعين عاماً يأتي هذا الشبحُ لينغِّص عليَّ حياتي.

ـ هل أثقلَ على ضميركِ؟ ـ سأل ريفز وهو يفكِّرُ بالأموات الذين حمَّلهم بنفسه.

ـ إطلاقاً وبحمدِ الله. لقد بحثَ هذا الرجلُ عن نهايته.

ـ صديقتي كارمن، النبع الذي لا ينضب للشعور العام قالت لي في إحدى المناسبات إنَّه لا حاجة للاعتراف عما لم يسأل عنهُ أحد...

ـ لكنَّه سيخرج في الجلسة، يا سيِّد ريفز.

ـ هل ما زالت الندبةُ في رأسِ كينغ؟

ـ نعم، وبقيت بشعة لأنَّهم لم يخيطوها له.

ـ سنبرهن لهم بأنَّه شجَّ رأسه في الرابعة عشرة من عمره حين سقط

على طاولة، ولن نذكر، إذا ما حالفنا الحظ بقيَّةَ القصّة. وإذا ما حصلتُ على خبيرٍ يربطُ الصدمةَ الأولى مع حادث البناء فربما استطعنا أن نتدبَّرَ الأمرَ دونَ أن نلجأ إلى المحاكمة، يا سيِّدة بنيديكت.

برهنت مينغ أُبريين في جلسة المصالحة أنَّ حالة كينغ بنيديكت تنطبق على فقدان ذاكرةٍ نفسيٍّ، وأنَّه نظراً لانعدام التقدُّم ربما لن يتعافى أبداً. وضَّحت أنَّ الأحداث السابقة تنسجم مع الأسباب المعتادة لهذا الخلل، وكانت طفولة وشباب كينغ أليمين، عانى من ضربةٍ خطيرةٍ في مراهقته، وعانى قبل الحادث من ضغوطٍ قويَّةٍ وكان ذا مزاج اكتئابيٍّ. حين سقط عن السقالة عانى من صدمةٍ نفسيَّة مشابهة لسابقتها وتراجع عقله خطوةً إلى الوراء ولاذَ بالنسيان، كنوع من الدفاع في مواجهة الكآبة التي تخنقه. عمل محامو الدفاع ما أمكنهم كي يدحضوا التشخيص، لكنَّهم تحطموا على صخرة ثبات الدكتورة، التي قدَّمت قرائن من حالاتٍ مشابهة. ومن جهةٍ أخرى فإن رجال التحرِّي الذين تعاقدوا معهم لمراقبته لم يحصلوا إلا على صور للمشكوك بأمره وهو يتسلّى بالقطار الكهربائي ويقرأ قصص المغامرات ويلعبُ لعبةَ الحرب كجنديٍّ. القاضية، وهي سيِّدة ذات طبيعةٍ شديدة مثل مينغ أُبريين، حملت المدَّعى عليهم جانباً وبيَّنت لهم أنَّ من مصلحتهم أن يدفعوا دون إثارة المزيد من الضجيج، لأنَّهم إذا ما ذهبوا للمحكمة كانت خسارتهم أكبر. بحسب تجربتي الطويلة، قالت، فإنَّ أعضاء أية هيئة محلَّفة سيكونون رفقاء بهذا الرجل المسكين وأمِّهِ المُغفَّلة، تماماً كما سأكون أنا نفسي لو كنتُ واحدةً منهم. وبعد يومين من الشدِّ والرخي أذعنَ المحامون، واحتفل غريغوري ريفز بانتصاره ودعى بِل وكينغ وابنه ديفيد إلى ديزني لاند، حيث ضاعوا في عالم خياليٍّ من الحيوانات المتكلِّمة، والأنوار التي تهزم الليلَ والآلات التي تتحدّى قوانينَ الفيزياء وألغاز الزمن. وعند العودة ساعدَ بِل على شراء بيتٍ متواضعٍ في الريف ووظَّف بقيَّة مال الضمان في حسابٍ لكينغ وفي أن تحصل الأمُ على معاشٍ مدى الحياة.

عندما أهمل داي حاسوبه، وشرع باستخدام عطر الحلاقة وتفحُّص نفسه في المرآة بطلعةٍ حزينة، دعته كارمن مورالِس للغداء خارج البيت للتحدُّثِ معه، متَّبعةً عادتها بافتعال مواعيد العشّاق لمعالجة أمور هامَّة. كانت حياتها قد تعقَّدت ومع السنين فقدت جزءاً من حميميَّتها الوديَّة التي جَمَعَتْهُما وداي في البداية، على الرغم من استمرارهما كأفضل صديقين.

كان داي مراهقاً ذا مظهرٍ لاتينيّ، يشبه والده، لكنّه أكثر كثافة وجهامة. لم يرث شيئاً من روح خوان خوسِيه المغامرة ولا من شخصيّة كارمن الانفجاريّة، كان فتىً انطوائيّاً ووقوراً قليلاً، جدّيّاً أكثر من اللازم بالنسبة إلى عمره. أظهر في الرابعة أو الخامسة من عمره فطنة في الرياضيات غيرٍ معتادة فعامله الجميع عندئذٍ كمعجزة، باستثناء أمّه بالتبنّي. قدّمه معلّموه في برامج تلفزيونيّة مختلفة ومسابقات ظهر فيها وهو يحلّ عن ظهر قلبٍ أعقد المعادلات. وهكذا ربح عدداً من الجوائز بما في ذلك درّاجة نارية حين لم يكن له من العمر ما يسمح له باستخدامها. مزاجه الفخور كان في طريقه ليصبح عجرفة، لكنّ كارمن حافظت على الحدّ منه بتشغيله في المعمل أثناء العطل، كي يعرف منذ صغره كم يكلّف كسبُ العيش وليحتكّ بعمّالٍ آخرين، كما اعتنت بفضوله وفتحت عقله على ثقافاتٍ أخرى. في الخامسة عشرة من عمره زار داي الشرق وأفريقيا كما زار في مناسبات عديدة أمريكا الجنوبيّة، وكان يتكلّم الإسبانية والفييتناميّة قليلاً، ويحمل على رؤوس أصابعه حسابات تجارة أمّه وعنده حساب توفير. عرض عليه عددٌ من الجامعات منحاً ليدرسَ فيها في المستقبل.

وبينما كان البلدُ بكامله يتجادل بأزمة القيم بين الشباب وكوارث النظام التربوي، الذي خلق جيلاً من الجهلة والمترهّلين، كان داي يدرس بوعي، يعملُ ويسبرُ المكتبة في أوقات فراغه ويلعب بحاسوبه؛ يحتفظ في غرفته بمذبح صغير وصورة أمّه وأبيه التي ركّبها ليو غالوبّي بجانب صليب خشبيّ، وبوذا صغير من الخزف وقصاصة من مجلة لصورة الأرض ملتقطة من سفينة فضائيّةٍ. لم يكن اجتماعيّاً ويفضّل البقاء وحيداً وكانت كارمن حتى ذلك الوقت رفيقته الوحيدة. تبدّل ذلك الفتى اللطيف، الراضي بحياته والمرتاح في جلدِ ذئبه المتوحّد في نهاية الربيع، وصار يقضي ساعات على زينته، بدأ يعتني بلباسه، يتكلم ويتحرّك مثل مُغنّي الروك، يخرجُ في ساعاتٍ غير مناسبة ويبذل جهوداً هائلةً كي يُقْبَلَ من الفتيات، اللواتي كان يزدري صحبتهنّ في السابق. تخلّى عن ولهه بالرياضيّات، لأنّه يريدُ أن يكون واحداً من الكل وهذا ما كان يفصله عن رفاقه. وحين رأتهُ أمّه يتعذّبُ بلصق شعره بالصمغ كي يروّضَ خصلَةُ السوداء ويضع معجون الأسنان على حبّ الشباب ويتمشى بجانب الهاتف، عرفت أنّ زمنَ التواطؤ مع ابنها أوشك على نهايته فعانت من أزمةِ غيرةٍ لم تجرؤ على الاعتراف بها حتى لغريغوري ريفز في مكالمات أيّام الإثنين. في ذلك الوقت كانت هناك حوانيت « *تامار* » موزّعة في العالم وتملك تحت تصرّفها طاقماً فعّالاً من الموظّفين لتسيير تجارتها، بينما يقتصر عملها

على تصميم الخطوط الجديدة وتدعيم صورةِ مؤسَّستها. اشترت بيتاً خشبيّاً وسط أشجارٍ ضخمة في تلال بيركلي، عاشت مع ابنها وأمِّها. كان بيدرو مورالِس قد مات قبل سنين عدّة، وقد رفض حين أحسَّ بنهايته الذهابَ إلى المشفى، لم يبغِ أن يطيلوا له حياته بوسائل اصطناعيّة، فكَّر أنّ حسابات الأطباء ستوقعَ العائلة في الإفلاس وتبقي على زوجته في الشارع. عمل حياته كلَّها كي يخرج بقبيلته الصغيرة إلى الأمام ولا يريد أن يضرَّ بها في ساعاته الأخيرة. كان فخوراً بأبنائه وبالأخص كارمن وحفيده داي الذي رأى فيه تجسيداً لولده خوان خوسِه. غادر إلى العالم الآخر دون أن يترك خيوطاً فالتة وبشعور من وفّى بواجبه دون أن يستعجلَ القدرَ. ساعدت إنماكولادا زوجها في غيبوبته الأخيرة وواست بعدها أولادها وكنّاتها وأحفادها المكروبين. لم تتفكّك الأسرةُ باختفاء البطريرك لأنَّها حافظت على أواصر الودّ والمساعدة المتبادلة متينةً. قرَّرت بعد الجنازة البقاء مع كارمن لفترة من الزمن ثمَّ وزَّعت خلال أسابيع قليلة ممتلكاتها وباعت البيت. وضعت روحها لسنين طويلة في خدمة جمع ذلك الأثاث والزينات، شواهد ازدهارها، لكن فقدان زوجها أفقد كلّ شيءٍ ماديٍّ قيمته. كانت تقول: يمضي الإنسان القسمَ الأوّلَ من حياته في جمع الأشياء والقسم الثاني في محاولة التخلُّص منها. لم تحتفظ إلاّ بالسرير الذي تقاسمته نصفَ قرنٍ مع بيدرو مورالِس، لأنَّها كانت ترغب بالموت عليه ذات يوم. تغيَّرت المرأةُ قليلاً، كانت تبدو متجمِّدةً في عمر غير محدَّدٍ، تبدو أنَّ مناعة سلالتها الأصليّة تحميها من تآكل الجسد وأخطاء الذاكرة، فهي لم تتألّق قط كما تألّقت، كانت عجوزاً متماسكة ونشيطة منيعةً على التعب، الوهن أو سوء الصحّة. أخذت على عاتقها أمور بيت كارمن بحماسٍ عسكريٍّ، ربَّت ستة أولادٍ في عوزٍ حيٍّ فقير، ولم يشكل ذلك البيت المليءُ بالراحة أيَّ تحدٍّ بالنسبةِ إليها. كلَّفَ منعُها من قصم ظهرها في غسل الملابس وخفق البيض، كثيراً. كانت من أنصار الحفاظ على اليدين مشغولتين دائماً، فالعطالةُ تسبِّب الأمراض، كانت تقولُ لتبرِّرَ لنفسها حين يلقونها تعتلي سلّماً وتغسل نوافذ أو تنصبُ حابيةً مصائد للرواكين[1]، التي شكّلت مستعمرة في أساسات البيت. استمرَّت تطبخ المأكولات المكسيكيّة التي لا يستذوقها إلا هي وداي لأنَّ كارمن كانت تعيشُ على الحميةِ، تستيقظُ في الفجر لتسقي حديقة

(1) الراكون: حيوان لحمي شبيه بالغُرير، لجلده قيمة كبيرة في التجارة.

خضرواتها وأعشابها العطرة، تنظِّفُ، تطبخُ وتغسل، وكانت آخر من يذهب إلى الفراش بعد أن تهتف لكلِّ واحدٍ من أبنائها في مختلف مدن البلد، فهي لم تكن امرأةً تتخلّى عن متابعة أخلافها عن قرب. كانت عادةُ العبوديَّة متجذِّرة فيها بحيث أنَّها ما كانت لتعدِّلَهَا في شيخوختها، ومع ذلك كانت الأولى في السخرية من أعمالها المنزليّة. قبل سنواتٍ أغبطت بالسرِّ كارمن التي عادت من أسفارها وقد صارت «غرينغا متحرِّرة» كما كان يغمغم بيدرو مورالِس. أن تكسب ابنتها حياتها بشكلٍ أفضلَ من أخوتها كان يسبِّبُ لها متعةً، فقد كانت تعوِّضِ عن حياتها ذاتها، حياة طأطأة الرأسِ أمام الرجال. أجبرت كارمن أمَّها على استخدام آلات حديثةٍ، أن تشتري العجَّةَ في أكياسٍ بلاستيكيَّةٍ، كما فتحت لها حساباً في المصرف، تحترمه احترامها لكتاب صلاتها. كانت إنماكولادا أوّل من تنبَّأ بأنَّ داي دخل مرحلةَ الحبِّ من طرفٍ واحد ونقلته إلى ابنتها.

ـ احكِ لي كلَّ شيء ـ أمرت كارمن الفتى في المطعم.

حاول داي أن يتملَّصَ، فخانه شعوره بالعزلة وخجله، كان أسمرَ البشرة والحرُّ يضفي عليه بعضَ درجات اللون الباذنجاني. لم تترك له أمُّهُ مهرباً وعند الصحن الأخير حاص في كرسيِّه وقد بُشم من الشوكولا لكنَّه لم يجد بدّاً من الاعتراف بأنَّه لم يكن يستطيعُ النومَ أو الدراسة أو التفكير أو العيش، فقد كانت تهرب منه الساعات وهو جالس إلى الهاتف بانتظار مكالمة لا تأتي: وماذا أفعلُ، يا أمّاه، لا شكَّ أنّها تحتقرني لأنَّني لستُ أبيض ولا ألعب بكرة القدمِ، لماذا ولدت؟ لماذا ذهبتِ بحثاً عنّي إلى ڤييتنام وربَّيتني مختلفاً كلَّ هذا الاختلاف عن الآخرين، فأنا لا أعرف أسماء فرق الروك، أنا الأبله الوحيد الذي يسمّي الشرقيينَ آسيويين والزنوجَ أفريقيين أمريكيين، الوحيد الذي يهتمُّ بالثقوب في طبقة الأوزون، بالمتسوِّلينِ في الشارع وبالحرب ضدَّ نيكاراغوا، الوحيد الصحيح سياسيَّاً في كلِّ مدرستي اللعينة، لا أحد يهمُّه هذا قيدَ أنملة، أمّاه، الحياة خراء، وإذا لم تهتف لي كارن اليومَ أقسم لك إنَّني سأمتطي درّاجتي الناريّة وأقفز إلى الهوَّة لأنني لا أستطيعُ العيشَ بدونها. قاطعت كارمن مورالِس حديثه بصفعةٍ على وجهه دوَّت كصفقةِ بابٍ في سلام المطعمْ النباتيِّ، الخفيِّ. حمل داي يداً إلى خدِّه في حالة من المباغتة جعلت سلسلة التشاكي تتجمَّدُ على شفتيه.

ـ إياكَ أن تعود للكلام عن قتلِ نفسكَ، هل فهمت؟

ـ إنَّها طريقةٌ في الكلام، يا أمّاه!

- لا أريدُ أن أسمعه ولا مزاحاً. ستعيشُ حياتَكَ كاملةً، وإن آلمتكَ. والآن، قلْ لي من هذه البائسة التي تسمح لنفسها باحتقار ابني.

كان الأمرُ يتعلَّقُ برفيقة صفٍّ عاشقةٍ بدورها، ككلِّ بنات المدرسة الأخريات، لرئيس فريق كرة القدم، الذي لا يستطيعُ داي أن ينافسه ولا في حلمه. رافقت كارمن ابنها في اليوم التالي لتراها عند الانصراف، فوجدت فتاةً شقراءَ صلفةً بوجه رضيعٍ يكادُ يغطيها بالون علكتها. تنهَّدت بارتياح، واثقةً من أنَّ داي سيتعافى من الحبِّ السيِّئ وسيجدُ سريعاً واحدة أهم منها، لكن حتى ولو لم يحدث هذا، فإنَّه ليس باستطاعتها، في جميع الأحوال، أن تعملَ شيئاً، فمن المحال أن توفرَ عليه التجارب والمعاناة كما حاولت أن تفعل عندما كانت صغيرةً. أدركت فيما بعد أن لإحساسها بالراحة سببٌ آخر أعمق من شخصيَّة كارن التافهة، ويقينها بأنَّ داي لن يتعذَّب لأجلها إلى الأبد. بدأت تحدس فضائل أن يحلِّقَ ابنها وحيداً. واستطاعت لأوَّلِ مرَّةٍ، في السنين الثلاث عشرة التي قضياها معاً، أن تفكِّرَ بنفسها ككائنٍ منفصلٍ وفرديٍّ، فقد كان داي حتى تلك اللحظة امتدادها وهي امتداده أيضاً، توأمان ملتصقان بالقلب، كما كانت تقولُ إنماكولادا. في ذلك المساء رأتها أمُّها جالسةً في المطبخ أمامَ كأسٍ من شاي المانغا، تنظرُ إلى ظلال الأشجار الداكنة في آخرِ أنوار النهارِ.

- هل يبدو لك أنَّني أرى نفسي عجوزاً، يا أُمّاه؟

- عجوزٌ أكثرَ من العام الفائت، وأقلّ من العام القادم، بفضل الله - أجابت إنماكولادا.

- هل تدرين أنَّني يمكن أن أكونَ جدَّة؟ فالحياة تمضي طائرة.

- في عمرك تمضي سريعاً، يا بُنيَّتي، تظنُّ الواحدةُ أنَّها ستعيشُ للأبد، وفي عمري تصيرُ الأيّامُ ملحاً وماءً، فلا أنتبه كيف تمرُّ الساعاتُ.

- هل تعتقدين أنَّه ما زال هناك من يمكن أن يعشقني؟

- من الأفضلِ أن تسألي ما إذا كان بإمكانكِ أنت أن تعشقي. فالسعادةُ التي يعيشها الإنسان تأتي من الحبِّ الذي يُمْنَح.

- لا أشكُّ بقدرتي على أن أعشق.

- يسعدني هذا، لأنَّني سرعان ما سأموتُ وسرعان ما سيذهب داي من جانبك، هذا هو الشيء الطبيعي. عليك ألاّ تبقي وحيدةً. تعبتُ من كثرة ما قلت لك تزوَّجي.

- وممَّن، يا أُمّاه؟

ـ من غريغوري، فهذا الفتى أفضلُ من كلٍّ من عرفته من خطّابك، وأنا لا أبالغ. يجب أن يرى المرء ما أسوأ عينيك بالنسبة للرجال!

ـ غريغوري أخي، وزواجنا سيكون خطيئةً منكرة.

ـ شيءٌ مؤسفٌ. إذن ابحثي عن واحدٍ بعمركِ، لا أفهم لماذا تمشين مع أشخاصٍ أصغر منكِ.

ـ ليست فكرة سيّئة، يا عجوزي... ـ ردّت كارمن بابتسامة خبيثة أقلقت الأمّ قليلاً.

بعد ثلاثة أسابيع أعلنت في بيتها أنّها ذاهبة إلى روما بحثاً عن زوج. واستطاعت بواسطة مفتّشٍ خاصٍّ أن تعرف مكان ليو غالوبّي في هذا العالم الفسيح الممتدّ، المهمّة التي جاءت بالنتيجة غايةً في السهولة، فاسمه كان مكتوباً بأحرفٍ بارزة في دليل هواتف شيكاغو. عاد مع انتهاء الحرب إلى نقطة انطلاقه فقيراً كما خرج، أضاع المال الذي كسبه من تجاراته الغريبة، لكنّه عادَ غنيّاً بتجاربه، وسنوات تجاراته في آسيا شذّبت ذوقه، صار يعرف الكثير عن الفن وكانت له علاقاته الجيّدة، وهكذا أعطى شكلاً لمؤسّسة أحلامه. فتح رواقاً للأشياء الشرقيّة ووصل به النجاح إلى حدّ أنّه بعد عشر سنواتٍ صار له فرع في نيويورك وآخر في روما، التي كان يعيشُ فيها جزءاً كبيراً من العام. أعلمَ المحقّقُ كارمن بأن غالوبّي مازال عازباً، وأراها سلسلةً من الصور التقطها له بالمنظار حيث يبدو بلباس أبيض وهو يسير في الشارع، يصعدُ حافلة أو يرشف بوظةً على درجات ساحة إسبانيا، المكان ذاته الذي كثيراً ما جلست عليه حين كانت تذهب إلى تلك المدينة لزيارة محلاّت «*تامار*». رأته فقفز قلبها. كانت قد نسيت خلال تلك السنوات ملامحَهُ، حقيقة أنّها لم تفكّر به كثيراً، لكنّ تلك الصور سيّئة التركيز قليلاً أثارت عندها موجةً من الحنين، اكتشفت أنّ ذكراه بقيت بمنجاةٍ في مقصورةٍ سرّيّةٍ من ذاكرتها: خيرٌ لي أن أبدأ العمل، قرّرت، عندي الكثير ممّا يجب عمله. كانت أيّاماً عصبيّةً مختلفة عن الأيام الأخرى، تجهّزُ فيها لسفرها، أي أن المهمّة كانت بمعنى ما مهمّة حياة أو موت، كما قالت لأمّها حين باغتتها ومحتوى خزائنها على الأرض، تجرّبُ فساتيناً في إعصار غنجٍ مضطرب. وما إن رتّبت أمور المعمل والبيت حتى أجرت فحصاً طبّيّاً، صبغت شيبها واشترت ملابس حريرٍ داخليّة. راقبت نفسها في مرآة الحمّام الكبيرة دون رحمةٍ، أحصت تجاعيدها وتمكّنت من الندم لأنّها لم تمارس الرياضة البدنيّة قط واتخمت بالحليب المكثّف الذي سخرت به من حميتها على

امتداد سنوات عمرها. قرصت ذراعيها وساقيها وتأكدت من أنَّها ما عادت صلبة، حاولت أن تبلع بطنها، لكن كان هناك ثنية متمرِّدة، تفحَّصت يديها الخربتين من العمل بالمعادن وثدييها اللذين أثقلاها دائماً مثل حمل غريب. لم يكن لها الجسد ذاته الذي كان لها في المرحلة التي تعرَّفت فيها على ليو غالوبّي، لكنَّها أصرّت على أنَّ قائمة سحرها ليست سيِّئة، على الأقلّ ليس هناك آثار دوالٍ ولا تشقّقات حمل، قالت دون أن تتذكرَ أنَّها ليست أمّ داي وأنَّها لم تلدْ قط. ذهبت والتفاصيل تحت المراقبة، لتناول الغداء مع غريغوري ريفز، الذي لم تبغِ أن تتكلّمَ معه من قبل عن مشاريعها، لأنَّها خافت أن يظنها معتوهةً. حكت له بخجلٍ في البداية ثمَّ بحماس، عمّا تحقَّقت منه حول ليو غالوبّي وأرته الصورَ. بوغتت: بطبيعيَّة كبيرة تلقّى صديقها دافعها المباغت للشروع بزيارة أوروبا لتقترح الزواج على رجلٍ لم تره منذ أكثر من عقد ولم تتكلم معه بالحبِّ قط. بدا له أنّه من التوافق مع مزاج كارمن بحيثُ سألها لماذا لم تفعل ذلك من قبل.

ـ كنت مشغولة جدّاً بتربية داي، لكنَّ ابني صار كبيراً وحاجته إليَّ أقلّ.

ـ يمكن أن يخيب أملكِ.

ـ سأدرس الأمر بحذرٍ قبل أن أُوقِّع شيئاً. هذا ما لا يشغلني... لكن ربَّما لن أُعجبهُ، يا غريغوري، فقد أصبحت أكثر شيخوخة.

ـ انظري إلى الصورِ، يا امرأة، فالسنون مرَّت عليه أيضاً ـ قال ريفز وهو يضعها أمامها فانتبهت لأوَّلِ مرَّةٍ أنَّ ليو غالوبّي أقلّ شعراً وأكبر وزناً. راحت تضحكُ سعيدةً وقرَّرت ببساطة أن تذهب لرؤيته بدل أن تكتبَ أو تهتف له، كي تبدِّدَ خدع الخيال ولتعرف في الحال ما إذا كان لمشروعها الغريب فرصة للنجاح.

مثلث كارمن مورالِس بعد ثلاثة أيّام في رواق الفن في روما، الذي وصلته من المطار مباشرةً، بينما حقائبُها تنتظر في سيَّارة أجرة. كانت تصلّي من أجل أن تلقاه، ولمرَّة أعطت صلواتها النتيجة المنتظرة. كان ليو غالوبّي، حين دخلت إلى المحل، يرتدي بنطلونا مجعَّداً وقميصَ كتَّانٍ مجعَّداً بدوره، ويناقش تفاصيل القائمة المقبلة مع شاب ثيابه أكثرُ تجعيداً من ثيابه. بدت كارمن في زحمة ثيابها الغجريَّة والبريق الخفيف لمجوهراتها الفضِّية القديمة جزءاً من المعرض بسجاده الهنديّ وعاجه الصينيّ وخشبه النيباليّ المشغول وخزفه وبرونزه اليابانيّ وما لا نهاية له من المواد الغريبة، وحين رآها سقطت القائمة من يديه وبقي

يتأمّلها كما يتأمّل طيفاً حلمُ به مراتٍ كثيرةً. فكّرت هي أنّ هذا الخطيب غير المحتمل لم يعرفها كما توقّعت.

ـ أنا تامار... هل تتذكّرني؟ ـ وتقدّمت متردّدةً.

ـ وكيف لم أتذكّرك! ـ وأخذ يدها وهزّها لثوان عدّة، إلى أن انتبه إلى لامعقوليّة الاستقبال فأخذها بين ذراعيه.

ـ جئتُ لأسألك ما إذا كنت تحبُّ أن تتزوّج منّي ـ فاجأته كارمن متلعثمةً، تكادُ تختنق، لأنّه ليس هذا ما خطّطت لقوله. وبينما كانت تقوله راحت تلعن نفسها لأنّها هوت بكلِّ شيء إلى الضياع من أوّل جملة؟

ـ لا أدري ـ كان هذا الشيء الوحيد الذي خطر لغالوبّي أن يجيب به، حين استطاع أن يخرجَ صوته، وبقيا ينظر الواحد منهما إلى الآخر مندهشاً، بينما راح شاب القائمة يختفي دون أدنى تفصيل.

ـ هل أنت عاشق أخرى؟ ـ تلعثمت وهي تشعر بنفسها في كلِّ مرّة أكثر بلاهة، لكنّها غير قادرة على تذكّر الاستراتيجية التي برمجتها بأدقِّ تفاصيلها.

ـ في هذه اللحظة يبدو لي لا.

ـ هل أنتَ لواطي؟

ـ لا.

ـ هل تريد أن تشربَ فنجان قهوة؟ فأنا تعبة قليلاً، والرحلة طويلة...

قادها ليو غالوبّي إلى الشارع، حيث أعادت لهما شمسُ الصيف المشعّة، وضوضاء الناس وحركةُ المرور الإحساسَ بالحاضر. في الرواق عادا إلى زمن سايغون، إلى غرفة الامبراطورة الصينيّة التي جهّزها لها، حيث تجسّس عليها مرّاتٍ كثرة ليلاً من بين فتحات الحجاب كي يراها نائمةً. عندما تودّعا آنذاك شعر غالوبّي بقرصة الوحدة لأوّلِ مرّةٍ في حياته الجوّالة، لكنّه لم يبغ قبولها وتعافى منها باللامبالاة المتواصلة غارقاً في سرعة تجاراته وأسفاره. واختفت مع الزمن إغواءات الكتابة إليها ثم اعتادَ الشعور العذب والحزين الذي كانت تسبّبه له. حمته ذكراها من مهاميز غراميّاتٍ أخرى، كانت نوعاً من الضمان ضدّ المآزق الرومانسيّة. عزم منذ شبابه المبكّر ألاّ يرتبط بشيءٍ أو أحدٍ، فهو لم يكن رجل أسرة أو التزاماتٍ طويلة، ويعتبر نفسه رجلاً متوحّداً، غير قادرٍ على تحمّلِ سأم الرتابات، أو متطلّبات الحياة الزوجيّة. وقد هربَ في مناسباتٍ عدّة من علاقة قويّة موضّحاً للخطيبةِ المغمومة أنّه لا يستطيعُ أن يُحبَّها

لأنَّ مصيره لا يتّسعُ إلا لحبِّ امرأة تدعى تامار. هذا القيد الذي تكرَّرَ مرَّاتٍ كثيرة انتهى إلى أن أصبح عنده نوعاً من اليقين المأساوي. لم يتفحَّص بعمق مشاعره لأنَّه كان يحبُّ حرِّيَّته، وتامار لم تكن إلاّ طيفاً مفيداً يلجأ إليه إذا ما احتاج أن يتخلَّصَ من التزام مزعج. وعندما بدأ يشعر بنفسه في منجاةٍ من مفاجآت القلب ظهرت هي لتحصد الأكاذيب التي قالها لسنواتٍ لنساء أخريات. صعب عليه أن يُصدِّق أن تكون دخلت إلى حانوته قبل نصف ساعة لتطلب منه بغتة أن يتزوَّجا. وها هي الآن بجانبه ولا يجرؤ على النظر إليها، بينما يشعر بعينيها تتفحَّصانه دون مواربة.

ـ اعذرني، يا ليو، لا أتطلَّعُ إلى محاصرتك، ليس هذا ما خطَّطت له.

ـ كيف خطَّطتِ له؟

ـ كنتُ أفكِّر بإغوائك، اشتريتُ قميص نومٍ مطرَّز بالأسود.

ـ لن تحتاجي للشروع بكلِّ هذا العمل ـ ضحك غالوبّي ـ . سأحملك إلى بيتي لتأخذي حمَّاماً وتنامي برهة، لا بدَّ أنَّك مسحوقة. فيما بعد نتكلم.

ـ تماماً، وهذا ما يمنحك الوقت لتفكِّرَ ـ تنهَّدت كارمن دون أن تقصد السخرية.

كان غالوبّي يعيش في فيلا قديمة مقسَّمة إلى عددٍ من الشقق الصغيرة. لم يكن لشقَّته إلاّ نافذة واحدة على الشارع، أما البقيَّة فتطلُّ على حديقة صغيرة عريقة تغرِّدُ فيها مياه نافورة وتنمو نباتات متسلِّقة حول تماثيل مجذوعة تعلوها طحالب الزمن الخضراء. بعد ذلك بكثيرٍ عرِّيا الروحَ جالسين في الشرفة يتذوَّقان كأساً من النبيذ الأبيض ويتأمّلان الحديقة التي يضيئها قمر وضّاء ويستنشقان عطر الياسمين البريِّ المميَّز. كلاهما مرَّ بعلاقات غراميَّة وتعثرات لا تُحصى، قام بجولاتٍ كثيرة ومارسَ جميعَ أنواع اللعب المخادع الذي يودي بالعاشقين. كان منعشاً لهما أن يتحدَّثا عن نفسيهما ومشاعرهما دونما نوايا أخرى أو حيل، بحشمة قاسية. حكى كلٌ منهما للآخر حياته بخطوط عريضة، وقال له ما يرغب به للمستقبل وتبيَّنا أن السحر الذي شدَّهما في السابق ما زال موجوداً ويكفيه قليل من الإرادة الطيِّبة لينتعش من جديد.

ـ حتى أسبوعين مضيا لم يخطر ببالي الزواجُ يا ليو.

ـ ولماذا فكَّرت بي؟

ـ لأنَّني لم أستطع أن أنساك، تُعجبُني وأعتقد أنَّني كنتُ أُعجبكَ منذ سنين كثيرة أيضاً. بين الرجال الكثيرين الذين عرفتهم هناك اثنان فقط

أحبُّ أن يكونا بجانبي حين أكونُ حزينة.

- ومن هو الآخر؟

- غريغوري ريفز، لكنَّه ليس جاهزاً للحبّ وليس عندي وقتٌ لانتظاره.

- عن أيِّ نوعٍ من الحبِّ تتكلَّمين؟

- عن الحب الكلّي، لا عن حبٍّ وسط. أبحثُ عن رفيقٍ يحبُّني كثيراً، ويكون لي وفيّاً، لا يكذب، يحترم عملي ويجعلني أضحك. هذا مطلب كبير، أعرفُ، لكنَّني أُقدِّمُ الشيءَ ذاته على وجهِ التقريب، ثمَّ إنَّني مُستعدَّة لأن أعيشَ حيثُ تشاء، ما دمت تقبل بابني وأمّي وأستطيع السفر بين الحين والآخر. أنا سليمة، أعيل نفسي بنفسي ولا أضطهدها.

- يبدو هذا عقداً.

- وهو كذلك. هل عندكَ أولاد؟

- بحسب علمي لا، لكن عندي أمّاً إيطاليَّة. وهذه مشكلة، لأنَّها لا توافقُ أبداً على النساء اللواتي أُقدِّمُهنَّ لها.

- لا أعرف الطبخَ وأنا بسيطة في الفراش، لكنَّهم في بيتي يقولون بأن العيشَ معي لطيف، وهذا بالأساس لأنَّهم قليلاً ما يرونني، فأنا أمضي ساعاتٍ طويلةً في ورشتي. لا أزعجُ كثيراً...

- بالمقابل لستُ سهلاً أبداً.

- هل تستطيع على الأقل أن تقوم بجهد؟

قبَّل واحدهما الآخر لأوَّلِ مرَّةٍ، في البداية تجريبيّاً، ثمّ فضوليّاً وبعدها بالوله المتراكم خلال سنوات كثيرةٍ من خداع الحاجة لحبٍّ بلقاءاتٍ مبتذلة. قادَ ليو غالوبّي تلك الخطيبة التي لا تقدَّرُ بثمن إلى غرفة نومه، غرفة عالية مزيَّنة بحورٍ عينٍ مرسوماتٍ على جصِ السقف، سرير كبير ووسائد قديمة التنجيد. كان رأسها يدور، دائخة قليلاً، ولا تدري ما إذا كان بسبب السفر الطويل أو كؤوس النبيذ، لكنَّها لم تحاول أن تتحقَّق من ذلك، واستسلمت لذلك الفتور، دونما همَّة لإدهاشِ ليو غالوبّي بقميصها المطرَّز بالأسود أو بالمهارات التي تعلَّمتها من عشّاقٍ سابقين. شدَّتها إليه رائحة الرجلِ المعافى، الرائحة النظيفة، الخالية من الشذا الاصطناعي، الجافَّة قليلاً، كرائحة الخبز أو الخشب، وغاصت بأنفها في زاوية عنقه وكتفه، تستنشقها مثل كلبِ صيدٍ خلفَ أثرٍ، استمرَّ طيبه في ذاكرتها أكثرَ من أيّة ذكرى أخرى فعادت إليها في اللحظة صورةُ إحدى

ليالي سايغون حين كانا قريبين الواحد من الآخر، وسجّلت أثَرَ رائحته دون أن تدري أنّها ستستمرُّ معها خلال كلّ تلك السنوات. بدأت تفكُّ له قميصَهُ، لكنّ الأزرار كانت تعلق بالعرى الضيّقة أكثر من اللازم وطلبت منه نافدةَ الصبر أن يخلعه.

كانت تصل إليها من بعيدٍ موسيقى وتريّة حاملةً شهوانيّةَ الهند الألفيّة إلى تلك الغرفة الروميّة، المستحمّة بشذا ياسمين الحديقة. لسنواتٍ مارست الحبَّ مع فتيان أقوياء وها هي الآن تتحسّس ظهراً انحنى قليلاً، وتمرُّ بأصابعها على جبين واسع وشعر ناعم. شعرت برقّة ممتعة تجاه ذلك الرجل الناضج فحاولت للحظةٍ أن تتخيّل كم من الدروب والنساء جابَ، لكنّها سرعان ما أذعنت إلى متعة عناقه دون التفكير بشيءٍ. أحسّت بيديه تعرّيانها من البلوزة والتنورة الواسعة والنعلين لتتوقّفا متردّدتين عند أساورها. لم تخلعها قط، فقد كانت درعها الأخير، لكنّها اعتبرت أنّ الساعة حانت لتتعرّى كاملة فجلست على السرير تخلعها واحدةً واحدة. سقطت على السجّادة دون ضجّة. طافها ليو غالوبّي بالقبل السابرة واليدين العارفتين، لحس الحلمتين اللتين كانتا ما تزالان شديدتين، محارة أذنيها وداخل فخذيها حيث الجلدُ ينبض باللمس، بينما راحت تشعر بالهواء يصبح أكثر كثافةً وتلهث من جهد التنفُّس. استعجال حارٌّ يهيمن على بطنها ويموّج وركيها ويَفْلتُ منها أنيناً، حتى لم يعد باستطاعتها أن تنتظر أكثر، فقلبته وصعدت فوقه مثل أمازونيّة متحمّسة لتنغرز فيه وتثبّته بساقيها في فوضى الوسائد. جعلتها قلّة الصبر أو التعب لكنةً، تتلوّى باحثةً عنه لكنّه كان ينزلق في رطوبة اللذة وعرق الصيف ثم انفجرت أخيراً ضاحكةً، هَوَتْ وسحقته بهديّة ثدييها، لفّته بجنون شعرها العابث تملي عليه تعليماتها بالإسبانيّة، التي لايفهمها. وهكذا بقيا متعانقين، ضاحكين، متقبّلين وهامسين بحماقات في صخب لغاتٍ مختلطةٍ إلى أن أصبحت الرغبة أقوى منهما وفتح ليو غالوبّي طريقه دون سرعة في واحدة من تقلّبات الجراء، بثبات، متوقّفاً عند كلّ محطّة من محطّات الطريق لينتظرها ويقودها إلى آخر الجنان، حيث تركها تسبرها وحدها إلى أن شعرت أنّها تمضي في هاويةٍ من الظلال، فهزّ انفجارٌ سعيدٌ كامل جسدها. ثمّ جاء دوره بينما كانت تداعبه شاكرة له رعشتها المطلقة دون جهد. أخيراً ناما متكوّرين في تشابك من السيقان والأذرع.
في الأيّام اللاحقة اكتشفا أنّهما يتمتّعان معاً، ينامان على الجانب ذاته، لا يدخّنان، يعجبان بالكتب، الأفلام، الأطعمة ذاتها، يصوّتان للمباراة ذاتها، يملاّن من الرياضة ويسافران عادةً إلى أماكن غريبة.

- لا أدري ما إذا كنتُ أصلح زوجاً، يا تامار - اعتذرَ ليو غالوبّي ذات مساء في مقهى رصيف في فيّا فينيتو - . أحتاج للتحرّك بحريّة، فأنا صعلوك.

- هذا ما يعجبني فيك، فأنا مثلك. لكنّنا في عمرٍ لا يضرُّنا فيه شيءٌ من الهدوء.

- الفكرة ترعبني.

- الحبُّ يأخذُ وقته... ليس عليك أن تجيبني على الفور، نستطيع أن ننتظر إلى الغد - ضحكت هي.

- ليس الأمرُ شخصيّاً إطلاقاً، وإذا ما قرّرت ذات يومٍ الزواج فلن يكون إلا منك، أعدُكِ.

- هذه خطوة.

- لماذا لانكون عاشقين؟ هذا أفضل.

- الأمرُ مختلف. لم أعد في عمرٍ يسمح لي بالتجريب. أريدُ التزاماً طويل الأمد، أن أنام ليلاً معانقة رفيقاً دائماً. هل تعتقد أنّني قطعت نصف العالم لأقترح عليك أن نكون عشيقين؟ سيكون شيئاً لطيفاً أن نشيخ معاً، سترى - ردّت كارمن حاسمةً.

- ياللهول! - هتفَ غالوبّي، شاحباً، صراحةً.

كانت فرصةُ الجلوس لمرّةٍ في الأسبوعِ في سكون عيادة مينغ أبريين لأتحدّثَ عن نفسي وأتأمّل أعمال تجربةٍ أجهلها. كلفني الاسترخاء في البداية قليلاً من الجهدِ، لكنّها جازت على ثقتي ورحنا نفتح شيئاً فشيئاً تصرّفات ماضيَّ المختومة، فتكلّمت لأوّل مرّة عن ذلك اليوم في غرفة المكانس، حين اغتصبني مارتينث واستطعت انطلاقاً من ذلك الاعتراف أن أسبر أكثر مجالاتِ حياتي سرّيّةً. العام الثاني كان الأسوأ، فمن كلّ جلسةٍ كنت أخرج محتقناً من البكاء، لم تكذب مينغ حين قالت لي إنّه طريقٌ شاق، فقد أوشكت في مرّات عديدة أن أعلن عن هزيمتي. لحسن الحظ أنّني لم أفعل. وحين استعرضتُ قدري خلال تلك السنوات الخمس فهمت قصّةَ حياتي فخطوتُ الخطوات الضروريّة لتغييرها، ومع الزمن تعلّمت السهر على دوافعي والتوقّف جامداً حين أكون على وشك تكرار الأخطاء القديمة. بقيت حياتي الأسرويّة كابوساً ولم يكن هناك الكثير ممّا يُمكنني فعله لتحسينها. مرغريت ليست في متناول يدي لكنّني ركّزتُ على أن أمنح ديفيد بعض التماسك. كنتُ قد استخدمتُ حتى تلك اللحظة نظامَ بالغة

النقود، كما سمّتها مينغ، فولدي كان يخرج دائماً بما يريد، لم يكن الأمر يتعدّى الضغط ثم الضغط على عتلة الآلة، وكان واثقاً من أنّه سيحصل في لحظة ما على الجائزة. كان يطلبُ مني شيئاً فأرفض ويبدأ يتغالظ بلا كللٍ إلى أن يحطّمَ أعصابي، فيهزمني بالتعب وأذعن. لم يكن من السهل وضع حدودٍ له فأنا نفسي لم أملكها في صغري، فقد ترعرعت طليقاً في الشارع، اعتقدتُ أنّ الناس تتشكّل وحدها وأن التجربةَ تعلمُ. لكن بالنسبة لحالتي تلقيت آداباً وقيماً في حياة والدي، يقولون بأنّ السنين الخمس أو الست الأولى مهمّة جدّاً في تشكيل المرء، ثم إنّه كان عليَّ أن أتدبَّرَ أمري وحدي، اضطررتُ دائماً للعمل. بالمقابل ترعرع ولداي كالوحوش، دون رعاية، دون حبٍّ حقيقي، لكن لم ينقصهما شيءٌ فيما يتعلّق بالمادّة. حاولت أن أعوّضَ بالمال الانكباب الذي لم أعرف كيف أمنحه لهما. فكرة سيِّئة.

أحد أكثر القرارات أهمِّيَّةً كان تخفيف بعض الحمولات التي على كاهلي وإعادة تنظيم مكتبي. كان من المحال تغيير طبيعة موظّفيَّ، لكن باستطاعتي استبدالهم، فدوري لم يكن في علاجهم من نزواتهم، ودفع ثمن أخطائهم أو حلّ مشاكلهم. لماذا كنتُ أحاط دائماً بالكحوليين؟ لماذا يلتصق بي الناس العصابيون أو الضعفاء؟ اضطررت لمراجعة هذا الجانب من شخصيَّتي واتخاذ وضعيَّة الدفاع. كان المكتب يُكلِّفُ أكثرَ ممّا يُنتِجُ، أنا فقط أكسب القسم الأعظم من الدخولات، ومع ذلك فمحفظة أوراقي النقديَّة كانت دائما فارغة، جمّدوا جميع بطاقات اعتماداتي. صديقي ميك تونغ أمضى سنوات من الاختناق، يحاول أن يجدول الأرقام، وتينا نبَّهتني حتى التخمة إلى أنّ المحامين الآخرين لا يهملون الزبائن وحسب، بل يحلّون بعض القضايا لحسابهم الخاصّ، دون أن يسجِّلوها في المحاسبة، ويحمِّلونني نفقاتهم الشخصيَّةَ، هواتفهم وحسابات مطاعمهم، أسفارهم وحتى الهدايا لعشيقاتهم. لم أعرها انتباهاً. كنتُ أفكِّر بألا شيء يستطيع أن يغرقني وأنّني سأجدُ دائماً طريقة لحلِّ المشاكل، فقد ذلّلتُ عوائقَ أخرى ولن تهزمني حسابات غير مدفوعة وسرقات بائسة، لكنّ الحمل صار في النهاية لا يحتمل. تخبَّطتُ لوقتٍ طويل في الشكوك والآثام إلى أن ساعدني ميك تونغ بدقَّةِ حساباته ومينغ أبريين بدأبها على فصل اليعاسيب الواحدَ تلو الآخر، وإغلاق الفروع في المدن الأخرى. احتفظتُ بتينا وميك ومحامٍ شابٍّ ذكيٍّ ووفيٍّ، كما أجَّرتُ قسماً من الطابق لزوج من المهنيينّ كي أُنعِشَ الميزانيَّةَ قليلاً، وهكذا قلّصتُ النفقات إلى حدّها الأدنى.تبينّ لي بالنتيجة أنّ العمل على نطاق

ضيِّق كان أكثر مردوداً وتسليةً، وأستطيعُ الإمساك بجميع الخيوط بيدي ومواجهة تحدِّيات مهنتي بدل أن أبدِّدَ طاقتي في حلِّ سلسلة مثقلة من المظالم التافهة. ثمَّ إنَّني أصبحت على احتكاكٍ أكبر مع زبائني، وهو أكثر ما أُحبُّ في عملي. في تلك المرحلة أنا أيضاً تغيَّرتُ، كما غيَّرت مكتبي، تخلَّصتُ من أشياء كثيرة سطحيَّة وجوانب كانت تزعجني، تخلَّيت عن السيجارات الإسبانيَّة، الحقيقة أنَّني تركت التدخين كليّاً، ولم أذق بعدها قطرة كحولٍ واحدة، كانت الطريقة الوحيدة للخلاص من الحساسيَّة. ضاع دفتر قائمة عشيقاتي في أحد الأدراج ولم أعثر عليه. ونتيجة نقص الأرصدة لم يبق أمامي غير تقليص عدد عربات قطار حياتي، وأصبحت سهرات اللهو من الماضي لانشغالي بديفيد وعملي، ثمَّ إنَّ تيموثي دوان لم يعد يحرِّضني على الخطيئة. هذا لا يعني أنني بدأتُ أعيشُ كالزّهاد، على الإطلاق، وأعتقد أنَّني سأبقى مخلصاً لطبيعةِ محبِّ الحياة الطيّبة عندي.

ـ حسن جدّاً، إذا لم تتزوَّج مرَّة أخرى سنستطيع أن نسدِّدُ ديوننا خلال ثلاث سنوات ـ أعلن لي ميك تونغ سعيداً في المرَّة الأولى التي فاقت فيها الدخولاتُ النفقات.

بعتُ في ذلك العام بيتاً لي على الشاطئ وصفَّيتُ حساباتي مع شانون، التي ما إن تلقَّت الشيكَ الأخير حتى انصرفت دون خطّة محدَّدة، مستعدَّةً لأن تبدأ حياةً جديدةً في أبعدِ مكانٍ ممكن. تصوَّرتها تبتعد حتى تلاشت في الطريق العام، تماماً كما جاءت، مع فارق أنَّها لم تذهب هذه المرَّة سيراً على الأقدام بل في سيَّارة فاخرة. بعد أشهرٍ رأيتُ صورتها في مجلة تعلن عن مستحضر تجميل بابتسامةٍ تفَّاحةٍ، احتجت أن أنظر إليها مرَّتين لأتمكَّن من التعرّف عليها، بدت أفضلَ بكثير ممّا أتذكَّرها. قصصتها وأتيتُ بها إلى ديفيد، الذي ألصقها على جدار غرفته. كان يحتفظُ بصورة ضبابيّة عن أمّه: مخلوقة جميلة وفرحة، تظهر من حينٍ لآخر لتغطّيه بالقبل وتحمله إلى السينما. صوت رخيم في الهاتف، والآن وجه ساحر في إعلانات الدعاية. كان قد عمل بمساعدتي صندوقاً خشبيّاً ليهديه لها في عيد ميلادها، يخصُّها برسومات المدرسة ويرسلها إليها بالبريد. كانت شانون حوريّة الخرافات الأثيريّة. أميرة في جينز تمرُّ من حينٍ لآخر كنسمة سعيدة ثمَّ تنصرف. عمليّاً لم يكن لها حضور كبير فأم ديفيد هي ديزي، التي تسرِّحُ له شعره بالماء المبارك لطرد الشياطين وتكون بجانبه حين يفتحُ عينيه في الصباح وحين يغمضهما في الليل.

ـ أريدُ أن أرى أُمِّي ـ قالَ لي ذاتَ يوم.

- ذهبتْ بعيداً ولن تعود في الوقت الحالي. تشتاقُ إليك لكنَّها بسبب عملها تعيشُ في مدينة أخرى. وهي الآن موديل مشهورة جدًّا.

- أين ذهبت؟

- لا أدري، لكنَّها ستكتب إليك بالتأكيد.

- لاتحبُّني، لذلك ذهبت.

- تحبُّكَ كثيراً، لكنَّ الحياةَ شديدة التعقيد، يا ديفيد. لن تراها خلال فترة، هذا هو كل شيء.

- أنا أعتقد أنَّ أمّي ماتت وأنَّك تخدعني.

- كلمة شرف إنَّها الحقيقة. ألم تر صورتها في المجلَّة؟

- أقسم لي.

- أُقْسِمُ لك .

- أقسم لي أيضاً أنَّك لن تتزوَّج ثانيةً.

- لا أستطيعُ أن أفعل هذا. قلت لك إنَّ الحياةَ شديدةُ التعقيد.

بقي في الأيَّام التالية منكمشاً وصامتاً، يجلس لساعات في النافذة ينظرُ إلى البحر، الشيء غير المعتاد عنده، فهو دائماً في إعصار من الحيويّة والصخب لكنَّه سرعان ما تسلّى بفرح التحضير للإجازة. وعدته أن نذهب للتخييم في الجبل ونأخذ معنا *أوليفر*، نشتري بندقيَّة لنصيد بطًّا. بقيت شانون بالنسبة إلى ابنها ما كانته دائماً، سراباً حلواً.

وقع عليَّ اتهام إساءة استخدام المهنة في نهاية العام ذاته، لم أشعر بأدنى قلق لأنه بدا لي غير معقولٍ إطلاقاً. كان الأمر يتعلَّق بأحد زبائني القدامى، شخص مثَّله مكتبي منذ عدَّة سنوات. كان كحوليًّا. كلُّ شيءٍ بدأ حين كنتُ مسافراً في أحد باصات النقل بين الولايات إلى أوريغون، كان قد شرب جرعات زائدة وفي منتصف الطريق راح يهذي بمسوخٍ تلاحقه. سحب في هذيانه سكيناً وهاجم بعضَ المسافرين، جرح اثنين ولم يقتل الثالث بأعجوبة، حزَّت شفرتها عنقه على بعد ميليمترات من الودج. نزع السائق السكين من المهاجم بمساعدة بعض الشجعان، وأجبره على النزول من الباص ثم طارَ إلى أقرب مشفى، أنزل فيه الضحايا الغارقين في الدم. لم تستطع الشرطة القبضَ على الجاني، الذي اختبأ، لكنَّ شاحنة التقطته بعد أيّام من الطريق. كان الوقتُ شتاءً وتجمَّدت قدماه فاضطرُّوا لاستئصالهما. عندما خرج من السجن الذي قضى فيه الحكمَ وبحثَ عن محام يمثِّله في دعواه ضدَّ شركة الباصات، لأنَّها تركته في أرضٍ خلاء،

أخذ القضيّة مكتبي، فقد كنّا نستقبل في تلك المرحلة كلّ من يطرقُ بابنا. ثلاثة ركّاب مطعونون بالسكين سبب كافٍ لإنزال هذا المتوحّش من باصي، قال السائق في تصريحه، ومن سوء الحظ أنّه تجمّدَ حين هرب من الشرطة، فهو يستحق ما حدث له تماماً. وعلى الرغم من كل السوابق استطعنا أن نسوّي القضيّةَ بمبلغ محترم، لأنّه كان يناسب المدّعى عليه أن يدفع تعويضاً أكثر من الذهاب إلى التمييز. وما إن أنفق الرجلُ المالَ حتى توجّه إلى مُحامٍ آخر، اشتمّ في الجوّ إمكانيّةَ أن يخرج بحصّته باتهامي بسوء استخدام المهنة. لم يكن عندي تأمين، وإذا خسرت انتهيتُ، لكّني لم أتصوّر أن هذا يمكن أن يحدثَ أبداً، ما من هيئة محلّفين تعطي المجرمَ شيئاً. لم يوافقني ميك تونغ الرأيَ، قال لو أنّ القضيّة ضدّ السائق لكانت غير رحيمة معه، فأيُّ واحد يطلع على لائحة المسافرين والضحايا سيصوّتُ ضدّ المتّهم، لكن الأمرَ يتعلّقُ بي أنا.

ـ سيرون في جانبٍ فقيراً مقعداً وفي جانبٍ آخر محامياً بربطة عنقٍ حريريّة. هيئة المحلفينَ ستكون ضدّنا، يا سيّدُ ريفز، فالناس يكرهون المحامين. ثمّ يجب التعاقد مع محامي دفاع، من أين سنأتي بالمال لهذا؟

ـ تنهّدَ محاسِبي، وترك، لأوّلِ مرّة عرفَ المجاملة، الذي طالما عاملني به، جانباً، أخذني من ذراعي، أدخلني في زريبته وواجهني بحقيقة دفاتره التي لاتقبل الجدل.

كان ميك محقّاً، فبعد ثلاثة أشهر قرّرت هيئة المحلّفين أنّه كان على السائق ألاّ يطردَ الرجلَ من السيّارة وأنّ مؤسّستي استهانت بالزبون وتعاملت مع شركة الباصات بدل الذهاب إلى المحكمة. الرأي، الذي أحدثَ بعض الذهول في عالم القانون الصغير، إدانتي النهائيّة. توازنت خلال أعوام على حافّة جرف، لكنّني الآن أتدحرج إلى الهاوية. وما لم أعثر على كنز فرانسيس دراك[1]، المطمور في فناء بيتي لن يكون عندي أيُّ أملٍ بدفع هذا المبلغ، لكن سرعان ما أفسحت خطورة ما حدثَ فضاءً للمزاح، ففي ساعات قليلة عليَّ أن أتخذَ إجراءاتٍ متطرّفة. ناديتُ تينا وميك، شكرتهما على وفائهما الطويل ووضّحتُ لهما أنّ عليَّ أن أعلن إفلاسي وأغلق المكتب، لكنّني وعدتهما إذا ما تمكّنت في المستقبل من البدء من جديد بأنهما سيجدان دائماً عملاً عندي. شرعت تينا تبكي بكاءً مرّاً، ميك لم يسمح برشوح أيّ تأثّرٍ على وجهه الآسيوي القاسي. تستطيع أن تعتمد

(1) فرانسيس دراك (1545 ـ 1596) قرصان إنكليزي، قام بعدّة حملات ضدّ السفن الإسبانيّة العائدة بالفضّة الأمريكيّة بمباركة التاج البريطاني (المترجم) .

علينا، كان هذا كل ما قاله وأغلق وجاره على نفسه وراح يرتبُ الدفاتر.

بقيتُ خلال أسابيع المحاكمة الأبديّة بجانب محامي دفاعي نتعاركُ بضراوةٍ مع كلّ تفصيل، كانت فترة توتّر كبير، لكنّني قبلتُ حين انتهى كلّ شيء، الحكمَ بدمٍ باردٍ لم أعهدني قادراً عليه. أحسستُ أنّني مررتُ بحالاتٍ مشابهة، وجدتُ نفسي محاصراً من جديد في زقاق مغلق، كما حدثَ لي أحياناً في الحيّ اللاتيني. تذكّرت عدْويَ اليائس مارتينث تلاحقني عصابتُهُ وأنا على ثقة من أنّهم إذا ما أدركوني سيقتلونني، ومع ذلك ما زلتُ حيّاً. كذلك خرجت سليما من اشتباكاتٍ لا حصر لها في ڤييتنام، حيثُ خلّف آخرون جلدَهم، نجوتُ ليلةَ الجبل حين كان زهر اللعب ضدّي. رَفسهم لي في المدرسةِ، دروس الحرب القاسية علّمتني الدفاعَ عن نفسي والتحمّل. كنتُ أعرف بأنّ عليَّ ألاّ أرتبك أو أفقد إحساسي بأبعادِ الأشياء فإذا ما قورن ما حدث بمعارك الماضي بدا كأنه ليس أكثر من تعثّرٍ بسيط، حياتي كانت تستمرُّ. خطر ببالي أن أغيّرطريقي، فمهنةُ المحاماة تنطوي على جوانب كثيرة غامضة. تساءلتُ عن جدوى إبقائي السيفَ دائماً في يدي، مستنزفاً نفسي في عدوانيَّة لا معنى لها. ما زلتُ أطرح هذا السؤال على نفسي من حينٍ لآخر، لكنّني لا أملكُ جواباً، أعتقد أنّه يصعبُ عليَّ أن أتخيّل حياةً بلا صراع.

أذعنتُ يومَ الأحد لإغلاق المكتب. فكّرت باحتمالاتٍ أخرى، ذهابي إلى أحد بلدان أمريكا اللاتينيّة، إذ تربطني روابط قويَّة جدّاً مع هذا الجزء من العالم وأحبُّ التكلّمَ بالإسبانيَّة. فكّرتُ بالذهاب إلى قرية صغيرة تكونُ الحياةُ فيها بسيطة، وأستطيع أن أفعلَ شيئاً من أجل الناس، أصبحَ جزءاً من الجماعة، كما فعلتُ في القرية الڤييتناميّة، لكنّه بدا لي فيما بعد نوعاً من الهروب. كانت كارمن وميتغ على حقّ، فمهما ركضَ المرءُ يبقى داخلَ جلده. خطر لي أيضاً أن أقيم في الريف. فأسبوع الإجازة الذي قضيته في التخييم مع ديفيد، متفرّغين لصيد البطّ والسمك دون أيِّ رفيق آخر غير الكلب، كانَ مهمّاً جدّاً بالنسبةِ إليّ، وكشفَ لي عن جانب مجهولٍ في طبيعتي. استعدتُ في وحشة المشهد صمتَ الطفولة، صمت الروحِ في سلام الطبيعة الذي فقدته حين مرض والدي واضطررنا أن نُقيمَ في المدينةِ. بقيَّة حياتي كانت مؤطّرة بالضجيج، بالضجيج المفرط، اعتدتُ قرعاً لا يكل في رأسي إلى حدٍّ أنّني نسيتُ رغد الصمت الحقيقيّ. أعادتني تجربةُ النوم على الأرض، دون أيِّ نورٍ آخر غير النجوم، إلى مرحلة الحياة السعيدة حقاً، الأسفار مع الأسرة في الشاحنة. عادت إليَّ صورة هذه السعادة الأولى، فأنا نفسي ابن الرابعة من العمر يبول فوق هضبةٍ تحت

القبّة البرتقاليّة لسماءٍ جليلةٍ عند الغروب. ولكي أقيس اتساع المكان المستعاد، اللامتناهي صرخْتُ باسمي بجانب البحيرة فأعاده إليّ صدى الجبالِ مصفّى. هذه الأيّام في الهواء الطلق فعلت فعلها الإيجابي الهائل مع ديفيد، فجهازه المتسارع بدأ أنّه يتخذ سرعةً أكثر عاديّة. لم نتجادل قط، عاد إلى المدرسة بحالةٍ جيّدة ثم قضى أكثر من شهرين دون إغماءات مفتعلة. سنصبحُ أفضل حالاً بكثير لو غادرنا هذا الوسط، الذي لا تُحتملُ ضغوطه عادةً، لكنّني حقيقة لا أتصوّرُ نفسي مزارعاً حتى الآن، أو حارسَ غابة، فلماذا أخدعُ نفسي، ربّما كان ذلك في المستقبل... أو لن يكون أبداً. أُحبُّ الناس، وأحتاجُ إلى الشعور بفائدتي للآخرين، لا أعتقد أنّني سأستمرُّ طويلاً محبوساً مثل زاهد: هل تعلمين أنَّ أخباركِ وصلتني إلى هذا المكان الموحش؟ فكارمن أهدتني روايتك الثانية وقرأتها خلال هذه الإجازة، دون أن أتصوّر أنّني سأتعرّف عليك وسأقدم هذا الاعتراف الطويل. كيف كان باستطاعتي أن أتوقّع أنّنا سنذهبُ معاً إلى الحيِّ اللاتينيّ حيثُ ترعرعتُ؟ أربعة عقودٍ ولم يخطر لي أن أعود، لولم تلحّي ما كنت لأرى أبداً الكوخَ الخرب فعلاً لكنّه ما يزال صامداً أو الصفصافة التي ما زالت قويّةً على الرغم من الإهمال والقمامة التي كثرت حولها. لولم تحمليني ما استعدتُ لافتةَ *الخطة اللانهائية* المهملة، التي كانت تنتظرني بطلائها المقشور وخشبها نصف المهترئ، وبفصاحتها غير الممسوسة. انظري كم سرتُ حتى وصلتُ إلى هنا لأتبيّنَ أنّه لا توجدُ خطة لانهائيّة، قلت لك لا يوجد غير صراع الحياة. وأجبتني ربّما حمل كلُّ واحدٍ خطّته في داخله، لكنّها خارطة ضبابيّة يصعب فك رموزها. لذلك ترانا ندور كثيراً ونضيعُ أحياناً.

اعتبرت السيّارة والبيت بحكم الضائعين، الملكيّة الدنيويّة الوحيدة التي بحوزتي، ما عداها كان ديوناً سأرى كيف أواجهها. الرأي الأخير هو للمستشارين القانونيين والمحامين، الذين سينقضون يوم الإثنين مثل سمك البيرانيا على أشلائي. كانت الفكرة تغيظني، لكنّها لا تُخيفني. كسبتُ خبزي منذ كنتُ في السابعة من عمري وبكل أنواع العمل، أنا واثق من أنّه لن تنقصني أبداً الكيفيّة التي أفعل بها ذلك. نعم كان يشغلني موظّفيّ. فهم أسرتي الحقيقيّة، لكنّني افترضتُ أنَّ ميك وتينا سيجدان عملاً دون صعوبة ومن المؤكّد أنَّ كارمن ستأخذ ديزي، لأنَّ السيّدة إنماكولادا ما عادت في عمر يسمح لها بالقيام بأعمال البيت وحدها. ليلاً زرتُ تيموثي ومينغ لأحكي لهما ما حدث. قبل ستّة أشهر كان علاجي قد انتهى وصرنا أنا ومينغ صديقين رائعين، ليس نتيجة العلاقة الطويلة التي رعيناها في

عيادتها وحسب، بل لأنَّها كانت تعيش مع تيم أيضاً، الذي صار شخصاً آخر، منذ أن ولجت قدره لتنظِّمه بوسائل معرفتها. صارت مينغ بلسماً رائعاً لصديقي المعذَّب. خلال هذه السنوات الخمس من السبر الشاق درت دورة كاملة حول محيط ما عشته حتى ذلك الوقت وحين وصلت النهايةَ ولامست من جديد نقطة الانطلاق، أعلنتْ نهاية مساعدتها. قالت إنَّ القسم الأهمّ من شفائي بدأ في تلك اللحظة وعليَّ أن أقومَ به بمفردي وإنَّني كنت مثل معاقٍ علَّموه المشيَ، وليس غير الممارسة الشاقَّة لكلِّ خطوةٍ يستطيع أن يمنحني التوازنَ والثبات. بصبر كبيرٍ منها وجهدٍ من جانبي استطعنا أن نقشعَ البلبلة البركانيَّة التي جابها النصفُ الأوَّل من قدري. من بين يديها دخلتُ إلى غرفة الآلات المفكَّكة والأجهزة غير المنتهية، التي طالما تكلَّمَ عنها والدي، ونظَّمتُها شيئاً فشيئاً، أزلتُ القاذورات، لصقتُ القطعَ، ركَّبتُ النواقصَ وأنهيتُ ما لم يكن منتهياً. كان ما يزال هناك الكثير ممّا يجبُ تنظيفُه، لكن كان باستطاعتي القيام به بمفردي. كنتُ أعلمُ أنَّ رحلتي في هذا العالم ستكون سجّادةً سرياليَّةً مليئةً بالخيوط المفلتة، لكنَّني استطعتُ على الأقل أن أرى الرسم.

ـ هذه المرَّة خوزقوني فعلاً. ما عاد عندي سلف مصرفيَّة ولا أستطيعُ تسديد ديوني. لم يبقَ أمامي إلاّ أن أُعلن إفلاسي ـ قلتُ معلِّقاً لأصدقائي.

ـ الجوانب الجوهريّة بمنجاةٍ من هذه الأزمة، يا غريغ، ليس هناك من خسائر إلّا الماديَّة، ما عداها سليم ـ أجابتْ مينغ وكانت على حقٍّ كما هو حالها دائماً.

ـ أفترض أنَّ عليَّ أن أبدأ من جديد ـ دمدمتُ بإحساسٍ من النشاط غريب.

الحياة مجموعة من المهازل. ما عادت تزعجني الوحدةُ بعد أن رأيتُ أسرتي تتفكَّكُ وتخلَّصتُ من قسم جيِّدٍ من علاقاتي. ثمّ عرفتُ، بعد أن انهارت قلعةُ مكتبي وأفلستُ، تجربةَ أمان حقيقيٍّ. والآن تماماً حين تخلَّيتُ عن البحث عن رفيقة ظهرتِ أنتِ وأجبرتني على زرع الورد من جديدٍ في أرض راسخة. انتبهت إلى أنَّ المال لم يهمّني إلى الحدِّ الذي أردتُ أن أصدِّقه، وأنَّ الأهدافَ الجشعة التي وضعتها في مشفى هاواي كانت مخطئة وقد شككت بها دائماً في داخلي. لم تخدعني الانتصارات الخادعة، فالحقيقة أنَّ إحساساً بالفشل كان يرهقني دائماً. ومع ذلك تأخَّرتُ دهراً في قبول أنَّني كلّما جمَّعت أكثر كلمّا كنتُ أكثر احتراماً،

لأنّني أعيشُ في وسطٍ تسحقُ فيه الرسالة المناقضة. يحتاج المرءُ إلى بصيرة هائلة كبصيرة كارمن كيلا يقعَ في هذه المصيدة. وأنا لم أملكها وكان من الضروري أن أغوص حتى ألامسَ القاع لكي أكتسبها. في لحظة الانهيار، حين لم يعد عندي شيء اكتشفت أنّني لا أشعر بنفسي خائراً، بل حرّاً. فهمتُ أنَّ الأهمَّ لم يكن الاستمرار على قيد الحياة أو النجاح، كما كنتُ أتصوّرُ من قبل، بل البحث عن روحي المتأخِّرة في رمال الطفولة. وحين عثرتُ عليها عرفتُ أنَّ تلك الطاقة التي بدَّدتُ لأجلها كلَّ تلك الجهود اليائسة، كانت فيَّ. تصالحتُ مع نفسي، وقبلتُها بشيء من الاحترام وعندئذٍ ملكتُ ملمح سلاميَ الأوّل. أعتقد أنَّها اللحظة الدقيقة التي وعيتُ فيها من أكون في الواقع وشعرت بنفسي متحكِّماً بمصيري.

وصلتُ يوم الإثنين إلى المكتب لأعمل في آخر التفاصيل فوجدتُ باقة وردٍ أحمر على مكتبي وابتسامات تينا فايبخ وميك تونغ المتواطئة، اللذين ينتظراني منذ ساعة مبكرة.

ـ ليس عندنا كنز فرانسيس دراك، لكنَّني تمكَّنتُ من الحصول على قرض ـ أعلن محاسبي وهو يهصر ربطةَ عنقه، كما يفعلُ دائماً حين يكون عصبيّاً.

ـ ماذا تقول، يا رجل؟

ـ سمحتُ لنفسي أن أهتف لكارمن مورالِس في روما. ستعطينا مبلغاً جيِّداً. ثمَّ إنَّ عندي عمّاً مصرفيّاً على استعداد لأن يمنحنا قرضاً وبهذا نستطيع أن نتفاوض. إذا أعلنّا إفلاسنا لن يستطيع الآخرون أن يقبضوا شيئاً، ينبغي عليهم أن يهنِّئونا ويصبروا.

ـ لا أستطيع أن أُقدِّمَ أيَّ ضمانٍ.

ـ بين الصينيين تكفي كلمةُ الشرف. كارمن تقول إنَّكَ موَّلتها منذ كانت في السادسة من عمرها وإنها لا تفعل شيئاً غير أنَّها تعيد إليك يدك.

ـ أمزيد من الديون، يا ميك؟

ـ اعتدناها، هل يهمُّ النمر خطٌّ إضافيٌ؟

ـ تعني أنَّنا سنستمر في المعركة! ـ ابتسمتُ واثقاً من أنَّها ستكون هذه المرَّة في حدودي ذاتها.

ما تبقّى تعرفينه، لأنّنا عشناه معاً. في الليلة التي تعارفنا فيها طلبتِ منّي أن أحكي لك حياتي. حذَّرتك، إنَّها طويلة. قُلتِ: لا همَّ، لديَّ متَّسع كبير من الوقت. دون أن تدركي الورطة التي تدخلينها بهذه الخطّة اللانهائيّة.






إنَّني وحيد على القمَّة في الفجر. في الضباب الحليبيِّ أرى أجسادَ أصدقائي عندَ قدميَّ، بعضهم تدحرج في المنحدرات، مثل دمى حمراء مفكَّكة الأطراف، وآخرون ليسوا أكثر من تماثيل فاجأتها أبديَّةُ الموت. أطياف حذرة تتسلَّقُ باتجاهي. صمت. أنتظرُ. إنَّهم يقتربون. فأطلقُ النارَ على هذه الظلال الداكنة في المنامات السوداء، أشباح بلا وجوه، أشعر بالرشَّاش يرتدُّ، التوتُّرُ يحرقُ يديَّ، تعبر الهواء خطوط من نارٍ متوهِّجة، لكن لا صوت. شُفَّ المهاجمون، تخترقهم الطلقات دون أن تُوقِفَهُم، يتابعون تقدُّمَهم لا ينثنون، يحاصرونني... صمت...

يوقظني صوتي وأستمرُّ بالصراخ، أستمرُّ بالصراخ.

غريغوري ريفز